

الحياة الأدبية في العصر العباسي

دكتور
محمد خفاجي

الحيَاة الأدَبـيّة

فـى العصْر العبَّاسِى

تصوير صادق للحياة الأدبية فى هـذا
العصر العظيم ، وترجمة لأعلامه ونابغيه

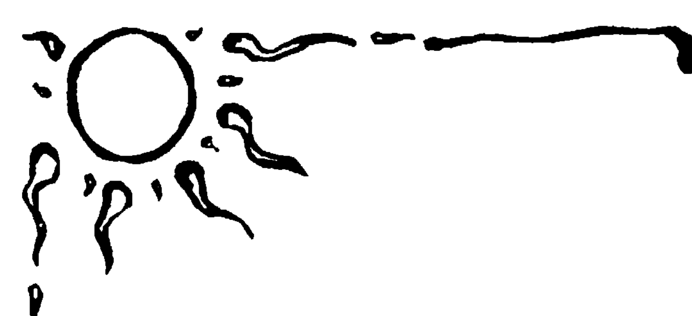
دكتـور
محمد عبد المنعم خفاجى

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م

النـاشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

الحيـاة الأدبيــة

فى العصر العباسي



الناشـــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنـــــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنـى قبلـى السـكة الحديـد - مسـاكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفـــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم الـبريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Websitc

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب: الحياة الأدبية فى العصر العباسى

المؤلـــــــف: د. محمد عبد المنعم خفاجى

رقـم الإيـداع: ١٠٩٩٧/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى: 5 - 372 - 327 - 977



بسم الله الرحمن الرحيم

" إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ
وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ علماً "

سورة طه آية ٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير :

العصر العباسي عصر الحضارة الإسلامية ، وامتداد الثقافة العربية فى جميع بقاع العالم ، ثقافة الفكر والعلم والتجديد فى كل فروع المعرفة ، وكل جوانب الحياة، التى تتلمذت عليها الأمم والشعوب من شرق آسيا إلى غرب إفريقيا وإلى جنوب أوربا ومن أواسط أفريقيا ومدغشقر حتى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وفى هذا العصر ظهرت أئمة الفكر الإسلامي العربى وأعلام الأدب العربى شعره ونثره ، وصار فيه الأدب العربى أدب الثقافة الرفيعة ، والذوق العالى فى جميع أنحاء الدنيا ، وظهرت المؤلفات القيمة فى كل فروع الثقافة ، وفى مختلف علوم الدين ، فى جميع جوانب العلم . وانتشرت الجامعات والمدارس والمعاهد فى كل عواصم العالم الإسلامي من الأندلس حتى حدود الصين .

والعصر العباسي عصر البلاغة العربية والأدب العربى ، فى أوج ازدهارها وعظمة تجديداتها .

وحين عزمت على تأليف هذا الكتاب " الحياة الأدبية فى العصر العباسى " تذكرت البحر المحيط الذى لا يستطيع النزول فيه إلا السبّاح الماهر ، وتذكرت الأئمة والكتاب فى الفقه والشريعة وعلوم الدين ، وتذكرت الخالدين من أعلام الأدب العربى مثل " الجاحظ - أبى حنيفة الدينورى - ابن قتيبة - أبى حيان التوحيدى - القاضى الفاضل " وآلاف النوابغ فى الأدب ، وتذكرت أئمة الشعر مثل " بشارا - أبو تمام - البحترى - المتنبى - أبا العلاء - الشريف الرضى - ابن القاضى .. وغيرهم " . ومن الذى يستطيع الإحاطة بكل جوانب الأدب العربى فى هذا العصر أو البحر المتلاطم الأمواج .

وكان من أهدافى أن أكمل الحلقة التى بدأتها بكتبى " الحياة الأدبية فى العصر العباسى - الحياة الأدبية تعيد ظهور الإسلام - الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام - الحياة الأدبية فى عصر بنى أمية - الحياة الأدبية فى الأندلس " ، وأن

أبحث عن الينابيع التى أمدت الأدب العربى فى العصر العباسى بالنمو والازدهار والشموخ وسرت بعون الله فى الطريق حتى جاء هذا الكتاب ثمرة مجهود شاق وعمل متواصل ، وبحث طويل ، وكان بحثًا به موسوعة أدبية شاملة ، ترجمت فيها لأعلام الكتاب والأدباء والشعراء والنقاد وشيوخ الأب شعره ونثره على السواء .

وبالله التوفيق ، عليه توكلت ، وبه استعنت ، وما التوفيق إلا بالله .

المؤلف

القسم الأول

مقدمات العصر العباسي

كـان العصـر العباسـي (١٣٢ - ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ - ١٢٥٨م) حـافلاً بشـتى التيارات الفكرية والعلمية والأدبية ، وهو عصر النهضة والازدهار فى الآداب العربية: وقد ورث العباسيون بني أمية بالغلبة والقهر وثلو اعرشهم بيد صنائعهم من الأعجام ، ولكن كان البون ساسعاً والفرق بعيداً بين ما هنا وهناك فى شتى المظاهر ، فى نظام الخلافة وأساليب الحكم ومظاهر الحياتين الفكرية والاجتماعية ، وما إلى ذلك كله مما كان أثرا محتوماً لسيطرة العنصر الفارسى على أعنة الشئون الداخلية والخارجية صغيرها وكبيرها فى المملكة الإسلامية ، فهذه المداخل العنيفة نقلت الحكم الإسلامى من طور إلى طور ، وأثرت فى الحياة العربية تأثيراً كسروياً خالصاً ، وأورث العرب من من ضروب المدنيات ما هضموه وتمثلوه ، فاضافوا إليه كثير من ألوان ومظاهر التجديد . ولقد كان عصر نفوذ الخلافاء العباسيين عصر ازدهار فى النهضة الفكرية والأدبية ، بعامل تشجيع الخلفاء للعلوم والآداب .. وفى عصر اضمحلال نفوذ الخلافة العباسية أخذ العلم والأدب فى الازدهار كذلك ، بسبب تشجيع الدويلات التى انشعبت من المملكة الإسلامية واستقلت ، فقد كان لكل دولة عاصمة تنافس بغداد النفوذ والسلطان والحضارة ، وما لبثت بغداد نفسها أن عادت إلى سيرتها الأولى ، حين سيطر البويهيون عليها ، وبذلك كان فى انقسام الدولة وتقطعها ، قوة للعلم ، ورواج للأدب ، وإن كان فيه ضعفها السياسى .. فقد تعددت مراكز العلم والأدب وكثرت أمام المنتجعين الموارد ، وبعد أن كان لا يذكر فى هذا المقام إلا بغداد ، صار يضارعها فى الذكر القاهرة ، وحلب ، والرى ، وبخارى ، ونيسابور ، وغيرها ، وأخذ ملوك هذه الدول ، وأمراؤها ، ووزراؤها ، يتسابقون إلى اجتذاب العلماء والآدباء ، ويتبارون فى الاحتفال بهم ، وإجزال العطاء لهم ، بدفع ما كان بينهم من تنافس ، وما يستكن فى نفوسهم من حب الشهوة ، وحسن الأحدوثة ، وما فى طبائع أكثرهم من ميل للأدب وتعلق به ، فقد كانوا بين عرب ، ومتعربين هم إلى العروبة أقرب ، وحسبنا أن نذكر الفاطميين والحمدانيين ، والبويهيين ، ففضلهم على الأدب لم يقف عند حد التشجيع والمكافأة ، بل تعداه إلى المشاركة فى ميدانه ، مشاركة جد وسبق ، فعد فى الشعراء تميم بن المعز الفاطمى ، وأبو فراس الحمدانى، وعضد الدولة البويهى .

وكان من نتائج هذه المنافسة أن كثر عدد الشعراء والكتاب والعلماء كثرة لم نرها من قبل ، ولم تكن من بعد ، وكان حب العباسيين للعلوم والآداب ، وبذلهم بسخاء فى هذا السبيل ، مما جعل عاصمة الخلافة مهبط العلماء من كل فج وصوب ،

سـواء فـي ذلـك بغـداد أو سـامرا ، فانتقلـت إلى المسـلمين علـوم الأمـم القديمـة المتمدينة فهضموها وتمثلوها وأجادتها قرائحهم ، وعملوا على تنميتها ، فألف العلماء كتبا كثيرة بعد ذلك ، امتزج فيها العقل الشرقي بالعقل الغربي . فلما اضمحلت الخلافة وقامت دول وإمارات في أطرافها وعلى أنقاضها أخذ ملوكها وسلاطينها يشجعون العلم والمعارف ويكثرون من العلماء لتنافس عواصمهم مدينة بغداد ، وأقيمت المدارس والمكاتب ذوات الأثر البعيد في التهذيب والتثقيف الإسلامي ، وتسربت إلى أوربا عن طريق المسلمين في الأندلس الذين نقلوا إليها حضارة الشرق الروحية منها والمادية .

ولم تقف حركة النقل من اليونانية عند هذه الكتب ولا عند هؤلاء المؤلفين، بل امتدت إلى كتب كثيرة في علوم متنوعة في الهندسة والحساب والنجوم والميكانيكيات لإقليدس وأرخميدس وابلونيوس ومنالاوس وبطليموس القلوذي وابرخس ، ثم نقلت كتب أخرى من الفارسية مثل كليلة ودمنة ومزدك والتاج في سيرة انوشروان والأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة وسير الملوك ، وكذلك من الهندية كتب في الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتواريخ : مثل كتب مختصر الهند في العقاقير والعلاجات للهند والتوهم في الأمراض والعلل ورأى الهند في احتباس الحيات وسمومها وجوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم وخيال الكسوفين عند الهند .. بينما كانت الممالك الغربية مغمورة إذ ذاك في بحور من الجهالة والظلمة ، ثم انتقلت هذه الحضارة الإسلامية إلى شتى الأقطار عن طريق مدينة القسطنطينية وسواها .

ولاتزال النهضة الأدبية في العصر العباسي محل بحث الباحثين ، ودرس الدارسين ولم تكشف عقول العلماء حتى اليوم عن أسرارها وأسبابها .

وفي هذه الفصول حديث طويل عن الحياة الأدبية في العصر العباسي ، بشيء من التفصيل ، ولون من التحليل ، مع تراجم واسعة لأعلام الأدباء والكتاب والشعراء والمفكرين ، ومع شرح مظاهر هذه النهضة وألوانها ، والحديث عن صورها وفنونها . والإفاضة في النقد والدراسة والبحث والتحليل ، والترجمة لأعلام الأدباء والكتاب والنقاد والعلماء والشعراء والخطباء ، على نمط واسع من التعمق والاستيعاب، مما سيلمسه القارئ لهذا الكتاب .

الحياة السياسية فى العصر العباسى

تنقسم الفترة الأولى من تاريخ الدولة العباسية (١٣٢ - ٣٣٤ هـ) إلى عصرين: العصر العباسى الأول ، و العصر العباسى الثانى [١]

وإذا كان العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) يمتاز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة ، وبنفوذ الفرس فيه . فإن العصر الثانى (٢٣٢ [٢] – ٣٣٤هـ) ، يتسم بضعف الخلافة ، وضياع هيبة الخلفاء وفساد شؤون الدولة ، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذى بلغ حدًا كبيراً فى هذا العصر .

وأول من استخدم الأتراك فى الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ، ولكنهم كانوا شرزمة صغيرة لا شأن لها فى الدولة بجانب الفرس والعرب [٣] ، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم كانوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها لميل المأمون إلى الفرس أخواله .

وكانت أم المعتصم " ماردة " تركية من السغد ، فنشأ ومعه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم لأنهم أخواله ، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل الأمير [٤] فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم ، كما ضاعت ثقته بالعرب ، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى إليه الخلافة [٥]

ولما مات المأمون سنة ٢١٨هـ كان هوى الحزب الفارسى مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند [١] ، فكان ذلك أيضاً مما زاد من تقريب المعتصم للجند وإيثاره لهم .

---

[١] يسير على هذا التقسيم كثير من الباحثين (ص ٩ جـ ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان ، و ٥جـ ٤ التمدن الإسلامى . ٢١١ تاريخ الأدب العربى للزيات ، ص ب جـ ١ ضحى الإسلام) . ويجعل بعض الباحثين العصر عصراً واحداً (٣ آداب اللغة فى العصر العباسى للأسكندرى ، ١٦ تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى لمحمود مصطفى . ١٦٥جـ ١ المفصل) .

[٢] ويرى بعض الكتاب أن ابتدائه الفعلى بمقتل المتوكل عام ٢٤٧ .

[٣] ١٦٧جـ٤ التمدن الإسلامى .

[٤] قال طاهر بن الحسين وهو فارسى :

أيسومنى المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالأمس رأس محمد ؟

(١/١٥٧ العقد الفريد) وينسب لدعبل (٧/٢٦٦ مهذب الأغانى ، ٢/٥٢ آداب اللغة لزيدان ، ٣٥٠ الشعر والشعراء) .

[٥] ٤/١٦٨ التمدن الإسلامى .

وفي عام ٢٢٠هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراك ، اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفاً [٢] ثم ازداد عددهم في جيشه حتى بلغوا السبعين ألفا [٣] . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور ، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطئ دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكراً لجيشه وحاضره لملكه ، منذ عام ٢٢١[٤]هـ ، وأصبحت مدينة عظيمة في مدة وجيزة[٥] ، وصارت من أجمل الحواضر الإسلامية وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩[٦]هـ .. أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وثاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم في الدولة ، وكتب المعتصم إلى عماله باسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ومنعوا الولايات [٧] :

وانتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس إلى أيدي الأتراك[٨]، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعاً ، وسعوا في قتلهم ، وموقف الأفشين من أبي دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبي دؤاد معروف [٩].

ولم يمض غير قليل حتى كامن لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣هـ ، وثار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم . واشتهر من بينهم الأفشين م ٢٢٦هـ واشناس م ٢٣٠هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسواهم ، وتغلغل نفوذهم في جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبسالتهم وتأييد الخلفاء لهم . حتى أن الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ) استخلف عام ٢٢٨هـ اشناس التركي على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجاً[١٠]، وفي عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير من العرب[١١] .. ولما مات الواثق عام ٢٣٢هـ ، سعى الأتراك إلى ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة لأن أمه " شجاع " خوارزمية تركية ، فتم لهم ما أرادوا ، واستبدوا في عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة ، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد في رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم في الدولة ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرون الدسائس والمؤمرات ، كثيرو الطمع في الأموال ، والعبث بالأمن .

---

(١)٤/٣٠٤/١٠ الطبرى (٢) ٢/٢٣٣ النجوم الزاهرة (٣) ٤العصر العباسى للساعى بيومى (٤) ٤/٥٤وما بعدها مروج الذهب (٥) ٥٢و ٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد (٦) ١/١٠٠ ظهر الإسلام (٧) ٤/١٤٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الإسلام في دار السلام (٨) ١٧٠جـ ٤التمدن (٩)الأذكياء لابن الجوزى (١٠) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .

(١) ١٢ جـ١١ الطبرى (٢) ٦٥-٦٧ جـ ٤ مروج الذهب .

(٣) راجع مقتل المتوكل ومراثي الشعراء فيه في (٢٦٠-٢٦٤ جـ ١ زهر الآداب) . ومرثية يزيد المهلبي فيه في (٣١١ جـ ٣ وما بعدها من الكامل للمبرد . ١٨٦ جـ ٢ العقد . ٢٦٣ جـ ١ زهر الآداب) .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥هـ ، وأراد عام ٢٤٣هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ، ولكنهم كانوا يحكمون تدبير آخر لقتل الخليفة[٢] ، وتقدم باغر التركى حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك . ومعهم المنتصر الذى كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد،ودخلوا على الخليفة فقتلوه فى قصره الجعفرى ، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان،وذلك فى أواخر عام٢٤٧هـ [٣].

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك . وفى ذلك يقول البحترى :

أكان ولى العهد أضمر غدرة ... فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ويقول المهلبى :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد ... وهل لمن فقدت عيناى مفتقد

ومنها : فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا الشبه رأى اسحاق بن إبراهيم المعصبى م ٢٣٥هـ [١]فى الأتراك حين شكا المعتصم غدر من اصطنعهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعهم أخوه المأمون من الرجال له[٢].

ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلنه ... وأعظم آفات الملوك عبيدها

بنى هاشم صبرا لكل مصيبة ... سيبلى على وجه الزمان جديدها

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فإن هذه المأساة المؤلمة كانت سبباً فى زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك فى عهد المنتصر (٢٤٧-٢٤٨هـ) ، ثم فى عهد المستعين (٢٤٨-٢٥٣هـ)[٣] ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه فى الخلافة المعتز بالله بن المتوكل عام ٢٥٢هـ .

---

[١] ٩٥/ ٤ مسعودى.

[٢] راجع ٨ ج ١١ ، الطبرى.

[٣] خفف الاضطهاد عن آل أبى طالب ١٣٥/ ٤، مسعودى.

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثأر منهم لأبيه ، ففي عهده قتل وصيف عام ٢٥٣هـ ثم بغا عام ٢٥٤هـ ، وفي مصرعه يقول البحترى من قصيدة مدح بها المعتز بالله :[1].

أضحى بغا وأقربوه وحزبه	وكأنهم حلم من الأحلام
طاحوا فما بكت العيون عليهم	بدموعها ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك إلى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه في الشمس حافياً ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥[2]هـ ، ثم حبسوه وقتلوه ، وولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذى لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦هـ . ومات بعد خلعه بأيام .

وفي عهد المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم ، فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧هـ ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلي للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هي العليا على الأتراك وقوادهم ، فكبح غير قليل من جماحهم وأثر ذلك في حسن الأحوال قليلا .

وسار المعتضد بن الموفق في خلافته (٢٧٩-٢٨٩هـ) سيرة أبيه ، فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ، ولم يحابهم على حساب القانون والعدالة، فاقتص من تركى ارتكب معصية[3]، وقتل قائداً تركياً قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومى على ذلك[4] وفي المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته في تاريخه :

قام بأمر الملك لما ضاعا	وكان نهباً في الورى مشاعاً
وكل يوم ملك مقتول	وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغصب	وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل	فغصبوها نفسها في المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً	يرونه ديناً لهم وحقاً

---

(1) راجع ٢٣٤-٢٣٦ جـ ٢ديوان البحترى .

(2) ١٦٢ جـ ١١ طبرى ، ١٣٠ جـ ٢ شذرات الذهب ، ١٢٠ جـ ٤ مروج الذهب .

(3) راجع نشوار المحاضرة جزء ١ ص ١٥٢

(4) ديوان ابن الرومى ص ٣٠٣ .

كــذا حــتى أفقــروا الخلافــة وعودوهــا الرعــب والمخافــة

ومات المعتضد،فصار ابنه المكتفى (٢٨٩-٢٩٥هـ) فى خلافته لسيرة والده من الحزم والعزم والأخذ على يدى الأتراك .

وبعد وفاته ولى الأتراك أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلاً صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة إلى عام ٣٢٠هـ .

وهكذا كانت أمور الدولة فى العصر العباسى الثانى تسير فى طريق بعيد عن المألوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ فى يدى الأتراك،الذين لم يبالوا بشىء فى سبيل أهوائهم وشهواتهم،واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء. وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ،ويتعرضون للحرم والغلمان،فكرههم الناس كرهاً شديداً،وكان نفوذهم فى الدولة جرحاً دامياً يألم كل عربى صميم،حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمــك تــركى علــيه مهانــة فأنــت لــه أم وأنــت لــه أب

ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠هـ :

بــنى عمــنا وليــتم الــترك أمــرنا ونحــن قديمــاً أصــلها وعمودهــا
فمــا بــال عجــم الــترك تقســم فيئــنا ونحــن لديهــا فــى الــبلاد شــهودها
فاقســم لا ذقــت القــراح وإن أذق فــبلغة عــيش أو يــباد عمــيدها[1]

وقد قام الشعب بعد ثورات ،أهمها ثورة عام ٢٤٩هـ التى اشترك فيها الجند الشاكرية،وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة . وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم،وقاموا بدعايات كثيرة،كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بإيحاء الفتح بن خاقان وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب،وقد قدمها الجاحظ إلى الفتح، والظاهر أنه كتبها فى أيام المعتصم،لكنها لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب فأعاد كتابتها من جديد فى عهد المتوكل،ودعى فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك وبطولتهم إلى حد بعيد[2]. وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت جميعاً فى الوصول إلى الغرض المنشود .

---

[1] زهر الآداب جـ ١ ص ٣٣١ .

[2] راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول رسائل الجاحظ .

وامتاز العصر بنفوذ الغلمان فيه،وخاصة في آخره وفي عهد المقتدر،الذي كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان[1]، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال في الدولة، كبدر غلام المعتضد،الذي تولى قيادة الجند ونقش اسمه على الأعلام،وأبلى في خدمة مولاه بلاء حسناً،حتى قتل في سبيله عام ٢٨٩هـ.

ونشطت النساء،وكثر نفوذهن أيضاً في الدولة،وكان معظم ذلك في عهد المقتدر لتصلت الخدم والحجاب .

وفي ظلال هذه الفوضى السياسية،استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد،وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤-٢٩٢هـ) وهي تركية والدولة الإخشيدية بمصر (٣٣٢-٣٥٣هـ)، وهي تركية أيضاً والدولة الظاهرية بخراسان (٢٠٥-٢٥٩هـ) وهي فارسية ، والدولة السامانية في ما وراء النهر (٢٦١-٣٨٩ هـ) وهي فارسية أيضاً ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤-٢٩٠هـ) والدولة الدلفبة بكردستان (٢١٠-٢٨٥هـ) وهي عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠-٣١٦هـ) .

كما حفل العصر العباسي الثاني بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة مما تجد أخباره ونتائجه في مقتل الطالبيين، وسبب ذلك راجع إلى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فقد كثر اضطهاد الشيعة في هذه الفترة الحافلة ، وأسرف في ذلك المتوكل على الله فإنه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة، وشدد النكير عليهم،وصادر أموال العلويين وشيعتهم وغالى في تشريدهم، وأمر في عام ٢٣٧هـ بهدم قبر الحسين بكربلاء[2]

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم[3]، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يأذى أحداً منهم[4].

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والواثق لمحبتهم لعلي[5]، وكان شديد البغض لعلي وأهل بيته، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسلطان

---

[1] راجع التمدن جـ ٤ ص ١٧٥ ، آداب اللغة لزيدان جـ٢ ص ١٥٤ .

[2] ٢٨٩جـ ٣ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك ، ١٩جـ٧ وما بعدها ابن الاثير .

[3] العقد جـ١ ص ٢٤٩ .

[4] راجع مناظرة المأمون للفقهاء في تفضيل على (٢٧٩-٢٨٦جـ٣ العقد) .

[5] ظهر الإسلام ص ٤١ جـ ١ .

الأتراك في الدولة، وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة .. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها، وغلبت السنة على الدولة في ذلك الحين .

وسرت في الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه[١] ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوي ولكن لم تطل مدته[٢] .

ولكن عهد المعتضد كان عهد خير على العلويين، في أنه لم يتعرض في أيامه لهم ولا آذاهم ولا قتل منهم أحداً[٣].

وكان البعض يشنع على آل أبي طالب عند المكتفي فنهاهم[٤] .. وعلى الجملة فإن أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

أما الفترة الثانية في حياة الدولة العباسية فتبدأ من عام ٣٣٤هـ وتنتهي عام ٦٥٦هـ ، وتمتاز بنفوذ الإمارات الإسلامية في العالم الإسلامي وقد بدأت هذه الفترة بدخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤هـ ، حيث سيطروا على الحكم بدلاً من الأتراك،وهم من الجنس الفارسي، وبذلك عاد الفرس إلى السيادة، وأقاموا ببغداد يتصرفون باسم الخليفة، ولكنهم لم يكونوا كأسلافهم، يرعون للخلفاء حرمتهم، ويحفظون لهم جلالهم وهيبتهم، بلى حذوا حذو الترك في التنكيل بهم، والاستهانة بأقدارهم .

وكانت تضرب أسماء البويهيين على الدينار والدراهم، ويخب لهم على المنابر ويفوض إليهم الخلفاء كل ما وكل الله إليهم من شئون الرعية، وتدبيرها في جميع جهاتها مما يلي أمره الخليفة، ولكن هذا لم يقنعهم فضيقوا عليهم في الرزق وقدروا لهم النفقات، وصادروهم على أموالهم، وخلعوهم، وسملوا عيونهم، وقد احتاج بهاء الدولة إلى مال، فدبر خلع الطائع، فاستأذنه في الحضور لتجديد العهد، فلما دخل قيل الأرض بين يديه وجلس، وتقدم بعض الديلم كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة، فلما مدها إليهم، جذبوه عن سرير الملك، وهو يستغيث، ونهبوا داره، وامتهنوا من كانوا بحضرته من القضاة والأشراف، وسلبوهم ثيابهم .

---

[١] الإدارة الإسلامية لكرد علي ط ١٩٣٤ ص ١٧٣ .

[٢] ظهر الإسلام ص ٤٤ جـ ١ .

[٣] الفرج بعد الشدة ص ١٣٣ جـ ١ .

[٤] الأغاني ص ١٤٣ جـ ٩ .

وقد اشتد فى بدء هذه الفترة نفوذ الإمارات الإسلامية المستقلة المتباينة ومن أهمها.

١- الدولة السامانية بفارس وما وراء النهر (٢٦١-٣٨٩هـ) .
٢- الدولة الزيارية بجرجان (٣١٦-٤٣٤هـ) .
٣- الدولة الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧-٣٩٤هـ) .
٤- الدولة البويهية بفارس ثم العراق (٣٢٠-٤٤٧هـ) .
٥- الدولة الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣-٣٥٨هـ) .

ولقد كانت حال الخلفاء مع البويهيين مثل ما كانت عليه من قبل، فظل البويهيين يستبدون بكل شيء، ويعاملونهم بقسوة وعنف حتى دالت دولتهم، وتغلب السلاجقة عليهم، ودخلوا بغداد عام ٤٤٧هـ .

ورث السلجيوقيون الإمارات الشرقية، ماعدا مصر والشام، واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لا حل له ولا عقد، واستمر ذلك إلى زوال الخلافة حيث أغار عليها التتار بقيادة زعيمهم " هولاكو " فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ ١٢٥٨م، بمساعدة " مؤيد الدين بن العلقمى " وزير المستعصم آخر خلفاء بغداد وقتلوا الخليفة وأهله ومثلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسية من بغداد، وفر بعض الخلفاء إلى مصر فى زمن الملك الظاهر بيبرس، فأنزلهم وخصص لهم بعض وظائف لمعاشهم، وبقوا فيها إلى أن انتقلت الخلافة إلى العثمانيين سنة ٩١٢هـ - ١٥١٧ م .

وفى خلال حكم السلجوقيين لم يعد شمل الدولة الإسلامية جميعاً كما كان قبل ظهور الأتراك، بل ظلت مفككة العرى مقطعة الأوصال ومن ضعفت شوكته فى ولايته، تلقفها منه غيره، بدل أن تعود إلى حوزة الخليفة بالعراق، وظهر فى المشرق الإسلامى من الدول غير ما ظهر على أيام الأتراك ومن أشهر هذه الدول :

١- الدولة الغزونية فى السندو أفغانستان (٣١٥-٥٨٢هـ) .
٢- الدولة الفاطمية فى مصر والشام (٣٦٢-٥٦٧هـ) .
٣- الدولة العقيلية فى ديار بكر والجزيرة (٣٨٦-٤٨٩هـ) .
٤- الدولة المزيدية من بنى أسد فى الحلة (٤٠٣-٥٤٥هـ) .
٥- الدولة المرداسية من بنى كلاب فى حلب (٤١١-٤٧٢هـ) .

هذا غير ما تفرع من الدولة السلجوقية نفسها، وتوزع منها، من ممالك وإمارات. لأحفادهم، ومماليكهم، وقوادهم، كالخوار زمشاهية، والأرتقية، والاتابكية، وسواها . وكذلك غير حلول الأيوبيين محل الفاطميين ...

وبعد فقد دامت الخلافة العباسية خمسة قرون ، وكان عرش العباسيين فيها ملعباً للأهواء، وتنقسم التطورات التى مرت بها إلى خمسة أدوار سياسية :

١- فالدور الأول : دور القوة المركزية، أى قوة الخلافة، يمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل، فيشغل أكثر من قرن من الزمان ١٣٢-٢٤٧هـ وقد بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهر مجدها، وفى هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد مما يقرب من الهند إلى تونس .

٢- والدور الثانى : دور الجندية (٢٤٧-٣٣٤ هـ) حيث كانت الخلافة تحت سيطرة الجند الأتراك الذين نظمهم المعتصم، وقد نقل ديوان الخلافة إلى سامرا حيث بقى فيها نحواً من ٥٨ سنة قبل أن يعاد إلى بغداد .

٣- والدور الثالث أو الدور البويهى (٣٣٤-٤٤٧ هـ) وكانت فيه السلطة بيد بنى بويهة وكان الخليفة لا يملك من المال إلا راتباً يتقاضاه، ولو أن البويهيين أبقوا للخلافة نفوذها الأسمى، وصاروا يحكمون فى الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء . وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة. وقد دام هذا الدور أكثر من قرن حتى سنة سبعة وأربعين وأربعمائة للهجرة .

٤- والدور الرابع أو الدور السلاجوقى (٤٤٧-٦٥٦ هـ) : وينقسم إلى عهدين :

(*) عهد قوة السلجوقيين : وينتهى عام ٥٩٠هـ وفيه كانت السلطة للسلاجقة، وهم قوة من الأتراك سلكوا مسلك البويهيين فى المحافظة على مظهر الخلافة وإبداء التبجيل لصاحبها .

(*) عهد الاحتضار : ويبدأ باحتضار دولة السلاجقة فى بغداد أيام الناصر حتى داهم الماغول الخلافة سنة ست خمسين وستمائة للهجرة، فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحوا ما كان قائماً من معالمها .. هذا والعصر العباسى عامة يتميز بعدة مظاهر من أهمها :

١- التنافس على السيادة بين العناصر الجنسية وأخصها العربى والفارسى والتركى .
٢- ضعف الخلافة وتجزؤها على إمارات مستقلة .
٣- الحركات الهدامة الداخلية .
٤- غارات الروم والإفرنج على أطرافها .

ثانياً الحياة الاجتماعية :

وكانت الدولة الإسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسى فى الدولة، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً، وتولوا شتى المناصب الرفيعة فى الحكومة . وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة[1]، وكان فيهم عبث بالأخلاق ، وشراهة فى جمع الأموال[2]، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، فكثرت الجوارى الأتراك فى قصور الخلفاء والأثرياء ، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ، وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل فى الدين ، وحب المال وجمعه من أية سبيل. ومع عدم الرغبة فى الإصلاح .

العنصر الفارسى : كانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، ولكن الأتراك أقصوهم عن منزلتهم فى العصر العباسى الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس ، ويدبرون المؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة ، وكانت الدولة تتأثر بهم فى حياتهم العقلية الخصبة ، وعاداتهم وتقاليدهم العامة ، وكانوا دعاة الترف والمجون والحضارة ، وطابعهم حب السيادة والبذخ والقدرة على تنظيم إدارة الدولة وتشجيع العلوم والظهور بمظهر التشيع .

العنصر العربى : أقصى عن النفوذ فى الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم فى ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة . وطابع العرب الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة فى السيادة .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر وهما :

الزنج والروم : أما الروم فقد كثر أسراهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات روميات . وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأن القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكا للبحترى غلام رومى اسمه نسيم[3]، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومى م ٢٨٣هـ .. أما الزنوج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون فى الزراعة

---

(1) ظهر الإسلام جزء أول ص ٣٢.

(2) المرجع نفسه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(3) معاهد التنصيص ص ١١٠/١ – مهذب الأغانى جـ ٧ ص ٩٤ .

والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التى هددوا بها الدولة (٢٥٥- ٢٧٠هـ) ، وكانت حرباً بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً[١]، والنفوذ والثروة فى يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة فى البنيان ، فقد أنفق المعتصم على بناء " سامرا " أموالاً طائلة ، وكذلك فعل المتوكل فى بناء الجعفرى وسواه من المبانى التى أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير ، وبنى المعتضد قصر التاج فى الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمه[٢]. وفى تهنئة المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته:

سلمت أمير المؤمنين على الدهر	ولازلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل	فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبه	ولا ببناء الجن فى سالف الدهر

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فيقول :

فمن رأى مثل الرباب قصراً	كم حكمة فيه تخال سحراً
أبنية فيها جنان الخلد	لكل ذى زهد وغير زهد
تخبر عن عز وعن تمكين	وحكمة مقرونة بالدين
ومظهرات قوة الإسلام	على أعاديه من الأنام

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجار والصناعة . حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس[٣].

وكان من مظاهر الترف فى هذا العصر - كما ذكرنا - كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور ، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات ..

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضاً للنحل ، ومجالاً لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين

---

[١] راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الإسلامى (٢٠-٥/٥٩ ، ١٠١-٥/١٢٩)

[٢] التمدن الإسلامى ص ٩٣، ٩٤/ ٥ وظهر الإسلام ٩٩/ ١.

[٣] ظهر الإسلام جزء ١ ص ٩٧

كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة .

فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم .

وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع ويدعون إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها : ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة في بغداد لمحاربة المجون والإلحاد .

أساس الحياة الاجتماعية[1] الحالة الاقتصادية ، التي تسيطر على الناس من حيث لا يشعرون . والحياة الاقتصادية في العصر العباسي الثاني كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء[2] وكان كبار الملاك يستقلون باقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس .. وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب أمام المهتدي[3]. وعمت المصادرة بين طبقات الناس ، وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الرئيسي لبيت المال[4]وأنشيء لها ديوان مخصوص[5] .. وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة[6]، ويدل على حالة الدولة أن متوسط جبايتها كان في أواسط القرن الثالث كما ذكر ابن خرداذبة نحو ثلاثمائة مليون درهم[7]، بعد أن كان في عهد الرشيد والمأمون أكثر من ٣٩٠ مليون[8] وفي عهد المعتصم ٣٨٨[9].

---

[1] يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب .

[2] ٥٤ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد .

[3] ٧/١٥٦ مهذب الأغاني

[4] ٤/١٨٠ التمدن الإسلامي ، ١٦٩ الإدارة الإسلامية .

[5] ١/٣٥ ظهر الإسلام ، ١٦٩ الإدارة .

[6] ٥٣ بارتولد ، ٥/٦٩ التمدن

[7] ٢/٦١ التمدن

[8] ١٧٩-١٨١ مقدمة ابن خلدون ، ٢/٥٣ التمدن ، ١٥٢ حضارة الإسلام في دار السلام

[9] وذلك وفق ما ذكر قدامة في كتاب الخراج (٢/٥٩ التمدن) - ومتوسط الجباية في العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليوناً في العام ، ينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥٠ مليوناً والباقي يظل في بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منها المرتبات والمكافآت (٦٩ ، ٥/٧٠ التمدن) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار في اليوم[1]، وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليون ن الدراهم في العام[2]، فالباقي من مجموع الجباية هو الذي يبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة[3].

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة[4] حتى ترك المنصور أربعة عشر مليوناً من الدنانير - أي ٦٠٠ مليون من الدراهم - وترك الرشيد واحدًا أو عشرين مليونا[5]، وترك المعتضد في خزانة الدولة أموالاً طائلة فوق ما ترك من ثروة خاصة .

وفي بعض مظاهر هذا الترف والبذخ ، يقول علي بن الجهم واصفاً قصر الجعفري الذي بناه الخليفة المتوكل على الله :

وما زلت أسمع أن الملو ... ك تبني على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ... ل يقضي عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإما ... م رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ... ولا الروم في طول أعمارها
وللروم ما شيد الأولو ... ن وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة ... فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلمـ ... ـين على ملحديها وكفارها
صحون تسافر فيها العيو ... ن إذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو ... م تفضي إليها بأسرارها
نظمن الفسافس نظم الحلى ... لعون النساء وأبكارها
لو أن سليمان أدت له ... شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بني هاشم ... تقدمها فضل أخطارها

ولضيق ابواب الرزق على كثير من الناس ، وقصور وسائل الكسب عن أن تفي لهم بمطالب الحياة ، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة ، وقعدوا للسؤال كل مقعد، وقد أنفذ ملك الروم إلى المنصور رسولاً . فاسترعاه من على جسر الرصافة من الزمني والسؤال ، وقال لعمارة بن حمزة - وكان يرافقه من قبل المنصور في تطوافه

---

(1) ٣٥٣-٣٥٥/٣ الخضري بك .

(2) ٦٦/٣ التمدن .

(3) ٦٧/٣ التمدن .

(4) ١٠١/٥ التمدن

(5) ٣٣/٣ التمدن .

ببغداد - إنى أرى عندكم قوماً يسألون ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء، ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم ، فاعتل له عمارة بوجه ، واعتل المنصور بسواه .. فلا غرابة - إذن - أن يكثر أهل الكدية ، من الطبقة الدنيا ، بل لا غرابة إذا وجد بعض الناس فى التكدية أهنأ سبيل ، تدر عليهم فيها أخلاف الرزق ويأمنون معها بوائق الغدر ، وهذا ما نراه ، ونرى معه كيف كانت وسائل الكسب على أيام الحريرى ، من قوله فى المقامة الساسانية : " سمعت المعايش إمارة ، وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدت منها معيشة ولا استرغدت عيشة ، ولم أرى ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافي المكسب ، صافي المشرب ، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلماً ، واخترت سيماها لى ميسماً، إذا كانت المتجر الذى لا يبور، والمنهل الذى لا يغور، والمصباح الذى يعشى إليه الجمهور ، ويستصبح به العمي والعور ، وكان أهلها أعز قبيل، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ... " .

الحيـــاة العقليـــة[1]

فى العصر العباسى الأول (١٣٢-٢٣٢هـ) ازدهرت الحياة العقلية ازدهاراً كبيراً ، وتلاقت فى الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة فى أثرها ، فى العلم والثقافة .. كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فى دولة الخلافة للفرس ، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على يد الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية - إلى العربية تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة ، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين ، وكان رجال العلم فى هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم[2]، ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر على الفكر الإسلامى بامتزاج الجنسين فى الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن يزيد ٨٩

---

[1] يراد بالحياة العقلية حركة النفس الإنسانية فى جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب .

[2] ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون

هـ أول من ترجم - أو ترجمت لـه - كتب النجوم والطب والكيمياء[1]، فقد عنى المنصور م ١٥٨هـ بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها[2]. بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت لـه الكتب من اليونانية والرومانية والفهلوية والفارسية والسريانية[3]. وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانية ونسخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك[4]. وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج المترجمين[5]، وهى مكملة لدار الحكمة التى بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الإيرانية فى أمور الدولة فقد أخذت فى مساحة الحضارة والثقافة أموراً كثيرة من بيزنطة[6].

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الإسلامى مباشرة وبواسطة الفرس أيضاً ، أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم فى الأدب والشعر والعلم إلا قليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان .

وكان للإسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة فى الدين واللغة والأدب والشعر ، كانت هى أهم شىء أثر فى الفكر الإسلامى وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات فى العراق فى العصر العباسى الأول وأحدثت أثرها فى العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات[7] وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب فقدموا معانى للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها.

---

(1) ١/٢١٣ البيان والتبين للجاحظ ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

(2) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ،٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ، ٢١ تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة فى (٢٢٩-٢٣٣ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ١٧٧ وما بعدها و ٢٦٤ ،٢٦٨-١/٢٧٠ ضحى الإسلام .

(3) ٤/٢٤١ وما بعدها مروج الذهب

(4) ٤٨٠ ، ٤٨١ مقدمة ابن خلدون .

(5) ٢٣٠ الأدب العباسى لمحمود مصطفى

(6) ٣٨ تاريخ الحضارة الإسلامية .

(7) ٣٨٠ جـ ١ ضحى الإسلام .

وفي العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤ هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها ، بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم فى البلاد الإسلامية .

وكان العصر العباسي الأول تغلب عليه نزعة الاعتزال[1] التى أيدها المأمون بكل ما يستطيع ، ولكن العصر الثاني وهو عصر النفوذ التركى كان مصحوباً بمظاهر جديدة أهمها إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، كمحمد بن أبي الليث في مصر وأحمد بن أبي دؤاد في العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ، وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له[2].

ومراكز الحياة العقلية في العصر الثاني كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية فى مصر ، وتفوقت الشام فى الشعر والأدب واللغة[3]، وكان للعراق الصدارة في العلم والأدب والفلسفة ، فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة ، فالجاحظ والكندى بصريان ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ من حران . وكانت بغداد تجذب العلماء إليها من كل أرجاء العالم الإسلامي، واشتهرت بلخ وخوارزم واصفهان في ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو يزيد البلخي م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ الكندى المشهور وأبو موسى الخوارزمي صاحب المؤلفات القيمة في الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الأصفهاني مؤلف الأغاني ، وسواهم من العلماء .

وبعد فالعصر العباسي الثاني كان زاخراً بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلاً بالعلماء والمفكرين والفلاسفة .. وكانت العلوم المترجمة شرطاً في تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس[4] والأدباء ، وعلى أي حال فلم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده في العراق ، ويثور ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦ هـ) في مقدمة كتابه " أدب الكتاب " على الحالة في عصره حيث أهمل الناس علوم

---

[1] ٢٠٣-٤/٢٠٦ مسعودى .

[2] راجع ١/٤١ ظهر الإسلام

[3] راجع ١/٨ اليتيمة للثعالبى ، ١٧٧ جـ ١ وما بعدها ظهر الإسلام .

[4] واشتهر على بن جور الفارسي – وكان كاتباً مترسلا ذا علم بالنجوم – بادخالها فى شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق[1]، وكانت جماعة الأدباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها حتى قال بن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة	وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلا عن خليفة	ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة	بناظر في تفضيل عثمان أو علي
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب	ليعرف أخبار العلوم من أسفل
يقوم كحرباء الظهيرة مائلا	يقلب في اصطر لا به عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره	وعن غيره ما يعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الإسلامي ، ومن بينهم ابن سيناء المتوفى عام ٤٢٨ هـ والغزالي المتوفى عام ٥٠٥ هـ والرازي المتوفى عام ٦٠٦ هـ وسواهم ..

من أعلام المفكرين فى العصر العباسي :

نبغ في جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبية والفكرية في العصر العباسي كثير من أئمة العلماء .

أ- ففي التشريع الإسلامي : نبغ مالك بن أنس ٩٠-١٧٩هـ وأبو حنيفة ١٥٠ هـ والشافعي ١٠٤هـ، وأحمد بن حنبل م ٢٤٠هـ، والكرابيسي م ٢٤٥ هـ ، والزعفراني م ٢٦٠هـ ، وداود الظاهري (٢٠٢-٢٧٥ هـ)[2]، وإسماعيل بن إسحاق قاضي بغداد م ٢٨٢هـ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠هـ ، والحربي م ٢٨٥هـ ، ويوسف بن يعقوب القاضي (٢٠٨-٢٩٧هـ) ومحمد بن داود الظاهري م ٢٩٧ هـ[3] . ومن العلماء : المدائني ١٣٥-٢٣٤هـ والواقدي (١٣٠-٢٠٧هـ) والزهري كاتب الواقدي ٢٣٠هـ، والليث بن سعد ٩٢-١٧٥هـ، وابن السماك ١٨٣هـ.

---

[1] راجع ص٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر ، وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢ ، ٤٠٦ جـ ١ ضحى الإسلام).

[2] راجع ترجمة في ٢٦٥ وما بعدها من كتاب نظرات عامة في الفقهة الإسلامي ، ١/٢١٣ وفيات الأعيان .

[3] راجع ترجمته في : ٢٧٢-٢/٢٧٣ وفيات الأعيان ، ١٥٩ وما بعدها تزين الأسواق . وله كتاب الزهرة ، وهو مخطوط بدار الكتب ومنسوب لداود والده (٣٥٤٨ أدب مخطوط)

ب- وفي التصوف : المحاسبي ٢٤٣ هـ والبسطامي م ٢٦١ هـ وسهل التستري م ٢٨٣ هـ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦هـ وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٩٧ هـ[١] ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩ ببغداد[٢] .

ج- وفي علوم اللغة والأدب المفضل الطبي ١٧٠هـ ، والخليل ١٧٥هـ ، وسيبوية ١٨٨ هـ ، والاصمعي ٢١٦هـ ، وأبو زيد الأنصاري ٢١٤هـ ، وأبو عبيدة ١١٠-٢٠٨هـ ، وأبو محمد اليزيدي ٢٠٢هـ ، والقاسم بن سلام ١٥٠-٢٢٣هـ ، وابن الأعرابي ١٥٠-٢٣١هـ ، وابن سلام الجمحي ٢٣١هـ ، ومصعب الزبيري م ٢٣٦هـ[٣]، والتوزي م ٢٣٨هـ ، وأبو العميثل م ٢٤٠هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤هـ ، ومحمد بن حبيب م ٢٤٥هـ)[٤]، والمازني م ٢٤٩ هـ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥ هـ[٥]، والزبير ابن بكار م ٢٥٦[٦] هـ، والرياشي أبو الفضل العباسي بن الفرج م ٢٥٧هـ[٧] والأشناندانى م ٢٥٧هـ وعمر بن شبة ١٧٣ - ٢٦٢ هـ، وابنه أحمد م ٢٧٢هـ[٨] ، والطلحي م٢٧١ [٩]هـ، والسكري م٢٧٥ [١٠]، وأبو العباس اليزيدي م ٢٧٨ هـ ومحمد اليزيدي ٢٢٨ - ٣١٠هـ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ[١١] وابن قتيبة ٢١٣ - ٢٧٦هـ وابن أبي الدنيا ٢٨ - ٢٨١هـ والمبرد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ[١٢]، وثعلب (٢٠٠ - ٢٩١هـ)[١٣]، والزجاجي البغدادي النحوي م ٣٣٧هـ. وابن السراح تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦هـ[١٤]، والزجاج م٣١١هـ [١٥]،

---

[١] ١/٢٠٨ وفيات .

[٢] راجع ٩١ و ٢٣١ الكشكول في مقتل الحلاج .

[٣] وهو شاعر راوية (٤٠٢ معجم الشعراء) .

[٤] ١٥٥ فهرست ، وكان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار والشعر والقبائل (١٩٣/ ٢ آداب اللغة لزيدان).

[٥] وله كتاب المعمرين وكتاب الفصاحة (٨٧ الفهرست)

[٦] ١٦٠ الفهرست ، وله كتاب أخبار توبة وليلى (١٦١ فهرست).

[٧] ٨٦ فهرست، وكان عالما راوية ثقة عارفا بأيام العرب وروى عن الأصمعي وأبي عبيدة وقتل بالبصرة في فتنة الزنج.

[٨] كان شاعرا مجيدا راوية (١٦٣ فهرست)

[٩] وهو بصري نادم الموافق وكان راوية أخباريا (١٦٤ الفهرست)

[١٠] وهو الذي جمع شعر مزاحم وأبي نواس (١١٧ الفهرست)

[١١] وله كتاب الفصاحة وكتاب الشعر والشعراء (١١٦ فهرست)

[١٢] راجع ٣١٤ - ٣٢٠/ ١ ضحى الإسلام، ٨٧ وما بعدها من الفهرست ١٨٦/ ٢ آداب اللغة لزيدان.

[١٣] راجع ١١٠ وما بعدها من الفهرست.

[١٤] ٩٢ وما بعدها من الفهرست.

[١٥] من تلامذة المبرد وصار مع المعتضد يعلم أولاده وكان أولا يؤدب القاسم بن عبيد الله (٩٠ وما بعدها من الفهرست. ٢٨١/ ٢ آداب اللغة لزيدان).

والأخفش م٣١٨ ونفطويه م٣٢٣هـ، وابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ[1]، ثم ابن الأنباري (٢٧١ - ٣٢٨هـ) وابن درستومه ٣٤٧هـ. والسيرافي ٢٨٠ - ٣٦٨هـ وابن خالويه ٣٧٠هـ، والحاتمي ٣٨٨هـ ، وابن جني ٣٩٢هـ والرماني ٣٨٤هـ. ثم الزمخشري ٥٣٨هـ وسواهم.

د - وفي علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م٢١٠هـ. وثمامة بن أشرس م٢١٣هـ، والنظام (١٨٠ - ٢٢١هـ)، وابن أبي دؤاد (١٦٠ - ٢٤٠هـ)، ويحيى بن أكثم م٢٤٢هـ، وأبو الهذيل العلاف البصري م٢٣٥ هـ، وابن الراوندي م٢٤٥هـ، والجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ)، وأبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣هـ[2]). ثم ظهر أبو الحسن الأشعري (٢٧٠ - ٣٣٣هـ) [3]؛ وقد استمر المعتزلة في العراق يعلمون ويدرسون على يد الجبائي وتلميذه في الاعتزال محمد بن عمر الصيمري[4].

هـ - ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء :

ابن ماسويه الطبيب م ٢٤٣هـ، وابن سهل الطبيب م٢٥٥ هـ، ومحمد موسى ابن شاكر م٢٥٩هـ [5]، والكندي م٢٦٠هـ [6]، وبنو المنجم، وأبو موسى الخوارزمي وهو مذيع الحساب الهندي وأرقامه بين العرب، والفارابي م٣٣٩هـ. ثم ابن سينا م ٤٢٨هـ، والغزالي م٥٠٥هـ، والرازي المتوفى ٦٠٦هـ وسواهم .. ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر في الفكر العباسي : حنين بن

---

[1] ولد بالبصرة ونشأ بعمان ثم رحل إلى فارس وورد بغداد عام ٣٠٨هـ وأقام بها وكان إمامًا في اللغة والأنساب والشعر وهو شاعر راوية (٤٦١ معجم الشعراء، ٢٣٨ ج ١ ظهر، ٣٧١ الزيات).

[2] معتزلي بصري وإليه انتهت رياسة البصريين في زمانه وكان إمام المعتزلة ببغداد وتتلمذ عليه الأشعري (ص٦ تكملة الفهرست لابن النديم).

[3] تثقف بثقافة المعتزلة ثم عاداهم وأعلن تركه لمبادئهم، وصار رئيسًا لمذهب الأشعريين، والأشعري يمثل الموجة الحديثة التي بدأت تهاجم المعتزلة وتنصر المحدثين وأهل السنة منذ عصر المتوكل.

[4] ٢٢٢/ ١ ظهر الإسلام.

[5] وهو وإخوته : أحمد والحسن كان لهم مكانة كبيرة في الفلسفة والميكانيكا (٣٧٨ وما بعدها من الفهرست، ٦٤ طبقات الأمم)؛ وكان مطهر بن أحمد بن موسى من ندماء المعتضد (٣٧٩ فهرست).

[6] هو يعقوب بن اسحق كان متحققًا بعلوم الأوائل (٥٠٧ معجم الشعراء)، وهو أول فيلسوف عربي درس الفلسفة اليونانية وشرحها وبنى عليها (راجع ٣٥٧ - ٣٦٠ الفهرست، ٥٩ وما بعدها طبقات الأمم)؛ ووشى به إلى المتوكل محمود وأحمد ابنا موسى بن شاكر فضربه وأخذا كتبه بأسرها حتى أكرههما سند بن علي أخيرًا على ردها إليه (١٩٥ و١٩٧ المكافأة).

اسحاق (١٩٤ - ٢٦٠هـ[1])، وأبو معشر الفلكى م٢٧٢هـ[2]. والبلاذرى م ٢٧٩هـ[3]، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام ٢٧٨هـ[4]، وأبو حنيفة الدينورى م٢٨٢هـ[5]، والسرخى م٢٨٦هـ[6]، وثابت بن قرة (٢٢١ - ٢٨٨هـ[7])، وإسحاق بن حنين م٢٩٧ هـ[8]. والرازى م٣١١[9]هـ، والبتانى الرياضى الفلكى م٣١٧هـ، وأبو زيد البلخى م٣٢٢ هـ، وسواهم من أعلام المفكرين.

---

(١) أجاد العربية والفارسية والسريانية واليونانية ونقل هو ومدرسته إلى العربية زبدة آثار اليونان وجعلوا الثقافة اليونانية بين أيدى العلماء (٢٨٣- ٢٨٨/ ١ ضحى الإسلام، ٤٠٩ وما بعدها الفهرست)؛ ووشى به بختيشوع بن جبرانيل الطبيب إلى المتوكل فحبسه (راجع ١٣٧/ ٤ وما بعدها التمدن، ١/١٩٤ طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة).

(٢) ٣٨٦ فهرست، ٤٧ بارتولد، ١/١٩٨ وما بعدها وفيات الأعيان.

(٣) ١٩١/ ٢ آداب اللغة لزيدان؛ وكان أديبًا راوية وهو أحد النقلة من الفارسى إلى العربى (١٢٧ - ١٣٢/ ٢ معجم الأدباء لياقوت، ٧/ ١ فوات الوفيات.

(٤) ونادم المعتمد، وله كتاب الشراب وكتاب المسالك والممالك (٢١٢ وما بعدها من الفهرست، ٢٠٢/ ٢ آداب اللغة لزيدان).

(٥) كانت ثقافته الهندية واليونانية واسعة، وكان ملمًا بعلوم كثيرة، كما كان يقرن بالجاحظ فى بلاغته (٤٠٦/ ١ وما بعدها ضحى الإسلام و١١٦ فهرست، ٢/١٩٧ آداب اللغة لزيدان)، وله كتب فى النبات وكتاب الأخبار الطوال فى التاريخ العام وينتهى بوفاة المعتصم ٢٢٧هـ.

(٦) هو أحمد بن مروان (٣٦٥ فهرست) أو أحمد بن الطيب (٢٠٠/ ١ زهر الآداب) السرخسى تلميذ الكندى كان متفننًا فى علوم القدماء والعرب، وكان أستاذًا للمعتضد ثم خص به، وله كتب كثيرة فى الفلسفة وغيرها وقتلة المعتضد لأنه أفضى إليه بسر فأفشاه (٣٦٥ - ٣٦٧ الفهرست، ٥١ / ٢ معجم الأدباء، ٦١ طبقات الأمم لصاعد)، وله كتاب إلى المعتضد فى أدب النفس (٢٤٣ الفهرست).

(٧) راجع ١٧٧ - ١٧٩/ ١ وفيات الأعيان.

(٨) ٣٩٧ و٤١٥ الفهرست، ١١٦ - ١١٧ / ١ وفيات الأعيان.

(٩) ٥٠٣ - ٥٠٥ / ٢ وفيات، ٦١ طبقات الأمم، ٤١٥ - ٤٢٠ الفهرست.

القسم الثانى

الحيــاة الأدبــية

-١-

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية في العصر العباسي الأول والثاني بأصباغ جديدة، فقد كان أثرها في الأدب واللغة متفاوتًا فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل، من حيث نضجت معاني الكتاب وخيالات الشعراء، وعمقت صياغتهم الذهنية، وتفكيرهم العقلي، إلى حد كبير.

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحي الحياة والتفكير، فإن العربية كانت أعز من أن تحني رأسها للعواصف الجامحة التي تهدم من صرحها الشاهق، أو تزعزع من ثقتها القوية بالنفس. وظلت كما هي لغة التفكير والأدب، وإن سايرت حركة الرقي، ولم تقف جامدة ضعيفة الإحساس بالحياة.

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة. فإن الأدب اليوناني لم يترجم منه شيء، ولم يتأثر به الأدب والشعر في نهضتهما الوثابة في هذا العصر الحافل[1]. لتباين الأذواق، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم، ولاختلاف حياة العرب واليونان التي يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها. وعلى أي حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة في التفكير والخيال والمعاني[2] وطرافة التقسيم.

وتأثير الثقافة الهندية في الأدب العربي كذلك كان طفيفًا لا يعدو تلك الأفكار التي كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة في الشعر، وهذه القصص الهندية التي أولع العرب بها، ونقلوها إلى العربية ككليلة ودمنة الذي نقلوه من الفارسية إلى لغتهم، وتلك الحكم التي تشبه الأمثال العربية. وهذه الألفاظ التي عربوها وأدخلوها إلى العربية.

وأثر الفرس في الأدب العربي كبير فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون ووصف الراح، وأدب الزهد تأثر كثيرًا بنزعات الفرس، وعنهم نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصي ككليلة ودمنة وهزار أفسانه، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير،

---

[1] ٤٥ بارتولد، ٦٦ الفن ومذاهبه، ٢٨٧ التوجيه الأدبي، ٢٣٥ الأدب العباسي لمحمود مصطفى، ٢٨٠ ج١ ضحى الإسلام، ٢٤٤ الزيات.

[2] وقد أفاد الأدب العربي من القصص والحكم اليونانية التي انتشرت في الثقافة الإسلامية : وعربت كثير من الألفاظ اليونانية.

وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير في الأدب كالعتابي وأبي نواس وبشار وسواهم، فأخرجوا أدبًا عربيًا فيه معاني الفرس وبلاغة العرب، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية، كان كسرى أبو شروان مشتهرًا بالنرجس "وكان يقول . هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء في رأس درة	مركبة في قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل في جنباتها	بقية دمع فوق خدمورد[1]

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسي زبرجد أخضر توسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر [2]:

كأنهن يواقيت يطيف بها	زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن	من خمرة مزة كالجمر في اللهب

وأخذ ابن الرومي معنى حكمة لبهرام جور[3] فنظمه شعرًا[4]. وكان من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) في الدواوين، وكان منهم شعراء أحدثوا آثارًا واسعة في أغراض الشعر ومعانيه وأوزانه وقوافيه. ونقلوا للخلفاء والأمراء والوزراء كثيرًا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسمارهم، مما ظهر أثره في الأدب العربي واضحا. وإذا كان الأدب في عهد بني أمية عربيا خالصا في المادة والمعنى، ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته، فقد كان في عهد بني العباس أثرهم أعمق لا في الأسلوب البياني، بل في التفكير والخيال، وبتأثيرهم تنوعت الأغراض وظهر التأنق في النثر والشعر، وطلبت الرقة والدماثة، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها.

---

[1] ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب.

[2] وينسب البيت الأول لعلي بن الجهم (٢٣ ج٢ ديوان المعاني) قال أبو هلال: وهو من قول اردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسي زبرجد يتوسطه شذور من الذهب.

[3] فارسي قديم تعلم العربية في الحيرة وشعر بها، ويقول شمس الدين الرازي في كتاب "المعجم" إنه أول من نظم شعرا فارسيًا وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر.

[4] ٢٧٨ ج ٢ وما بعدها زهر الآداب.

-٢-

ويمتاز الأدب في هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية، وبكثرة الحكم والقصص وأخبار الزهد والزهاد فيه، وبتأليف الكتب الجامعة في الأدب كالبيان والتبيين وعيون الأخبار والكامل والعقد، وبأن الأدب أصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية. وقد أصاب الأدب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب بوضوح.

ولقد كان ظهور الموالي، وعلو شأنهم[1] مما أحيا في نفوسهم الشعور القومي، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد، وعز قديم، فعلنت الشعوبية، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم، وتزرى على العرب بتلمس المثالب لهم، وتسجل ذلك في الشعر، من أمثال بشار، والمتوكل، والخريمي، ومهيار؛ وفي الكتب يضعها أمثال أبي عبيدة، والهيثم بن عدي، وسعيد بن حميد وعلان الشعوبي، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم، ويدفع عن العرب، وينتصر لهم، أمثال محمد بن يزيد الأموي، والجاحظ، وابن قتيبة، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصبية الجنسية بما عالجه في رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة، حين استشرى شرها، وكاد يوقع الفتنة في صفوف الجند أيام المعتصم.

وتحيز المال في جانب الحكام والأمراء ، جعل الأدب يستمر اتجاهه القديم إلى ناحيتهم، ويسير في ركابهم، يعلي من شأنهم، ويتغنى بذكرهم، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور، وذاقوا في رحابها حلاوة النعيم.

وانغماس الأدباء في الحضارة، ومشاركتهم في لهوها الخليع، ومجونها السافر، مكن لهم من تصويرها في جميع أوضاعها، فوصفوها في مظاهرها الرائعة وفي مباذلها الوضيعة، وملأ شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون، في صراحة مكشوفة، وعري فاضح، وابتذال مهين، ومن شاء فليرجع إلى الأغاني، أو يتيمة الدهر، أو دواوين كثير من الشعراء، ليستطلع طلع ذلك في شعر بشار، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وحسين بن الضحاك، وابن الحجاج، وابن سكرة، وأبي الرقعمق، وغيرهم من الشعراء.

---

[1] الأدب العربي للأستاذ أحمد شعراوي.

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب فى الآخرة، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالاً فى نتف لبعض الشعراء والعلماء وفى كثير من شعر أبى العتاهية، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال.

وقسوة الحياة وشقاؤها، وشظف العيش، ورنق المشرب، انعكست صورها فى كتب المقامات، قصصًا للكادحين. يحتالون على العيش بالمكر والخداع، وفى أدب المحرومين، كابن لنكك البصرى، وأبى حيان ، سخطًا على الزمان، وأنينًا من البؤس والحرمان.

واضطراب نظام الحكم، وفساد أداته، لم يعدم من ينعى عليه، ويندد به، مثل أبى العلاء أو من يروم علاجه، ويحاول إصلاحه كابن المقفع.

ولو رجعنا إلى ما وصفناه من معالم هذا العصر، نبحث عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيرا فى الحياة، ما وجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم، فهم الذين أثروا فى المجتمع، ولونوا الحضارة، بما ورثوه عن دولهم الدائلة، وحضارتهم الزائلة، وصبغوا الدولة بصبغتهم، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم، وقد تنبه إلى شىء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الأمور فيه، وهذا أبو حيان التوحيدى يصور ذلك كله فيقول " ضعف أمر الدين. وتحلل ركنه، وتداوله الناس بالغلبة والقهر، فتطاول له ناس من آل الرسولﷺ بالعجم، وبقوتهم، ونهضتهم وعادتهم فى مساورة الملوك وإزالة الدول. وتناول العز كيف كان .. ألا ترى أن الحال استحالت عجما كسروية وقيصرية؟. هذا الربيع - وهو حاجب المنصور - يضرب من شمت الخليفة عند العطسة. فيشكى ذلك إلى أبى جعفر المنصور ويقول : أصاب الرجل السنة، وأخطأ الأدب. وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة أشرف من الأدب، بل الأدب كله فى السنة، وهى الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى، ولكن لما غلبت عليهم العزة، ودخلت النعرة فى آنافهم، وظهرت الخنزوانة بينهم، سموا آيين العجم أدبا، وقدموه على السنة التى هى ثمرة النبوة".

-٣-

وقد ضعفت الخطابة بزوال أسبابها وأعجمية رجال الدولة، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها، وحكمت بالاستبداد، وبطلت الخطابة فى الجيوش، وضعفت الملكات. كذلك صار فى الكتابة - وقد تنوعت أساليبها وأغراضها - غنى عن

الخطابة، فضعف شأنها ولم يبق لها إلا مظهرها الدينى، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ويخطبون الناس، وكان آخر خليفة خطب على المنبر هو الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)[١].

وقد بلغت كتابة الرسائل فى هذه العصر مكانة عالية، وقد كان للانقلاب العباسى أثر عظيم فى الميول والعقول، ظهر على أقلام الكاتبين، فاستنبطوا عيون المعانى، وتخيروا شريف الألفاظ مما لم يكن حوشيا ساقطا سوقيا، وفتحوا أبواب البديع وبذ الكتاب فحول الشعر فى عظمة الحياة والرياسة، وتسنموا أرفع المناصب فى الدولة، واشتهر منهم : محمد بن عبد الملك الزيات، وآل وهب، وسواهم، من أعلام الكتابة. كما نبغ فى الأدب والشعر جمهور كبير. ونهض الشعر فى هذا العصر نهضته العظمى .. مما سنتحدث عنه فى الدراسات التالية.

وقد كانت طبقات الأدباء فى صدر الدولة العباسية متعددة، ومن بينها : طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم، والذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا[٢] ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم[٣] وحكم مذهبهم فى نقد[٤] البيان، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢٠٥هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان[٥]، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد

---

[١] راجع ٢١٣ الزيات، ٥٤ وما بعدها الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ١٠٤ وما بعدها العصر العباسى للسباعى بيومى.

[٢] ١/١٠٥.

[٣] ٣/٣٢٥.

[٤] ١/٢٤٠.

[٥] ١/١٠٤.

الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ[1]، وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب في الخلافة الإسلامية.

وقد استمرت الحياة الأدبية في النمو والازدهار، على الرغم من انقسام الخلافة وضعفها .. ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والإمارات الإسلامية في تشجيع الأدباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد في العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب.

النثر الأدبي

كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الأدبي الفني في الأدب العربي. وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الأموية، وشهد ابن المقفع جانبا من أول عصر الدولة العباسية، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثرًا واضحًا بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية، ومنهم يعقوب ابن داود وزير المهدى، وأبو الربيع محمد بن الليث الذى كتب للمهدى والهادى والرشيد، والقاسم بن صبيح، وسهل بن هرون[2] ١٧٥هـ ويحيى بن برمك، ثم ابناه : جعفر بن يحيى (١٤٢ - ١٨٧هـ) وأخوه الفضل (١٤٧ - ١٩٣هـ)، والحسن بن سهل[3] وأخوه الفضل[4] بن سهل ٢٠٢هـ[5] وأحمد بن يوسف[6] ٢١٢هـ، وعمرو بن مسعدة ٢١٤هـ[7]، والعتابى م ٢٢٠هـ [8]، ومحمد بن يزداد وزير المأمون [9]، وإبراهيم بن العباس الصولى ٢٤٣هـ.

---

[1] ١٥١ / ١.

[2] راجع : ٥٥ / ١ البيان، ٢٨٢/ ٢ زهر، ٢٦٠/ ٣ زهر الآداب أيضًا. توفى ٢١٥ هـ كما في بروكلمان ٣٤: ٣، وفي الإعلام للزركلي أن وفاته عام ١٧٣هـ وراجع ١٨: ١ البخلاء تحقيق الجارم.

[3] يشيد به الجاحظ (٨٤ ج ١ البيان)، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ ج١ زهر.

[4] تبناد يحيى البرمكي وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشا الحصرى ببلاغته (١٦ - ١٩ ج ٧ زهر).

[5] له ترجمة في الأوراق.قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ - ٢٣٦) وكان عالى الطبقة في البلاغة ولم يكن في زمانه أكتب منه. وله شعر جيد (١٤٨ ج٢ زهر)، وكان ممن نبلوا بالكتابة (١١ ج٣ العقد)، وهو أول من افتتح المكاتبة في التهاني بالنيروز والمهرجان (٩٥ ج١ ديوان المعاني.

[6] ١٢٧ - ١٣١ : ١٦ معجم الأدباء لياقوت.

[7] راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم، ٣٥٢ معجم الشعراء.

[8] راجع ٤٢٤ معجم الشعراء.

[9] ص٢ أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر، ٤٢، ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناشىء من الكتاب إذا وطىء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا

وفي القرن الثالث الهجري بلغ النثر الفني مرلة سامقة، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب، كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه، بل الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : "ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان "أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى إلخ" لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدىء ويحذر وينذر"[1] والاطناب مذهب فارسي حتى في الأساطير وكتابة التاريخ، ويقول ابن الأثير : "والعجم يفضلون العرب في الإطالة فإن شاعرهم يذكر كتابًا من أوله إلى آخره شعرًا وهو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهنامة وهو في ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها[2]، ولم يحفل الكتاب بالبديع، والتأنق الكثير في الأسلوب، ويعيب البديع الجاحظ بأن "كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة إلخ[3]"، كما عابه الباقلاني بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه[4].

وكان حامل لواء هذه الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ، واقتدى به كتاب عصره كالصولي وابن الزيات والحسن وسليمان ابني وهب وسعيد بن حميد وأحمد ابن إسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان.

آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية، كما آثر الوضوح وظهور الشخصية فيما يكتبه من رسائل أو مؤلفات ، واحتال على نشاط القارىء بالفكاهة ومزج الجد بالهزل وبالاستطراد وبراعة الأسلوب وسحره، وبالرواية

المنطق إلخ، ومثل ذلك يقول ابن قيتبة، وهذا ينفي رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر).

[1] راجع مقدمة أدب الكاتب.

[2] ٣٠٤ المثل السائر. وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة في هذا العصر كرسالة الخميس (١٠٧ ١١١ ج١٢ ابن طيفور مخطوط).

[3] ٨٢ مقامات البديع المقامة الجاحظية - ٢٠٩ ج٢ زهر

[4] راجع ١٩٤ إعجاز القرآن.

والنقد والتمحيص، والاطناب والانتباه العقلي والتغلغل الفكرى ودقة الملاحظة والشرح والتحليل والتعمق .. وشمول الفكرة ونفوذها وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ، وهو مع ذلك متقد الحماسة للعرب والعربية، يفضل بلاغة العرب على كل بلاغة ويستشهد بكلمة العربى وبيت البدوى كما يستشهد بحكمة الحكيم ورأى المفكر. وفى إنشاء الجاحظ كثير من أساليب الخطابة والجدل. وكان من المعجبين بابن المقفع ونوه بذكره ولكنه لم يسلك مسلكه فى الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصر على الحكم والمواعظ.

حقًا لقد كان الجاحظ فى سحر بلاغته[1] وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة فى كل فقرة من فقراته وثقافته الواسعة فى شتى آثاره الأدبية نسيج وحده وفريد عصره كما يقولون، ورسالته "التربيع والتدوير" وكتابه "الحيوان" من مظاهر ثقافته الواسعة العميقة. وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين فى عصر الترجمة؛ فالجاحظ إمامهم فى عصر التأليف.

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الأدباء الذين آلت إليهم الزعامة الأدبية بعده، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر الأديب المشهور. وقد ذاع فى النثر فى هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية، والرسائل الإخوانية، والرسالة الأدبية، والتوقيع، والمقامة، والأدب الوصفى، وأدب الطبيعة وأدب القصة، وسوى ذلك من فنون النثر الأدبى فى هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات.

وقد ألفت فى هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين، والحيوان للجاحظ وأدب الكاتب وعيون الأخبار لابن قتيبة، والكامل للمبرد. وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على يد الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم .. ولا عجب إذا قلنا إن النثر الأدبى قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته فى هذا العصر الحافل.

ولئن امتاز العصر العباسى الأول بالجاحظ والعصر الثانى بالعديد من الكتاب ممن ذكرناهم، فإن العصر الثالث يتميز بظهور ابن العميد والصاحب بن عباد، وكان ابن العميد غاية فى علوم الدين واللغة ورواية شعار والفلسفة[2]، وكان الصاحب من ذيوع الشهرة وانتشار الصيت إلى حد بعيد، وكان يحتف به من نجوم الأرض وأفراد

---

[1] يقول الجاحظ من رسالة له إلى ابن الزيات : نحن أعزك الله نسحر بالقول ونموه بالبيان (٣٩١ دلائل الإعجاز).

[2] يقول الجاحظ من رسالة له إلى ابن الزيات : نحن أعزك الله نسحر بالقول ونموه بالبيان (٣٩١ دلائل الإعجاز).

العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من أربوا فى العدد على أدباء وشعراء الرشيد.. كما ظهر فيه كذلك البديع والخوارزمى وأبو الفرج الببغاء والبستى والصابى والجرجانى صاحب الوساطة. والعسكرى صاحب الصناعتين والأصبهانى صاحب الأغانى والثعالبى والحصرى والميكالى. وعرف إلى جانبهم من فحول الشعراء من تصدو للكتابة، كالمتنبى الذى اتهموه بمعارضة القرآن. وكالشريف الرضى وينسب النقاد إليه كثيرًا مما فى نهج البلاغة. أنشاه بقلمه، ونحله الإمام على كما يقولون.

ويتميز العصر الرابع بظهور أبى محمد القاسم بن على الحريرى المتوفى عام ٥١٦هـ صاحب المقامات، وكذلك الزمخشرى والقاضى الفاضل م٥٩٦هـ صاحب الطريقة الأدبية المشهورة به، وعماد الدين الأصفهانى م٥٩٧هـ، وابن الأثير م٦٣٧هـ، والوطواط م٥٧٣هـ، وسواهم.

أعلام الكتاب وعلماء الأدب

نبغ كثير من الكُتاب فى هذا العصر ومن أعلامهم : محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٣٣هـ [١]، وإبراهيم بن العباس الصولى م٢٤٣ [٢]هـ، وسعيد بن حميد ٢٦٠هـ[٣]، والحسن بن وهب[٤] م ٢٦٥ هـ[٥]، وسليمان بن وهب م٢٧٢هـ[٦]، وأبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابه الكاتب م٢٧٧هـ [٧]، والمرثدى وكان يكتب للموفق[٨]؛ ونطاحة الكاتب أحمد بن إسماعيل بن الخصيب الانبارى كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[٩] وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات[١٠]، ومحمد بن مكرم الكاتب

---

[١] راجع : ١٧٧ فهرست، ٤٢٥ معجم الشعراء، ٢٧٨/ ٣ وما بعدها عصر المأمون، ٢٧/ ١١ وما بعدها الطبرى، ٣٩/ ٤ مسعودى، ٤٣ الرسالة العذراء.

[٢] راجع : ٥٦/ ٤ مسعودى، ١٧٦ فهرست، ٢١/ ٩ الأغانى وما بعدها ٢٠٠/ ١ المفصل، ٢٠٨ الوسيط، ٢/٤٢ ثمرات الأوراق، ٩٩ خاص الخاص.

[٣] راجع : ١٧٩ فهرست، وفيات الأعيان ٥٤ – ٥٧ / ٢ طبعة ١٣١٠، ١٧٧ ج٤، ٤/١٢٢ زهر، ٤/٩١ المسعودى، ٤٢/ ٢ ثمرات الأوراق.

[٤] راجع : ١٧٧ فهرست، ٥٠٦ سمط اللآلى، ٢٤٨ ابن الرومى للعقاد، ٣/٤٤ زهر، ٢٢١ - ٢٢٣/ ٣ معجم الأدباء.

[٥] وفى معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦هـ ومات فى آخر خلافة الموكل.

[٦] راجع : ٢٤٩ ابن الرومى، ١٧٧ فهرست، ١٥٤ – ١٦٠/ ٧ مهذب الأغانى، ٥٠٦/ ١ سمط اللآلى، ٤٨٥ معجم الشعراء، ٣٨٦ – ٣٨٨/ ١ وفيات الأعيان، ٣/٤٦ زهر، وفى المسعودى أن وفاته عام ٢٧٠هـ/ ٢١٠/ ٤ مروج الذهب .

[٧] ١٨٧ و ١٨٨ فهرست، ٣٦ – ٢/٥١ معجم الأدباء .

[٨] ١٨٧ فهرست، ١٦٠ أدب الكتاب للصولى.

[٩] توفى عبيد الله عام ٣٠٠هـ.

[١٠] راجع : ١٨٠ فهرست، ٣٧٧ ج١ معجم الأدباء، ويروى عنه الصولى كثيرا جدا فى أدب الكتاب وله كتاب طبقات الكتاب.

م بعد ٢٨٢هـ[١]، وإبراهيم بن المدبر م ٢٧٩هـ[٢]، وابن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٢هـ)، وعلى بن الحسن م بعد ٣١٠هـ وقد جاوز التسعين[٣]، وعلى بن العباس النوبختى م ٣٢٧ عن سن عالية[٤] وابن المعتزم ٢٩٦هـ؛ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى م ٣٣٦هـ[٥] وهو الذى جمع ديوان ابن المعتز[٦]، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م ٣١٤هـ[٧] وحميد بن نصر الكاتب م٣٠٠هـ[٨]، وأبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم[٩] وأبو عبد الله محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد[١٠].

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة فى الأدب العربى والتأليف فيه، ومنهم:

أ - الجاحظ م ٢٥٥ هـ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان.

ب- أبو سعيد الحسن السكرى النحوى م٢٧٥هـ وكان رواية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والإسلام.

ج - ابن قتيبة م٢٧٦هـ[١١]، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب.

د - ابن أبى الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١هـ وكان مؤدب المكتفى وله كتب كثيرة[١٢].

هـ- ابن طيفور أحمد بن أبى طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤ - ٢٨٢هـ[١٣])، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع فى الشعراء واختيار المنظوم والمنثور[١٤].

---

[١] راجع ٤٤٤ معجم الشعراء.

[٢] ٤٥٢ معجم الشعراء، ٣٤٩ الموشح.

[٣] ٢٩٥ معجم الشعراء.

[٤] ٢٩٥ معجم الشعراء ١٤٥ ج٢ زهر.

[٥] ٤٦٥ معجم الشعراء، ١٧٤ ج٢ زيدان، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالبا ومقدمة أدب الكتاب.

[٦] ١٧٥ ج٢ زيدان.

[٧] ٢٥٢ ج٤ تاريخ بغداد.

[٨] ٤٦٣ معجم الشعراء.

[٩] ٤١٧ ج٢ معجم الأدباء، ١٨٨ فهرست.

[١٠] ١٨٨ فهرست.

[١١] ١١٥ وما بعدها، فهرست و٤٤٩ - ٤٥٠/ ١ وفيات الأعيان،١٧٠/ ٢ وما بعدها زيدان.

[١٢] راجع ١٧٢/ ٢ زيدان.

[١٣] ٢٠٩ - ٢١٠ فهرست، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز، و٣٥١ الموشح، ٢١١/ ٤ تاريخ بغداد، ١٥٢/١ معجم الأدباء، ٤٨ و٩٣ و١/٩٤ ديوان المعانى.

[١٤] أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء فى مجلد مخطوط هى : الحادى عشر فى بلاغات النساء وقد طبع منفرداً فى مصر، والثانى عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات، والثالث عشر ويجمع فصولا من رسائل مختارة.

و ومنهم أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد (١٩١ ٢٨٣هـ[١]).
ز- أبو على البصير الفضل بن جعفر بن يونس م٢٥١هـ[٢].
ح - جحظة أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكى (٢٢٤ - ٣٢٦)[٣].
ط - ومنهم ابن المعتز م ٢٩٦ هـ. وأبو خليفة الفضل بن الحباب الحمجى م٣٠٥هـ[٤].
وقدامة م٣٣٧هـ. والوشاء أبو الطيب محمد بن أحمد م٣٣١هـ. ويموت بن المزرع م بعد ٣٠٠ هـ وهو ابن أخت الجاحظ[٥]. وغيرهم من جلة الأدباء وأئمة علماء الأدب.

ولقد كانت مصادر الثقافة الأدبية فى هذا العصر كثيرة متعددة ومن أهمها:

أ - القرآن والحديث والكتب المؤلفة حولهما. مما يتصل بالأدب والدين كمجاز القرآن لأبى عبيدة وإعجاز القرآن للجاحظ والإعجاز لمحمد بن يزيد الواسطى م ٣٠٦هـ[٦].
ب- خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء.
جـ - كتب التاريخ التى جمعها أو ألفها المؤرخون فى هذا العصر والذى سبقه، كابن اسحاق وابن هشام والبلاذرى واليعقوبى والطبرى وسواهم.
د - كتب السياسة التى تأثرت بآثار الفرس أو كانت مترجمة من ثقافتهم ومنها : كليلة ودمنة والأدب الصغير[٧] والأدب الكبير والدرة[٨] اليتمية ورسالة الصحابة[٩] لابن المقفع وهى تصوير لسياسة الدولة وحاشية السلطان وأعوانه وجنده، ومنها رسالة

---

[١] ١٨١ فهرست، ٤/١٧٠ مسعودى، ٤٤٨ معجم الشعراء، ٣٢١ - ٢/٣٢٤ وفيات الأعيان، ٣١٦ و٣٢٢ - ٣٣٠ و ٣٣٢/ ١ زهر، ٢٦٥ ٢٧٠ نكت الهميان، ٣/١٧٠ تاريخ بغداد، ٢/١٨٠ شذرات الذهب، ٧/٦١ معجم الأدباء، ١٤٥ / ٣ سمط اللآلى، ٢١٨ - ١/٢٢١ أمالى المرتضى، ١٩٦ طبقات الشعر لابن المعتز.
[٢] ٢/٩٦ زهر، ٤/٩٢ مسعودى، ٣١٤ معجم الشعراء، ١٨٨ طبقات الشعراء لابن المعتز، ١٧٨ فهرست، ١/٢٧٦ سمط اللآلى.
[٣] ٢٠٨ فهرست، ١٥٧ و١٥٨/ ٢ زهر.
[٤] ١٦٥ فهرست، ٢٥٣/ ٣ زهر.
[٥] ٥١٠ معجم الشعراء ، ١٣٦ ج٤ مسعودى.
[٦] ولعبد القاهر الجرجانى شرح عليه (١/٩٤ كشف الظنون).
[٧] تجده فى رسائل البلغاء ١٧ - ٥٤، وطبع مستقلا عام ١٩١١.
[٨] ٥٥ - ٥٤ المرجع.
[٩] تجدها فى رسائل البلغاء ١٢٠ - ١٣١.

طاهر بن الحسين في السياسة وقد أرسلها إلى ابنه عبد الله[1]، ومشاورة المهدى لأهل بيته في خراسان[2].

هـ - كتب الأدب الجامعة، كالبيان وعيون الأخبار والكامل.

و - كتب البيان والنقد والكتابة، ومنها كتاب الفصاحة للسجستاني وللدينوري[3]، وكتاب البلاغة للمبرد[4]، وقواعد الشعر للمبرد ولثعلب، وأسرار البلاغة في الكتابة لقدامة[5] ونقد الشعر ونقد النثر له أيضًا، وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الصناعة لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس م٣٣٨هـ[6] والرسالة العذراء لابن المدبر م ٢٧٩هـ[7]؛ ومنها أدب الكتاب للصولي، ورسائل الأدباء في النقد كرسالة ابن المعتز في أبي تمام.

ز - كتب الشعر، ومنها مجموعات في أشعار القبائل والأفراد ومنها المفضليات وحماسة أبي تمام وحماسة البحترى ودواوين الشعراء والكتب المؤلفة في طبقاتهم.

وكذلك كتاب الأمالي للقالي م٣٥٦هـ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني م٣٥٦هـ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه م٣٢٨هـ، وكتاب زهر الآداب للحصرى م٤٥٣هـ، ويتيمة الدهر للثعالبي م٤٢٩هـ، والمثل السائر لابن الأثير م٦٣٧ هـ. وسواها من مئات المصادر في الأدب والشعر.

---

[1] تجدها في ١٥١ - ١٥٤ الإدارة الإسلامية، ١٠٨ - ١١٧/ ٢ تاريخ آداب اللغة لمحمد بك دياب، ١٨٦ وما بعدها عن المطالعة التوجيهية.

[2] تجدها في ٩٥ - ١٠٧/ ١ العقد؛ وقد أمر المهدى محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقالتهم في كتاب (١/٩٥ العقد) وكتبت عام ١٧٠ (١/١٠٧ العقد).

[3] ١٦٠/ ٢ كشف الظنون.

[4] ٨٨ فهرست.

[5] ٤٧٠/ ١ كشف.

[6] ٢/١٥٤ كشف.

[7] تجدها في ١٧٦ - ١٩٣ رسائل البلغاء ونشرها مستقلة عام ١٩٣٠ زكي مبارك.

القسم الثالث

الشعـــر العـــربى

كان الشعر الجاهلي غنائيًا يفيض من القلب ويصور عاطفة الشاعر وشعوره، وكان ضخم الألفاظ، قوى الأسلوب، متعدد الأوزان والقوافي، معانيه فطرية مستمدة من صحيفة الحياة ومشاهد البيئة.

فلما جاء الإسلام ظل الشعر على حالته، أسر لفظ، وجزالة عبارة، وطريقة أداء، ولكن أغراضه تغيرت بتأثير الحياة الجديدة، ومعانيه استحكمت وألفاظه عذبت بتأثير القرآن وبلاغة الرسول.

وبابتداء القرن الثاني بدأ عهد جديد في الشعر العربي كان له أثره في شتى نواحيه الفنية. وظهر هذا الأثر على أيدي المخضرمين الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية، كما ظهر منذ أواخر القرن الثاني الهجري على أيدي المحدثين - أو المولدين - الذين نشأوا في العصر العباسي، وتأثروا بالحياة الاجتماعية والفكرية التي كانت تسود فيه.

سار الشعْر بخطوات كبيرة على يد بشار زعيم المحدثين، وعلى أيدي زعماء مدرسته الأدبية كأبي نواس ومسلم وغيرهما من الشعراء، وظلت هذه النهضة الفنية تزدهر حتى آتت أكلها في العصر الثاني.

وقد كان أبو تمام آخر من شهدهم العصر الأول من أمراء القريض، ولكن مدرسته الشعرية ظلت مسيطرة على دولة الشعر طول العصر الثاني كله، وهي التي وجهته توجيهًا جديدًا يجمع بين فن بشار ومدرسته، والآثار العقلية والاجتماعية والأدبية التي سادت العصر الثاني وذاعت فيه، مما خلق نهضة فنية لم يشهدها الشعر طول العصور الأدبية جميعها.

حدث تغيير واسع في تفكير الشاعر العباسي وعقله، فامتازت معاني الشعر بدقة التصور، واستنباط الدقيق والجديد من الآراء والأفكار، وبالإكثار من ضرب المثل واستخدام الآراء الفلسفية والبراهين والأقيسة العقلية، وبتحميص الأفكار وترتيب العناصر. وأخذ المنطق يتغلغل في الصياغة الذهنية، حتى لتجد القصيدة عند أبي تمام محكمة الأجزاء والعناصر والترتيب، وتبعه في ذلك كثير من الشعراء .. وأكثر الشعراء من الإبداع في التصوير والخيال والإغراق فيه، وتركيب التشبيهات والاستعارات والأوصاف، في جنوح إلى المبالغة والإغراق والغلو والاستقصاء والتغلغل في دقائق الأغراض والخيالات. وانصرف الشعراء عن المعاني البدوية أو الحضرية المتأثرة بالبداوة إلى معان حضرية صرفة. وبعد أن كان الشعر مرآة للطبع الخالص،

أصبح في هذا العصر لا يصدر إلا بعد أن يسيطر عليه العقل وآثار التفكير؛ وندر في هذا العصر من خلا شعره من آثار الحضارة العقلية؛ فمن لم تظهر في شعره المعاني الفلسفية والآراء الطريفة التي سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة وخاصة الفلسفية؛ ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى، وتفخيمات الفرس ومبالغاتهم، ولابدع في ذلك فأكثر الشعراء في هذا العصر كانوا رضاع أدبين ونشء حضارتين وولدان جنسيتين، مما كان له صداه في أخيلة الشعراء وتصوراتهم وتأديتهم للمعاني، ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة ودقة النظر ولطف الأخذ لها. "فالمحدثون أكثر ابتداعًا للمعاني وألطف مأخذًا وأدق نظرًا، لأنهم عظم الملك الإسلامي في زمانهم ورأوا مالم يره المتقدمون"[1]. ومعاني الشعر في هذا العصر : إما معان قديمة تناولها الشعراء فأحسنوا غالبًا صوغها وزادوا فيها، وإما معان جديدة استقل المحدثون بابتداعها، وإذا كان للمتقدمين متانة التعبير وصحة الأداء والسلامة من قصور الملكة، فإن للمحدثين مزية[2] المعنى والتحليق في سماء الخيال واتساق الفكر؛ وشاعت في أشعارهم تلك الحكمة التي اشتهر بها صالح بن عبد القدوس وأبو العتاهية وأبو تمام وسواهم من الشعراء؛ وللمروزي أحمد بن محمد مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس[3]. وكان المروزي مولعًا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية[4] وللأنبوردي قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس[5] واشتهر على بن جور الفارسي – وكان ذا علم بالنجوم – بإدخالها في شعره[6] .. والحكمة اليونانية صاروا يدخلونها في الشعر.

يقول الشاعر [7]:

والفقر في أوطاننا غربة　　　والمال في الغربة أوطان

وهو نظم لحكمة أرسطو: "المال في الغربة وطن، والمقل في أهله غريب[8]".

---

[1] المثل السائر ص١٣٦.

[2] ويرى ابن جني أن المولدين يستشهد بهم في المعاني (٢/٢٢٤ العمدة).

[3] كان أكثر شعره في الزهد والأمثال (١٢٢ جزء ١ الأغاني، ٢٣٨ جزء ١ الكامل).

[4] اليتيمة ص٨٣ ج٤، والكشكول ص١٢٣ و١٢٤ اليتيمة ص٨٤ ج٤.

[5] اليتيمة ص٨٦ ج٤.

[6] معجم الشعراء ص٢٩٣.

[7] رسالة الغفران ٢٠٣.

[8] وهي في البديع لابن المعتز برواية أخرى منسوبة لمسلمة بن عبد الملك (٧٦ البديع).

وفنون الشعر وأغراضه القديمة من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف وغزل بالمؤنث وزهد وحكمةومثل، نظم فيها الشعراء ولكنهم أكثروا منها وافتنوا فيها وصبغوها بصبغة تكاد تكون جديدة مبتكرة، فقد جدد التلقيح العقلى نماذج هذه الأغراض الشعرية، وأحدث ألوانا من ضروب الرقى الفنى غير كثيرًا من جوانبها القديمة.

ونظموا مع ذلك فى أغراض جديدة خلقتها البيئة وآثار الحضارة والحياة فى العصر العباسى، فشاع فيه المجون والغزل بالمذكر[1] ووصف الخمر وتصوير الطبيعة ووصف الصيد والطرد ونظم الشعر فى تأديب النفس وتهذيب النشء بنظم القصص كما فعل أبان وسواه من الشعراء، وضبط قواعد العلوم ونظم التاريخ كما فعل ابن المعتز فى أرجوزته فى المعتضد وسواه من الشعراء، ونظموه فى وصف المصلوبين وهجاء المغنين والاتهام بالأبنة والذم بالرشوة ووصف شتى ألوان الطعام، وفى التصوف الذى أكثر منه الزهاد والمتصوفون، وفى الوعظ والأخلاق وفى شتى الأغراض وجديدها؛ ونظموه فى العلوم والثقافات والمعارف الجديدة ولأبى القاسم الرومى من شعراء تونس قصيدة طويلة يتهكم فيها بالتنجيم والمنجمين[2].

وكان للغناء والحضارة والترف أثر فى التجديد فى أوزان الشعر وقوافيه، فأخذوا يلائمون بين الموضوعات والأوزاز والقوافى[3] وزهدوا فى الأوزان الطويلة وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة، بل إنهم جددوا أوزانا لم يسبقهم إليها المتقدمون، ونظموا على الأوزان التى لم تنظم منها العرب إلا قليلا كالمضارع والمقتضب والمجتث، وأكثروا من نظم المخمسات والمزدوجات، ونظم عليها بشار عبثا واستهتارًا بالشعر[4] وصنع ابن المعتز أرجوزة فى ذم الصبوح وأرجوزة فى سيرة المعتضد، واشتهر بالتخميس ابن وكيع والأمير تميم[5]، ونظموا الدوبيت والسلسلة والمواليا والزجل وقوما وكان وكان، والموشح، ويسروا على أنفسهم فى القوافى

---

[1] نشأ هذا الفن على يد حماد ووالبة وأبى نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وسواهم من الشعراء وإذا كان أبو نواس وحده أو مع فئة قليلة قد نظموا فيه فى العصر الأول فقد كان أكثر الشعراء فى العصر الثانى يطرقون هذا الباب ولم يبق شاعر فى بغداد إلا واشتهر بغلام يعشقه ويتغزل فيه. وهو من مذاهب الفرس ومن نشأ فى العرب من أصول فارسية، وينفى الجاحظ أن يكون الغزل بالمذكر مذهب العرب فى أدبهم (٤١٧ و ٤١٨ : ٢ أمراء البيان لكرد على).

[2] ٥٢٣ و٥٢٤ المقدمة لابن خلدون ط القاهرة - المكتبة التجارية.

[3] راجع ٩ الكف عن مساوىء شعر المتنبى.

[4] العمدة ج١ ص١٥٧.

[5] العمدة ج١ ص١٥٨.

فاختاروا أيسر الألفاظ وأسهلها وأحبها إلى السمع، وتجنبوا عيوب القافية؛ كل ذلك حرصا على مسايرة الشعر للحضارة والغناء ومحاولة لنشره بين شتى الطبقات.

أما فى أسلوب الشعر : فقد حافظ الشعراء على عربيته، وإن كان بعض الشعراء قد أدخلوا فيه بعض الألفاظ الفارسية دون تعريب أو معربة مصقولة، كما فعل أبو نواس وابن المعتز وسواهما من الشعراء ومن قبل كان الأعشى وأمية ابن أبى الصلت وكذلك يزيد ابن مفرغ وأسود بن أبى كريمة[1]. وقد حاولت بعض العناصر الفارسية إحياء أدبهم القومى ونظم الشعر بلغتهم الفارسية. ويروى أنه قدمت للمأمون حين دخوله "مرو" قصيدة فارسية نظمها شاعر يدعى عباس ويقول الشاعر فى القصيدة إنه لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله وقد يكون هو عباس ابن طرخان الذى نقل ابن خرداذبة فى كتابة الجغرافيا شعرًا فارسيًا له ولكن لغة القصيدة تدعو إلى الشك فى نسبتها لذلك العهد[2]، وكان هناك شاعر آخر هو محمد ابن البعيث كان يكتب أشعاره بالعربية والفارسية[3]، وكذلك الأمر فى النثر فقد كان مسوى الأسوارى يقص بالفارسية والعربية[4].

وقد ظهر أثر الحضارة وسلامة الذوق فى تخير ألفاظ الشعر وأساليبه لاستعمال الروية وقلة الارتحال والأنحاء عليه بالتهذيب والميل به إلى جانب الرقة والسلاسة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته فى غير الهزل والمجون وفى الموضوعات التى تتطلبها، وانتقل ذوق الزخرف والترف من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة فتجلت الدقة فى انتقاء الألفاظ العذبة الممثلة للمعنى أتم تمثيل وظهر التكلف فى صوغ العبارات والأساليب. ودعا النقاد كالجاحظ وسواه إلى إيثار ما لم يكن من الألفاظ ساقطا سوقيا ولا مستكرها وحشيا وإلى هجر الغريب والخشونة وإيثار الجمال الفنى من وضوح العبارة وجمال الابتداء وحسن التخلص والانتهاء. وقد استعملوا بعض الألفاظ الكلامية واقتبسوا فى الشعر من كتب الله العزيز، وقصدوا البديع وألوان الزخرف الفنى قصدًا يوشون به شعرهم. فقل حظ الشعر من اليسر، وبعد عهده بالبداوة. وكثر حظه من التكلف الفنى، وأصبح أثرًا من آثار الصناعة بعد أن كان وليد الطبع والفطرة الحرة المطلقة. وبذلك أصبح الشعر فنا حقا يسير الشاعر فيه وراء الترف والجمال، من حيث لم يكن الشاعر الجاهلى أو الإسلامى عادة صاحب فن،

---

[1] البيان والتبيين ص١٠٩ ج١.

[2] الحضارة الإسلامية لبارتولد ص٦٨.

[3] الحضارة الإسلامية لبارتولد ص٦٩.

[4] البيان ص٢٣٤ ج١.

بل كان الطبع قويا فيه. وما يقال عن زهير والحطيئة وطفيل الغنوى من أنهم كانوا أصحاب روية وأناة ليس معناه الصنعة أو التكلف الذى نراه عند المحدثين[1] فالمثل الأعلى للشعر عند القدماء ما جرى على السليقة والفطرة وما أوحت به إليهم حياتهم من المعانى. فأما عند المحدثين ففى العناية بالزخرف والتنميق[2]، فلم تكن العرب تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الألوان من الغرابة والحسن تكلفوا الاحتذاء عليها وسموها البديع[3]. ومع ذلك فقد كان هناك مذهب فى الشعر يتعمد الإغراب والغرابة والألفاظ الجاهلية وفى هؤلاء يقول ابن رشيق :

لعن الله صنعة الشعر ماذا	من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه علها	كان سهلا للسامعين مبينا
ويرون المحال معنى صحيحًا	وخسيس الكلام شيئا ثمينًا

وقد حاول بعض المحدثين التجديد فى بناء القصيدة وأغراضها، فدعوا إلى ترك الأطلال ومساءلتها فى مبادىء القصيد؛ كما فعل أبو نواس ومطيع وابن المعتز، وسواهم من الشعراء، ويقول أبو نواس :

صفة الطلول بلاغة الفدم	فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولكن ابن قتيبة لم يرض عن ذلك، ودعا إلى الاحتفاظ بمنهج القصيدة الموروث[4]. ولكن ابن رشيق لم يرض عن ذلك المنهج والاتجاه، ورأى أنه "لا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازًا"[5]، "لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات، وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها، والأولى فى هذا الوقت صفات الخمر والقيان[6]."

أما المذاهب الأدبية العامة فى فن الشعر فى القرن الثالث الهجرى وما بعده فيمكن إرجاعها إلى مذهبين:

فطائفة من الشعراء قد احتذت حذو القدماء، فهى لا تسير فى سبيل التجديد الفنى فى الشعر إلا بمقدار ما يتلاءم مع الروح العربية، فظلت على النهج

---

[1] ويجعل صاحب الأدب الجاهلى مدرسة مسلم وأبى تمام وسواهما من المصنعين امتدادًا لمدرسة زهير والحطيئة (٢٨٨ الأدب الجاهلى).

[2] تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص٩٩ وما بعدها.

[3] راجع ٣٨ الوساطة.

[4] راجع ١٤ و١٥ الشعر والشعراء، والعمدة ج١ ص١٩٧.

[5] العمدة ج١ ص١٩٩.

[6] العمدة ج٢ ص٢٧٩.

والصياغة القديمة، ومنهج : أشجع، ومروان بن أبى حفصة م١٨٢هـ، ودعبل م٢٤٦هـ، وعلى بن الجهم م٢٤٩هـ، والبحترى م ٢٨٤هـ، وسواهم.

وطائفة مالت إلى التجديد : كبشار م١٦٧هـ، وأبى نواس ١٤٥ - ١٩٩هـ، والعتابى م٢٢٠هـ، ومسلم ٢٠٨هـ، وأبى تمام م٢٣١هـ، وابن الرومى ٢٨٣هـ وابن المعتز ٢٩٦هـ.

ويرجع ذلك إلى التفاوت بين الشعراء فى الثقافة والتفكير والعقلية :

فالطائفة الأولى تثقفت بالثقافة العربية وحدها فسارت فى مذاهب الشعر وفنه وأخيلته ومعانيه على المنهج القديم.

والطائفة الثانية تثقفت بالثقافة العربية وبالثقافات الحديثة ودعت إلى أن يكون الشعر فنا يعبر عن هذه الثقافات جميعا ويوزن أسلوبه بميزان العقل والمنطق الدقيق.

وكان بين الطبقتين نضال أدبى واسع تمثله المعركة الأدبية التى نشبت بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر م٣٠٠ هـ والتى نجد أخبارها فى المعارضات التى قامت بين الشاعرين[1]، وفيها يقول البحترى :

كلفتمونا حدود منطقكم ... فى الشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ... ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه

وقبل ذلك قال أبو تمام فى الحسن بن وهب :

لم يتبع شنع الكلام ولا مشى ... مشى المقيد فى حدود المنطق
فى هذه خبث الكلام وهذه ... كالسور مضروبا له والخندق

وكذلك انقسم نقاد الأدب وعلماؤه طبقات:

١ - فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم، وتزرى بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات، - وهم علماء الأدب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة.

---

[1] راجع هذه المعارضات فى ديوان البحترى ٣٢-٣٨/ ١.

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء م١٥٤هـ وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامي[1] وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم، لا على أساس شعرهم حتى قال : "لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا[2]"، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم[3]، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء: أشد الناس تسليما للعرب.

ومنهم ابن الأعرابي م٢٣١هـ. وكان يزرى بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء[4]، فكان يقول في شعر أبي تمام : "إن كان هذا شعرًا فكلام العرب باطل" وأنشده[5] ابن الطوسي أرجوزه لأبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها، وكان ابن الأعرابي يعيب شعر أبي نواس فأنشده رجل شعرًا له وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجابًا شديدًا وكتبه فلما علم أنه لأبي نواس أنكره[6]؛ وكان يستشهد في كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين ولعله لو علم بذلك ما فعله[7]؛ وكان يقول : ختم الشعر بابن هرمة[8]؛ وكان الأصمعي يقول: ختم الشعر بالرماح[9]، وقال : بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم[10]؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبي تمام[11].

ومنهم إسحاق الموصلي الذي كان في كل أحواله ينصر الأوائل، وكان شديد العصبية لهم[12] فتعصب على أبي نواس[13]، وطعن على أبي العتاهية[14]، وكان

---

[1] الشعر والشعراء ص٧، البيان والتبين ١/٢٠٩، العمدة ٧٣ ج١.

[2] تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص١٠٥.

[3] العمدة ٧٣ ج١.

[4] الموازنة ٨، الموشح ٣٠١؛ أخبار أبي تمام ٢٤٤.

[5] التصحيف والتحريف ٨٥، المثل السائر ٣١٥، أخبار أبي تمام ١٧٥، ص٤٥ وما بعدها من الصناعتين، رسائل ابن المعتز ١٣؛ الموازنة ١٠، وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة.

[6] راجع ٢٨٩ ج١ زهر.

[7] أخبار أبي تمام للصولي ١٧٧.

[8] العمدة ٧٣ ج١.

[9] البيان ١٩٧ ج٣.

[10] الأغاني ٢٣ ج٣.

[11] الموشح ٣٠٤.

[12] أخبار أبي تمام ٢٢١.

[13] راجع ٢٦٣ و٢٦٤ من الموشح: الأغاني ٢٨ ج٣.

[14] موشح ٢٥٨.

لا يعتد ببشار ويقدم مروانًا عليه[1]، وسمع أبا تمام ينشد شعرًا له فقال : يا هذا لقد شددت على نفسك[2]، ومع ذلك فقد كان إنتاجه الأدبى لا يرضى طبقة النقاد التى احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثًا كما فعل الأصمعى معه حين استحسن بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما[3]، ولم يكن تعصب اسحاق للقدماء فى الأدب وحده بل كان كذلك فى الغناء أيضًا فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الإقدام عليه[4].

وكان المأمون - رغم ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول انقضى الشعر مع ملك بنى أمية[5]؛ ودخل عليه أبو تمام فى زى أعرابى فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتى به فلما انتهى إلى قوله:

هن الحمام فإن كسرت عيافة ... من حائهن فإنهن حمام

فقال المأمون : الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الأمر منذ اليوم وكنت حسبتك بدويًا ثم تأملت معانى شعرك فإذا هى معانى الحضريين وإذا أنت منهم فغض به ذلك عنده[6].

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود فى الآداب الأخرى؛ فقد كان هوراس الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهارًا، فإن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه[7].

واعتذر الباقلانى عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى[8]، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون[9].

ب- وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبى وحده فى الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهليًا كان أو إسلاميًا أو محدثًا كالجاحظ وابن قتيبة

---

[1] الأغانى ٢٨ ج٣.

[2] الموازنة وتروى برواية أخرى (٣٢٧ الموشح).

[3] الوساطة ٥٠، الموازنة ١٠.

[4] الأغانى ٣٥ ج٩.

[5] ديوان المعانى ٣٦٢ ج١.

[6] ديوان المعانى ١٢٠ ج٢.

[7] قواعد النقد الأدبى ص١٤٤ وما بعدها.

[8] إعجاز القرآن ١٠٠.

[9] العمدة ٧٣ ج١.

والمبرد وابن رشيق[1]، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب[2] وفضل، خلف لامية مروان على لامية الأعشى[3]. ويشرح الجرجاني والباقلاني مذهبهم فى النقد[4].

جـ- وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة فى النقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ومناهجه ولاسيما بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو فى نقد الشعر الذى نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية[5].

ولاختلاف مناهج النقاد فى نقد الشعر كان الشعراء يتشددون فى طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن مناذر م١٩٨هـ، فقد أنشد أبا عبيدة قصيدته فى رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى[6]:

كل حى لاقى الحمام فمودى ... ما لحى مؤمل من خلود

وهى التى عارض بها قصيدة أبى[7] زبيد الطائى :

إن طول الحياة غير سعود ... وضلال تأميل طول الخلود

فقال له: احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادم الزمان وهذا محدث متأخر، ولكن انظر إلى الشعرين واحكم لأفصحهما وأجودهما[8].

وفى العصر الثانى كف الخلفاء عن شد أزر الشعراء بالصلات، لغلبة الترك على أمور الدولة وضعف الخلفاء واضطراب الحياة السياسية، ولأن الدعاية السياسية خرجت كلها أو جلها من أيدى الشعراء إلى أيدى الكتاب والدعاة .. ولتوزع العناية بين الشعر والعلوم الحديثة، ولكثرة الشعر والشعراء، ولغلبة المنادمة على الشعر مما رجح صفة النديم على صفة الشاعر، ولقلة المبالاة بالمدح والذم حين استبحر العمران وشاعت الإباحة والمجون .. فلم يعد الشعر طريقا إلى الحياة، ووسيلة للعيش، كما كان فى العصر الأول، الذى أغدق فيه الخلفاء والوزراء والأمراء على الشعراء بأنفس الجوائز والصلات[9].

---

[1] الحيوان ٤٠ ج٣، الشعر والشعراء ٧ و ٨، الكامل ١٨ ج١، العمدة ٧٤ ج١.

[2] أخبار أبى تمام ١٧٥ وما بعدها، رسائل ابن المعتز ١٤.

[3] العقد ص٤٠٢ ج٣.

[4] الوساطة ٣٧ وما بعدها، إعجاز القرآن ١٠٠.

[5] زيدان ١٥٧ ج٢.

[6] راجعها فى الكامل للمبرد ٢٨٨ و٢٩٠ ج٢، والمبرد شديد الإعجاب بها (٢٨٨ ج٢ الكامل)

[7] راجعها فى (٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب).

[8] ٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

[9] راجع أصفاد الملوك على المدح فى ١٥٨ - ١٦١ ج١ العقد الفريد.

وكان من رواة الشعر العربى طبقة من العلماء من البصريين والكوفيين والبغداديين، الذين كانوا يروونه إشباعًا لنهم فطرهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية[1] ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد، وعلى كل كلام له ماء ورونق، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب، والأخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب[2]. وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح ابن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى وأبان اللاحقى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن يسير والعتابى ومسلم وأبى تمام[3]، وغيرهم من رجال الأدب والبيان، من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لاسيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء[4].

ومهما كان فإن التجديد الشعرى فى العصر العباسى لم يتعد فى الأغلب صناعة الشعر وأنه منحصر فى الوجدانى منه، وهو يظهر لنا فى ثلاثة مظاهر : رقة العبارة، والتفنن فى المعانى، والتوفر على البديع اللفظى، وقد يضاف إليها التوسع فى المصطلحات اللفظية.

وقد كان نتاج الشعراء فى العصر العباسى ممتازًا بالدقة، ومبنيًا على دراسة النفس ومعرفة طبائعها وخصائصها، وفهم حقائق الحياة، واستشفاف أسرارها، وقل أن يعرى أديب عباسي من نصيب في الحكم والأمثال، ومن أشهرهم فى ذلك بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وأبو العتاهية، وأبو الطيب المتنبى، وأبو العلاء

---

[1] ٢٠٦/ ١ البيان.

[2] ٣/٢٢٤ البيان.

[3] ١/٥٤ البيان.

[4] ١/١٠٦.

المعرى، فقد كانوا أوفر من غيرهم حظا، وأحكم بناء، وأشعارهم مملوءة بالحكمة، وهذه أمثلة قليلة منها : قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

ويقول صالح بن عبد القدوس ١٦٧هـ وكان يجلس للوعظ فى مسجد البصرة[1]

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من دأبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرًا ... بعد الذى أبصرت من يبسه

ويقول محمد بن حازم الباهلى :

أشدُّ من فاقة وجوع ... إغضاء حر على خضوع
فارض من الدهر قوت يوم ... وأنت بالمنزل الرفيع
وارحل إذا أجدبت بلاد ... منها إلى الخصب والربيع
لعل دهرا أتى بنحس ... يكر بالسعد فى الرجوع

وجمع أبو العتاهية نحو أربعة آلاف مثل فى أرجوزة حكمية سماها ذوات الأمثال، ومنها:

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا ... من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذر ... إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
ما انتفع المرء بمثل عدله ... وخير ذخر المرء حسن فعله
من جعل النمام عينا هلكا ... مبلغك الشر كباغيه لكا
ما عيش من آفته بقاؤه ... نغص عيشًا كله فناؤه
من لك بالمحض وليس محض ... يخبث بعض ويطيب بعض
إن الشباب حجة التصابى ... روائح الجنة فى الشباب

---

[1] ٨ - ١٠ : ١٢ معجم الأدباء لياقوت، ومن شعره : ليس من مات فاستراح بميت ** إنما الميت ميت الأحياء

ويروى أن الجاحظ أنشدت أمامه هذه الأرجوزة يومًا، فلما وصل إلى هذا البيت، استوقف المنشد، ثم قال : انظروا قوله : روائح الجنة فى الشباب، فإن له معنى كمعنى الطرب، الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة، إلا بعد التطويل وإدامة الفكر، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه.

ويمتاز كذلك الشعر العباسى[1] بكثرة استدلالهم لما يذهبون إليه من رأى أو فكرة، بالحجج العقلية أو البراهين الشعرية، وذلك لأنهم أفادوا من دراسة الفلسفة والمنطق، وأصبحت نفوسهم لا تقنع بالرأى من دون دليل، ولأنهم فى التعمق وراء المعانى كانوا يصلون فى كثير من الأحيان إلى الحكم على الأشياء بغيرالمألوف؛ ولابد للحكم حينئذ من برهان يد عمه، أو قياس يقربه من مألوف الناس، ولذلك كثر فى أدبهم حسن التعليل، والمذهب الكلامى، والتذييل المشتمل على التشبيه الضمنى، وقد مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته:

ما فى وقوفك ساعة من بأس	نقضى حقوق الأربع الأدراس

فلما وصل إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم	فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الفيلسوف الكندى - وكان حاضرًا بالمجلس- الأمير فوق من وصفت، فاتكأ أبو تمام على ذكائه، واستنجد بديهته فأنجدته بقوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه	مثلا شرودًا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره	مثلا من المشكاة والنبراس

وما أنكر الناس[2] تطويل الشعر فى المدح حتى ضاق ابن الرومى بأهل زمانه، فاستخرج منه معنى بغيضًا، هو تيقن المادح أن الكرم لا يملأ نفس الممدوح، وأنه غائر تحت طبقات من البخل وكزازة النفس، فلابد للوصول إليه من تطويل الأسباب كما يطيل الرشاء من يمتح من بئر بعيدة الماء:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله	وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى	عند الورود لما أطال رشاءه

[1] ٨- ١٠: ١٢ معجم الأدباء لياقوت ، ومن شعره : ليس منمات فاستراح بميت * إنما الميت ميت الأحياء.

[2] مذكرة فى الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى.

وما كان الناس يأبهون لبكاء الطفل ساعة الميلاد، ولكن ابن الرومى الذى كان يتلمس لتشاؤمه العلل: التفت إليه، واتخذه دليلا على ما تعج به الحياة من رزايا، وما ترصده للأحياء من آلام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد

وما دام جمال الشيء أو قبحه بالدليل والبرهان؛ فقد تمكنوا من تحسين ما تعارف الناس على هجنته، وتهجين ما تواضع الناس على استحسانه، وقد كان البدر أسمى ما يشبه به وجه الحسناء في البهاء، ولكن عبد الرحمن بن المنجم يجرى على لسان حبيبته محاجة يكتب لها فيها النصر على البدر حيث يقول:

شبهتها بالبدر فاستضحكت ... وقابلت قولي بالنكر
وسفهت قولي وقالت : متى ... سمجت حتى صرت كالبدر
البدر لا يرنو بعين كما ... أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يميط المرط عن ناهد ... ولا يشد العقد فى نحر
من قاس بالبدر صفاتي فلا ... زال أسيرًا فى يدى هجرى

وما سمعنا أحدًا احتج للحقد قبل هذا العصر، ولعل أول من حاول ذلك عبد الملك بن صالح بن على بين يدى الرشيد، وكان يجد عليه، ويتهمه بالتطلع إلى الخلافة، فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من قدره تقربًا إلى الرشيد، فقال : يا عبد الملك، بلغنى أنك حقود، فقال عبد الملك : إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر؛ إنهما لباقيان فى قلبى، فقال الرشيد : تالله ما رأيت أحدًا احتج للحقد بأحسن مما احتج عبد الملك، وكان قول عبد الملك هذا نواة، أخذها ابن الرومى، فاستنبتها، ونماها، وأبداها كثيرة الغصون والأفنان فى قوله يزين الحقد أيضًا :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودع ... من الخير والشر انتحيت على عرضى
لما عبتنى إلا بفضل إبانة ... ورب امرىء يزرى على خلق محض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها ... بل العيب أن تدان دينًا ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية ... توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع ... من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولولا الحقود المستكنات لم يكن ... لينقض وترًا آخر الدهر ذو نقض
وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى ... وبعض السجايا ينتهين إلى بعض

فحيث ترى حقدًا على ذى إساءة فثم ترى شكرًا على حسن القرض

وقد نقض ابن الرومى ذلك فقال :

يا مادح الحقد محتالاً له شبهًا لقد سلكت إليه مسلكًا وعثًا
لن يقلب العيب زينا من يزينه حتى يرد كبيرًا عاتيًا حدثًا
قد أبرم الله أسباب الأمور معًا فلن ترى سببًا منهن منتكثًا
يا دافن الحقد فى ضعفى جوانبه ساء الدفين الذى أضحت له جدثًا
الحقد داء دوى لا دواء له يرى الصدور إذا ما جمره حرثًا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة فإنما يبرأ المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت ولا تكن لصغير القول مكترثًا
فالعفو أقرب للتقوى وإن جرم من مجرم جرح الأكباد أو فرثا
يكفيك فى العفو أن الله قرظه وحيا إلى خير من صلى ومن بعثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن تلقى أخاك حقودًا صدره شرثا
إذن وسرك أن ينسى الذنوب معًا وأن تصادف منه جانبًا دمثًا
فكيف تمدح أمرًا أنت تكرهه فكن - هديت - تميز كل ما اغتلثا

ومن خصائص الشعر العباسى أيضًا براعة التصوير، والافتنان فيه، وسمو الخيال، واتساع آفاقه، ولاشك أن لما أطلعتهم عليه الترجمة من آداب الأمم الأخرى مدخلا فى ذلك، فقد عرفوا مسالك غيرهم فى تصور الأشياء وتصويرها، ورأوا مسابح للخيال لا تقف عند الجزء أو تجهد فى تصويره، بل تنظر إلى الكل نظرة شاملة، تعين على إخراجه فى صورة كاملة مترابطة، ولعل إفادتهم فى هذه الناحية كانت محدودة لغلبة التأثر بالأدب القديم، ولكنها على كل حال؛ تركت آثارًا لا نكاد نلمحها عند السابقين عليهم. والحضارة لها كذلك نصيب . فالشاعر إنما يستمد صوره مما يحيط به، وقد لام ابن الرومى من قال له لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز، وأنت أشعر منه؟. فقال ألا تنشدنى شيئًا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله؟ فأنشده قوله فى الهلال.

انظر إليه كزورق من فضة فقال أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدنى، فأنشده قوله فى الآذريون الأصفر، وهو زهر أصفر، فى وسطه خمل أسود، وليس بطيب الرائحة :

كأن آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه؟ بالله لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ذاك انما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس؟ هل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفًا ... على الجو دكنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

ومن بديع الخيال قول أبي اسحاق إبراهيم بن موسى، يصور تلاحظ العاشقين بصورة معركة، يظفر أحد الطرفين فيها بالنصر. ويبوء الآخر بالقتل أو الأسر:

غزتني بجيش من محاسن وجهها ... فعبى لها طرفي، ليدفع عن قلبي
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها ... يريد اغتصاب القلب قسرًا على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا ... جعلت فؤادي في يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا ... على كبدي : يا صاح مالي وللحب
فصرت صريعا للهوى وسط عسكر ... قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وكذلك يقول ابن الرومي :

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حواني
مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ... ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات ... وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه ... وهو بادي الغنى عن الترجمان

ومن الآثار التي ظهرت في أدبهم : طول النفس وامتداده[1]، واتساع القصيدة لمئات الأبيات، فقد أقدرتهم مطالعة الفلسفة والعلوم العقلية على التفسير والتحليل، وامتلأت أيديهم بالمعاني والأفكار يبسطونها، ويقلبونها على جميع وجوهها، ويضعون الصور الكثيرة لها، ويحتجون بما وسعهم من الدليل والبرهان، وبذلك انفسح مجال القول أمامهم، انفساحًا لم ييسر لمن كانوا قبلهم، بل كان أمام متأخريهم أوسع منه أمام المتقدمين منهم، لتكامل الأسباب وتوافرها، ومصداق ذلك

---

[1] الأدب العربي للأستاذ أحمد شعراوي.

فى الرجوع إلى ما قدمناه من الاحتجاج للحقد، فقد تركز فى قول عبد الملك بن صالح: واتسع عليه وانبسط عند ابن الرومى حتى ملأ الكثير من الأبيات؛ وطول النفس غير الهلهلة التى يخلقها العجز والحيرة فى أداء المعنى. أو بعبارة أخرى، لا نقصد به ذلك الإسهاب العيي الناتج من ضعف الملكات وقصورها عن توضيح المراد إلا فى فضول من اللفظ، وإنما نقصد به إلى إشباع المعنى، ومعاودته بالتحليل والتفصيل، ودعمه بالبرهان والدليل، وعرضه فى معارض مختلفة من الصور الجميلة، لا فى مباذل من العبارات المتكررة، والجمل المترادفة.

ومن خصائصه كذلك المبالغة دون تهيب، ومجاوزة الحد فيما يثبتون من صفات المدح والذم، فقد أخذوا عن الفرس ما ورثوه من المغالاة فى تعظيم الأكاسرة، والديانة بالحق الإلهى المقدس؛ وأخذ الخلفاء الأدباء بهذا المبدأ، وحملوهم على الإغراق فى مدحهم، فتباروا فى هذا الميدان، يحاول كل منهم أن يفتح قلب ممدوحه بما يفخمه ويضخم ما هو فيه، أو بما يختلقه ويدعيه مما ليس فيه. وبذلك دخلت المبالغة والادعاء جميع أبواب الشعر، وبخاصة الهجاء؛ لأنهما مكنا فيه من الإيجاع والإيلام. وقد قال منصور النمرى فى مدح الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت أمرأ فالله رافعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله ... أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فلما اجتمع الشعراء بباب المعتصم بعث إليهم وزيره محمد بن عبد الملك الزيات يقول لهم : من يحسن قول النمرى : خليفة الله إلخ فليدخل، وإلا فلينصرف فقام محمد بن وهيب، وقال : فينا من يقول مثله، وأنشد قصيدة منها :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
فالشمس تحكيه فى الإشراق طالعة ... إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجا ... إذا استنارت لياليه به الغرر

ومنها :

فالخلق جسم له رأس يدبره ... وأنت جارحتاه السمع والبصر

وأبو نواس يهجو الرقاشي بقوله:

رأيت قدور الناس سودًا من الصلى ... وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يبينها للمعتفى بفنائهم ... ثلاث كنقط الماء من نقط الحبر

إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها ... أمامهم الحولى من ولد الذر
ولو جئنها ملأى عبيطًا مجزرًا ... لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

ويتصل بحديث المبالغة فى المعانى ظاهرتان لم تكونا قبل هذا العصر : إحداهما شيوع الخضوع والزلفى فى مخاطبة الرؤساء. فقد علوا بهم عن أن يوجهوا الخطاب إليهم، أو يصلوه بأسمائهم، واتجهوا إلى الحضرة والسدة وما أشبه ذلك، إرضاء لكبريائهم، ومظاهرة لغطرستهم. والأخرى : كثرة الألقاب التى تضاف إلى الأسماء، رغبة فى التفخيم من شأن أصحابها، والتهويل بأقدارهم، وما اتجه الناس قبل هذا العهد إلى أن يضيفوا للخليفة أو من يتصل به فى العمل لقبا يزيد على اسمه، حتى جاء أول خلفاء العباسيين فلقب نفسه بالسفاح، ففتح بذلك باب الألقاب للخلفاء، وكذلك صنع من كانوا يعاونونه، فقد افتنوا فى اختراع الألقاب الفخمة كالوزير، والسلطان، وذى اليمينين أو الرياستين، أو الوزارتين، أو الكفايتين، ورئيس الرؤساء، وما أشبه ذلك من الألقاب المركبة من إضافة الكلمات الضخمة إلى الدولة، أو الدين، والتى كثرت حتى فى عهود الضعف والانحلال، وأسبغت على من يستحق ومن لا يستحق، وما ألطف ما قال أبو بكر الخوارزمى فى أحد ذوى الألقاب:

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا ... من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو كان أولهم ... ما كان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا ... هذا، فأنفق فى الأقوام ألقابا

ألوان من صنعة المحدثين فى الشعر

كان الشعراء المحدثون يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التى يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان، التى يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها. كان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة "فكان كثير البديع فى شعره"[1].

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة[2]، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا منهما[3]، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابى

---

[1] ٣/٢٤٢ البيان.
[2] ١/١١٠ العمدة.
[3] ١/٥٥ البيان.

والنمرى ومسلم وأبو نواس[١]. فالعتابى يذهب شعره فى البديع[٢]، وكان يحتذى حذو بشار فى البديع[٣]، كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشباهما[٤] وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم[٥] وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب[٦]، وكان نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ماصب على قوالبه وجرى فى مضماره. حتى قال الجاحظ فيهما: معناهما واحد والعدة اثنان!. بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر؛ وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إذن، وليس بعد بشار مولد أشعر من أبى نواس[٧]، وكان أبو نواس يشبه بالنابغة[٨]، وكان أسير المحدثين شعرا[٩]. والصنعة واضحة بشكل ملموس فى ميميته :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم[١٠]

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبًا أدبيًا واسعًا للشعر ومذهبا جديدًا مأثورا إلا على يد المحدثين عامة[١١] وعلى يد مسلم وأبى تمام على الخصوص، فمسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان ببطىء فى صنعته ويجيدها[١٢]، بل هو فيما زعموا أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف[١٣]، وأول من أفسد الشعر

---

[١] ١/١١٠ العمدة.
[٢] ٣/٢٤٢ البيان.
[٣] ١/٥٥ البيان.
[٤] ١/٥٤ البيان.
[٥] راجع ٣/٢٠٠ الأغانى، ١/١١٠ العمدة ٢/١٣ زهر؛ ٢٥٠ موشح، ص٣ طبقات ابن المعتز. وكان الأصمعى يقول هو خاتمة الشعراء (٣/٢٣ الأغانى).
[٦] ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف.
[٧] ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى.
[٨] ١/١١٠ العمدة.
[٩] ١/١٧٣ العمدة.
[١٠] وهى فى ديوانه، وتنسب لمعن بن أوس خطأ.
[١١] ١/١٧٣ العمدة.
[١٢] ١/١١٠ العمدة.
[١٣] ١/٢٠ معاهد التنصيص.

بالبديع[1]، ويشيد به النقاد جميعا في مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره في هذا الباب[2]، وكان يتخذ الصنعة مذهبا يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا فعني بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعابيره كما يقيم المثالون تماثيلهم، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع في عصره. فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان[3].

وعمت موجة التصنيع بعد مسلم، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى "فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها، فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتي للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة وتأخذها بقوة. وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهبا في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة[4]، كان لأبي تمام مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء[5]؛ وربما أسرف في المطابق وفي المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها[6]، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه[7]، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريع والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس[8]، وعلى أي حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها سابلة وأكثر منها في أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس، على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا[9]، كان أبو تمام يستخدم في صناعة شعره وشي التصنيع الذي عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة وتصوير وأضاف إليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد في تصويره على صبغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة، والثقافة وحولهما إلى فن وشعر، فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع في شعره فيجلله

---

[1] ٨ الموازنة.

[2] ٦٨ المثل السائر، ١٠٩ طبقات ابن المعتز، ٣٧٢ معجم الشعراء، ٢٤٨ رسائل البلغاء، ٤/١٣٢ زهر.

[3] ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه.

[4] ١/١٠٩ العمدة.

[5] ٧/١٦٨ مهذب الأغاني.

[6] إعجاز القرآن.

[7] ٩٢ رسالة الغفران.

[8] ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبي تمام التي ذكرها الشهاب الخفاجي في - ريحانته ٣٠٤ - ٣٠٩)، وقد صنفها الخالدي على لسان أبي تمام يشكو فيها الطائي من الواعظ الموصلي الذي كان يغير على شعر أبي تمام في كلامه وشعره.

[9] ١/١١٠ العمدة.

الغموض في كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفني الذى أخذه به النقاد فهو يبتكر أفكارا وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما يريد، وجانب الغموض والمعانى العويصة في شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت فى فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تفرع من مذهب البرناسيين؛ وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد[1] وهو المقابلة .. وكان البحترى يتشبه بأبى تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه فى البديع[2].

وكان لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام[3] ويقل التصنيع له فإذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنا رشيقا وتصنعه للمطابقة كثير حسن، وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلامة[4]، والبحترى على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق، كان بدويا أعرابيًا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة[5]، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلانى، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر، بل كانت كالعسل حلاوة[6]، أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنه اللفظ وخشونته[7]، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع[8]، فهو حديث فى ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض فى فنه بألوان التصنيع وزخارفه، وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرجه إلى مجال المصنعين[9]، وهو مع ذلك قد يأتى بألوان الزخرف الفنى فى شعره ولكن دون أن يتخذها مذهبا، وكان يستخدم

---

[1] راجع ١١٦ و ١١٥ و١٢١ و١٢٣ و١٢٤ و١٣١ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى.

[2] ٧/١٨٣ مهذب الأغانى.

[3] أى من إسرافه فيه.

[4] ٩٦ إعجاز القرآن.

[5] ٩٠ الفن ومذاهبه.

[6] ٣٥ طبقات ابن المعتز والآمدى يفضل ابتداءاته (١/٢٠٥ العمدة) وكان مقصرا فى الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن) ، ويفضله الجرجانى بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (١/٢٠٥ العمدة).

[7] ١/١٠٦ العمدة ، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا للمعانى (٢٣٢ ج١ العمدة، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران) .

[8] ٩٤ الفن ومذاهبه.

[9] ٩٥ المرجع.

الطباق والجناس فى شعره وهو يشبه البحترى فى ذلك إلا أن البحترى يكثر من الجناس، وقد استعار من أبى تمام صبغ التدبيج[1].

وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به[2]؛ وكان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين وكان متكلفا مجيدا فى تكلفة كما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه، ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ولم يكن من المطبوعين[3]، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول :

وما أعلم شاعرًا أكمل ولا أعجب تصنيعًا من ابن المعتز، فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا البصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعًا وافتنانًا وأقربهم قوافى وأوزانًا ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب[4]؛ ولقد صدق ابن رشيق فى حكمه الأدبى على ابن المعتز وصنعته فإن له من رائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة فى صناعته ما يروع القارىء ويستبد بإعجاب المنصف من النقاد، "كان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع وكان مسلم ينهج نهجًا وسطًا"[5]، ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحياة.

أشهر الشعراء العباسيين

فى صدر العصر العباسى نجد ابن هرمة وبشارا وأبانوس، والعديد من الشعراء من أمثال مسلم وسلم الخاسر وأبى العتاهية ووالبة ومنصور النمرى وبكر بن النطاح وعلى بن جبلة والعتابى وأبى الشيص.

---

[1] وكان يلتزم حركة ما قبل الروى فى أكثر شعره (١٣٣ و١١ العمدة) وكان يلتزم القافية ١٣٧ و١٣٨/ ١ العمدة، وقد يلتزم الجزء وحركته قبل الروى ١٧٢ سر الفصاحة.

[2] ١١٠ ج١ العمدة.

[3] ٢٦٢ أسرار البلاغة.

[4] ١٠٩ و١١٠ ج١ : العمدة.

[5] ١٧٠ وماسدها الأسلوب للشايب.

كما نبغ كذلك الكثير من الشعراء، نذكر منهم: محمود بن الحسين الوراق ٢٣٠هـ وامتاز بالحكمة والأمثال[١]، وأبا تمام م٢٣١هـ. وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥ هـ)[٢]، وعبد الصمد بن المعدل م٢٤٠هـ[٣]، وعمار بن عقلي م٢٤٠هـ[٤] وأبا العميثل م ٢٤٠هـ شاعر عبد الله بن طاهر وكاتبه[٥]، ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦هـ)[٦]، وعوف بن محلم الخزاعي م٢٤٨هـ[٧]، وعلى بن الجهم م٢٤٩هـ[٨] والعطوى م نحو ٢٥٠هـ[٩]، والحسين بن الضحاك الخليع (١٦٢ - ٢٥٠هـ)[١٠] وبارق الكريزى وكان شاعر مكة فى أيام المتوكل وكان يتعصب على أبى تمام[١١] ومحمد ابن سلامة بن أبى زرعة الدمشقى وكان هو وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥هـ) شاعرا الشام[١٢]، وأبا عيينة عبد الله بن محمد بن أبى عيينة، المهلبى[١٣].

---

[١] راجع ١/١٣٨ أزهر، ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز.

[٢] هو عبد السلام الحمصى شاعر الشام وكان أبو تمام يحتذيه راجعه (١/٨٣ عمدة) وكان ماجنا (١/٣١٦ الدميرى)، وشهد له أبو نواس (١/٣١٦ الدميرى، ١/٥٢٥ وفيات الأعيان) ويروى ذلك عن دعبل (١/١٩٣ العمدة) وعن أبى تمام (١٥١ حلبة الكميت) وتوفى عن بضع وسبعين سنة (٣٥ الكشكول).

[٣] كان شاعر البصرة (٩٣ خاص الخاص، ٣/٧٤ زهر)، وأخوه أحمد شاعر كذلك (٣/٧٢ زهر).

[٤] ٢٤٧ معجم الشعراء، ١٤٩ - ١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز.

[٥] ٢/١٣٣ الدميرى، ٧٢ و٧٣ فهرست، ١٣٥ - ١٣٦ طبقات الشعراء لابن المعتز، ١/٤٧٠ ابن خلكان.

[٦] ١٩٣-١٩٨/ ٤ معجم الأدباء، ١٢٤ - ١٢٧ طبقات الشعر لابن المعتز، ٢٤٨ - ٧/٢٧٢ مهذب الأغانى. وله كتاب طبقات الشعراء (٢٢٩ فهرست) وكتاب فى شعراء بغداد (٦٧ المؤتلف) وكان شاعر علماء وعالم شعراء (٢٤٩ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف)، وكان يؤدب الفضل ابن العباس (٧/٢٥٦ مهذب الأغانى).

[٧] ٦٩ فهرست، ١٠١ خاص الخاص، ١/١٣٠ الأمالى.

[٨] ٢٨٦ معجم الشعراء، ١٥١ وما بعدها طبقات الشعراء لابن المعتز، ٣٩-٢/٤١ وفيات الأعيان، ٤/٦١ المسعودى. ٤٢٣ - ٢/٤٣٠ عصر المأمون، ٩٨ خاص الخاص وكان شاعر مفلقا مطبوعًا (١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز) وعلمه بالشعر أكبر من شعره (١٦٣ أخبار أبى تمام)، وكان أحسن الناس علما بالشعر (١٠٠ إعجاز القرآن للباقلانى) ومن الفضلاء بالشعر وصناعة له (١/١٧٠ عمدة) وراجع فيه (٤/٦١ مسعودى، ٩/١٠٥ الأغانى وما بعدها).

[٩] وكان له فن لم يسبق إليه ذهب فيه مذهب أصحاب الكلام (٢٠/٥٨ الأغانى) وكان أحد المتكلمين الحذاق (٤٣٣ معجم الشعراء)، وراجع ١٨٧ - ١٨٨ طبقات ابن المعتز، ٢/٢٣٢ الأمالى.

[١٠] ١١٣ المؤتلف، ٣٠ ج٤ معجم الأدباء، ٢٦٥ - ٣/٢٧٧ عصر المأمون، ١٢٧ - ١٢٨ طبقات ابن المعتز. وهجا المأمون ثم مدحه بقصيدة نالت استحسانه فعفا عنه (٢/٢٠٦ ديوان المعانى).

[١١] ٤٣٩ معجم الشعراء.

[١٢] ٤٢١ معجم الشعراء.

[١٣] ٢٧٥ - ٧/٢٩٥ مهذب الأغانى، ١٣٦ - ١٣٩ طبقات ابن المعتز، ٢٦٧ معجم الشعراء.

وكذلك الأخيطل محمد بن عبد الله بن شعيب[1] توفي نحو عام ٢٥٠هـ، ومحمود بن مروان بن أبي الجنوب بن أبي حفصة مدح المتوكل ولزم المعتز وخص به فقلده اليمامة والبحرين[2]، ومحمد بن أبي الوليد الكلابي مدحه المتوكل وكان شاعر أوانه[3]، ويزيد المهلبي[4] وتوفي نحو ٢٥٦هـ، والحمدوني إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصري[5]، وتوفي نحو عام ٢٦٠هـ، ومحمد بن دكين المتكلم ورثى المعتز وله أشعار يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد[6] توفي بعد عام ٢٥٥هـ، ويعقوب التمار وتوفي في آخر أيام المعتمد[7]، والخليع الأصغر محمد بن أحمد م ٢٨٠هـ[8] وابن الرومي (٢٢١ - ٢٨٣هـ)[9]، والبحتري م٢٨٤، وأبو الحسين الخزاعي م ٣٨٣هـ[10]، ومحمد بن علي بن حمزة العلوي م ٢٨٧هـ[11]، وأبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء الأنباري م٢٩٣هـ[12]، وعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر (٢٢٣ - ٣٠٠هـ)، ويحيى بن علي المنجم (٢٤١ - ٣٠٠هـ) وابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦هـ)،

---

[1] يسلك مسلك أبي تمام ويحذر حذوه (٤٣٢ معجم الشعراء) وأنشد أبا تمام شعرًا له فقال له : اذهب إذا شئت فليس للناس بعدي غيرك (١٩٥ طبقات ابن المعتز).

[2] ٥٠٢ معجم الشعراء.

[3] ٤٣٩ المرجع.

[4] ٧/٢٩٥ وما بعدها مهذب الأغاني وص٣٤٣ الموشح.

[5] راجع ٢٢٣ و٢٥٦ - ٢/٢٦٠ زهر وله في طيلسان ابن حرب أربعون مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى نادر أو مثل سائر (٩٤ خاص الخاص، ١٧٦ طبقات ابن المعتز)؛ وله قصيدة لامية جيدة في المطالب (٣٥ - ٢/٣٧ العقد).

[6] ٤٥١ معجم الشعراء.

[7] ٥٠٧ معجم الشعراء.

[8] ٤٥٢ معجم الشعراء وهو من ولد ابن قيس الرقيات.

[9] ٣٥٧ وما بعدها موشح، ٤١ - ٣/٤٤ وفيات الأعيان، ١٥١ - ١٥٦ مراجعات للعقاد، ٣١٣ - ٣٤٤ حصاد الهشيم للمازني، وابن الرومي للعقاد.

[10] ٢٩١ معجم الشعراء، وهامش ١٤٤ ديوان ابن الرومي.

[11] وكان شاعرًا راوية عالمًا (٤٥٣ معجم الشعراء).

[12] ترجمته في (٤٧١ - ١/٤٧٢ وفيات الأعيان، ١٩٨ طبقات ابن المعتز) وهو الناشيء الأكبر وكان في طبقة ابن الرومي والبحتري وابن المعتز وكان نحويًا عروضيًا متكلمًا أقام ببغداد ثم خرج إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره وكان متبحرًا في عدة علوم منها المنطق، وله قصيدة في فنون من العلم تبلغ سبعة آلاف بيت (١/٤٧١ وفيات)، وله كتابه الموسوم بتفضيل الشعر (١/١٧٥ العمدة) وينقل عنه الحصري (٤٩ - ٣/٥١زهر). وله منظومة في الشعر كتبها إلى أبي الصقر (٢/١٠٨ العمدة)، وله منظومة أخرى في الشعر (١٠٩ - ٢/١١٠) عمدة، ٣/٥١ زهر)، وله كلمة في تقسيم العلم عند الفلاسفة (١/١٢ العمدة)، وهو غير الناشيء الأصغر (٢٧١ - ٣٦٥هـ) الذي كان من شعراء سيف الدولة (٤٨ وما بعدها / ٢وفيات).

والبسامي علي بن بسام م٣٠٢هـ[1]، ونصر بن أحمد بن نصر الخبز أرزي المتوفى عام ٣١٧هـ[2]، وأبو بكر الحسن بن علي ابن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الشاعر المشهور (٢١٨ – ٣١٨هـ[3]) وابن طباطبا العلوى الأصبهاني م٣٢٢هـ[4].

ثم ظهر المتنبي والشريف الرضي، وأبو فراس الحمداني وكشاجم والرفاء ولو أواء الدمشقي، ومهيار الديلمي، وأبو طالب المأموني م٣٨٣ هـ، وأبو العلاء المعرى والطغرائي م٥١٣هـ، وابن سنان الخفاجي م٤٦٦هـ، وابن التعاويذي م٥٣٨ هـ، والأرجاني م٥٤٤هـ، والأبيوردي م٥٧٧هـ، وابن سناء الملك م٦٠٨هـ، وابن النبيه م٦١٩هـ، وابن الفارض م٦٣٢هـ، وابن مطروح م٦٤٩هـ، والبهاء زهير م٦٥٦هـ. وسواهم من عديد الشعراء.

طبقات الشعراء العباسيين

-١-

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك[5]، ومعنى الطبقة أنهم نظراء[6] وأنهم قريبون من بعض في منزلتهم الأدبية العامة وإن اختلفوا في اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الأدبي؛ والشعراء أربع طبقات: جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس[7]، ويضيف إليهم الشهاب الخفاجي

---

(1) يشبه الحطيئة في الهجاء (٢٠٨ وما بعدها خاص الخاص، ٢/٤٤ وما بعدها وفيات، ٤/٢٢٦ المسعودي) وهجاه ابن المعتز (٣/٩٠ زهر، ١٨٠ ديوان ابن المعتز) وأمه أمامة (٢١٤ فهرست) أخت أحمد بن حمدون ابن إسماعيل النديم. وكان حسن البديهة شاعرًا أديبًا (٥/٣١٨ معجم الأدباء) وأغلب شعره في الهجاء (راجع ٢٩٤ معجم الشعراء، وكان هو وإخوته يقرأون الشعر على فضل البريدي (١٧١ أدب كتاب للصولي).

(2) ٥٥-٣/٦٠ وفيات. وهو أحد المطبوعين المجودين وكان لا يعدل به أحد في زمانه (١/٤٩٨ سمط).

(3) كان ينادم المعتضد وكان بينه وبين ابن المعتز صحبة أكيدة فلما قتل ابن المعتز رثاه بداليته:

يـــا هـــر فارقتـــنا ولم تعـــد وكنـــت عـــندى بمـــنزل الولـــد

وجعلها في صورة رثاء هر له إخفاء على المقتدر (٢٤٥ – ١/٢٤٨ وفيات الأعيان. ١٣٩ نكت الهميان. ٣٣٦ و٣٣٧ ج٢ الدميرى) وعدد أبيات القصيدة ٦٥ بيتا وهي من أحسن الشعر وأبدعه كما يقول ابن خلكان.

(4) ٤٦٣ معجم الشعراء . ٦/٢٨٥ معجم الأدباء. ١٠٦ خاص الخاص.

(5) ٤٠١ الأدب العباسي لمحمود مصطفى.

(6) ٨٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب.

(7) ٤٥ تاريخ الأدب العربي للزيات.

طبقات، هم المحدثون ثم المتأخرون والعصريون[1] .. والشعراء العباسيون يقسمون إلى طبقات.

فالطبقة الأولى من العباسيين هم مخضرمو الدولتين، كابن هرمة وأبى دلامة م١٦١هـ والحسين بن مطير وأبو حية النميرى وسديف بن ميمون ويحيى بن زياد وأبو الهندى وابن الخياط المكى[2] وبشار م١٦٧هـ وصالح بن عبد القدوس م ١٦٧هـ أيضًا[3] وحماد عجردم م١٦٨هـ ومطيع م١٦٩هـ والسيد الحميرى م١٧٣هـ ومروان بن أبى حفصه (١٠٥ - ١٨١هـ)، ومن رجازها أبو نخيلة السعدى ورؤبة م١٤٥ هـ.

وقد تأثرت هذه الطبقة ولاسيما بشار بالفرس وحضارتهم تأثرا قويا وكان تأثرهم بعلوم اليونان قليلا بالقياس إلى من بعدهم .. وزعيم هذه الطبقة بشار، وهو أشعرهم[4]، فهو أستاذ المحدثين[5] وتقدمه فى طبقاتهم ورياسته عليهم من غير اختلاف فى ذلك يغنى عن وصفه وإطالة ذكر محله[6]، وسمى أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعانى ونهج لهم سبل البديع فاتبعوه[7]، وهو أستاذ المحدثين وبدرهم وصدرهم[8] .. ويجعل ابن رشيق أبا العتاهية م٢١١هـ من هذه الطبقة[9]. والصواب عده من الطبقة الثانية.

والطبقة الثانية : نشأت فى صدر الدولة، ومن شعرائها : والبة م ١٧٥هـ وسلم م١٨٦هـ[10]. والعباس بن الأحنف م ١٩٢هـ، وأشجع م ١٩٥هـ، وأبو الشيص م ١٩٦هـ[11]، وأبو نواس م١٩٨هـ[12]، والحكم بن قنبر، والفضل الرقاشى م٢٠٠هـ: وأبان

---

[1] ٣١٠ و٣١١ الريحانة.

[2] شاعر ظريف ماجن مدح المهدى (١٨/٩٤ الأغانى)

[3] وفى الدميرى أنه قتل عام ١٩٧هـ (١/٢٧ الدميرى) ولعله تحريف.

[4] ١/٨٣ العمدة.

[5] ٢٥٠ الموشح.

[6] ٣/٢٠ الأغانى.

[7] ٢/١٣٦ زهر.

[8] ٨٤ خاص الخاص.

[9] ١/٨٣ العمدة.

[10] ويعده بعض النقاد من الطبقة الأولى (١/٨٣ العمدة، ٢٨٠ العصر العباسى للسباعى بيومى).

[11] راجع ترجمته فى ٢٤٥ - ٢٤٨/ ٧ مهذب الأغانى.

[12] وفى الدميرى (١/٤٣) أنه توفى عام ١٩٤هـ.

م٢٠٠هـ[١]: ومحمد بن كناسة ١٢٣ - ٢٠٧هـ: وعلى بن جبلة العكوك (١٦٠ - ٢١٣هـ) [٢]. وبكر بن النطاح، ومحمد بن يسير الرياشي: وأبو سعيد المخزومي[٣]؛ والعتابى م ٢٢٠هـ، ومنصور النحوى[٤]، ومسلم بن الوليد م٢٠٨هـ: وأبو العتاهية م٢١١هـ؛ ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦هـ) ، وعمارة بن عقيل ٢٤٠هـ ، وهو ساقتهم[٥]؛ وعوف بن محلم الخزاعي م٢٤٨هـ، والحسين بن الضحاك م٢٥٠هـ، وليس فيهم نظير أبي نواس وليس يفضل عليه مولد سوى بشار[٦]، واشتهر منهم أبو العتاهية، وكان شيخ الطبع[٧]؛ وكان غزير البحر لطيف المعانى سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كان كثير الساقط المرذول وهو وبشار والسيد أطبع الناس[٨]، ويقول فيه ابن الأعرابى: ما رأيت أجمع ولا أقدر على بيت شعر منه وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر[٩]، وقال الأصمعي[١٠]: شعره كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف، وروى أبو حاتم عن أصحابه: لو أن طبع أبى العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس، وشعره كالماء الجارى رقة ألفاظ ولطافة سبك[١١][١٢]، والبارد فى شعره كثير[١٣] ويقول المبرد فيه: وهو حسن الشعر قريب المأخذ .. وزعيم هذه الطبقة أبو نواس وتجد له من بهجة اللفظ ودقيق المعنى ما يتحير فيه[١٤] ويقول فيه النظام: كأنه جمع له الكلام فاختار أحسنه[١٥]؛ وامتاز بفحش مجونه وتصويره لأخلاقه ولبيئته ووصفه الخمر؛ وهو ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وبعد هذه الطبقة يختلف النقاد :

---

[١] ترجمته فى ١-٥٢ الأوراق قسم أخبار الشعراء.

[٢] ١٨: ١٠٠ - ١١٤ الأغانى، ١١: ٣٥٩ تاريخ بغداد للخطيب، ٢: ٣٠ شذرات الذهب.

[٣] تلميذ العتابى وراويته ووصف اسحاق الموصلى شعره وشعر مسلم أمام الفضل بن يحيى وصفا رائعا. (راجع ٦٥ -١٣/٦٩ تاريخ بغداد).

[٤] بغدادى كثير الشعر جيده، ومدح المأمون(١/٥٧٨ سمط اللآلى، ٢٦٠ معجم الشعراء، ١٣٩-١٤٠ طبقات ابن المعتز، وفى الأمالى قصيدة لامية له (١/٢٥٩ الآمالى).

[٥] ويعده بعض الباحثين فى الطبقة الثالثة (٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى)

[٦] ١/٨٣ العمدة.

[٧] ١/٨٢ العمدة.

[٨] ٣/١٢٢ الأغانى.

[٩] ٣/١٢٧ الأغانى.

[١٠] ٣/١٤٠ الأغانى.

[١١] ٣/١٥٢ الأغانى.

[١٢] ٦٨ المثل السائر.

[١٣] ٥٩ صناعتين.

[١٤] ١٧٢ إعجاز القرآن للباقلانى.

[١٥] ٧/٢١٤ مهذب الأغانى.

١- ففريق يجعل أبا تمام م٢٣١هـ والبحترى م٢٨٤هـ وابن الرومى م٢٨٣هـ وابن المعتز م٢٩٦هـ طبقة واحدة هى الطبقة الثالثة التى خلفت طبقة أبى نواس[1] ويقول ابن رشيق طبقة حبيب والبحترى وابن الرومى وابن المعتز طبقة متداركة وتلاحقوا وغطوا على من سواهم حتى نسى معهم بقية من أدرك أبا نؤاس ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما فى مكاتبة أو مناقضة[2].

٢- وفريق يقسم هؤلاء ومن عاصرهم طبقتين فجعل فى الطبقة الثالثة: أبا تمام (١٩٠ - ٢٣١هـ)، وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥هـ)، ومحمود بن الحسين الوراق م ٢٣٠هـ، وعبد الصمد بن المعدل م٢٤٠هـ وأخوه أحمد؛ والحمدونى إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصرى، وأبا العميثل كاتب ال طاهر ٢٤٠م هـ؛ والعطوى وعلى بن الجهم م٢٤٩هـ، ويجعل فى الطبقة الرابعة : محمد بن اسحق الصيمرى، وعلى بن يحيى المنجم م٢٧٥هـ، وابن الرومى (٢٢١ - ٢٨٣ هـ)؛ والبحترى (٢٠٥ - ٢٨٤هـ)؛ وأبا العباس الأنبارى م٢٩٣هـ؛ وابن المعتزم ٢٩٦هـ؛ والبسامى م ٣٠٢هـ؛ والخبز أرزى م٣١٧هـ[3].

٣- وفريق يقسمهم ثلاث طبقات : فيجعل فى الثالثة أبا تمام وديك الجن ودعبل وابن الجهم؛ ويجعل فى الرابعة البحترى وابن الرومى؛ وفى الخامسة ابن المعتز والبسامى[4].

وفى العصر العباسى الثالث والرابع اشتهر من المشارقة السلامى لـ٣٣٩هـ. وابن نباتة السعدى م٤٠٥هـ، والشريف الرضى م٤٠٦هـ، ومهيار م٤٢٨هـ؛ وكانوا فى بغداد. كما اشتهر فى أمصار العراق أبو طالب المأمونى م٣٨٣هـ، والبستى م٤٠٠هـ، وصردرم ٤٦٥هـ، والباخرزى م٤٦٧هـ، والطغرائى م٥١٣هـ، وابن التعاويذى م٥٣٨هـ، والأرجانى م٥٤٤هـ، والابيوردى م٥٥٧هـ.

كما اشتهر من شعراء الشام ومصر: المتنبى م٣٥٤هـ، وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧هـ، وكشاجم م٣٨٠هـ، والسرى الرفاء م٣٦٦هـ، والوأواء الدمشقى م٣٩٠هـ، والببغاء م٣٩٨هـ، والنامى ٣٩٩هـ، وأبو بكر محمد الخالدى م٣٨٠هـ، وأبو عثمان

---

[1] ١/٨٣ العمدة.

[2] ٨٣/ ١ العمدة.

[3] ٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ٤٣ العصر العباسى الإسكندرى.

[4] ٣٨٠ العصر العباسى للسباعى بيومى.

سعيد الخالدى م٤٠٠هـ. ثم المعرى م٤٤٩هـ؛ وابن سنان الخفاجي م٤٦٦هـ؛ وابن حيوس م٤٧٣هـ؛ وابن الخياط الدمشقى م٥١٧هـ؛ وابن الساعاتى م٦٠٤هـ وابن قلاقس الإسكندرى م٥٣٢هـ، وابن سناء الملك م٦٠٨هـ، وابن النبيه م٦١٩هـ، وابن الفارض م٦٣٢هـ؛ وابن مطروح م٦٤٩هـ؛ والبهاء زهير م٦٥٦هـ.

من أئمة الشعر العباسى

كان أبرز شعراء القرن الثالث أبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وقد علمت مما سبق طبقتهم الشعرية.

كان أبو تمام وابن الرومى يتعمقان فى الثقافة وينزعان إلى التفكير ويؤثران المعانى العميقة والآراء البعيدة فى الشعر، وكان أبو تمام مع ذلك يتخذ الشعر صناعة فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختيارًا دقيقًا، ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التى عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم؛ من حيث كان ابن الرومى قانعًا بالغوص على المعانى دون التفات أو إيثار لألوان الجمال فى الأسلوب؛ أما أبو عبادة البحترى فقد كان قريبًا فى أفكاره واضحًا فى أسلوبه، يحب الصنعة ولكنه يؤثر منها ما كان موائمًا للفطرة العربية السليمة وللذوق الأدبى الخالص الذى لم تفسده آثار لحضارة وألوان الثقافة ومذاهب الصنعة فى الشعر، وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ما سواه؛ أما ابن المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديدًا، فتأنق فى ألفاظه وفى ألوان البديع وأصباغ الزخرف التى وشى بها شعره، وعنى بذلك عناية كبيرة، ومع ذلك فإنه لم يغفل نزعات التفكير التى كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التى امتزجت بالحياة العقلية فى هذا العصر الخصب، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبى تمام ومدرسة البحترى، ومثلهما أدق تمثيل، مع ظهور شخصيته ووضوح أثره فى الحياة الأدبية وتطور الشعر فى عصره ..ونحن بعد ذلك لا غنى لنا عن عرض آراء النقاد فى أبى تمام والبحترى وابن الرومى عرضا واسعا يوقفنا على اتجاه ومنهج كل شاعر فى التفكير والإنتاج.

أما أبو تمام فشاعر مبدع ألقيت إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء فى عصره وآثر فى نظم الشعر تجويد المعنى ودقته، فكان "لطيف الفطنة دقيق المعانى

غواصا على ما يستصعب منها[1]"، وهو "متكلف إلا أنه يصيب، وشغله المطابقة والتجنيس جزل المعاني، مدحه ورثاؤه لا غزله وهجاؤه، وطارت له أمثال وحفظت له أقوال[2]" "ولا يتعلق بجيده جيد أمثاله ورديئه مرذول مطروح[3]"، وكان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متتبعة"[4]، "وهو رأس في الشعر ومبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه[5]"، وقد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبالصنعة وقصد الربيع فهو أكثر الشعراء بديعا وافتنانًا وصنعة في شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعًا ولحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرًا، وهو من "المعروفين بجودة الرثاء[6]"، "ولم يكن له حلاوة توجب له حسن التغزل[7]، وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره[8]، وكان يأتي في شعره برد الإعجاز وعلى الصدر لا يأتي به إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه[9]، وقصيدته "متى أنت عن ذهيلة الحي ذاهل؟ محشوة بالصنعة وتكلف فيها ألوان البديع مما عيب هو وأشباهه عليه[10]، وشعره مباين للشعر في عصره مباينة واضحة من حيث تصوره للشعر وشدة أخذه نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفي كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعاني الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذي ينظم فيه، ويرى بعض المحدثين أنه يجيد في هذا المعنى وذاك ولكنه لا يعرض عليك العالم كله في حالة من الحالات[11]، ويرى آخر أن أبا تمام لا يعد في نظر أهل العصر الحاضر مثلا أعلى للشعر لأنه لم ينقل في شعره كثيرا من صور العواطف التي كانت تجيش بصدر المجتمع في ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية في عصره تمثيلاً صحيحًا ولم يكن كأبي العلاء حرًا في إبداء ما يختلج بنفسه من المعاني ولا شجاعا في بيان ما يعتقده حقا[12]. ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقته، وأخمل هو والبحتري في زمانهما

---

[1] ٧/١٦٨ مهذب الأغاني.

[2] ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف.

[3] ٢ الموازنة.

[4] ١٦٦ رسالة الغفران.

[5] ٣٧ أخبار أبي تمام للصولي. وراجع رد الآمدي عليه في ذلك ص٦ من الموازنة.

[6] ٢/٢٤١ العمدة.

[7] ٢/١١٣ العمدة.

[8] ١/١٨٢ العمدة.

[9] ١/١٨٣ العمدة.

[10] راجع ١٩٥ إعجاز القرآن.

[11] راجع مقالة للعقاد في الرسالة عدد ٤٥٨.

[12] ص٨ مقدمة مختصر شرح ديوان الحماسة.

خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون، وتتلمذ عليه كثيرون كالبحترى وسواه، وكان البحترى يقدمه وكذلك ابن الرومى[1]، ولم يدركه ابن المعتز وإن كان تتلمذ على أدبه وشعره.

وأما البحترى فتلميذ أبى تمام، وكان يتشبه به فى شعره، ويحذو حذوه فى البديع وكان يراه صاحبا وإماما[2]، ترسم خطا أبى تمام ومضى على أثره فى البديع إلا أنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى[3]، استمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة، ومن آراء العلم وقضايا المنطق والفلسفة، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته ورونقه حتى قال المتنبى فيه "أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى"، ويشيد النقاد بعذوبته وجمال لفظه وأسلوبه[4]، وهو فى عذوبة اللفظ وسهولته يسبق فى هذا الميدان، والكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ويقدمون رأيه فى البلاغة على ما وصفه:

فى نظام من البلاغة ما شك ... امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا ... حك فى رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختيارًا ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن ... به غاية المرام البعيد[5]

وهو من المكثرين فى وصف الخيال المجيدين فيه[6]، وأحسن الناس طريقا فى العتاب[7]، وكان بعض النقاد يختم به الشعراء[8] ونوه به الآمدى فى الموازنة أعظم تنويه[9]، وكان يذكر أن أجود شعره "أهلا بذلكم الخيال المقبل"[10]، وكان ابن المعتز يشيد بشاعريته وبقصيدته فى وصف إيوان كسرى وقصيدته فى وصف بركة

---

[1] ٦٥ أخبار أبى تمام.

[2] ٧/١٨٣ مهذب الأغانى.

[3] ٣٠٢ المثل السائر.

[4] راجع : ٢٤٩ رسائل البلغاء، ٧٣ أخبار أبى تمام للصولى، وكان يقال لشعره سلاسل الذهب (١/٣٧٨ كشف الظنون). وكثر الغناء فى شعره استظرافا لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة (١٢٨/ ١ العمدة).

[5] ١٠٠ إعجاز القرآن.

[6] ٩٩ ديوان الصبابة لابن حجلة.

[7] ٢/١٥٢ العمدة.

[8] ٧/١٨٣ مهذب الأغانى.

[9] راجع الموازنة، ١/٢٠٥ العمدة.

[10] ١٧٥ إعجاز القرآن.

المتوكل واعتذارياته[1]، وكان الصاحب يعجب بطريقة شعراء الشام المثلى التى هى طريقة البحترى فى الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة[2].

وإنما يوازن شعر البحترى بشعر شاعر من طبقته ومن هو فى مضماره أو فى منزلته[3] ونحن نفضل البحترى بديباجة شعره على ابن الرومى وغيره من أهل زمانه، ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقيده فى قوله[4]، والكتاب يفضلون البحترى على أهل دهره[5]، ويطيل الآمدى فى الموازنة بينه وبين أبى تمام[6].

وقد ترجم للبحترى ابن المعتز فى كتابه طبقات الشعراء ترجمة موجزة[7]. وكان يشيد بشاعريته وبسينيته فى إيوان كسرى وهائيته فى بركة المتوكل[8]، وكان ابن المعتز يجتمع به ويجلس معه[9].

وأما ابن الرومى فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع، وكان واسع العطن لطيف الفطن[10]، وهو أشعر أهل زمانه بعد البحترى وأكثرهم شعرا[11]، ويمتاز بطول نفسه فى قصائده[12] ولم يجعل للفظ شغلا شاغلا فى صناعته[13]، وكان من مختلقى معانى الشعر[14] وهو أولى الناس باسم الشاعر[15]، وهو غريب الأخذ[16]، ويرى صاحب

---

[1] راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز.

[2] ١/٩ اليتيمة.

[3] ١٩٠ إعجاز القرآن.

[4] ١٩١ المرجع .

[5] ١٩٢ المرجع .

[6] راجع الموازنة وعلى الأخص ص٢ و١٨٠ و١٨١ ويقول الآمدى إن النقاد لم يتفقوا على أيهما أشعر ص٢ الموازنة.

[7] ١٨٦ و١٨٧ طبقات الشعراء لابن المعتز وله تراجم فى ٩٦ - ٣/١٠٣ وفيات، ٧/١٨٣ ومابعدها مهذب الأغانى، ٣٣٠ الموشح وما بعدها.

[8] راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز.

[9] ٦ مقدمة ديوان البحترى.

[10] ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف.

[11] ٢٨٩ معجم الشعراء.

[12] ٣٠٨ ابن الرومى للعقاد.

[13] ٣١٦ المرجع.

[14] ٤/٢١٤ المسعودى.

[15] ١/٢٥٥ العمدة.

[16] ٣/١٠٥ زهر، وكان يأخذ الحكم الفارسية فينظمها شعرا (راجع ٣/٢٧٨ زهر).

الوساطة أن قصائده على طولها لا تعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين[1] وهو على أى حال شاعر مجيد وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث، ويمتاز ابن الرومى بتفضيله للفظ على المعنى وباستقصائه واختراعه وتوليده فى معانيه.

كان ابن الرومى شاعرًا مكتهل السن وابن المعتز ما يزال يافعا شابا، وكان ذلك يضع ابن الرومى موضع الأستاذ لابن المعتز، ولكن الأمير لم يبال به ولا تأثر تأثرا واضحا بشعره، لأنه كان بين الشاعرين صلات مقطوعة، ففضلا عن تفاوت السن كان ابن المعتز سنيا وابن الرومى معتزليا. وكان ابن الرومى يحب المستعين ويكره المعتز. كما أحب المهتدى وهجا المعتز قبل قتله. وكان لذلك ولا شك أثره فى نفس الأمير، فنقم على ابن الرومى واعتزله، ورفض الاتصال به، ولم يترجم له فى كتابه طبقات الشعراء مع أنه ترجم للبحترى[2] ولأبى تمام[3] ولأبى العيناء[4] والناشىء م٢٩٣[5] وسواهم.

وأما ابن المعتز فشاعريته وشعره مفصل فى كتابى "ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان".

بين أبي تمام والبحترى

١- بزغت شاعرية أبى تمام فى آفاق الأدب العربى فى مشرق القرن الثالث الهجرى، فهتف الناس بها، وأنصتوا إليها، معجبين بهذا الرجل الذى سار بالشعر العربى فى مضمار جديد ونهج غريب. ترك أبو تمام الحلبة التى جرى فيها الشعراء قبله، وأخذ يتحدث عن العواطف البشرية والحياة الإنسانية بلغة تباين اللغة التى ألفها الناس وتحدث بها قبله الشعر والشعراء. لم يقف فى المجال الضيق الذى وقف فيه الشعر العربى فترة طويلة بشار وبعده، بل أضاف إليه ثروة طائلة من شتى الأخيلة الرائعة والمعانى الدقيقة والحكم الإنسانية العليا، فكان له قدم وطيدة فى المعانى، وإبداع نادر فيها، وإغراب فيما يستنبطه منها، وتجديد فيما يأخذه من مألوفها، فهو حين يصف الغناء يصفه بلهجة جديدة مبدعة:

[1] ٥٤ الوساطة.

[2] ١٨٦ طبقات ابن المعتز.

[3] ١٣٣ المرجع.

[4] ١٩٦ المرجع.

[5] ١٩٨ طبقات الشعراء لابن المعتز.

ومسـمعة تقـوت السـمع حسـنا ولم تصـممه لا يصـم صـداها
مـرت أوتارهـا فشـجت وشـاقت فلـو يسـتطيع سـامعها فداهـا
ولم أفهـم معانـيها ولكـن ورت كـبدى فـلم أجهـل شـجاها

وحين يتحدث عن الغيث يتحدث عنه بنغمة ساخرة آخذة:

ديمـة سمحـة القـياد سـكوب مسـتغيث بهـا الـثرى المكـروب
لـو سـعت بقعـة لإعظـام أخـرى لسـعى نحوهـا المكـان الجديـب
لـذ شـؤبوبها فلـو تسـ ـطيع قامـت فعانقـتها القلـوب
كشـف الـروض رأسـه واستسـر الـ ـمحل مـنها كمـا استسر المريـب

وحين يتحدث عن صلات الأدب التى تؤلف بين الأدباء، يتحدث وكأن معه لسان كل أديب وعاطفة كل شاعر:

إن يكـد مطـرف الإخـاء فإنـنا نسـرى ونغـدو فـى إخـاء تـالد
أو يختـلف مـاء الوصـال فماؤنـا عـذب تحـدر مـن غمـام واحـد
أو يفـترق نسـب، يؤلـف بينـنا أدب أقمـناه مقـام الوالـد

وحين يشيد بذكر رجل تشيد معه الدنيا بذكره:

جـم التواضـع والدنـيا بسـؤدده تكـاد تهـتز مـن أطـرافها صـلفا

وحين يبكى الراحلين من أحبابه ويصف عصف النوى بنفوسهم ومغانيهم، يبدع حتى لكأن الناس جميعا تبكيهم معه، فيقول:

شهدت لقـد أقـوت مغانـيكم بعـدى ومحـت كمـا محـت وشائع مـن بـرد
وأنجـدتم مـن بعـد اتهـام داركـم فيادمع أنجدنـى علـى سـاكنى نجد

أو يقول :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعـاد قـتادًا عـندها كـل مـرقد
فأجـرى لهـا الإشـفاق دمعـا مـوردا مـن الـدم يجـرى فـوق خـد مـورد
هـى الشـمس يغنـيها تـودد وجههـا إلى كـل مـن لاقـت وإن لم تـودد

ثم يستمر فى توقيع لحنه الرائع :

ولكـنـنى لم أحـو وفـرا مجمعـا ففـزت بـه إلا بشـمل مـبدد
ولم تعطـنى الأيـام نومـا مسـكنا ألـذ بـه إلا بـنوم مشـرد

وهو حين يبكى المجد الآفل والبطولة الشهيدة تبكى معه الإنسانية جميعًا:

كـذا فليجل الخطـب وليفدح الأمر فلـيس لعـين لم يفـض ماؤهـا عـذر

توفيـــت الآمـــال بعـــد محمـــد وأصبح فـى شغل عن السفر السفر

وهو بعد ذلك كله رجل مرهف الشعور مشبوب العاطفة قوى الإحساس بالجمال تتجلى هذه الصفات جميعا فى أسلوبه الشعرى، فهو صاحب صنعة يطلبها ليرضى بها وجدانه ومشاعره وذوقه فتجيئه بعد نصب أحيانا وعفو الخاطر أحيانا أخرى. وهو فى أكثر ما يأتى به منها مبدع مجيد. ثم هو لا يرضى لمعناه الغريب الساحر. ولا لصنعته البديعة الآخذة إلا أسلوبًا عاليًا قويًا محكم النسج، يتأنق فى اختياره وطلبه تأنق المصور الماهر فى اختيار الألوان التى يجرى بها ريشته، ويبرز فيها لوحته.

ترجع هذه الروح الشعرية القوية التى تجلت فى شعر أبى تمام إلى أسباب بعيدة من الدم والعنصر، وأسباب قريبة من البيئة والثقافة. فأبو تمام رجل آرى نشأ فى بيئة عربية فكان له من العقلية الآرية حظ ومن الخيال السامى نصيب. يؤيد رأى هذا تلك الرواية التى ذاعت عن أبى تمام فى عصره وتناولها علماء الأدب بعد عصره، كالصولى والآمدى وابن خلكان[1] وياقوت وسواهما، وهى الرواية التى تؤكد لنا أن أبا تمام ولد فى الشام من أب نصرانى اسمه (تدوس). ولما نشأ فى طىء ادعى نسبه فيهم وحرف اسم والده فصار "أوسا" وإذا نظرنا إلى الشعراء الذين ساءت علاقاتهم بأبى تمام كمخلد بن بكار الموصلى والوليد، وجدناهم يتهكمون بدعوة أبى تمام تهكما لاذعا ساخرا. ألا نسمع قول مخلد فيه:

أنـــا مـــا ذنـــبى إذا خـــا لفـــــنى فـــيك الأنـــــام
أنـــت عـــندى عـــربى عـــــربى والســـــلام

أو قوله أيضًا :

ويحـــك مـــن دلاك فـــى نســبة قلـــبك مـــنها الدهـــر مذعـــور
إن ذكـــرت طـــاء عـــلى فرســـخ أظـــلم فـــى ناظـــرك الـــنور

أو قول الوليد فى التهكم به:

دع الهجـــاء فـــإن الله حـــرمه واقصد إلى الحـق إن الحـق متسع
واذكـر حبيب بـن أوشـونا ودعوتـه فـإن طـيا إذا سـبو ابـه جـزعوا

ألا تراه يؤكد ذلك وينبه على أنه يتكلم كلمة حق؛ وأن فى الحق ميدانا متسعا للنقد والتهكم، وألا ترى الوليد يظهر لنا طيا فى صورة الجزع الهلوع إذا ما

---

[1] ص٥ - ٣٩ ابن خلكان ج٤.

ذكرت بدعوة أبى تمام فيهم! ولا يضيرنا هذا التغاير فى اسم والد أبى تمام وسواء أكان تدوس أم أوشونا فإن الغاية واحدة؛ والعربى كثيرا ما ينطق الاسم الأعجمى نطقا بعيدا عن أصله ومحرفا عن حقيقته. ثم ألا يكون لنا من ذلك دليل ملموس يؤيد ما نذهب إليه؟ على أننا لا ننكر أن تخرج الروح العربية السامية شاعرية كشاعرية أبى تمام، ولكننا نقول : إن عقلية أبى تمام العربية قد أتت بالبدع العجيب، وسما بها أن لقحت بثقافة أخرى استمدها الشاعر من عناصر الدم والجنس الذى كان له مظاهر نفسية وفكرية فى عقل أبى تمام فخرج فى ذكائه النادر وعقليته الناضجة وملكاته الشعرية الخصبة .. ثم وراء هذا السبب أسباب قريبة تأثرت بها روح أبى تمام وتلونت بألوانها : فنشأته فى طىء وتثقفه بثقافتها العربية، وسطوع نجم الأدب والشعر فى عصره حين كان الأدب عامة والشعر خاصة سمر المجالس وحديث الخاصة ووسيلة الثروة والجاه والمجد، ثم إقباله على الأدب والشعر يروى ظمأه ونهمه من مشارعهما العذاب؛ كل تلك الأسباب ساعدت على السمو بشاعرية أبى تمام إلى الذروة، وبلوغها الغاية التى ينشدها الشعراء؛ حتى كان لها الأثر البالغ فى الأدب والشعر فى عهد أبى تمام وبعده، وحتى شغل بها الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم ومذاهبهم؛ ولقد بلغ من أثرها أن كان الشعراء لا يستطيعون أخذ جائزة إلا بإذنه، ولا ينالهم خير إلا بسببه؛ وكان جميع الشعراء فى عصره يعترفون بشاعريته ويقرون بأستاذيته، ويقتفون أثره فى صنعته ونهجه الشعرى[1]، وجرى على وتيرته الشعراء بعده، فنهلوا من منهله، وساروا على طريقته، كابن المعتز[2] والمتنبى وسواهما.

ب- وشاء القدر أن يظهر فى عهد أبى تمام وعلى يديه ومن قبيلته طىء، شاعر مطبوع : هو أبو عبادة البحترى، الذى نهج السبيل المعبدة التى نهجها الشعراء قبله، وآثر مذهب العرب الشعرى الموروث على مذاهب المحدثين المبتدعة، فعنى باستواء النظم، وصحة السبك، وحلاوة اللفظ، أكثر مما عنى بالمعانى والغوص على نافرها البعيد، فخرج شعره ساحر الرونق، صحيح الطبع، قريب المعانى واضحها قربه من مذهب العرب الشعرى وأسلوبهم فيه، أو كما يقول البحترى نفسه :

ومعان لو فصلتها القوافى	هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارًا	وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدرك	ن به غاية المرام البعيد

---

[1] ويقول فيه صاحب الوساطة: وأراه قبلة اصحاب المعانى وقدوة أهل البديع.

[2] ٢٦٢ أسرار البلاغة.

حتى قال الناس : "نظم البحترى[1]" واتخذوه مثلا، وحتى قيل فيه إنه آثر اللفظ[2] على المعنى وأراد أن يشعر فغنى، وقيل : "أعرابى الشعر وما فارق عموده". وقد قال البحترى عن مذهبه هو ومذهب أبى تمام فى الشعر : "أبو تمام يغوص على المعانى، وأنا أقوم بعمود الشعر". وملك البحترى إمارة الشعر فى عهده كما ملكها أبو تمام من قبل، حتى روى أنه أخمل خمسمائة شاعر[3] فى زمنه، وذهب بجاه الشعر ومجده دون كثير من الشعراء، واتبعه فى نهجه الشعرى معاصروه ومن بعدهم من الشعراء.

جـ - أثر الشاعرين فى النقد الأدبى : ودفعت نقاد الشعر وعلماءه إلى العناية بشعر الطائيين أسباب كثيرة : من اتحاد بيئة الشاعرين وتقارب عصريهما، وغزارة شعرهما وجودته، وسمو إلهامها، وتباين نهجيهما فيه، فدرس الأدباء والنقاد شعر الرجلين فى عصرهما وبعد عصرهما، وعنوا بنقده، ولجوا فى الموازنة بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر، وتعصب لهذا فريق ولذلك فريق: فأما من تثقف بالثقافة العربية المحضة، وطبع طبعه على حبها، واكتسب الأدب بذوقه، فلم ير الشعر إلا لامرىء القيس والنابغة، أو لجرير والفرزدق، أو لبشار وأبى نواس، وآثر منه ما كان كثير الماء صحيح الطبع قريب المأخذ والمعانى، مستوى الأسلوب غير مستكره اللفظ ولا معقد التراكيب. كأبى سعيد الضرير الشاعر وأبى العميثل شاعر آل طاهر م٢٤٠هـ وكالمبرد م٢٨٥هـ والآمدى م٣٧١ هـ فهؤلاء آثروا البحترى وقدموه، ودفعوا أبا تمام عن بلوغ غايته؛ وأما من تزود مع الثقافة العربية بنصيب من الثقافات الأخرى فأقبل عليها يدرسها ويتأثر باتجاهها ومنحاها العقلى، ومال إلى الفكرة البعيدة والمعانى الغربية والمثل السائر والحكمة البليغة، فقد آثر أبا تمام وفضله تعصب له، كالصولى وقدامة[4]، وكعمارة ابن عقيل وسواهم، على أننا نجد طائفة قد تعصبت على الرجلين معا، وهم الذين لجوا فى معاداة المحدثين وشعرهم ولم يروا الشعر إلا ما كان قديما جاهليا أو إسلاميا أمويا، وختموا سجل الشعراء بابن هرمة وبشار، وهم رواة اللغة والأدب الذين عكفوا على الشعر الجاهلى وما قرب منه جمعا ورواية ودراسة كالأصمعى (٢١٣هـ) وابن الأعرابى ويحيى بن أحمد الشيبانى وسواهم ممن لا

---

[1] اليتيمة.

[2] ابن الأثير ص٣٠٤.

[3] ١٣٥ وساطة و٥ موازنة.

[4] ألف كتابا فى الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام.

يرى لمحدث فضلا ولا يقر له بإحسان، ينهجون في ذلك نهج أستاذهم أبي عمرو بن العلاء الذى كان لا يحتج بيت إسلامي، وكان يقول في شعر جرير والفرزدق: لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين؛ وسئل عن المولدين فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم - ٧٣ ج١ عمدة و٢٠٩ ج١ بيان - ألا ترى ابن العربي الأعرابي ينشده الطوسي أرجوزة هي لأبي تمام فيستحسنها ويستجيدها ويأمر بكتابتها وهو لا يعرف أنها له، فلما أخبره أنها لأبي تمام ذمها وأسقطها وقال : خرق يا غلام!

وهكذا كان المتعصبون على أبي تمام أحد رجلين: رجل لا يدفع فضل المحدثين ولكنه يؤثر اللفظ والأسلوب على المعنى والإغراق فيه والعناية باستنباط لطيفه؛ ورجل نقم على أبي تمام مكانته فراح يطعن فيه ويتعصب عليه كدعبل، ولم يعدم المتعصبون على أبي تمام وله حجة يؤيدون بها آراءهم وحكمهم، وأخذت حركة النقد تستعر، وأخذ المؤلفون يؤلفون الكتب في نقد الشاعرين وتفضيل أحدهما، فألف ابن المعتز (م سنة ٢٩٦هـ) رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساويه، وألف أبو العباس القطربلي[1] كتابا في إحالة أبي تمام وخطئه، وألف أحمد بن طاهر سنة ٢٨٠هـ وأحمد بن عمار في سرقاته، كما ألف أبو الضياء بشر بن تميم كتابا في سرقات البحتري وأبي تمام، وفي القرن الرابع ألفت كتب كثيرة في هذا الموضوع أهمها أخبار أبي تمام لأبي بكر بن محمد بن يحيى الصولي م سنة ٣٣٦هـ أشاد فيه بأبي تمام ورفع مكانته وتعصب له وقدمه، وكتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن ابن بشر بن يحيي الامدى م سنة ٣٧١ عرض فيه شعر الشاعرين على ميزان النقد، ثم وازن وناقش وحكم، جانحا إلى إيثار البحتري وتفضيله، ولم تخل أمهات كتب الأدب وأصوله كالأغاني والمرزباني ومعجم الأدباء وسواها من الكتب من الكلام على الشاعرين وشعرهما وإثارة حركة النقد والموازنة بينهما.

موازنات بين قصائد من الشعر العباسي

وهذه موازنات أدبية جديدة بين هؤلاء الشعراء الأربعة : أبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز، حيث ندرس كثيرا من الآثار الأدبية التي تجمعها وحدة واضحة في الغرض أو في الاتجاه؛ لنكون من هذه الدراسة رأيًا صحيحًا في أحكامنا الأدبية على هؤلاء الشعراء.

---

[1] ٦٢ موازنة.

١-قال أبو تمام في الغيث :

ديمــة سمحــة القــياد ســكوب ... مســتغيث بهــا الــثرى المكــروب
لــو سـعت بقعــة لإعظــام أخــرى ... لسـعى نحوهـا المكـان الجديـب
لــذ شـؤبوبها وطـاب فلــو تسـطيع ... قامــــت فعانقـــتها القلـــوب
فهـــى مـــاء يجــرى ومــاء يلـــيه ... وعــزالى[1] تنشــأ وأخــرى تــذوب
كشـف الـــروض رأســـه واستســر ... المحـل منها كمـا استسـر المريـب
فـإذا الــرى بعـد محـل وجــرجا ... ن لديهـــا يـــبرين أو مـــلحوب
أيهــا الغيـــث حـــى أهـــلا بمغـــدا ... ك وعـــند الســرى وحــين تــؤوب

وقال ابن الرومى :

ســحاب قيســت بالـبلاد فألفيــت ... غطــاء عــلى أغوارهــا ونجودهــا
حدتهــا الــنعامى مــثقلات فأقبلــت ... تهــادى رويــدا ســيرها كــركودها
غــيوث رأى الإمحــال فــيها حمامــه ... فــرين حــياة الأرض بعــد همودهــا
أظلـت فقـال الحـرث والنسـل هـذه ... فــتوح سمــاء أقبلــت فــى ســدودها
فأطفــأ نـــيران الغلـــيل مواطـــر ... مضــرجة نيرانهـــا فـــى وقودهـــا

وقال البحترى :

ذات ارتجـــاز بحـــنين الـــرعد ... مجــرورة الذيــل صـدوق الوعــد
مســفوحة الدمـــع بغــير وجـــد ... لهـــا نســـيم كنســـيم الـــورد
جــاءت بهــا ريــح الصـبا مــن نجـد ... فانتـــثرت مـــثل انتـــثار العقـــد
فراحـــت الأرض بعـــيش رغـــد ... مــن وشــى أنــوار الــربا فــى بــرد

وقال ابن المعتز :

وغيـث خصـيب الـترب تـندى بقاعـه ... بهـيم الـذرى أثـواب قـيعانه خضـر
رحيــب كمــوج الــبحر يلــتهم الــربا ... ويغــرق فــى أكلائــه الــنعم الدثــر
ألحـــت علــيه كــل طخــياء ديمــة ... إذا مــا بكــت أجفانهــا ضحــك الزهــر
فمــا طلعــت شمــس الــنهار ضحــية ... ولا أصـــلا إلا ومـــن دونهـــا خـــدر
كـأن الـرحاب الجـون والفجـر ساطع ... دخــان حــريق لا يضــىء لــه جمــر

---

[1] جمع عزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها.

وقال أيضًا :

وســـــارية لا تمـــــل الـــــبكا — جـرى دمعهـا فـى خـدود الـثرى
سـرت تقـدح الصـبح فـى ليـلها — بـــبرق كهـــندية تنتضـــى
فـلما دنـت جلجلـت فـى السـما — ء رعـــدا أجـــش كجـــر الـــرحا
ضـــمان علـــيها ارتـــداء الـــيفاع — بأنوارهــــا واعـــــتجار الــــربا
فمـــــا زال مدمعهـــــا باكـــــيا — على الترب حتى اكتسى ما اكتسى
فأضـحت سـواء وجـوه الـبلاد — وجـــن الـنبات بهـــا والـــتقى

فتجد لأبى تمام الأسلوب الجيد والتصوير الجيد والاستعارات الرائعة والمعانى المبتكرة والمبالغة المقبولة والشعور العميق بأثر الغيث فى الأرض وحاجة الأرض للماء. ونجد ابن الرومى يصف الغيث بالكثافة والإطباق وكثرة الماء وحاجة الأرض إليه، مع تقصير عن أبى تمام فى التصوير والوصف والأسلوب، ومع اعتماد عليه وأخذ من معانيه كما تراه فى بيته الذى قبل الأخير. وتجد للبحترى أسلوبه الجميل وصياغته الفنية ولكنك لا تحس بأثر لشخصيته فيما وراء الأسلوب من معنى وتصوير وخيال، بل هو فى ذلك مقلد كسواه من الكثير من الشعراء. ولكنك تجد ابن المعتز قد ازدحمت فى أسلوبه الصياغة الفنية الدقيقة والصور الشعرية الكثيرة التى تغلب عليها روح الإيجاز وجزالة الأسلوب فى قطعته الأولى وعذوبته فى الثانية مع جمال التشبيه والاستعارة والطباق، وهو فى قطعته الثانية يقف بجانب أبى تمام فى المعانى والتصوير وظهور أثر شخصيته الواضحة فى الأسلوب والتعبير.

٢-وقال أبو تمام فى ذكرى فراق أحبابه له :

نســـائلها أى المواطـــن حلـــت — وأى بـــلاد أوطنـــتها وأيـــت؟
ومـاذا علـيها لـو أشـارت فودعـت — إليـــنا بأطـــراف البـــنان وأومـــت
ومـا كـان إلا أن تولـت بهـا الـنوى — فـــولى عـــزاء القلـــب لمـــا تولـــت
فأمـا عـيون العاشـقين فأسـخنت — وأمـــا عـــيون الكاشـــحين فقـــرت
ولمـا دعـانى الـبين وليـت إذ دعـا — ولمـــا دعاهـــا طاوعـــته ولبـــت
فـلم أر مثـلى كـان أوفـى بعهدهـا — ولا مثـلها لم تـرع عهـدى وذمـتى

ويقول فى موقف الوداع :

أمـا وقـد كتمـتهن الخـدور ضـحى — فـــأبعد الله دمعًـــا بعدهـــا اكتـــتما
لما استحر الوداع المحض وانصرمت — أواخـــر الصـــبر إلا كاظمـــا وجمـــا

رأيـت أحسـن مـرئى وأقـبحه مسـتجمعين لى : الـتوديع والعـنما
فكـاد شـوقى يـتلو الدمـع منسـجما إن كـان فى الأرض شوق فاض فانسجما

وقال ابن الرومى :

لسـت أنسـى امتـناع صـبرك للـتو ديـع والـبين مـؤذن بشـتات
وانحـدار الدمـوع كـاللؤلؤ الرطـب هـوى مـن مدامـع قـرحات
والـتفاتا نحـوى وقـد قبضـتنى عـنك أيـدى الفراق حـال الـتفاتى
ومقالا جـرى وللشوق فـى الأحشاء نـار ألـيمة الحـرقات
حـاطك الله بـالكلاءة والصـنع ووقـاك أعـين العـائدات

وقال البحترى:

مـا أرى الـبين مخلـيا مـن وداع أنفـس العاشـقين حـتى تبيـنا
وبـود القلـوب يـوم اسـتقلت ظعـن الحـى أن تكـون عـيونا
مـنزل هـاج لى الصـبابة والشـو ق قريـنى فـيه فسـاء قريـنا
يـوم كـان المقـام فـى الـدار شـكا يبعـث الحـزن والرحـيل يقيـنا

وقـال :

قـد أرتـك الدمـوع يـوم تولـت ظعـن الحـى مـا وراء الدمـوع
عـبرات مـلء الجفـون مـرتها حـرق للفـراق مـلء الضـلوع
إن تبـث وادع الضـمير فعـندى نصـب مـن عشـية الـتوديع

وقال ابن المعتز :

لا مـثل مـن يعـرف العشـاق حـبهم بـل أنـت مـن بينهم تشقى بمن تمق
نـأوا بلـيل فـزموا كـل يعملـة ويعمـل جمـل فـى أنفـه الحلـق
إنـى وأسمـاء والحـى الذيـن غـدوا بها على الكرم من نفسى وما وثقوا
لكالربـيط وقـد سـيقت قرينـته يـنازع الحـبل مشـدودًا ويـنطلق
فطـيروا القلـب وجـدا بـين أضـلعه وعذبـوا الـنفس حتى ما بهـا رمـق
مـا أنـس لا أنـس إذ قامـت تودعـنا بمقلـة جفـنها فـى دمعهـا غـرق
تفـتر عـن مقلـة حمـراء موقـدة تكـاد لـولا دمـوع العـين تحـترق
كأنهـا حـين تـبدو مـن مجاسـدها بـدر تمـزق أركانـه الغسـق

فتجد أبا تمام يتصرف فى المعانى المعروفة تصرف حسنا ويصوغها صياغة قوية فيها صنعة كثيرة أظهرها المقابلة. فهو فى البيت الأول يتساءل فى حزن عن

الديار التى أمتها محبوبته مع بعض القبح فى تكرير "أى وأيت" إذ لا فائدة لهذا التكرار ولا جديد وراءه. وفى البيت الثانى يتحسر لعدم توديع محبوبته له قبل سفرها البعيد ولو بإشارة عابرة بأطراف البنان، ويصور فى الثالث حزنه لفراقها، وكذلك فى الرابع إلا أنه يضيف فيه إلى ذلك فرح خصومه بهذا الفراق وفى البيتين الأخيرين يصور وفاءه لعهد الحب وخيانتها لهذا العهد المقدس؛ وكذلك هو فى أبياته الأخرى، معان واضحة معروفة يلم بها الشاعر فى كثير من تعقيده الفنى فى صياغته وصناعته الشعرية، ولكنك تجد لابن الرومى تصويرًا بارعًا، ينطق عن شعور صحيح بألم الوداع، وإدراك صادق لأحزان الفراق، وتأثر واضح بهذه الساعات الحافلة بالذكريات، والتى يعز فيها على الأحباب الصبر. فتنحدر الدموع من عيونهم القرحات، ويعزون أنفسهم بتتبع أبصارهم للحبيب الراحل حين رحيله، وبالدعاء له بأن يحوطه الله بالرعاية، وأن يحفظ عليه شبابه وجماله، ويمنع عنه أذى الحاسدين والعائدات، وينزل البحترى عن هذه الدرجة العالية التى بلغها ابن الرومى فى أبياته، فهو لا يشعر إلا بما يشعر به الناس، وإن أوتى عذوبة التعبير وجمال الأداء، بل إنه يخرج على أدب الحب فيعلن سخطه على حبيبه الراحل. وابن المعتز يصل فى أبياته إلى درجة ابن الرومى ولكن يهبط به أنه لم يتناول موقف الوداع وتصويره ببساطة ابن الرومى وصدق تصويره، ولكنه على أى حال فوق أبى تمام والبحترى فى قوة الشعور وتأجج العاطفة وظهور الشخصية ووضوح التصوير الذى يمتزج فيه الفن بالفكرة والشعور، ويتراءى فى ثوب من العذوبة والترف لولا بيته الثانى الذى أضعفه بيعملته ويعمله الجمل كما يقول :

٣-وقال أبو تمام فى الشيب :

لعب الشيب بالمفارق بل جد ... فأبكى تماضرًا ولعوبًا
خضبت يدها إلى لؤلؤ العقد ... وما أن رأت شواتى خضيبًا
كل داء يرجى الدواء له إلا ... الفظيعين : ميتة ومشيبا

وقال :

فلا يؤرقك إيماض القتير به ... فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب

وقال :

له منظر فى العين أبيض ناصع ... ولكنه فى القلب أسود أسفح

وقال ابن الرومى :

قالوا المشيب نذير، قلت : لا وأبى ... لكن بشير يجلى وجهه الكربا

أليس يخبر من أرسى بساحته ... أن اللحاق بحب النفس قد قربا
يا حسن هاتيك بشرى عند ذى أسف ... على الشبيبة والعيش الذى نضبا
لم يرع حق شباب كان يصبحه ... من لم يحبب إليه فقده العطبا
لو لم يجب حفظه إلا بأن له ... حق الرضاع على إخوانه وجبا
أخى وإلفى وتربى كان مولدنا ... معا وربتنى الأيام حيث ربا
يضمنا حجر أم فى رضاعتنا ... وملعب حين ناغت بيننا اللعبا
إن الشباب لمألوف لصحبته ... تلك القديمة، مبكى إذا ذهبا
والشيب مستوحش منه لغربته ... والشى مستوحش منه إذا غربا

وقال :

لا بدع أن ضحك القتير ... فبكى لضحكته الكبير

وقال :

قد يشيب الفتى وليس عجيبا ... أن يرى النور فى القضيب الرطيب

وقال البحترى :

عيرتنى المشيب وهى بدته ... فى عذارى بالصد والاجتناب
لا تريه عارا فما هو بالشيب ... ولكنه جلاء الشباب
وبياض البازى أصدق حسنا ... إن تأملت من سواد الغراب

وقال :

عذلتنا فى عشقها أم عمرو ... هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمة ألم بها الشيب ... فريعت من ظلمة فى شروق
ولعمرى لولا الأقاحى لأبصر ... ت أنيق الرياض غير أنيق
أى ليل ينهى بغير نجوم ... أو سحاب يندى بغير بروق ؟

وقال ابن المعتز :

صدت شرير وأزمعت هجرى ... وصغت ضمائرها إلى الغدر
قالت : كبرت وشبت، قلت لها ... هذا غبار وقائع الدهر

وقال : إن شيب الرأس نور الهموم

وقال :

قد أنكرت مشيبا ... عمر رأسى واستعر
يا هند ما شاب قلبى ... وإنما شاب الشعر

وقال :

رأت أقحوان الشيب لاح وأذنت ... ملاحات أيام الصبا بوداع
فقالت: محاك الدهر فى صبغة الصبا ... وكنت من الفتيان خير متاع

فنجد الصنعة تهجن من أبيات أبى تمام الأولى الثلاثة وتضع من قيمتها، ثم تخف وطأة هذه الصنعة فى الثلاثة الأخيرة فتعجبك، وتعجب بها وباحتجاجه للمشيب مع شعوره بالحزن منه.

ولكنك تجد عند ابن الرومى عمق شعور بالشباب وحزن عليه ووفاء له، وعمقا فى تصوير ذلك كله، يفوق كل حد، ويبلغ غاية الجمال، ويملك عاطفتك ويستبد باستحسانك؛ مع تعليل للنفس فى بيته الأخير. والبحترى فى أبياته يحاول إقناع حبيبته أم عمرو بالرضا بحالته ومشيبه، فاحتج بما أسعفه بيانه وتفكيره بالاحتجاج به، فى أسلوب مألوف ومعان قريبة؛ وبيته "وبياض البازى" قريب المعنى، إلا أنه جميل التصوير صادقه ساذج التفكير سهل الاستنباط. وأما ابن المعتز فينهج نهج أبى تمام والبحترى ولكنه لا يصل إلى مكانة ابن الرومى فى تصوره وتصويره للشباب والمشيب.

٤-وقال أبو تمام فى الربيع:

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر ... وغدا الثرى فى حليه يتكسر
يا صاحبى تقصيا نظر يكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حل الربيع فإنما هى منظر
من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنها عين إليك تحدر
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين فى حلل الربيع تبختر
مصفرة محمرة، فكأنها ... عصب تيمن فى الوغى وتمضر

وقال ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر ... بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر ... فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر ... تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

وقال البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه ... ينث حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه ... عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة ... وكان قذى للفين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجيء بأنفاس الأحبة نعما

وقال. ابن المعتز :

انظر إلى دنيا ربيع أقبلت ... مثل النساء تبرجت لزناة
وإذا تعرى الصبح من كافوره ... نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس ... قذيت وآذن حيها بممات

ويقول :

أتاك الربيع بصوب البكر ... ورف على الجسر برد السحر
ونفرت الأرض عن جوهر ... فمنتظم منه ومنتثرا
وقد عدل الدهر ميزانه ... فلا فية حر ولا فية قر

فترى فى قطعة أبى تمام شعورا واضحا قويًا بجمال الربيع وحياته ومناظره الفاتنة، وأسلوبًا باهرًا رائعًا قوى التعبير والتصوير. ونجد كذلك عند ابن الرومى شعورا وتصويرا صادقين للربيع والحياة والطبيعة فيه، ولكنه ينزل عن أبى تمام فى سمو التعبير وجودته وروح الفن التى تشيع فى أبيات أبى تمام.

أما أبيات البحترى فجميلة عذبة ممتازة فى أسلوبها ولكن تنقصها الروح والحياة وقوة الشعور التى تتدفق فى أبيات أبى تمام وابن الرومى، وتضعف من روح البحترى فيها قيود الصنعة التى تطغى عليه وتضعف من شعوره فيها.

وتجد عند ابن المعتز شعورا واضحا بالحياة وأسرار الطبيعة فى الربيع، إلا أن أسلوبه ضعيف لا يبلغ أسلوب أبى تمام. وأول أبياته مسروق من ابن الرومى.

٥-ويقول أبو تمام فى الفرس:

أو أدهم فيه كمتة أمم ... كأنه قطعة من الغلس
مخلق وجهه على السبق ... تخليق[1] عروس الأبناء للعرس

---

[1] التخليق : التلطخ بالطيب.

فهـو يسـر الـرواض بالـنزق — الساكن منه واللين والشرس
صهصلق[1] في الصليل تحسبه — أشرج[2] حلقومه على جرس

ويقول ابن المعتز :

وسابح مسامح ذو ميعة — كأنه حريق نار تلتهب
تراه إن أبصرته مستقبلاً — كأنما يعلو من الأرض حدب
عاري النسا ينتهب التراب له — حوافر باذلة ما ينتهب
تصافح الترب إذا ما ركضت — لكنها مع الصخور تصطخب
تحسبه يزهى على فارسه — وإنما يزهى به إذا ركب
أسرع من لحظته إذا ونا — طوع من عنانه إذا جذب
يبلغ ما تبلغه الريح ولا — تبلغ ما يبلغه إذا طلب
ذو غرة قد شدخت جبهته — وأذن مثل السنان المنتصب
وناظر كأنه ذو روعة — وكفل ململم ضافي الذنب
ومنخر كالكير لم تشق به — أنفاسه ولم يخنها في تعب
قد خاض في يوم الوغى في حلة — حمراء تسديها العوالي و القضب

فترى في أبيات أبي تمام وصفا للفرس تطيف به الحوشية والغرابة لاسيما في بيته الأخير.

أما أبيات ابن المعتز فتفوق أبيات أبي تمام لكثرة معانيها وقوة تصويرها والجدة في أساليبها، ولجمال استعارتها وتشبيهاتها الدقيقة مع المبالغة والعذوبة في ألفاظها وأسلوبها مما يظهر بوضوح أمام النقد العادل النزيه.

٦-وإذا قرأت قطعة ابن الرومي في وصف الأسد :

فما أسد جهم المحيا شتيمه[3] — خبعثنة ورد السبال غضنفر

التي جمع فيها كثيرا من المعاني والأوصاف التي تصور خلق الأسد وقوته أوضح تصوير، ثم قرأت قطعة البحتري في الأسد :

غداة لقيت الليث والليث مخدر — يحدد نابا للقساء ومخلبا

---

[1] أي شديد الصوت.

[2] أي شد.

[3] أي كريهه.

والتي ألم فيها بطرف مما ذكره بشر بن عوانة في رائيته في الأسد[1]، مع جمال في الأسلوب وطلاوة في السبك وجودة في الصياغة وإن كانت معانيها واضحة محدودة قريبة.

ثم قرأت قطعة ابن المعتز في الأسد :

وما ليث غاب يهدم الجيش خوفه ... بمشية وثاب على النهي والزجر
يجر إلى أشباله كل ليلة ... عقيرة وحش أو قتيلا من السفر
يزعزع أحشاء البلاد زئيره ... ويبطل أبطال الرجال من الذعر

إلى آخر هذه القطعة الرائعة .

وجدت ابن المعتز يربي على البحتري فيها بكثرة ما أتى به من معان، ولكنه لا يصل إلى ابن الرومي في قطعته، ووجدته يحاول أن يعطيك صورة واضحة للأسد في قوته وفزع الناس والبلاد منه، ولكنه لا يجيء سابقا بل يسير وراء رائد الركب موفور الإجادة والتصوير.

موازنات بين الشعراء العباسيين

قال مسلم بن الوليد – وهو معنى سبق إليه –:

لا يستطيع "يزيد" من طبيعته ... عن المروءة والمعروف إحجامًا

أخذ أبو تمام المعنى فكشفه وأحسن اللفظ وأجاده فقال :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله

وقال أبو تمام يصف مغنية تغني بالفارسية :

ولم أفهم معانيها ولكن ... شجت كبدي فلم أجهل شجاها

أخذه من قول الحسين بن الضحاك – على ما في قوله من المناقضة –:

وما أفهم ما يعني ... مغنينا إذا غني
سوى أني من حبي ... له استحسن المعني

---

[1] رواها البديع في مقاماته، وأولها :

أفاطم لو شهدت بطن خبت ... وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذا لرأيت ليثا أم ليثا ... هزبرا أغلبا لاقى هزبرا

وهي قصيدة من النمط العالي الذي لم يأت أحد بمثله.

لأنه قال : ما أفهم ما يعني ، ثم قال : استحسن المعنى، وإنما أراد بالمعنى اللحن لا معنى القول ، وأجود من ذلك كله قول حميد بن ثور يصف الحمامة :

ولم أر مثلى شاقه صوت مثلها ... ولا عربيًا شاقه صوت أعجم

وقال الأخطل يصف الخمر :

تدب دبيبًا فى العظام كأنها ... دبيب نمال فى نقا يتهيل[1]

أخذه أبو تمام فأفسد المعنى فقال :

إذا الراح دبت فيه تحسب جسمه ... لما دب فيه قرية من قرى النمل

وقال أبو العتاهية :

كم نعمة لا يستقل بشكرها ... لله فى طى المكاره كامنة

أخذه أبو تمام فقال :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقد أحسن إذ جاء بالزيادة التى هى عكس المعنى الأول. وقال شاعر :

ما كنت أحسب أن بحرًا زاخرًا ... عم البرية كلها إرواء
أضحى دفينًا فى ذراع واحد ... من بعد ما ملك الفضاء فضاء[2]

وقال أبو تمام وأبر عليه وعلى كل من ذكر هذا المعنى :

وكيف احتمالى للسحاب صنيعة ... بإسقائها قبرًا وفى لحده البحر

وقال مسلم بن الوليد فى معنى بيت أبى العتاهية الأول :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته ... ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

وأخذ أبو تمام معنى البيت ومعنى بيت أبى العتاهية الأول فقال :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها ... لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى[3]

أو لعله أخذه من قول منصور النمرى يمدح الرشيد :

رأيت المصطفى هرون يعطى ... عطاء ليس ينتظر السؤالا

---

[1] النقا : كثيب الرمل، يتهيل : ينهال.

[2] ضاء : أضاء .

[3] السيب : العطاء .

وأجود من هذا كله قول سلم الخاسر :

أعطــــاك قــــبل ســــؤاله فكفـــاك مكـــروه الســـؤال

وأخذ أبو تمام معنى بيت أبى العتاهية الثانى فقال :

كالغيــث إن جئــته وافــاك ريقــه وإن تحملـت عـنه لج فـى الطلب[1]

وقال أبو تمام :

كـم مـن يدلـك لـولا مـا أخففهـا بـه مـن الشـكر لم تحمـل ولم تطـق

بـالله أدفـع عـنى ثقـل فادحهـا فإنـنى خـائف مـنها عـلى عـنقى

وهو من قول أبى نواس، والمعنيان مختلفان لأن أبا نواس قال :

أنـــت امـــرؤ جللتـــنى نعمًـــا أوهـت قـوى شـكرى فقـد ضـعفا[2]

لا تســـــدين إلى عارفـــــة حـــتى أقـــوم بشـكر مـــا سـلفا

فذكر أن نعم الممدوح قد غلبت الشكر فاستعفاه من نعمة أخرى حتى يقوم بشكر نعمته السالفة، وأبو تمام قال : لولا ما أخففها به من الشكر لم أطق حملها، ثم أحسن وألطف في قوله : فإننى خائف منها على عنقى، ومعنى أبى نواس أجود وأبرع : وقال أبو تمام :

والشـيب قـد طـرد الشـباب بياضـه كالصـبح أحـدث للظـلام أفـولا

أراد قول الفرزدق مع تقصير عن بلوغه شأوه :

والشيب يـنهض فـى الشباب كأنـه لـــيل يصـــيح بجانبـــيه نهـــار

وقال أبو تمام :

نقل فـؤادك حيث شئت من الهوى مـــا الحـــب إلا للحبيـــب الأول

أخذ المعنى من قول يزيد بن الطثرية إذ يقول :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصـــادف قلـــبا خالـــيا فتمكـــنا

وهذا أجود ، لأنه ذكر العلة .

وقال ابن الخياط قصيدة يمدح بها المهدى فأجازه بجائزة ففرقها فى الدار، فبلغه، فأضعف له الجائزة، فقال :

لمسـت بكفـى كفـه أبـتغى الغـنى ولم أدر أن الجـود مـن كفـه يعـدى

---

[1] ريق كل شيء : أفضله وأوله .

[2] جلله : غطاء، وجلل المطر الأرض : عمها وطبقا فلم يدع شيئًا إلا غطاه، أوهت : أضعفت.

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت، وأعدانى فأتلفت ما عندى[1]

أخذه أبو تمام فقال :

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئا لدى من صلتك

وقول ابن الخياط أبلغ وأجود، وقال العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

أخذه أبو تمام فقال :

آألفة النحيب كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع

وبيت عروة بن الورد أجود من بيتيهما، وهو قوله :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

وأخذ المعنى أبو الطيب فقال :

لعل الله يجعله رحيلا يعين على الإقامة فى ذراكا[2]

وقال توبة بن الحمير :

يقول أناس لا يضيرك نايها بلى، كل ما شف النفوس يضيرها[3]

أخذه أبو تمام وزاد فيه فقال :

لا شيء ضائر عاشق، فإذا نأى عنه الحبيب فكل شيء ضائر

وقال مروان بن أبى حفصة :

ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل ذو الفضل يحسد ذوو التقصير

أخذه أبو تمام فقال :

لقد آسف الأعداء مجد ابن يوسف وذو النقص فى الدنيا بذى‌الفضل مولع

وقال أبو تمام :

فحيوا بالأسنة ثم ثنوا مصافحة بأطراف الرماح

---

[1] أفدت : استفدت : ونسبة هذين البيتين إلى ابن الخياط رواية كتاب "الموازنة بين أبى تمام والبحترى، للآمدى ص٢٩" وكتاب "الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص١٩١" والمشهور أنهما لبشار بن برد - أنظر الأغانى جزء ٣ ص٣٦.

[2] يقال : أنا فى ذرا فلان أى فى ظله وكنفه.

[3] ضاره يضيره : ضره.

أخذ قوله "فحيوا بالأسنة" من قول مسلم :

أخذ قوله "فحيوا بأطراف القنا وتعانقوا ... معانقة البغضاء غير التودد

وأخذ قوله "مصافحة بأطراف الرماح" من قول أبى إسحق التغلبى:

دنوت له بأبيض مشرفى ... كما يدنو المصافح للسلام

وقال أبو تمام :

أمن بعد طى الحادثات محمدًا ... يكون لأثواب الندى أبدًا نشر!

أخذه من قول أبى نواس :

طوى الموت ما بينى وبين محمد ... وليس لما تطوى المنية ناشر

وقال أبو تمام فى مصلوب :

قد قلصت شفتاه من حفيظته ... فخيل من شدة التعبيس مبتسما

سبقه عبد السلام بن رغبان فقال :

وإذا شئت أن ترى الموت فى صو ... رة ليث فى لبدتى رئبال[1]

فالقه غير أنما لبدتاه ... أبيض صارم وأسمر عال

تلق ليثا قد قلصت شفتاه ... فيرى ضاحكًا لعبس الصيال

وكذلك قال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخيما بشعرى ... ولكنى مدحت بك المديحا

أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبىﷺ حيث قال:

ما إن مدحت محمدا بمقالتى ... لكن مدحت مقالتى بمحمد

ولا شك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان هذا حين استخلف عمر رضى الله عنه فقال له عمر استخلف غيرى فقال أبو بكر ما حبوناك بها وإنما حبوناها بك.

وقال عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرًا أو ينال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

---

[1] الرنبال الأسد والذئب ومن تلده أمه وحده، والأول هو المراد.

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة　　　تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائما مقام الانتصار، وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف ..

وقال مسلم بن الوليد :

كذلك الغيث يرجى فى تحجبه　　　حتى يرى مسفرا عن وابل المطر

أخذه أبو تمام فقال :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا　　　إن السماء ترجى حين تحتجب

وقالت مريم بنت طارق ترثى أخاها فى أبيات :

كنا كأنجم ليل بينها قمر　　　يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

أخذ أبو تمام اللفظ والمعنى فقال :

كأن بنى نبهان يوم وفاته　　　نجوم سماء خر من بينها البدر

أو أخذه من قول جرير يرثى الوليد بن عبد الملك:

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم　　　مثل النجوم هوى من بينها القمر

قال الآمدى : ولست أدرى أيهما أخذ من صاحبه. أمريم أخذت من جرير أم جرير أخذ منها ؟ وقال أبو الأسود :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله　　　عار عليك إذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال :

أألوم من بخلت يداه وأغتدى　　　للبخل تربا، ساء ذاك صنيعا

وهذا من العام الذى جعل خاصا، ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقا، وجاء بالخلق منكرًا فجعله شائعًا فى بابه، وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الأخلاق. وقال أبو تمام :

هو الصنع إن يعجل فنفع وإن يرث　　　فللريث فى بعض المواطن أنفع

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له، وذلك قوله:

ومن الخير بطء سيبك عنى　　　أسرع السحب فى المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى فى المثال المناسب له. وكذلك قولهما فى موضع آخر. قال أبو تمام :

قد قلصت شفتاه من حفيظته ... فخيل من شدة التعبيس مبتسما

فأخذه أبو الطيب المتنبى فقال :

وجاهل مده فى جهله ضحكى ... حتى أتته يد فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث مبتسم

ومما ينخرط فى هذا المسلك قول أبى تمام :

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل ... حتى يجاورها الزمان بحالى

أخذه أبو عبادة البحترى فقال :

وقد زادها إفراط حسن جوارها ... خلائق أصفار من الحسن خيب

وحسن درارى الكواكب أن ترى ... طوالع فى داج من الليل غيهب

فإنه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسنًا.

وقال أبو تمام :

كلف يرب المجد يعلم أنه ... لم يبتدأ عرف إذا لم يتمم

فقال البحترى :

ومثلك إن أبدا الفعال أعاده ... وإن صنعا المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال : إن الممدوح يرب صنيعه أى يستديمه ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتدأه، والبحترى قال إنه يستديم صنيعه لا غير، وذلك بعض ما ذكره أبو تمام :

وقال أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ... ببذل وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرىء بذل وجهه ... إليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال :

تدعى عطاياه وفرا وهى إن شهرت ... كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا

ما زلت منتظرا أعجوبة زمنا ... حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

فأمية أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاء غيرك شين، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لا غير.

القسم الرابع

النقد الأدبي فى العصر العباسي

بلغ النقد العربي في القرن الثاني مرحلة من مراحل تطوره ، تناسب ما بلغه العرب في هذا العهد من نضج ثقافي وأدبي كبير .

كان الرواة كالأصمعي وخلف وحماد وأبي عبيدة يهتمون برواية الشعر وجمعه وكان لخلف مكانة في النقد " وكان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف في حلبة هذه الصناعة _ النقد _ ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها ، وحذقه بها، وإجادته لها ، [١] ، وكان يجمع كثيرا من الأدب [٢]،وكان عالما بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعرا كثير الشعر جيده [٣] ، وأصلح للأصمعي رواية من بيت شعر جرير وقال: ارووه كذلك فلقد كانت الرواة قديما تصلح شعر الأوائل [٤] ، وأعجب بنقد بشار للشعر [٥] ،وعرض عليه مروان لاميته ففضلها علي لامية الأعشى [٦] ،وكان أبو عبيدة يرى أن أشعر الناس امرؤ القيس والنابغة وزهير [٧] وأشعر الإسلاميين الفرزدق وجرير والأخطل لأنهم أعطوا حظا في الشعر لم يعطيه أحد في الإسلام [٨] ، وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ولطبعه ، وكان يشبهه بالأعشى والنابغة، ويشبه مروان بزهير والحطيئة [٩]، وكان يفضل بشارا على مروان [١٠]، وكان يقول هو وأبو عبيدة : عدي في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها [١١]، وعاب بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك، بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلي وجوه العود لذ كره السقيم[١٢]؛ وسئل المفضل عن الراعي وذي الرمة : أيهما أشعر فصاح صيحة منكرة، أي لا يقاس ذي الرمة بالراعي [١٣] .

---

[١] ١/١٩٧ العمدة .
[٢] راجع ٣/٢٢٤ البيان .
[٣] ٣٠٨ الشعر والشعراء ، ١١ : ١٦٠ معجم الأدباء .
[٤] ٢/١٣ زهر .
[٥] ٣/٤٣ الأغاني .
[٦] ٣/٤٠٢ العقد .
[٧] ٤٤ الجمهرة .
[٨] ٤٦ المرجع .
[٩] ٣/٢٥ الأغاني .
[١٠] ٣/٢٥ الأغاني، ٢٥١ الموشح .
[١١] ٢/١٧ الأغاني .
[١٢] ٢/٢٧٠ العمدة .
[١٣] ١٧٩ الموازنة : وكان ذو الرمة راوية للراعي ٢٠٧ طبقات ابن سلام .

وكذلك كان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم : وكان بشار أجودهم وأدقهم في نقد الشعر ومذاهبه، وكان أبو عبيدة يعجب من " فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر [1]، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه [2]، وغضب بشار علي سلم لسرقته معانية [3]، وكان مروان يعرض شعره عليه [4]، وكان أبو العتاهية يعتمد علي معاني بشار [5]، وكان أشجع يأخذ عنه ويشجعه [6]، وكان ابن الرومي يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر [7]، وكان كثير من الشعراء يجارون بشارا في هذا الميدان .

ولكن جهود علماء اللغة في النقد كانت أقوي وأظهر فوضعوا الجاهلين في طبقات ولم يتركوا شاعرا مشهورا من الجاهلين إلا رأوا فيه رأيا، ولا فنا من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد ورديء، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم في الشعر والشعراء ، ووازنو بين الإسلاميين والمتقدمين، ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

– ٢ –

وفي القرن الثالث أخذ النقد يستقل بالبحث ،والتأليف علي أيدي النقاد وعلماء الأدب وسواهم ، كابن سلام ٢٣١ هـ ، والجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، وابن المدبر م ٢٧٩ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ ، وسواهم من الأدباء وعلماء الأدب واللغة و أصحاب الثقافات الحديثة وغير هؤلاء الذين خاضوا في أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد :

أ – فمن الأدباء النقاد : أبو تمام م ٢٣١ هـ ووصيته للبحتري حول الشعر وفنه ومذهب الشاعر فيه مثال واضح من أمثلة النقد الدقيقة وأصل من أصوله

---

(1) ٣/٢٣ الأغاني .
(2) راجع ١/٤٣ الأغاني ، ٢١٠ الدلائل ، ٧٥ المفتاح ، ١٧ الإيضاح .
(3) ٣/٤٨ الأغاني .
(4) ٣/٥٨ الأغاني .
(5) ٣/١٣٤ الأغاني .
(6) ٣/١٣٧ الأغاني .
(7) ٢/١٣ زهر الآداب وكان بشار يقدم جرير أعلى الفرزدق (١٣٩ طبقات ابن سلام) من حيث كان البحتري يفضل الفرزدق (٢٤ صناعتين) ونقد بشار قول كثير، ألا إنما ليلي عصا خيزرانة . (٢/٨٠ الكامل).

الأولى[1]، ولـه آراء أخرى في النقد مفرقة في شتى المصادر[2]. ومنهم ابن المعتز وسواه .

وتميل هذه الطبقة الي العناية بأدب وشعر المحدثين ونقدهما . وخاصة شعر أبـي تمـام والـبحتري ، ولعلـي بـن أحمـد المـنجم رسـالة في العـباس بـن الأحـنف والعتابي والموازنة بينهما [3].

ب – ومن علماء الأدب ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة :

أما ابـن سـلام فبصري راوية عالم بالشعر مؤلف في نقده . وعاش في النصف الأخير من القرن الـثاني الهجري والثلث الأول مـن القرن الثالـث ، ودرس وتثقف وأحـاط باللغـة والأدب والأشعار ، واهـتم بالـنقد مع تأثـر بـروح عصـره في الاسـتيعاب والشـرح والتحلـيل ، ولـه كـتاب طـبقات الشـعراء الجـاهلين وكـتاب طـبقات الشـعراء الإسـلاميين [4]، ولقد أدمجـا في بعـض وطـبعا مـن عهد قريب باسم " طبقات الشعراء " والمقدمـة المطـبوعة في أولـه هـي مقدمة كتاب طبقات الإسلاميين ، يرشد الي ذلك الكـثير مـن مقدمـته كقولـه : " ورتبـت هـذا المؤلـف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام [5].

وكـتابه أول مؤلـف في الـنقد[6]، كمـا يقولـون ،والصـحيح أنـه ألـف قـبلة في موضـوع كتابه نفسه كثير من الكتب كما سنذكره بعد قليل ، وبحوث كتابه تشمل ذكر أئمـة العربـية واتجاهـاتهم العلمـية ، وتتـناول شـرح الشـعر العربي وأثره ونشأته وتطوره وتـنقله في القبائل وانتحاله ، ثم يذكر طبقات الجاهلين العشر وشعراء المراثي وشعراء القرى العربـية . كمـا يذكـر طـبقات الإسـلاميين العشر جـاعلا في كـل طـبقة أربعـة من الشـعراء ، مـع الدراسـة العمـيقة والتحليل الدقيق والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحـياتهم ومذاهـبهم الفنـية في الشـعر ، والكـتاب بحـق مـن مصـادر ثقافتـنا الأدبـية في الـنقد ، ولا يكـاد يسـتغني عـنه باحـث أو دارس، وهـو ضروري في دراسة النقد وجامع

---

(1) راجـع الوصـية في : 1/151 زهـر ، 2/209 العمـدة ، 160 حديقـة الأفـراح للـيمني ط 1320 هـ ، 27 المطالعـة التوجيهية .

(2) راجع مثلا ص 192 طبقات لابن المعتز .

(3) 92-4/94 زهر ، وهى فى الموشح (293 و294) منسوبة لأبى أحمد يحيى بن على المنجم م 300هـ

(4) 165 فهرست .

(5) ص16 طبقات الشعراء لابن سلام .

(6) 2/108 زيدان .74 تاريخ النقد الأدبي عند العرب .

لكثير الآراء فيه ، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي م ٣٠٥ هـ والذي يشيد الحصري بأدبه وبلاغته [١].

وأما الجاحظ فعلم من أعلام الأدب والنقد والبيان ،وفي كتابة " البيان " وسواه من مؤلفاته ثروة كبيرة في النقد الأدبي ، فتجده يحلل في دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر [٢]،ويشير إلي سرقات أدبية [٣]،وموازنات أدبية [٤]، ويستجيد بعض آثار للشعراء فيقول مثلا : وكان أبو حية أشعر الناس لقوله الخ [٥]، ويقول : ومن جيد محدث أشعارهم الخ [٦]، ويقول : ومن جيد الشعر قول جرير إلخ [٧]. ويثني على أبي نواس وشعره وخمرياته [٨]، ويري أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ولا مولد أشعر من بعد بشار من أبي نواس [٩] وأبو نواس عنده أشعر الناس في قوله : " كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمرا " [١٠].

ورأى أن بيتي عنترة " وخلا الذباب بها الخ " من المعاني العقم [١١]؛ ومثله قول أبي نواس " قراراتها كسرى إلخ " [١٢]، وينقد أبا العتاهية ذاهبا إلى [١٣] أن شعره أملس المتون له عيون أخرى الخ ، ويعجب بقوله " رائح الجنة في الشباب " إعجابا كبيرا [١٤]، ويعجب بجدة أشعار طرفة وعبد يغوث وقت إحاطة الموت بهما [١٥]، ويذكر

---

(١) ٢٥٣ج ٣ زهر .

(٢) ٥٤ و٥٥ و١٥٠ ج ١ و٢١-٢٦ ج ٢ البيان .

(٣) ٨٩ و١١٦ و١٧٩ و٢٥٥ ج ١ البيان .

(٤) ٢٤٣ ج ٢ البيان .

(٥) ١٦٦ ج ٢ و٢٠٥ و٢٠٦ ج٣ .

(٦) ١٧٥ ج ٣ البيان .

(٧) ١٣٣ ج ٣ البيان ، وتجد شرحا لبيتي جرير اللذين ذكرهما الجاحظ في هذا الموضع في ص٢٠٨ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٨) ٤٢ جزء ٤ العقد .

(٩) ٩١ ج١ العمدة ،٤٥٧/٤ حيوان .

(١٠) ١٨٥ ج ٣ زهر .

(١١) ١٨٤ ج٣ البيان .

(١٢) ١٦٦ ج ٣ زهر ، وراجع شرح البيت في العمدة ٢٧٥ ج ١ وكذلك ذهب المبرد في الروضة في بيت أبي نواس ، ونقدهما ابن الأثير في ذهابهما إلى أن بيت أبي نواس من المعاني المبتكرة ورأى أنه من المعاني المشاهدة . وأن فصاحة هذا الشعر هي الموصوفة لا هذا المعني (١٢٢ المثل الثائر) .

(١٣) ٥٢ ج ٣ زهر .

(١٤) ٣٨ج٣ الأغاني ،٣٦٦ج٢ عصر المأمون .

(١٥) ١٩٣ج٢ البيان .

حوار إبراهيم بن عبد الله لأبيه في شعر كثير[1] ،وأن الناس كانوا يستحسنون بيت الأعشى " وبات على النار الندى والمحلق " حتى قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فسقط بيت الأعشى[2]. وينقد الكميت لقوله في رسول الله :

لج بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك اللجاج والصخب

كما ينقده لقوله في رثائه :

لقد غيبوا حزما وعزما ونائلا عشية واراه الصفيح المنضب

لأنه يصلح في عامة الناس[3]، وقد دافعوا عنه بأنه إنما أراد في البيت الأول آل الرسول فورى عنهم يذكر النبي خوفا من بني أمية [4]، ويذكر مناهج الرواة[5] وتعصب أبي عمرو بن العلاء على الإسلاميين[6]، وأن الرواة كانوا[7] يحرصون على نسيب العباس بن الأحنف حتى أورد عليهم خلف نسيب الأعراب فعنوا به وزهدوا في نسيب العباس ، والجاحظ ينكر غلو المتعصبين على الشعراء المحدثين فعلهم، ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان[8].

وأما ابن قتيبة فهو عالم ملم بالثقافات في عصره ، مجدد في التفكير ، ولكنه مع ذلك محافظ كل المحافظة في الأدب، ينعى على الأدباء انصرافهم إلى المنطق وشغفهم به عما سواه من علوم الدين واللغة[9]، ويرى وجوب اتباع منهج المتقدمين في نظم القصيدة[10] ،ولكنه مع ذلك لا يتعصب للقديم ولا للمحدث تعصبا أعمى ولكن يعطي كلا حقه من العدالة والإنصاف ، وكتاب الشعر والشعراء وعلى الأخص

---

(1) ١٤٦ج٢ البيان .

(2) ٣٦ جزء ٢ البيان .

(3) ١٧٢ و١٧٣ ج ٢ البيان ، ١٧٠ ج ٥ الحيوان ط ١٩٤٣ ،١٤٥ ج ٣ العمدة .

(4) ٢٠ الموازنة ، ١٣٦ ج٢ العمدة .

(5) ٢٢٤ج٣ البيان ،٤ ،٥ الكشف عن مساوئ المتنبي .

(6) ٢٠٩ ج ١ البيان .

(7) ٢٢٤ ج ٣ البيان .

(8) ٤٠ ج ٣ الحيوان ، وذلك مما يردده ابن المعتز الذي حكم عدالة الحكومة الأدبية وحتم ألا يدفع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا (١٣و١٤ رسائل ابن المعتز) . وكذلك رأي ابن قتيبة (٧و٨ الشعر والشعراء) ، وابن رشيق (٧٤ ج ٢ العمدة).

(9) ص٢ أدب الكتاب .

(10) ١٤ وما بعدها الشعر والشعراء .

مقدمته دراسة عميقة للشعر وأقسامه وعناصره وللطبع والصنعة فيه وللخصومة بين القدماء والمحدثين ولدواعي الشعر ونظمه وأسباب اختلاف شعر الشاعر .

والكتاب مظهر لثقافة واسعة[1] واطلاع واسع وذوق سليم ،وفيه عرض لنحو مائة وستين شاعرا من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وصدور المحدثين، وقد عنى في دراسته لهم ببيان مذاهبهم وخصائصهم واتجاهاتهم وذكر آراء النقاد في شعرهم وسرقاتهم وما يستجاد لهم من حكمة أو تشبيه أو وصف وما سبقوا إليه من معان . وسرد الشعراء سردا دون ترتيب لطبقاتهم أو لهم بحسب عصورهم بعكس ابن سلام ، وقد اهتم بدراسة لغة الشعراء، وأثر البيئة فيها[2]، وتكلم على بعض النساء الشاعرات كالخنساء[3] وليلى الأخيلية[4]، وهو حريص على ذكر زلات الشعراء من ناحية العقيدة[5]، ويعني بتحقيق نسبة الشعر لقائه عناية كبيرة .

وأما طبقة علماء اللغة فأثرهم في النقد واضح جليل ،يتجلى في آرائهم وكتبهم ، وكان هؤلاء كلهم أو جلهم يؤثرون الشعر القديم؛ ومنهم : أبو العميثل المتوفى ٢٤٠هـ ،وابن السكيت م ٢٤٤هـ ،وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ ،وأبو الفضل الرياشي ٢٥٧هـ ،والسكري م ٢٧٥هـ ، والمبرد م ٢٨٥هـ ،وثعلب م ٢٩١هـ وأظهرهم أثرا في ذلك المبرد[6] الذي حفظ " الكامل " كثيرا من آرائه في النقد :

وأهم ما في الكامل للمبرد دراسته للتشبيه وعرضه لكثير من شواهده[7]، وهذا الباب كله نقد أدبي جيد ،ويذكر المبرد كثيرا من السرقات الأدبية في كتابه، ويذكر من آراء القدامى في النقد والموازنة، ويشيد بابن مناذر ومرثيته " كل حي لاقى الحمام فمودي " [8]،والمبرد لا يتعصب لقديم على محدث ويرى أنه " ليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطي كلا ما يستحق "[9] ،ولذلك ضمن كتابه كثيرا من شعر المحدثين ،وعقد بابين لأشعارهم

---

(1) راجع مثلا شرحه للمشكل من شعر أبي نواس (٣١٥و٣١٦و٣٢٠و٣٢٥ الشعر والشعراء) وسوى ذلك .

(2) راجع رأيه في عدي وأميه بن أبي الصلت وأبي دؤاد (٦٣و٦٩و١٧٦ الشعر والشعراء ، ٧١ ج٢ الأغاني مثلا) .

(3) ١٢٢ الشعر والشعراء .

(4) ١٧٠ المرجع .

(5) راجع مثلا ٣٢١و٣٢٢ المرجع .

(6) راجع ٤٤١-٣/٤٤٧ وفيات العيان – تحقيق محي الدين .

(7) الكامل ص ٣٥-١٠١ ج٢ .

(8) الكامل ص٢٨٨ ج ٢.

(9) الكامل ص ١٨ ج ١.

خاصة[1]، ورأى أنها أشكل بالعصر[2] ، ويروي شعرا لأبى تمام ويقول : " وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث[3] " ،وذكر مكانة الخنساء . وليلي الأخيلية في الشعر[4]، ونقد قول الشماخ :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين[5]

وإجماع النقاد على نقد قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت إوكل بدعد من يهيم بها بعدي[6]

ويذكر مجد أل حسان وأبي حفصة في الشعر[7] ،كما يذكر بعض المعاني الجديدة في شعر أبي نواس[8] ،ويعيب [9]قوله :

كيف لا يدينك من أمل من رسول الله من نفره

ويذكر وجها لتخريجه :

وعلي أي حال فثقافة اللغويين في النقد[10] كانت قليلة بالنسبة لأدباء الكتاب وعلماء النقد ؛ وسئل البحتري عن مسلم وأبي نواس أيهما أشعر ، فقال : مسلم لأنه يتصرف في كل فن ،فقيل له إن ثعلبا لا يوافقك على هذا ،فقال ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ،وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه[11]، وقال البحتري لصديق له أراد التوجه لأبي العباس[12] ليقرأ عليه شيئا من الشعر : رأيت أبا عباسكم هذا فما رأيته ناقدا للشعر ولا مميزا له ورأيته يستجيد شيئا وما هو بأفضل الشعر [13].

---

(1) الكامل ٣٠٧-٣١٢ج٢وص ٢٣٣ - ٢٦١ ج١ .

(2) الكامل ٢٣٣ ج١ .

(3) الكامل ٢٦٠ ج٢ ،وللمبرد مناقشة أدبية بينه وبين ابن درستويه حول معنى لأبى تمام (زهر الآداب ص٢٣٩ و٢٤٠ ج ٢) .

(4) الكامل ص٢٧٩ ج ٢ .

(5) الكامل ص٧٧ ج ١.

(6) المرجع نفسه ص١٠٦ ج١،ويذكر الجاحظ أن صالح بن سليمان قال : أحمق الشعراء الذي قال : " أهيم بدعد - البيت " (البيان ص ٢١٧ ج٣) .

(7) الكامل ص ١٥٤ ج ١ .

(8) الكامل ص ٩٤ ج ٢ .

(9) الكامل ص ٢٤٣و٢٤٤ ج ١.

(10) راجع كلمة للجاحظ في ذلك في ص ٤و٥ الكشف عن مساوىء شعر المتنبي .

(11) دلائل الإعجاز ص ١٩٥ والكشف ص٥ وإعجاز القرآن ١٠١ والعمدة ٩٩ج٢ .

(12) لعله يريد ثعلبا . وأبو العباس لقب المبرد وثعلب .

(13) الدلائل ص ١٩٥ .

وأما النقاد من ذوي الثقافات الحديثة في النقد والذين تأثرو بالثقافة اليونانية فأشهرهم قدامة بن جعفر، (٢٧٦ – ٣٣٧) هـ[1] ،وله كتاب " نقد الشعر " الذي فصل فيه مذهبه في النقد أدق تفصيل مما أحتذى فيه حذو أرسطو في كتاب الخطابة الذي ترجمة إسحاق بن حنين في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري ،ونجد أثر أرسطو واضحا عند قدامة في كلامه على الصفات النفسية التي جعلها أمهات الفضائل وذكر أن المدح الجيد لا يكون إلا بها[2] ، وفى سوى ذلك من بحوث الكتاب . ويرى قدامة أن الرثاء كالمديح فى وقوعه بهذه الصفات[3] ،وأن الهجاء ضد المدح ولا يكون إلا بأضدادها [4]، وهذا وغيره من كثير من بحوث الكتاب أثر لثقافة قدامة العقلية التي تزل في مواضع الذوق والإحساس والشعور في النقد وفهم الشعر والأدب ،وعناصر الشعر عند قدامة اللفظ و المعنى والوزن والقافية وما تركب منها[5]، ثم يذكر أسباب الجودة التي تلحق بكل عنصر من هذه العناصر فى نظم الشعر، ويرى أن أضداد هذه الأمور هي أسباب الرداءة فى النظم ،ويحتم على الشاعر أن ينظم الشعر متبعا لأسباب الجودة وحذرا من الرداءة وأسبابها ،والناقد يحكم علي ضوء هذا النهج نفسه فيرى مواطن الجمال والعيب في شعر الشاعر سواء فى ألفاظه وأساليبه أو فى معانيه أو فى أوزانه أو قوافيه أو فى سوى ذلك مما تركب منها، فيحكم عليه أوله بالرداءة أو الجودة و الإحسان ؛ وهذا نهج عقلي واضح ولكنه في تقييده الشعر بهذه القيود الثقيلة وفي تطبيقه على هذه الأصول التي رسمها في كتابه يخطىء كثيرا ... ولقد ألف الآمدى كتابا في " تبيين غلط قدامة في نقد الشعر، وأهداه لأبى الفضل محمد ابن الحسين بن العميد وقرأه عليه وكتب خطه عاله ٣٦٥ هـ [6]،كما نقده كثير من علماء النقد والأدب فى شتى العصور ...

---

(1) أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليهم في علم المنطق وأسلم على يد المكتفي (٢٠٣ – ٢٠٥ ج ٦ معجم الأدباء ،١٨٨ فهرست) ، وله ترجمة مشابهة كذلك في تاريخ بغداد ،وله تفسير بعض المقالة الأخرى لأرسطو (راجع كشف الظنون ص ٣٤ ج٢) وكثير من المؤلفات .

(2) نقد الشعر ص ٣٩ – ٤١ .

(3) نقد الشعر ص ٥٩ ، الصناعتين ص ١٢٦ .

(4) نقد الشعر ص ٥٥ ،ويقول عبد الصمد بن المعزل م ٢٤٠ هـ : الشعر كله في ثلاث لفظات وليس كل إنسان يمكن تأليفها : فإذا مدحت قلت أنت ،وإذا هجوت قلت لست ،وإذا رثيت قلت كنت (العمدة ص١٠٣ ج ١)، وهذا أساس نظرية قدامة ،وأيدها أبو هلال وابن رشيق في كتابيهما : الصناعتين والعمدة .

(5) راجع نقد الشعر ص١٣ ،ومثل ذلك في العمدة ص ٩٩ ج ١ .

(6) معجم الأدباء في ترجمة الآمدى ص ٥٨ ج ٣ .

وقد بلغ النقد الأدبي في القرن الرابع حدا كبيرا من النضوج والقوة ،شأنه في ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات ،وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذاك من ضعف سياسى بعيد الأثر في مستقبل العالم الإسلامي ،وحين كانت رقعة الدولة الإسلامية تمزق أديمها الحوادث العاصفة ، وتتداولها أيدي الملوك الغاصبين ،والدول الصغيرة الناشئة : كالإخشيدية والفاطمية والحمدانية والبويهية وغيرها من مختلف الدويلات والعروش ،وكان رجال العلم والأدب والفن جادين في إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير المثمر والإنتاج الصحيح والتجديد المستمر فى شتى ألوان الثقافة ومناحي الحياة ، وكانت رعاية الملوك لهم ،وتعضيد الأمراء وقادة العلم الإسلامي إياهم ،سببا من أسباب استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية ،كما كانت حركة البعث العقلى التى غذاها الرشيد والمأمون قد أتت أكلها ،وهضمتها عقول المسلمين ،وأحالتها غذاء عقليا أنتج نتائجه العظيمة في القرن الرابع الهجري ،فكان أحفل عهد برجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان ،وأمجد عصر شهدته العربية وأدبها الرفيعة ،وذاعت في آفاقه شهرة كثير من الأدباء والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان ،وظهرت فى خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة في علوم الدين والدنيا، وفي علوم التفكير والفلسفة، وفى علوم العربية وأدبها ،سواء في اللغة أم في الأدب أم في النقد أم في البيان ، ومازالت هذه المؤلفات أعظم المصادر وأجلها في الثقافة الإسلامية ، ومازلنا ننشد السير علي آثارها فى الابتداع والتجديد والإنتاج ،ولعل من أظهر خصائص الثقافة الإسلامية في هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبي أبعد الغايات ،وكثرت ما ظهر فيه من مؤلفات، تجمع بين سلامة الذوق ودقة الحكم وتحري الأنصاف وعمق التفكير ، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة ، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف كلما تشعبت الآراء واختلفت الأذواق ، فى شعر شاعر أو منزلة أديب .

والنقد الأدبي بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب ،واتجه أولا – في عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال علي سلامتها وصحتها – إلى البحث عن الأسلوب وسلامته من الخطأ في اللغة أو الإعراب أو التصريف، للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم ،ودفع عادية الفساد الذى نجم على يد المستعربين من الموالى ، ثم على يد من أختلط بهم من العرب، ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب

نفسه وما يتصل به مما يمس صميم البيان والأداء، تلافيا لأخطاء الملكات التي بدأ يدب إليها العي والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم ،وأخذ علماء الأدب والنقد كابن سلام ؛ م ٢٣١ سنة والجاحظ م ٢٥٥ سنة ،وابن قتيبة م ٢٧٦ سنة وأضرابهم كأبي عبيدة م ٢٠٦ سنة وسواه، في عرض المشكلات الأدبية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها .

ثم كان القرن الرابع فاتحة علماء الأدب في مشرقة إلى الكتابة في الأدب والنقد :ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ،ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم إلى البحث في مظاهر البيان ،ومشكلات البلاغة، فاتجه تأليفهم في أخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

ونقاد الأدب والشعر في القرن الرابع فريقان : فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثرا بذوقه الأدبى وطبعه العربي وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى التي جرت جداول إلى يم الثقافة الإسلامية الصميمة المتدفقة ،ومن هؤلاء الحاتمي م ٣٨٣ سنة " صاحب الرسالة الحاتمية " في نقد شعر المتنبي وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف ،والحسن ابن بشر الآمدى م سنة ٣٧١ صاحب الموازنة بين الطائيين ،وعلي بن عبد العزيز الجرجاني م سنة ٣٩٢ صاحب الوساطة " بين المتنبى وخصومه " وابن وكيع م سنة ٣٩٢ صاحب " المنصف " في سرقات المتنبي، وأبو بكر الباقلاني م سنة ٤٠٢ مؤلف " إعجاز القرآن " وقبلهم أبو بكر الصولي م ٣٣٦ هـ صاحب " أخبار أبي تمام " وأبو الفرج الاصبهاني م سنة ٣٥٦ مؤلف كتاب"الأغاني"، وفريق آخر كتب بروح أدبي هذبته فكرته ووسعت أفقه الثقافات الأخرى التي هضمها القرن الرابع ،وأسالها غذاء عقليا لكل من توسع في الدراسة والبحث العميق، ومن هذا الفريق جعفر بن قدامة سنة ٣١٩ وقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧ صاحب "نقد الشعر " وابن العميد م سنة ٣٦٠ ؛ والصاحب بن عباد م سنة ٣٨٥ صاحب رسالة " الكشف عن مساوىء شعر المتنبي " وأبو هلال العسكري م سنة ٣٩٥ صاحب "الصناعتين " و " ديوان المعاني " ، وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربي من نفوس رجاله وأعماله ، وتتفاوت منازلهم في الإجادة والإحسان بتفاوتهم في الذوق الأدبي الذي يعتد به في الحكومات الأدبية العادلة ،ودعنا ممن نقدوا الأدب والشعر بدون تمكن الطبع الأدبي في نفوسهم،من: النحويين علماء اللغة ،والمعنويين رجال العقل والفلسفة ،الذين جاء حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ،والذين نقدهم الجرجاني في "وساطته" نقدا لاذعا، وطرح آراءهم فى النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعرها نصيبا من البحث

والمناقشة اللهم إلا حيث أراد أن يبرر موقفه منهم فذكر بعض أخطائهم في النقد لتكون حجة له في هذا الإهمال .

ومن الجدير بالالتفات أن كثيرا من نقاد القرن الرابع وجهوا عنايتهم الأولى إلي شعر شاعرين لهما أثرهما وخطرهما في الشعر العربي ؛ فأبو بكر الصولي وابن بشر الآمدى اتجها إلى أبي تمام وشعره، فدافع عنه الصولي دفاع المعتد به المعتز بقيمته، وحشد كل ما رآه سببا لقبول هذه الحكومة من : شعر الشاعر ،ونقد الناقد، وحكومة من قبله من رجال الأدب والنقد، ووازن الآمدى بينه وبين البحتري عارضا شعره وما عليه من مؤاخذات ترجع إلي سرقة المعاني أو الخروج عن النهج العربي في أساليب التعبير والبيان ،متجها إلي تفضيل البحتري عليه لطبعه وقلة ما أخذ عليه من مؤاخذات ،والحاتمي وابن عباد والجرجاني وابن وكيع كتبوا في نقد المتنبي وشعره ،فندد به الحاتمي ،وأشاد بمساوىء شعره ابن عباد ،ووقف الجرجاني موقف القاضي النزيه يفهم ويقرر ويحكم وينصف الشاعر من جور المتعصبين عليه ،والمتعصبين له معا ، ولا نشك أن أباتمام والمتنبي كانا جديرين بكل ما دار حول شعريهما من ضجة ،وما كان لهما من دوي في حياة الشعر العربي ومذاهبه : فأبو تمام صاحب مذهب جديد في الشعر العربي ؛حاول أن يرضي به عقله ،بالغوص علي المعاني البعيدة ،والتؤدة في طلبها ،والتعمق فيها ،كما حاول أن يرضي به ذوقه وطبعه ،بإيثار الألفاظ القوية ،والأساليب الجازلة ،التي تحاكي أساليب العرب الأولى وجزالتهم ونهجهم في الصياغة والإعراب ،ثم بطلب شتى ألوان الجمال في الأداء والنظم من استعارة رائعة أو تشبيه بليغ أو حكمة بعيدة أو مثل نادر أو طباق ساحر أو تجنيس جميل، وأبو الطيب المتنبي هو الشاعر الذي عصف في حياته بخصومه وأقرانه في مصر والشام والعراق وإيران ،وذهب شعره في أرجاء العالم العربي إذ ذاك ثائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

فردده الناس وشدت به الحياة، وتمثل به الدهر، وكان أبو الطيب يفرغ من نفسه على شعره روح القوة والحرية والحياة، مصورا فيه خلجات نفسه، وخفاقات قلبه في قوة شخصية ، وقوة تأثير ، راسما الحياة الإسلامية في عصره ، داعيا إلى مذاهب جديدة فيها عزة النفس وكرامة الفرد وحرية الحياة ،ثم لا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد في منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء كأبي الطيب ،ولا شاعرا كثرت حول شعره الدراسات الأدبية كثرتها حول المتنبي ،وحسبك أنه قد شرح ديوانه فحول العلماء كابن جني م سنة ٣٩٢ ومحمد الهروي م سنة ٤١٤ والمعري م سنة

٤٤٩ وابن الافليلي م سنة ٤٤١ والواحدي م سنة ٤٨١ وعبد القاهر الجرجاني م سنة ٤٧١ والتبريزي م سنة ٥٠٢ والعكبري م سنة ٦١٦ ، ثم اليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث ،كما نقد شعره كثير من النقاد كالحاتمي وابن عباد والجرجاني وكابن وكيع م سنة ٣٩٣ في كتابه " المنصف " في سرقات المتنبي الشعرية والثعالبي م سنة ٤٢٩ في كتابه " يتيمة الدهر " والعميدي في كتابه " الإبانة عن سرقات المتنبي " وابن حسنون المصري في كتابه " نزهة الأديب في سرقة المتنبي من حبيب " ومحمد ابن أحمد المغربي راوية المتنبي في كتابية " الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي " و " التنبيه المنبي عن رذائل المتنبي " إلي غير ذلك الكثير من نقد المتنبي وشعره ،وهذا فضلا عمن كتب عن حياة أبي الطيب أو عرض لشعره من الكثير من رجال الأدب والنقد والبيان .

هذا هو شأن النقد الأدبى فى القرن الرابع ؛ولا شك أن ظهور قدامة في أول هذا القرن : ورجوعه إلى البيان اليوناني وما فيه من موازين للنقد ومناهج للبيان يلقح بها البيان العربي ويضع بها أسس النقد الأدبي جاعلا لألوان الترف في الأداء التي تمس الفكرة وتشبع المعني حظا كبيرا في النقد ،كان تطورا جديدا في بحوث النقد والبيان ،وكان قدامة المنطقي يغلب ذوقه الأدبي ،فزل أحيانا في نقده من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي هلال العسكري أحكام عقولهم في النقد والحكومة الأدبية ،وإن تبعوا منهج قدامة وجروا في فهم الشعر وتذوقه ونقده مجراه الذي نذوقه في كتابه نقد الشعر ،الذي يرجع إلى البحث في عناصر الشعر الأساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى.

وجاء الآمدى فرسم منهجا جديدا في النقد ،فجعل الطبع والسليقة العربية ومذاهب العرب في البيان هي الحكم في كل مشكلة ،والفاصل في كل شبهة ،ونقد قدامة في كثير من آراءه ،بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه في " نقد الشعر " وأهداه لابن العميد ،وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض أراء قدامة .

وقد استحال النقد إلى علم البلاغة العربية المعروف علي أيدي علماء النقد، وقد بدأ التدوين في البلاغة على يد ابن المعتز الذي ألف كتابه القيم " البديع "[1] وثعلب الذي ألف كتابه " قواعد الشعر "، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ ،ثم كتاب الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمدي، والوساطة للجرجانى، وإعجاز القران للباقلانى،

---

(١) على نهجة ألف ابن منقذ المتوفى عام ٥٨٤ " البديع " .

وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة ،ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة والمتوفى عام ٤٧١ هـ ، فألف في البلاغة كتابين جليلين هما :

١- أسرار البلاغة، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢- دلائل الإعجاز: وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني ،كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا .

وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره؛ والرازي في كتابه "نهاية الإيجاز "، وابن الاثير صاحب المثل[1] السائر، وبدر الدين ابن مالك صاحب المصباح، والتنوخي صاحب " الأقصى القريب"، وكثير من العلماء :في البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء في هذا الطور أبو يعقوب السكاكي المتوفي في عام ٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمي ، والذي ألف كتابه " المفتاح " وجعله أقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث ، وقسمها إلى ثلاث أقسام : المعاني - البيان - البديع ، وبذلك تميزت علوم البلاغة ،ومباحث كل علم منها بالتفصيل ،والفلسفة والمنطق يغلبان على السكاكي إلى حد كبير ،من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر .. وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها كاملا .

وجاء الخطيب القزويني المتوفي عام ٧٣٩ فألف في البلاغة كتابيه : تلخيص[2] المفتاح والإيضاح . وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير وفي مقدمتها الأطول للعصام ؛والمطول [3] للسعد ،وشرح التلخيص وسواها .. وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها في هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي م ٦٢٩ هـ والتباين لابن الزملكاني م ٦٥١ هـ ،والمعيار للزنجاني م ٦٥٤ هـ ،وبديع القرآن لابن

---

[1] شرحه عز الدين بن أبي الحديد م ٦٦٥ هـ في كتابه " الفلك الدائر علي المثل السائر " .

[2] لزكريا الأنصاري م ٩٢٦ هـ ط مختصر تلخيص المفتاح " : وللعباسي م ٩٦٣ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص .

[3] عليه كتاب في شرح شواهده اسمه عقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر ،وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ هـ في ٦٦ صفحة .

أبي الإصبع م ٦٥٤ هـو الفوائد الغيائية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرماني م ٧٨٦ هـ، التبيان لشرف الدين الطيبي م ٧٤٣ هـ ،والطراز ليحي بن حمزة العلوي م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسبكي م ٧٧٣ هـ ؛والسمر قندية للسمر قندي وهي رسالة في الاستعارات ،وتوفي السمرقندي عام ٨٨٠ هـ ،وسواها .

نشـــأة البيان العربي

١ - كان للعرب في حياتهم الأولي ذوق ،وفيهم طبع ،كانوا بهما في غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربي ومذاهبه، وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفي ظلال الحياة الإسلامية اختلطت العناصر ، وتمازجت الثقافات ؛ فلقحت العقول، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمة العربية يعملون في صبر وعزيمة في وضع أصول النحو العربي، وجمع مواد اللغة الغزيرة .. وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربي وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربي ،وظل التقدم الفكري والنضوج الأدبي والعلمي يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود بخطوات كبيرة .. وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات:

أ - الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثال: خلف والأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة ويحي بن نجم وعمرو بن كركرة، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية [1] ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون ألا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والإخباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه [2] .. وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء [3] وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربية .

ب- والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل أمثل طريقة في البلاغة منهم الذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن وحشيًا ولا سوقيًا [4] ، ورأي الجاحظ

---

(1) ١/٢٠٩ البيان .

(2) ٣/٢٢٤ البيان .

(3) ١/٥٤ البيان .

(4) ١/١٠٥ البيان .

البصر في هذا الجوهر من الكلام فيهم أعم [1] ، وحكم مذهبهم في النقد [2]؛ ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء ،وأبلغ من كثير من البلغاء [3] ، وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبيه تثقفت بالثقافة العربية ، ومما كان أثره في أصول البيان وفي توجيه دراسته وبحوثه وفي الدعوة إلي آراء في الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ،وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الأدب ،كما نرى في محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلي م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة [4] ،والتي يقول الجاحظ عنها إن بشر أمر بإبراهيم بن جبلة بن محزمة [5] وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه في أصول البلاغة وعناصر البيان [6] ؛ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هاشم وعبد الحميد الكاتب أبو الأكبر كما يقول الجاحظ [7] وابن المقفع وسهل بن هارون [8] والحسن والفضل [9] ابن سهل ويحي البرمكي وأخوه جعفر[10] وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة [11] وابن الزيات وسواهم.

وكان لهذه الطبقة أثرها في بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام .. ونستطيع أن نعرف أثار هاتين الطبقتين في دراسات البيان بالرجوع الي آرائهم المثبتة في شتى أصول الأدب ،والتي يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها ،وإن شئت فاقرأ جواب صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغة [12] ، ويروى قبل بهذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل جمعه بن رافع من أبلغ الناس ؟ ، فقال، من حلي المعني المزيز باللفظ الوجيز وطبق

---

[1] ٣/٢٢٥ البيان .

[2] ١/٢٤٠ البيان .

[3] ١/١٠٦ البيان .

[4] ١/١٠٤ وما بعدها البيان ،٢٢٨ وما بعدها صناعتين .

[5] يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .

[6] ولبشر كتاب في نظم كليلة ودمنة .

[7] ١٥١/ البيان .

[8] كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١٤٤/ البيان ،٣/٣٣ العقد) .

[9] ذكر الحصري كثيرا من بلاغته (١٦– ١٩ ج٢ زهر) .

[10] وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (٨٥و١/٩١ البيان ، ٢/٨١ زهر ، وكان يؤثر الإيجاز (١/٨١ البيان ،١/١٧٧ الكامل) ،ونوه به سهل بن هرون (٢/١١ زهر) .

[11] نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر) .

[12] ١/٨١ البيان ،وراجع ٢/١٨ الكامل .

المفصل قبل التحزيز [1] واقرأ تحديد المفضل الضبي للإيجاز [2]. وتفسير ابن المقفع للبلاغة [3]. وحوار الشمرى لعمرو ابن عبيد في البلاغة [4]، وتعريف الأصمعي للبليغ[5]. ورأي إبراهيم ابن محمد في البلاغة [6]، وتعريف جعفر البرمكي للبيان [7]، وتعريف العتابي للبلاغة [8]، وتفضيل الجاحظ لرأيه [9]، ووصف الرشيد للبلاغة [10]. ورأي شبيب ابن شيبة في تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية علي جودة الابتداء[11] ووصف ابن المقفع كلام الإعراب [12]؛ الذين أعجب الجاحظ ببلاغتهم[13] ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبي تمام [14]، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه في مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من ألفاظ ولا يتعمد الغريب الوحشي ولا الساقط السوقي[15] . وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلي كلام [16] ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقرب إلى المكان البعيد ،والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير علي الكثير ،وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ،وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وما بعد منتهاه ،وعرفها إبراهيم الإمام : بأنها الجزالة والإصابة ، وعرفها ابن المقفع بأنها قلة الحصر والجراءة على البشر ، إلى غير ذلك شتى هذه التحديدات[17]، ويقول أبو دواد الإيادي ، رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب الخ [18]، ويقول الخليل : كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فإن

---

(1) ١/٢١٦ العمدة ،٢/٢٨٠ الأمالي للقالي .
(2) ١/٨١ البيان .
(3) /٩١ البيان ،١/٢١٤ العمدة ،١٥-١٧ صناعتين .
(4) ١/٩٠ البيان ،١/١٤٢ زهر ،و٤٧ الرسالة العذراء .
(5) ١/٨٦ البيان ،١/٢٢٠ العمدة .
(6) ١/٧٥ البيان .
(7) ١/٨٥ البيان ،٤٢-٤٧ صناعتين .
(8) ١/٩٠ ،و١/١٥٧ البيان .
(9) ١/١٢١ البيان .
(10) ٣/٢٦٤ زهر .
(11) ١/٨٩ البيان .
(12) ٣/١١٨ زهر .
(13) ١/١١٠ البيان .
(14) ٣/٢٦٣ زهر .
(15) ٤٢٣ صناعتين .
(16) ٣٥و٣٦ الرسالة العذراء .
(17) راجع ٤٤-٤٦ الرسالة العذراء ،١/٧٥ البيان ،٢و٣و٢٢ ،٣/٢٣ العقد :١٤٠-١/١٥٠ زهر :٨٧-٢/٩١ ديوان المعاني :١٠٩و٢٠٢ اعجاز القرآن :٢١٣-١/٢٢١ العمدة .
(18) ١/١٤٧ زهر :١/٥١ البيان .

استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل ،واحرص أن تكون لكلامك منهما وإن ظرف[١] . ووصية أبي تمام للبحتري تدخل في هذا الباب [٢] ،ويقول ابن عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ :البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه [٣] ،وقال ابن الرومي : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الإطالة [٤]، ويقول البحتري : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل [٥] ،ويقول الثعالبي بعد : خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل[٦]، ويقول ابن الأعرابي: البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير [٧] .

ج - وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بأدب الأمم الأخرى ، وترجموا آراءهم في البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتبًا تبحث في هذه الاتجاهات ،وهؤلاء قد عاشوا في البيئة الإسلامية وأثروا في النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوراته تأثيرا واضحا كبيرا ،ويمكننا أن نذكر شيئا عن مجهود هذه الطبقة في خدمة البيان :

أهم عمل علمي قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ،أما الخطابة فهو أصل كبير من أصول البلاغة ودراساتها ،وقد "أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله إبراهيم بن عبدالله وفسره الفارابي م ٣٣٩ هـ " [٨] ؛وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندي م ٢٥٣ هـ ونقله يحي بن عدي ومتى في القرن الرابع من السريانية إلى العربية [٩] .... وقد

---

[١] ٤٨ الرسالة العذراء .

[٢] ١/١٥١ زهر .

[٣] ٣/٢٦٨ البيان .

[٤] ٤٥ صناعتين .

[٥] ١/٣٦ المستطرف .

[٦] ١/٢١٨ العمدة .

[٧] ١/١٧ العمدة .

[٨] ٣٤٩ فهرست .

[٩] ٣٤٩و٣٥٠ فهرست ،ونجد تحليلا كاملا للكتاب في (٦٤-١٣٦ قواعد النقد الأدبي) ،وهو لم يصل إلينا كاملا وليس من شك أن للكتاب جزءًا ثانيا قد فقد (٦٨ المرجع) ،ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا علي أفلاطون في رأيه الذي ذهب أليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشري وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) .ويقول أرسطو في أوله : " سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفي البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها " (المرجع .. وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤وما بعدها مقدمة نقد النثر) .

ألفوا في صناعة الشعر ، وللكندى ٢٥٣هـ رسالة في صناعة الشعر [١] ،ولأبي زيد البلخي ٣٢٢هـ كتاب بعنوان " صناعة الشعر " أيضا [٢] ،وكذلك لأبي هفان [٣] ،وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة في البلاغة وعناصرها وهي متفرقة في شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد في البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وعرفها الرومي بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ،وعرفها الفارسي بأنها الوصل من الفصل ، وعرفها الهندي بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ؛وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة :ويعرفها جالينوس بأنها إيضاح المفصل وفك المشكل ،واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند [٤] ،ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد [٥] ،ويعرفها سقراط بأنها اسكتشاف الحقائق [٦] ويقسمها الكندي ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ،ونوع بالعكس .ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها [٧] ،ويقول ؛يحب البليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني [٨] ،وذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله : فقال فضائله ان يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم به فى حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ،ورذائله بالضد [٩] الخ ؛وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشيء وسؤلك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عنه ،فإذا طلبت فأسجح وإذا سألت فأوضح وإذا أمرت فاحكم وإذا أخبرت فحقق، وقال أيضا :واجمع الكثير مما تريد في القليل [١٠] ، ولعل ثعلبا حين ذكر في صدر كتابه " قواعد الشعر " أقسام الشعر وأنها أمر ونهى وخبر واستخبار [١١] قد تأثر بذلك الرأي .

وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات فى خدمة البيان ،ولها جميعا أثرها في نشأته وتطوره .

---

(١) ٣٥٩ فهرست .
(٢) ١٩٨ فهرست .
(٣) ٢٠٧ فهرست .
(٤) ٧٨و١/٧٩ البيان ،٢٠٢-٣٨ صناعتين ،١/١٤٤ زهر .
(٥) ٢/٨٨ البيان والتبيين .
(٦) أصول النقد الأدبي للشايب .
(٧) ١/٢١٩ العمدة .
(٨) ١/٣٥ المستطرف .
(٩) ١٨٣ الموازنة .
(١٠) ١٠ أدب الكاتب .
(١١) ص١١ قواعد الشعر .

ومن الكتب الأولى التي ألفت في دراسات البيان وموضوعاته : مجاز القرآن لأبي عبيدة، وكتاب البيان لابن السكيت [1]، وكتاب الفصاحة للدينوري [2]، وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت [3]، وصناعة الكلام للجاحظ [4]: وكتاب التمثيل له[5]، ونظم القرآن أيضا [6]، وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد [7] ؛ وللحراني كتاب في البلاغة [8]، ولثعلب قواعد الشعر ،ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل إلى صناعة الشعر [9] . وللمروزي كتاب البلاغة والخطابة [10] ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس [11] ،ولأبي سعيد الأصفهاني كتاب تهذيب الفصاحة [12] ،وللباحث كتاب صنعة البلاغة [13] ،لمحمد بن يزيد الواسطى المعتزلى م ٣٠٦هـ كتاب إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ،ولابن الأخشيد [14] كتاب نظم القرآن وكذلك لابن أبي داود ٣١٦ هـ [15] وللحسن بن جعفر كتاب فى الرد على من نفى المجاز فى القرآن [16] .

٣- وبعد فقد كان البيان العربي في القرن الثالث مزيجا من ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية ،ومؤلفة ومترجمة :من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربيا خاصا ،وهنا سؤالان لابد من الجواب عليهما ،وهما : متى نشأ البيان العربي، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟ .

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة : فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان

---

(١) ١/٢٠٨ كشف الظنون ،وقد يكون في هذا الكتاب عرض للأدب وألوانه كالبيان والتبين .

(٢) ١١٦ فهرست .

(٣) ٣٨٣ فهرست ،وهو فارسي خدم المنصور والمهدي .

(٤) ٣٨ الجاحظ لمردم .

(٥) ٤١ المرجع ،٦/٧٦ معجم الأدباء .

(٦) ٤٠ الجاحظ لمردم .

(٧) ٨٨ فهرست ،٧/١٤٤ معجم الأدباء .

(٨) ١٧٨ فهرست .

(٩) ٢٦ بغية الوعاة .

(١٠) ٢١٥ فهرست .

(١١) ٢١٢ فهرست .

(١٢) ١٩٧ فهرست .

(١٣) ١٩٧ فهرست .

(١٤) ٥٧،٥٨ فهرست .

(١٥) ٣٢٤ فهرست .

(١٦) ٥٢فهرست .

العربي حقا [1] : ويري آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن ،وتطورت بعده [2] وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدها من القرآن [3] ،وينقد باحث هذا الرأي [4] .. ومن الضروري أن نفرق بين أمرين ،نطق العرب فى آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس إلخ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية ،فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده ،والثاني لم يوجد إلا في القرن الثالث الهجري كما ذهب إليه أكثر الباحثين ،فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجري عليها الأدب ،بل أن طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أم لم تبحث [5]،فالأدب وخواصه الأدبية موجدان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها علي أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد إلا بعد القرن الثاني الهجري ،" فعلم البلاغة لا عهد للجاهلين به " [6] ،والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي إنما هي دراسة متأخرة في نشأتها على أنه لا شك كان هناك في العصر الجاهلي وصدر الإسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها [7] ،وهذا كله مما لا سبيل إلي الشك فيه .

وأما الأمر الثاني وهو هل تأثرت البلاغة العربية فى نشأتها الأولى ببلاغة الأمم الأخرى ؟فيمكنا بسط الحديث به :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة في الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية " فهذا شيء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحترى ولا المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم في أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد " ثم ينفي أن يكون هو تأثر في رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ،ويذكر أنه اطلع بما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستجهله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا [8] ،

---

(1) ٣و٣٠و٣١ مقدمة نقد النثر .

(2) ١/٤٨ النثر الفني ،ومن قبل رأي الصاحبي أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨وما بعدها الصاحبي) .

(3) ١/٥٦ النثر الفني .

(4) ١٦/ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(5) ٨ قواعد النقد الأدبي .

(6) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية .

(7) ص٤و٥ مجلة الأدب والفن نوفمر ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب .

(8) ٢٠ المثل السائر .

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر في علم البلاغة العربي [1] . ويرى أخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان [2] .وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا في القرن الثاني وأثروا في البيان وتطورد جلهم من الأعاجم [3] وأن متكلمي المعتزلة كانوا بتضلعهم في الفلسفة اليونانية من مؤسسي البيان العربي [4] وأنه حتى منتصف القرن الثالث لا يوجد إلا بيان عربي واحد كان لا يزال في دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربي والفارسي واليوناني . ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربي بحت ويوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو. على أن البيان العربي الصرف قد تأثر باليونان [5] .وترجم كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه علي الشعر العربي وكان يجهل كتاب الشعر [6] وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق [7]، على أن تشريع الفلسفة للأدب في رأى الدكتور يظهر أول مرة في نقد الشعر "[8] ثم في " نقد النثر " الذي هو مستمد من آراء أرسطو في الجدل والقياس والخطابة [9] .

علي أننا قد بسطنا القول في ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى في خدمة البيان العربي وإنشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول إلى البيان اليوناني وأخذوا يدأبون على الإفادة منه في بحوث البيان العربي ودراساته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ،فهم قد استعانوا بطرقهم في دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربي والتأليف فيه .

---

(1) ١/١٧٧ ضحي الأسلام .
(2) ٣١ مقدمة نقد النثر .
(3) ص٦ المرجع نفسه .
(4) ٨ المرجع .
(5) ١١وما بعدها المرجع .
(6) ١٧ المرجع .
(7) ١٦ المرجع .
(8) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر .
(9) ١٧ وما بعدها المرجع .

وهذه هي أول صحيفة في البلاغة لبشر بن المعتمر [1]:

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن محزمة السكوني الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة ،فوقف بشر ،فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو يكون رجلا من النظارة ،فقال بشر : اضربوا عما قال صحفا واطووا عنه كشحا .. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ،وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ،فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا ،وأشرف حسبا ،وأحسن في الإسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ،وأجلب لكل عين وغرة ،من لفظ شريف ومعنى بديع ..

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ،ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا علي اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ،والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريما فيلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلي أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .

وكن في ثلاث منازل : فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ،إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ،وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ،والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ،وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة ،وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامي والخاصي ،فأن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسعة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفوا عن الأكفاء ؛فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تؤاتيك ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفي أول تكلفك ،وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر على قرارها وإلى حقها

---

[1] نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ ويعد أحمد أمين بشر بن المعتز من أجلها المؤسس الأول لعلم البلاغة العربية (١٤١و١٤٢/٣ ضحى الإسلام)

من أماكنها المقسومة لها ،والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها ،فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها ،فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ،ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ،لم يعبك بترك ذلك أحد ،وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ،عابك من أنت أقل عيبا منه ،ورأى من هو دونك أنه فوقك .. فإن ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة وتعصي عليك بعد إحالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر وضع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فإن تمنع عليك بعد ذلك من حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ،والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة ،فهكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على إبراهيم قال لي : أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .

القسم الخامس

تراجم الشعراء في هذا العصر

بشار بن برد

المتوفى عام ١٦٧ هـ

حيـــاته:

هو بشار بن برد بن يرجوخ زعيم المحدثين ،جده يرجوخ من طخار ستان من سبي المهلب بن أبى صفرة وكان أبوه برد من في أخيرة القشيرية امرأة المهلب ،وكان مقيما لها في ضيعتها بالبصرة المعروفة (بخيرفان) فوهبت بردا بعد أن زوجته لامرأة من بني عقيل كانت متصلة بها ،فولدت له امرأته وهو في ملكها بشارا فأعتقته ولذلك يقال بشار العقيلي ،وبعد ذلك صار برد طيانا يضرب اللبن حاذقا بالتطيين وكان يقول ما رأيت مولودا أعظم بركة من ابني بشار ولقد ولد لي وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم ،ولم يمت برد حتى قال بشار الشعر ،ومما يحكى عنه أنه كان إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه فشكوا فضربه ضربا شديدا فكانت أمه تقول له كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله إني لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إليّ، فسمعه بشار فطمع به وقال : يا أبتي هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر وأني إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلي،فإن شكوني إليك فقل لهم : أليس الله يقول ليس علي الأعمى حرج ؛فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار فانصرفوا وهم يقولون ؛فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار، وكان لبشار أخوان بشر وبشير ،كاناقصا بين ؛ولما نبغ بشار في الشعر وصار له مقام بين الناس لم يترك بيت أبيه وكان إخوانه يلبسان ثيابه فإذا لبسها أنكر رائحتها فإذا كان في مجلس في تلك الثياب فقيل له ما هذا يا معاذ ؟ أجاب :هذه ثمرة معاشرة الأخوان ،وحكى صاحب الأغاني قال حدث محمد بن الحجاج قال كنا مع بشار فاتاه رجل فسأل عن منزل زرجل ذكره له فجعل يفهمه ولا يفهم فأخذ بيده وقام يقومه إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمـــي يقــود بصــيرا لا أبـــالكم قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار إلى منزل الرجل ثم قال له هذا هو منزله يا أعمى .

وكان بشار شاعرا ذا ذوق سهل العبارة صحيح اللغة وذلك لأنه نشأ في البدو بين بني عقيل ، وكثيرا ما يستشهد بشعره .. وكان أحسن الشعراء المحدثين ابتداء من ذلك مطلع قصيدته :

أبـي طلـل بالجـزع أن يتكـلما ... ومـاذا علـيه لـو أجـاب متـيما
وبالجـزع آثـار بقـين وبـاللوى ... ملاعـب لا يعـرفن إلا توهمـا

وما أظرف قوله :

ياليلـتي تـزداد نكـرا ... مـن حـب مـا أحببـت بكـرا
حـور إذا نظـرت إلـيك ... سـقتك بـالعين خمـرا

وله أخبار وأشعار عديدة مع امرأة أسمها عبدة ،منها قوله :

يـزهدني في حـب عـبدة معشـر ... قلوبهـم فـيها مخالفـة قلـبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى ... فبالقلـب لا بـالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنـان إلا مـن القلـب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا ... وألـف بين العشق والعاشق الصب

وله ميمية بديعة نظمها لأبي مسلم إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يحرضه ويشير عليه ،فلما قتل أبو مسلم خاف بشار أن تشتهر ميميته فقلبها وجعل التحريض فيها على أبي مسلم والمديح والمشورة لأبي جعفر المنصور ،ومطلعها :

أبـا مسـلم مـا طيـب عـيش بدائـم ... ولا سـالم عمـا قلـيل بسـالم

وله قصائد عديدة في مدح المهدي ،وكان المهدي يصله أولا، ويأمره أن لا يقول الغزل والنسيب ،ولكن بشارا لا يسمع لـه، وكان سبب موت بشار ما حكاه صاحب الأغاني قال : خرج بشار مرة إلى المهدي ويعقوب بن داود فلم يحفل به يعقوب يعطه شيئا ،ومر يعقوب ببشار وهو يريد منزله فصاح به بشار : طال الثواء على رسوم المنزل، فقال يعقوب : فإذا تشاء أبا معاذ فارحل ،فغضب بشار وقال يهجوه :

بـني أمـية هـبوا طـال نومكـم ... إن الخلـيفة يعقـوب بـن داود
ضـاعت خلافـتكم يـاقوم فالتمسـوا ... خلـيفة الله بـين الـزق والعـود

ولما طالت أيام بشار على باب يعقوب دخل عليه وكان من عادة بشار إذا أراد أن ينشد أو يتكلم يتفل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى ففعل ذلك ، وأنشد :

يعقـوب قـد وفـد العفـاة عشـية | متعرضـين لسـيبك المنـتاب
فسـقيتهم وحسـبتني كمونـة | نبتـت لـزارعها بغـير شـراب
مهـلا لديـك فـإنني ريحانـة | فـاشمم بـأنفك واسـقها بذنـاب
طـال الـثواء عـلى تـنظر حاجـة | شمطت لديك ،فمن لها بخضاب ؟
تعطـي الغزيـرة درهـا فـإذا أبـت | كانـت ملامـتها عـلى الحـلاب

فلم يعطف يعقوب عليه وحرمه ،فانصرب إلى البصرة مغضبا فلما قدم المهدي البصرة أعطى عطايا كثيرة ووصل الشعراء وذلك كله على يد يعقوب ،ولم يعط بشارا من ذلك ؛فجاء بشار إلى يونس النحوي فقال : هل ههنا أحد بحتشم منه ؟ قالوا له : لا ،فأنشأ بيتا يهجو فيه المهدى، فسعى به أهل الحلقة إلي يعقوب فدخل يعقوب على المهدي، وقال له : يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى قد هجاك فقال بأي شيء، فقال بما لا ينطق به لساني ، فأمر بضربه حتى مات ،ثم ألقي في زورق في البطيحة فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة البصرة ،فأخذ وأتى به أهله فدفنوه ،وبعد ذلك ندم المهدى على قتله حين لا ينفع الندم .

لقن اللغة والفصاحة من معاشرة مواليه الذين نشأة فيهم ،ومن أئمة البصرة في اللغة والأدب والكلام ،ومن اختلافه كثيرا من الأعراب الذين كانوا ينزلون بادية البصرة ،حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر ،قيل له : ليس من أحد شعراء العرب شعر ،إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ،وليس في شعرك ما يشك فيه ،قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت ها هنا ،ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ،وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ،وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ،فمن أين يأتيني الخطأ ؟وكان فوق ذلك متوقد الذكاء صادق الحس لطيف الهداية ،وكان في صباه وشبابه معتدل الأخلاق مكبا على تحصيل العلم ،مصادقا لواصل بن عطاء رأس المعتزلة وعمرو بن عبيد ،إلا أن ذلك لم يدم طويلا ؛فصرح بعقائد فاسدة في حديثه وشعره ، ورأى المجون والخروج على العلماء والمتوقرين يحببانه إلى طبقة الخلعاء والمغنين والقيان فاستهتر بهما ،ورأى أن أكثر الناس لا يستدر خيرهم إلا بتهديدهم بالهجاء والتشهير بهم ،فسلك معهم هذا الطريق، وتمادى في ذلك فأصبح ولعا بالمجون والعبث بالناس ،قليل المبالاة بشعائر الدين وبالوقيعة فيه متهما بالزندقة ، وأنه يدين بالرجعة ويفضل النار على الأرض ، فيصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم ،ويرى أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ثم

سار شعوبيا متعصبا على العرب ،يغري الموالي بنبذ ولائهم والانتماء إلى الفرس . شديد التبرم بالناس ، ثلابا بهم ،نهاشا لأعراضهم ،لم يسلم من عقرة لسانه خليفة ولا سوقة ،حتى أهل بيته ،وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا يعرفه بشار ،فإن لم يمتحن بلسانه امتحن به في ماله ،فمقته العلماء والمتكلمون وهموا بالوقيعة به ،وإراحة الناس منه وخاصة واصل بن عطاء ،وعمرو بن عبيد ،ففر من البصرة إلى أرض الجزيرة الفراتيه واتصل ببعض أمراء بنى أمية وولاتهم فمدحهم وعاش في معروفهم ،وجاءت الدولة العباسية فاضطرب عيشه فيها بادئ الأمر حتى علم بموت عدوية :واصل وعمرو بن عبيد ،فعاد إليها محمد بعقائد جديدة ومنكرات من الأخلاق ،غير أن نبوغه في الشعر ،وبراعة دعابته شفعت له عند كثير من رؤساء الموالي والمشتهرين بالمجون ،فعاش بقية عمره بالبصرة .

شعـــره :

وقد قال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ،ثم بلغ الحلم وهو مخشى معرة لسانه ،وكان يقول : (هجوت جريرا فأعرض عني واستصغرني ،ولو أجابني لكنت أشعر الناس .. وكان وهو صغير إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه ،وكان طيانا يعمل اللبن من الطين ، فشكوه إليه، فيضربه ضربا مبرحا ،فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الصغير الضرير ، أما ترحمه ،فيقول بلى والله لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إليّ، فيسمعه بشار فيطمع فيه ، فقال يأبت إن هذا الذي يشكونه إليك مني هو قول الشعر ،وإني إن تممت عليه أغنيتك وسائر أهلي ،فإذا شكوني فقل لهم ، أليس الله عز وجل يقول : ليس على الأعمى حرج ،فلما عادوا شكواهم قال لهم ذلك ،فانصرفوا ،وهم يقولون :فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ،ويقول أكثر رواة الشعر ونقدته والباحثون في طبقات الشعراء : إن بشارا رأس المحدثين ومقدمهم ،وأسبقهم إلى معاطاة محسانات البديع وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المقذع في الإسلام ، وأنه أول من جمع في شعره بين جزالة العرب والمحدثين ،وفتق عن المعاني الدقيقة والأخيلة اللطيفة والحق أن له الجيد والرديء، قال عن نفسه : لي اثنى عشر ألف بيت عين فقيل له : هذا ما لم يكن أحد يدعيه سواك، فقال : لي اثنتى عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين ،وقصارى القول أن شعر بشار هو الحد الوسط بين القديم والحديث ، وقد طرق فيه كل أبواب الشعر التي عرفت قبله ، وأربى عليها وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والغزل بهن والخروج عن ذلك الحد المألوف عند أهل

زمانه ،مما أنكره عليه العلماء والمتألهون لما رأوا من تولع جواري البصرة وشبانها بشعره ،وحتى قال ابن سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار ما شيء أدعى لهذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ،ومازال يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول، إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات لهذا الأعمى الملحد ،فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي وقدم عليه مادحا له استنشده قوله :

قاس الهموم تنل بها نجحا ... والليل إن وراءه صبحا
لا يؤيسنك من مخدرة ... قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسره ... والصعب بعد ما جمعا

فأنشده إياه ،وكان المهدي غيورا ،فغضب وزجره ،وقال : أتحض الناس عن الفجور ، ويقذف المحصنات المخبآت : والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا في تشبيب لآتين على روحك ، فكان بشار إذا تاقت نفسه لقول ذلك ذكر أن الخليفة منعه كذا وكذا ،ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يريد ،ويقول إنه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت ،وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ،فلم يزد على أن حرمه الجائزة عليها ،من ذلك قوله يتبرأ من التشبيب ويمدح الخليفة :

يامنظرا حسنا رأيته ... من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني ... برد الشباب وقد طويته
أمسكت عنك وربما ... عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئا أبيته

ومخضب رخص البنان بكى على وبكيت عليه
ويشوقني بيت الحبيب إذا ادكرت وأين بيته؟

قام الخليفة دونه ... فصبرت عنه وما قليته
ونهاني الملك الهما ... م عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع ... عهدا ولا رأيا رأيته
وأنا المطل على العدى ... وإذا غلا الحمد اشتريته
وأميل في أنس النديم ... من الحياة وما اشتهيته
أصفى الخليل إذا ندى ... وإذا نأى عني نأيته

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب فحرمه ،وبهذا الشعر الرقيق تعرف :كيف كان ولوع شبان البصرة ونسائها وخلعائها بشعره وتغنيهم به ،وكيف كان إغراؤه لهم بالمجون ،وكانت متأدبات القيان لذهاب بصره يحضرن مجلسه ويسمعن شعره

ويتناشدنه ويتغنين ويتعاتبن به ،فهوى بشار منهن جارية تسمى عبدة ،فشهرها في شعره ،حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة : فمن قوله فيها :

يزهدني في حب عبدة معشر | قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضي | فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى | ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا | وألف بين العشق والعاشق صب

وقوله :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم | ونفى عني الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودي لنا | خرجت بالصمت عن ولا نعم
رفهي يا عبد عني واعلمي | إنني يا عبد من لحم ودم
إن في بردي جسما ناحلا | لو توكأت عليه لا نهدم

وكان يولع في شعره بهذا المعنى ، وشبهه مع أنه كان ضخما كأنه فيل .. ومن ذلك قوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة | والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم | الأذن كالعين توفي القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية | يلقى بلقيانها روحا وريحانا

وهاجى بشار الشعراء المفلقين في زمانه ،ونصب لهم منهم حماد عجرد ،واحتدم بينهم اللجاج والتقاذف بالأقوال المقذعة ،وظهر حماد عليه في بعض أهاجيه ،مع أن الجيد من هجاء بشار فيه أكثر من جيد ؛ هجاء حماد ، فهجاء بشار هتك حمادا ،وبعض هجاء حماد آلم بشارا ،وإن لم يسقط منزلته قيل إنه لما هجاه حماد بقوله :

ويا أقبح من قرد | إذا ما عمي القرد

قال : لا إله إلا الله ،قد والله كنت أخشى أن يأتي به ،والله لقد وقع لي هذا البيت من أكثر من عشرين سنة فما نطقت به خوفا من أن يسمع ،فأهجى به ،حتى وقع عليه النبطي ،وقيل ،إنه لما سمعه بكى ،فقال له قائل : أتبكي من هجاء حماد ؟ فقال والله ما أبكي من هجائه ،ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه فيصفني ولم أصفه .. ولبشار من المعاني المبتكرة والأخيلة البديعة في فنون الشعر المختلفة ما جعل منهجه برزخا بين الشعر القديم والحديث ،ومجازا يعبر عنه الشعر من مرابع البداوة

إلى مقاصير الحضارة ،وفي ذلك يقول الجاحظ في كتاب البيان والتبيين " كان بشار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل ،وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ،المتغنيين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه " ،ومن غرر كلامه في الحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن ... نؤوما فإن الحر ليس بنائم

وقوله :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك ، فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذي ... ظمئت وأي الناس تصفوا مشاربه

وقال أبان بن عبد الحميد : نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ،وكان فيهم بيان وفصاحة ،فكان بشار يأتيهم ،وينشهدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا ،فيجلونه لذلك ويعظمونه ،وكان نساؤهم يجلسن معهم ،ويتحدثن إليه ، وينشدهن أشعاره في الغزل ،وكنت كثيرا ما آتى في ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأتيتهم يوما إذا هم قد ارتحلوا ،فجئت إلى بشار ، فقلت يا أبا معاذ أعلمت أن القوم قد ارتحلوا ؟ قال : لا ،قلت :فاعلم ،قال : قد علمت لا علمت ! ومضيت ،فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس ينشدون :

دعا بفراق من تهوى أبان ... ففاض الدمع واحترق الجنان
كأن شرارة وقعت في قلبي ... لها في مقلتي ودمي استنان[1]
إذا أنشدت أو نسمت عليها ... رياح الصيف هاج لها دخان

فعلمت أنها لبشار ؛فأتيته ،فقلت : يا أبا معاذ ،ما ذنبي إليك ؟ قال : ذنب غراب البين ، فقلت :هل ذكرتني بغير هذا ؟ قال: لا ،فقلت : أنشدك الله أن لا تزيد، فقال : امض لشأنك فقد تركتك ... ومن غرر شعره قوله :

---

[1] استن الرجل : مضى على وجهه ،واستن السراب : اضطرب .

خليلي إن المال ليس بنافع ... إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت على محلة ... تيممت أخرى ما علي مضيق
وما خاب بين الله والناس عامل ... له في التقى أو في المحامد سوق
وما ضاق فضل الله عن متعفف ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقوله :

طبعت على ما في غير مخير ... هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى فأعطى ولم أرد ... وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر ... وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

ومن قوله في الوصف والحماسة :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى ... وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها ... تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ... وتدرك من نجى القرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا ... بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا: فريق في الإسار ومثله ... قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
إذا الملك الجبار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ومن قوله في المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس :

أخالد لم أخبط إليك بذمة ... سوى أننى عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتى ... فأيهما تأتى فأنت عماد
فإن تعطنى أفرغ عليك مدائحى ... وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابى على حرف وقلبى مشيع ... وما لى بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها ... خرجت مع البازى على سواد

وقوله :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت ، وأعدانى فأتلفت ماعندى

وقوله يمدح عقبة بن سلم بن قتيبة :

إنما لذة الجواد ابن سلم ... في عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء وللخو ... ف ولكن يلذ طعم العطاء
تسقط الطير حيث ينتثر الحـ ... ـب ، وتغشى منازل الكرماء

ومن قوله في الحماسة يفتخر بولائه لمضر :

إذا مـا غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا مـا أعرنا سيدا مـن قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

ومن ابتداءاته البديعة قوله :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لـو أجاب متيما
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توهما

آراء النقاد في شعره :

يقول فيه أبو الفرج : محل بشار في الشعر ، وتقدمه في طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير إختلاف في ذلك ، يغنى عن وصفه وإطالة ذكر محله ، وهو من مخضرمى شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، وقد شهر فيهما ، ومدح وهجا ، فأخذ سنى الجوائز مع الشعراء[1] ؛ وكان يحيى بن الجون العبدى راوية بشار [2] ؛ وكان الأصمعى يقول :

بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم [3] ..
وقال أبو عبيدة : سمعت بشارا يقول وقد أنشدنى في شعر الأعشى :

وأنكرتنى وما كان الذى أنكرت مـن الحوادث إلا الشيب والصلعا

فأنكره وقال : هذا بيت مصنوع ؛ ما يشبه كلام الأعشى ؛ فعجبت لذلك ، فلما كان بعد ذلك بعشر سنين كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثنى أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله في شعر الأعشى ، فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقد الشعر[4] ؛ وسئل أبو عبيدة : أمروان عندك أشعر أم بشار ؟ فقال : حكم بشار لنفسه أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والإسلام بهذا العدد ، ومروان أمدح للملوك [5] .

وسئل الأصمعى عن بشار ومروان أيهما أشعر ؟ . فقال :بشار . فسئل عن السبب في ذلك ، فقال : لأن مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك وتفرد به . وهو أكثر

---

[1] ٣/٢٠ الأغانى .
[2] ٣/٢١ المرجع .
[3] ٣/٢٣ .
[4] ٣/٢٣ .
[5] ٣/٢٤ المرجع .

تصرفا وفنون شعر ، وأعزر وأوسع بديعا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل : وسأله رجل عن مروان بن أبي حفصة فقال : وجدت أهل بغداد وقد ختموا به الشعراء ، وبشار أحق بأن يختموهم به من مروان ، وما كان مروان في حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه بشار له ويقومه ، وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدى الخلفاء بالشعر ويساويه في الجوائز ، وسلم معترف بأنه تبع لبشار .

وقال يحيى بن المنجم : سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون : أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس ، وفي الإسلام القطامى ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طلل فى الجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما[1]

وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ويقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه شيئا ، ولا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، وكان يشبه بشارا بالأعشى والنابغة ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة [2] ، وسئل أبو زيد عن بشار ومروان فقال : مروان أجد وبشار أهزل ،فحدث الأصمعي بذلك فقال : بشار يصلح للجد والهزل ، ومروان لا يصلح إلا لأحدهما [3] وفضله أبو عمرو ابن علاء [4] ، وكان إسحاق الموصلي لا يعتد ببشار ويقول : هو كثير التخليط في نثره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . وكان يقدم مروان عليه ويقول : هذا هو أشد استواء شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا[5].. وقيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت فبينما تقول شعرا يثير النقع وتخلع به قلب الجبان . إذا بك تقول : " ربابة ربة البيت " وأشباه ذلك ؛ فقال: لكل وجه فالقول الأول جد ؛ وهذا قلته فى ربابة جاريتى فهذا عندها أحسن من "قفانبك " . وغضب بشار على سلم الخاسر لأنه معانيه في شعره ، وكان يقال : أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته [6] ، وكان إسحاق يطعن على شعر بشار ويضع منه ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا [7] .

---

[1] ٣/٢٥ المرجع .
[2] ٣/٢٥ المرجع .
[3] ٢٥ج٣ المرجع .
[4] ٢٦ج٣المرجع .
[5] ٢٨ج٣ .
[6] ١٢٢ج٣ الأغانى .
[7] ٤٦ج٣ المرجع .

أبو نواس الحسن بن هانئ

حيـــاته :

هو أبـو الحسـن بـن هـانـىء، بـن عـبد الأول بـن الصـباح،كنيـته الأولى أبـو فراس ثم كنى بأبي نواس ،كان فارسي الأصل ،أعجمي المحتد ،لذلك أخفى نسبه ونسب أمه الأهوازية الفارسية حتى لا يعرف فيقدح فيه - ولما كبر أبي نواس أكثر من دعاويه وخلط في نسبه ، فادعى أنه بصرى المنشأ ثم ناقض دعوته في قوله، من قصيدة يهجو بها عرب البصرة :

فــإن أك بصــريا فــإن مهاجــرى	دمشــق ولكــن الحديــث فــنون
مجــاور قــوم لــيس بـيني وبيــنهم	أواصـــر إلا دعـــوة وظـــنون

كان أدعى أنه تيمي النسب فانتسب إلى أولاد عبيد الله بن زياد بن ظبيان العامري التيمى ،فقيل لأبي نـواس كيف تدعـي نسبتك إليه وهـو لا عقب لـه، لـو انتسبت إلى أولاد أخيه أبان بن زياد لصدقناك فخجل أبو نـواس وترك نسبته إلى تيم، ثم ادعى أنه من قبيلة نـزار وأنه من أحفاد الفرزدق فانتقده الحكم بن قنبر المازن وهجاه فلما هجاه أبو نواس وخندف الأسدى ، وأسد بطن من بطنون نزار ، تعرض لـه الحكم وهجاه فترك النزارية ، وادعى أنه من حكم وانتسب إليها مدة زجره يـزيد بـن منصـور الحميرى (خـال المهـدى) وقـال لـه أنـت خـوزى مـن (خوزستان - إحدى ولايات فارس) فمالك ولحكم ؟ فرد عليه أبو نواس مضطرا : أنا مولى لهم ياسيدى . وإثر ذلك ترك الحكميون أبا نواس وشأنه و لكنه حنق واغتاظ فسب اليمنيين وهجا رجالاتهم ، فهجا هاشم بن حديج الكندى أحد أشراف اليمن بقصائد كثيرة ولا نعرف سبب تخصيصه هاشما بهجـوه وبالإكثار مـن هجـوه إلا أن يكون هـو الذى بدأ بإفحامه ليترك دعوته ويهجر نسبته إلى قبيلته ، ولكن الحكميين رأوا أن لسان أبى نـواس المقذع لا يكف ولا يسكت ، فقال بعضهم لبعض دعوا أبا نـواس فى دعوته فبهذا الولاء (الولاء لا النسب) يتعصب لنا ويدافع عنا ويهجو نزارا ألد أعدائنا ، واتفقوا إثر ذلك على أن لا يكذبوه فى نسبته إليهم ، فرجع أبو نواس إلى اليمن نادما على سبه لهم معتذرا لمن هجاهم من رجالاتهم فاعتذر إلى هاشم بن حديج الكندى بقصائد استلت سخيمته واسترجعت رحمته ، ومن اعتذاراته له :

أتشـتم خـير ذى حكـم بـن سـعد	لقـــد لا قيـــت داهـــية تـــؤادا
سـببت ابـن الحديـج فسب ظـلى	لعمــر أبـيك مــا اسـتوفى وزادا

أبلغ اعتزاز العرب بنسبهم فى العصر العباسى هذا المبلغ ؟ إلى حد أن يحاول رجل كأبى نواس الانتساب إلى قبيلة والالتجاء إلى جماعة ، وإلى حد أن يعرف أن ذلك المدعى دخيل عنهم مدع عليهم ، وهل العصبية العربية مازالت قائمة لم يضعفها اختلاط الفرس بالعرب ؟ ذلك ما نراه من الاطلاع على تاريخ أبو نواس ، نرى اعتزازا بالنسب لا يماثله اعتزازا وإكبار للعصبية لا يداخله إنكار ، والاحتفاظ بالأنساب لا يشابهه احتفاظهم بعاداتهم وأخلاقهم ، غير أنه من المبالغة أن نقول إن تلك العصبية لم تنقص عما كانت عليه فى أيام الجاهلية ، فلابد من أن يكون لاختلاط أثره ولكثرة عدد القبيلة فعله ، ولا بد أن تكون هذه العصبية فى الأقاليم البدوية النائية عن الفرس البعيدة عن الاختلاط تخالف العصبية التى توجد لدى الحضريين حتى يكثر مصاهرة العرب للفرس وتجاورهم فى السكنى فيكثر اختلاط الأنساب ويصعب حفظها .

اطمأنت نفس أبى نواس إلى هذه الدعوى واستراحت من جهة النسب ولا سيما بعد أن وجد اليمنيين يتفاضلون به ويحلونه منهم مكانا رفيعا ومقاما خطيرا ويعدونه من أشرافهم ويبجلونهم كأمرائهم ، ثم جلس أبو فراس الحسن بن هانى يوما معا الأمير خلف الأحمر أحد عمال اليمن ، وكان من أعجب الناس بأبى نواس وأميلهم إليه ، فقال له : أنت من أشراف اليمن فتكن بكنيتها ، بأسماء الذوين (الملوك الذين تبتدئ أسماؤهم بذى) وعد له منها : ذا جدن ، وذا يزن وذا نواس . ففضل أبو فراس ذا نواس فكنى بأبى نواس ، وغلبت كنيته الأولى ... يتضح لنا إذا أن أبا نواس فارسى الأصل ، أعجمى النجار ، وأنه ليس له نسب بين العرب ، وأن ما شهر عنه من أنه كان حكميا ما هو إلا نسبه ولاء رضى بها الحكميون وأقرره عليها ، لما أن رأوا فيه الشاعر الفذ النابه .

ولد أبو نواس سنة ١٤٥ - ٧٦٢ م ، وقيل إنه قبل ذلك التاريخ بأربع سنين ، ولكن أين ولد الشاعر ؟ ، أفى البصرة التى نشأة وتربى فيها ، كما يقول أبو نواس فى بيته : فإن أك بصريا فان مهاجرى الخ ؟ أم فى قرية من قرى كورة خوزستان الفارسية تدعى (باستان ماتارد) ثم انتقل إلى البصرة بعد ذلك وترعرع فيها ؟ أم فى دمشق حيث كان والده الجندى معسكرا فيها مع جند مروان بن محمد ؟ كل ذلك لا تلقى عليه الروايات قبسا من نور ، ولا شعاعا من ضياء ، إلا ما نرى من كثرة الروايات التى تروى عنه أنه ولد فى كورة خوزستان فانتقل بعد ذلك مع أمه إلى البصرة ، مما يحملنا على تصديق ذلك الرأى ويجعلنا نشك فى قول أبى نواس : فإن أك بصريا فإن مهاجرى دمشق .. فلعله أخفى مقر ولادته حتى لا يعلم أنه فارسى فيكون ذلك

داعيا إلى تكذيبه فى انتسابه إلى الحكميين . كان أبى نواس من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى ، كما كان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وكان مقيما بالشام ثم نقل لمرابطة الثغور فى الأهواز ، فتزوج منها بامرأة أهوازية تدعى جلبان ، فرزقت بعدة أولاد ، منهم الشاعر النابه الذكر ، والرفيع القدر ، أبو نواس .

كان أبو نواس كما أسلفنا إذا حكمى الولاء عجمى النجار ، يفتخر باليمن . ويحن إلى العجم ، ويذكرهم فى أشعاره ، حنين الابن لأهله والفرع لأصله .

درج الطفل الشاعر على أرض الأهواز ، تسير به سفينة الحياة وحيدا إلا من أمه، فقد توفى أبوه الجندى فخرج إلى الحياة يفقد شخصه ولا يجد إلا رسمه ممثلا فى أقارب أمه الذين عطفوا عليه ، وساعدوا إخوته على تكاليف العيش ومتاعب الأيام .

حتى إذا فقد المعين ، ونضب المعين ، وخرجت به أمه من الأهواز إلى البصرة وقد تكامل سنه حولين ، علها تجد فيها ما يقيم أودها ، ويصلح حالها .

والبصرة يومئذ منتجع الشارد . ومقصد الوارد وكعبة المتأدب والعالم ، فيها أسواق التجارة منتشرة وذائعة ، وألوية العلم رافعة خافقة ، ونوادى الأدب واسعة وفسيحة .. كما كانت حلقة الاتصال بين شرق الإمبراطورية الإسلامية ، ومقر التمازج بين الثقافتين العربية والفارسية ومقر المربد خليفة عكاظ .

واستقرت أم أبى نواس بالبصرة ، وتم لها ما أرادات حياة بسيطة هادئة فيها شىء من الدعة ، ونزر من السعة .

وعرف أبو نواس الوجود مذ رأى البصرة ، فحن إلى العلم حين رأى العلماء، وطرب للأدب إذ سمع من الأدباء ، فخف إلى مكاتب القرآن ، ومجالس العلم ونوادى الأدب ، فقرأ القرآن على يعقوب الحضرمى الفقيه المقرئ وحذقه ، حتى إن شيخه أعجب به فرمى إليه خاتمه وقال اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة ، ودرس النحو على أبى زيد وأبى عبيدة البصريين ، وتعلم العربية ، وحفظ كثيرا من القصائد والأراجيز .

ولكن أمه البائسة الفقيرة كانت فى حاجة إلى ابنها الصغير المهتم بنفسه ، العاكف على درسه ، ليساعدها على الحياة ويرفهها من البؤس .

ولذلك اقتطفته من بين مجالس العلم والأدب ووضعته فى حانوت لبعض العطارين غير عابئة بحاله ولا مشفقة على آماله ، فمكث عنده يعمل معه حين يحضر وقت العمل ويتركه حين تسنح له ساعات الفراغ فيختلف إلى الأدباء ، ويتعارف بالشعراء ، ويتنقل بين المجالس ، ثم يعود إلى العطار ، فيعمل بيده وبجسمه ويفكر بخياله وعقله فى معاناة الشعر ، ونظم القريض ؛ والترنم بما حفظه من قصائد وأراجيز ، كان أبو نواس جميل الصورة ؛ حسن الوجه أبيض اللون ، نظيف الهيئة والإشارة.

فترك جمال صورته شيئا فى نفوس معاشريه ووجد من وطأة بؤسه مشجعا له على الترفيه عن نفسه وأمانيه ، وكانت البصرة يومئذ تموج بألوف الموالى الذين تدفعهم بواعث خاصة إلى اللهو والمجون والخلاعة والفسوق ، فلا نسب يمسكهم على الحياء ، ولاشرف يحفزهم إلى الإباء ، ولا قوة تجبرهم على التقوى ولا سيد يكرههم على الحسنى ، وقد تأثروا بأخلاق بلادهم وعادات قومهم ، فصعب عليهم إبدالها ، وإن لم يصعب عليهم إخفاؤها .. وصعب على الإنسان تغيير عادة وإن لم يكن صعبا عليه خفاؤها .

وإذا علمنا أن القرية أو المدينة فى العصر العباسى تخالف الحى أو القبيلة فى العصر الجاهلى بكثرة عدد سكانها واختلاف نسب أهليها ، وازدياد المترددين عليها عرفنا مدى الصعوبات التى تلاقى الحاكم فى التعرف بأخلاق الناس لجزائهم عليها .. هكذا كانت البصرة ، وهكذا كانت بيئتها ميدانا فسيحا للصالح والطالح ، والفضيلة والرذيلة ، والحياء والمجون ، وفى هذا الجو عاش أبو نواس وهو مولى من الموالى الظرفاء ، دفعه كما ذكرت دافع من نفسه ، وباعث من شخصه ، إلى الاختلاط بالمجان ، والتقرب من الموالى ، فوق الدوافع المساعدة الحافزة ، فنشأ ماجنا بطبعه ، فكها ، كثير الدعابة حاضر البديهة يخب ويضع فى أماكن اللهو ومشارب الفخور والمجون ، ويستمع وينصت لمعازف القيان وأصوات المغنيات ، ويطرب ويبهج لزجاجات الكرم وكاسات الراح .. استمر أبو نواس فى حانوته ودأب على تردده على مجالس العلم والأدب يشبع رغبته فيها بالحفظ والدراسة كما دأب على اختلافه إلى الأصدقاء والندماء يطفىء غلته بالمداعبة والمنادمة والمعاقرة ، حتى رأه أبو أسامه والبه بن الحباب الأسدى الشاعر الكوفى الماجن فى حانوته فأعجب بذكائه وجماله فتعرف به قاصدا وتودد إليه عمدا ، وقال له أراد أن يصاحبه : إنى أرى فيك مخايل أرى أن لا تضيعها وستقول الشعر وتعلو فيه فاصحبنى حتى أخرجك ، فقال : من أنت؟ ، قال : والبة ؟ قال : أبو أسامه ؟ قال : نعم ؛ قال أنا والله فى طلبك وقد

أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك لآخذ عنك ، وأسمع منك شعرك
قال ولماذا ؟ قال : شهوة للقاءك ولأبيات سمعتها لك : قال ، وما هى ؟ فأنشده :

جرحــــت فـــؤادى بـــالهوى — فالقلـــب مجـــروح الـــنواحى
ســـل الخلـــيفة صـــارما — هـــو للفســـاد وللصـــلاح
أجـــداه كـــف أبـــى الولـــيـ — ـــد يـــدا مـــبارية الـــرياح
ألفـــى بجـــابن خصـــره — أمضـــى مـــن الأجـــل المـــتاح
وكأنمـــــا ذر الهـــــباء — علـــيه أنفـــاس الـــرياح

فسار أبـو نـواس وهـو شاب يافع مع والبة إلى الكوفة حيث مكث معه ومع جلسائه من ماجنيها وخلعائها وهـو شـاب وهـم كـثيرون عديـدون ، ولأستاذه والبة الماجن سابق اتصال بهم ، وماضى ائتلاف بجمعهم ، فازداد عقدهم بأبى نواس تنضيدا ومجلسهم بروحة الفكهة أنسا وتغريدا .. تـودد إليهم وتـوددوا إليه ، وحمل عليهم وحملـوا عليه ، فاجتمعوا على الشرب وتصافوا بالعتاب ، وتفاكهوا بقول الشعر ، وتنادروا بعذب الفكاهة وتسامروا بحلو الدعابة ، هكذا كانوا فى الكوفة لهوا ولعبا وفكاهة وسمرا ، يدأبـون عليها ويسيرون إليها ، فهى لهم الشغل الشاغل ، والمطلب الأسمى ، ووجد أبـو نواس فى أستاذه والبة مربيا وخليلا ،ومصاحبا ونصيرا ، فاطمأن إليه ، وائتلف بعشيرته ، حتى قال والبة فيه :

يـــا شـــقيق الـــنفس مـــن حكـــم — غبـــت عـــن عيـــنى فـــلم أنم

كانت الأعراب المقيمة بالمدن ترسل أبناءها إلى البادية ، ليتقنوا العربية ويحذقوا اللغة ، حيث جو البادية هادئ صاف فانتهز أبو نواس فرصة سفر وفد من أبناء بنى أسد إلى البادية وطلب من أستاذه و البة أن يخرج معهم ويتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم فأقام بالبادية سنة ، صحت فيها لهجته وخلصت فيها عربيته ، ثم رجع بعدها على الكوفة ، إلى أستاذه و البة على ما كان عليه من قبل .

تخرج أبو نواس في الشعر على أستاذه و البة الماجن ، وعلى ندماء أستاذه ، و البة الخلعاء ، وعلى من لقيهم وجالسهم من الأدباء ، ولكنه بذهم جميعا وفاقهم كافة ، وغطى اسمه على اسمهم فتناقلت الألسنة ذكره ، كما رويت فى مجالس السمر فكاهاته ، وفى نوادى المجون دعاباته ، فكانت سلوة البائس وأغرودة الماجن .

لا شك فى أن و البة حقد على أبى نواس تلميذه وخليله . وود لو ينأى عن بلده وإن قام فى قلبه وسكن فى نفسه كما قال :

يـا شـقيق الـنفس مـن حكـم		غبـت عـن عيـنى فـلم أنم

ولا شك فى أن أبا نواس قد ضاق أفق الكوفة عن أمانيه ، فرغب عنه بعد أن رغب فيه ، وعزم خطوة أوسع ليخطو بها نحو مستقبله ، وتسير بها سفينة آماله . وهكذا كان ما أراد ، فقد ركب قافلة جده حتى وصل إلى عاصمة الإسلام ودار السلام مدينة بغداد .

دخل أبو نواس بغداد ، واتصل بالشعراء والأدباء والعلماء والكتاب والوزراء . ومدح الرشيد ، وقربه منه الرشيد ، ثم غضب عليه لشعوبيته ووصفه للراح ، فحبسه ثم أطلق سراحه .. ثم مات الرشيد وولى الأمين الخلافة بعده ، ولما قدم الفضل بن الربيع بغداد على محمد الأمين بالأموال والقضيب والخاتم حين مات الرشيد ، وقد اشتد فرح الأمين به فقربه وألطفه وقلده الأمور وفوض إليه ما وراء بابه فهو الذى يولى ويعزل ويحل ويعقد على محمد الأمين ، قال أبو نواس يمدحه :

لعمـرك مـا غـاب الأمـين محمـد		عـن الأمـر يعنـيه إذا شـهد الفضـل
ولـولا مواريـث الخلافـة إنهـا		لـه دونـه مـا كـان بيـنهما فضـل
لـئن كانـت الأجسـاد فـيها تباينـت		فقولهمـا قـول وفعـلهما فعـل
أرى الفضـل للدنـيا وللديـن جامعـا		كما السهم فيه الريش والفوق والنصل

ومن قوله يصف حراقة ركبها الأمين وكانت على مثال الأسد :

سـخر الله للأمـين مطايـا		لم تسـخر لصـاحب المحـراب
فـإذا مـا ركابـه سـرن بحـرا		سـار فـى المـاء راكـبا ليـث غـاب
أسـدا باسـطا ذراعـيه يعـدو		أهـرت الشـدق كـالح الأنـياب
لا يعانـيه بالـلجام ولا السـو		ط ولا غمـز رجلـه فى الـركاب
عجـب الـناس إذا رأوك عـلى صـو		رة ليـث تمـر مـر السـحاب
سـبحوا إذ رأوك سـرت علـيه		كـيف لـو أبصـروك فـوق العقـاب ؟
ذات زور ومنسـر وجناحـيـ		ـن تشـق العـباب بعـد العـباب
تسبق الطير فـى السماء إذا ما اسـ		ـتعجلوها بجيـنة وذهـاب
بـارك الله للأمـين وأبقـاه		وأبقـى لـه وراء الشـباب
ملـك تقصـر المدائـح عـنه		هـاشمى موفـق للصـواب

ولما أنشد الأمين قصيدته التى يقول فيها :

أيـا دارهـا بالمـاء حـتى تلينـها		فلـن تكـرم الصهباء حـتى تهينـها

أغـالى بهـا حـتى إذا مـا ملكـتها أهنـت لإكـرام الخلـيل مصـونها
وصـفراء قـبل المـزج بيضـاء بعـده كـأن شـعاع الشـمس يلقـاك دونهـا

قال له : ألم أنهك عن شرب الخمر ؟ قال بلى والله يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتها مذ نهيتنى عنها ومنعتنى من شربها ،وأنا الذى أقول :

أيهـا الـرائحان بـاللوم لومـا لاأذوق المـدام إلا شمـيما
نالـنى بـالملام فـيها إمـام لا أرى لى خلافـه مسـتقيما
فاصـرفها إلى سـواى فـانى لسـت إلا عـلى الحديـث نديمـا
كـبر حظـى مـنها إذا هـى دارت أن أراهـا وأن أشـم النسـيما
فكـأنى ومـا أزيـن مـنها قعـدى يحسـن التحكـيما
كل عن حمله السلاح إلى الحرب فأوصـى المقـيم ألا يقـيما

وأنشده يمدحه :

ألا يـا خـير مـن رأت العـيون نظـيرك لا يحـس ولا يكـون

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر ،وذلك أن المأمون أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبى نواس ، ويقولون : هو جليسه ونديمه وينشدون عل المنابر شعره فمنعه الأمين ، فقال :

غنـنا بـالطلول كـيف بلـينا واسـقنا نعطـك الثـناء الثميـنا
مـن سـلاف كأنـه كـل طيـب يتمـنى مخـير أن يكونـا
أكـل الدهـر مـا تجشـم مـنها وتـبقى لسـانها المكـنونا
ثـم شجت [2] فاستضحكت عن لآل لـو تجمـن فـى يـد لا قتنيـنا
وإذا مـا لمسـتها فهـباء [3] يمـنع الكـف مـا يبـيح العـيون
فـى كـؤوس كـأنهن نجـوم باديـات كأنهـا أيديـنا
طالعـات مـع السـقاة علينـا فـإذا مـا غـربن يغـربن فيـنا
لـو ترى الشرب حولها من بعيد قلـت قـوم مـن قـرة [1] يصـطلونا
وغـزال يديـرها ببـنان ناعمـات يـزيدها العسـر لينـا
ذاك عـيش لـو دام لى غـير أنـى عفـته مكـرها وخفـت الأمينـا

---

[1] القرة : البرد .
[2] شجت : مزجت بالماء . ويريد باللآل : الحبب .
[3] الهباء : ما ينبث فى ضوء الشمس كأنه غبار .

وأخيرا أسرف أبو نواس فى مجونه فحبسه الأمين ....

ودخل أبو نواس السجن يندب حظه ويبكى جده ، ويذكر أيامه ولياليه ويرثى آماله وأمانيه ، تزيده الذكرى جزعا ويفعمه السجن فرقا وهلعا ، بيد أنه كان يصبر ويتجلد حتى فرغ صبره ونفد جلده وخبا سراج أمله الذاوى وصدأ حسام شبابه الماضى .. فلقد كان يعتمد على حسن ماضيه ورفيع مكانته وأنه فى بطانة الخليفة واحد مفرد ، لا ترب يشغل مكانه ولا نديم يطاوله . ويترقب لذلك صفح الأمين عليه وعودته ثانيا لديه وتقربه إليه ، فبدد هذا الأمل فى فكره أن رسف فى قيود السجن ثلاثة أشهر ، والخليفة عنه معرض ، والدهر مدبر والنجم غارب والقيد فى عنقه دائم مقيم . وأخذ أبو نواس قلمه وكتب للأمين يذكره بعهود له وبقصائده فيه ، ويستشفع بجده وأبيه وكرم محتده وجميل أياديه ، ثم يعد له الأيام التى قضاها فى سجنه ويعرض له بأمره ، وحالته تعريض المستشفع ، فى مدح يشبه الرجاء ، وشعر جياش بالثناء :

تذكر أمين الله والعهد يذكر	مقامى وإنشاديك والناس حضر
ونثرى عليك الدر يادر هاشم	فيامن رأى درا على الدر ينثر
أبوك الذى لم يملك الأرض مثله	وعمك موسى صنوه المتخير
فمن ذا الذى يرمى بسهمك فى الو	رى ؟ وعبد مناف والدك وحمير
تحسنت الدنيا بوجه الخليفة	هو الصبح إلا أنه الدهر مسفر
يشير إليه الجود من وجناته	وينظر من أعطافه حين ينظر
أيا خير مأمون يرجى : أنا امرؤ	أسير رهين فى سجونك مقبر
مضت لى شهور مذ حبست ثلاثة	كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم سجنتنى ؟	وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

وصلت الرقعة للأمين فطوى كشحه عنها ، لأن نار غضبه لم تخمد ، وقبس عفوه لم يوقد .. غير أن السجين المرتقب لم يسكت ، فأرسل للخليفة ثانية مستشفعا فلم يصفح ، فبرم أبو نواس بالسجن ، وضاق به ذرعا لا سيما وقد أحس بالشيب ووهن الكبر قد سرى فى عظمه ، وضعف السقم وبدأ يشعر بألمه ، فطلب السلوة فلم يجدها إلا فى نفسه ، والنديم فلم يره إلا فى شعره ، فكان ينظم إذا هجته عواصف الذكرى أو ألمت به أطياف الخيال ، لا فى الخمر والندمان ، ولكن فى الشكوى من الزمان ، والتبرم بالأصحاب والإخوان ، عادة المكلوم إذا ماطاله الفرج وديدن المحبوس إذا

فارقه الصبر .. ولما أشتد به الحال .. أكثر الشكاية وتمنى أن يقيض له المأمون لينقذه مما هو فيه .. فأنشد :

يـا رب إن القـوم قـد ظـلمونى ... وبـلا اقـتراف معطـل حبسـونى
وإلى الجحـود بمـا عرفـت خلالـه ... ربـى إلـيك - بكذبهـم - نسـبونى
مـا كـان إلا الجـرى فـى مـيدانهم ... فـى كـل درب ، والمجانـة دينـى
لا العـذر يقبـلها ويفـرق شـاهدى ... منهم ولا يرضـون حلـف يمينـى
أمـا الأمـين فلسـت أرجـو دفعـه ... عنى ، فمـن لى اليوم بالمـأمون ؟

يئس إذا أبو نواس من صفح الأمين ، لا بل يئس من دفع ضره ، ولم يبق له من رجاء وأمل إلا أن يغلب المأمون أخاه على أمره فينقذه مما هو فيه ، ورضخ لحكم الله مكرها ، وسكن لصروف الزمان عاجزا ، حتى ذهب إلى بغداد صديقان من أصدقاء أبو نواس ، وأديبان من أدباء العربية ، هما ابن حبيب ، ومؤنس بن عمران ، فتذكرا رفيقهما أبا نواس ، فذهبا يزورانه فى سجنه ، ولما عرف أن وجهتهما إلى الفضل بن الربيع ، أعطى لهم رقعة فيها هذه الأبيات :

مـا مـن يـد فـى الـناس واحـدة ... كـيد أبـو العـباس مولاهـا
نـام الـبغاة عـلى مضـاجعهم ... وسـرى إلى نفسـى فأحـياها
قـد كنـت خفـتك ثـم أمتـنى ... مـن أن أخـافك خوفـك الله
فعـوت عـنى عفـو مقـتدر ... وجبـت لـه نعـم فالفاهـا

ورجا مؤنس أن يسعى فى توصيلها إليه ، وأعطاه إياها ، ووصلت الرقعة للفضل فلم ينس صاحبها أبا نواس ، ولم ينس قصائده فيه . وغرره التى توجه بها ، فسعى عند الأمين ، حتى بلغ سعيه الفوز ، فأطلق سراح أبى نواس السجين المعذب، أطلق سرحه ، فخرج من السجن خائر القوى ، سقيم الجسم ، كثير العلل .. فكتب إلى أهله ينبئهم بخبر خروجه من السجن :

إنـى أتيـتكم مـن القـبر ... والـناس يحتسـبون للحشـر
لـولا أبـو العـباس مـا نظـرت ... عيـنى إلى ولـدى ولا وفـرى
الله ألبسـنى بـه نعمـا ... شـغلت جسـامتها يـدى شـكرى

ويروى أنه لما حبس أبو نواس فى شرب الخمر[1] آلمه الحبس وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعاهدهم ، ودخل فى حبس الزنادقة فرأى

---

(1) الطبرى ص ٢٢٠ ج٩ .

فيه أبا نواس - ولم يكن يعرفه - فقال : يا شاب ، أنت مع الزنادقة ! قال معاذ الله ! قال : فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ قال : أنا آكل الكبش بصوفه ! فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : إني لأتجنب القعود فيها بغضا لها ! قال : فبأى جرم حبست ؟ قال : حبست بتهمة أنا منها برىء ! قال : ليس إلا هذا ! والله لقد صدقتك . فجاء إلى الفضل فقال له : أيحبس الناس بالتهمة ! قال وما ذاك ؟ فأخبره بما ادعى من جرمه ، فتبسم الفضل ، ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدعا به وتقدم إليه أن يجتنب الخمر والسكر : قال نعم ، قيل له : فبعهد الله ! قال : نعم ! فأخرج ، فبعث إليه فتيان من قريش ، فقال لهم : إني لا أشرب ، قالوا : وإن لم تشرب فآنسنا بحديثك . فأجاب ، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم ترتح له ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول :

أيها الرائحان باللوم لوما ... لا أذوق المدام إلا شميما

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة الجميلة .

ذهب أبو نواس إلى أهله ناسيا ماضيه ، تاركا مجون أيامه الأولى ، ناظرا للموت نظرة الخائف ، وإلى الحياة بعين اليائس ، وإلى الله بعبرة التائب وزفرة المنيب . وفي هذه الأثناء كانت جيوش المأمون قد دهمت بغداد بقيادة قائده طاهر بن الحسين ، وانتهى الأمر بدحر جيش الأمين ، والقضاء على ملكه ونفسه معا .. قتل الأمين ، ياله من خبر مؤلم حقا وقع في نفس أبي نواس النديم الوفي المخلص وقوع الصاعقة ، وتذكر أبو نواس أيامه مع الأمين ، تلك الأيام التي غالبت "الصروف" ، وصارعت الحوادث وعصرت عود الزمن وذاق أبو نواس فيها أفاويق السعادة ، فانطلق لسانه برثائه يحركه الوفاء على رغم ما كان بينهما آخر المدة من إعراض وفتور ، وفي هذه القطعة يتمثل لك وفاء أبي نواس صورة حية لقلبه وعواطفه الصادقة :

طوى الموت ما بيني وبين (محمد) ... وليس لما تطوى المنية ناشر
فلاوصل إلا عبرة تستدعيها ... أحاديث نفس ما لها الدهر ذاكرا
وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبقى لي شىء عليه أحاذر
لئن عمرت دور بمن لا أوده ... فقد عمرت ممن أود المقابر

كما رثاه بغير هذه ، من القصائد الناطقة ، التي تدل على إخلاص أبي نواس لصاحبه الراحل ، الخليفة محمد الأمين ...

وفنيت لذة الشاب عند أبى نواس وبقيت عبرة المشيب تعظه وتذكره الآخرة ، وتزهده فى الدنيا ، فاستجاب أبى نواس لداعيها فأكثر من الندم على ما فرط فى جنب الله ، والاستغفار على ما قدم من ذنوب ، حتى روى أنه صاغ خاتمين له : نقش فى أحدهما : يشهد ابن هانى أن الله واحد ، وفى الثانى هذا البيت :

تعاظمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ولم يكتف بالندم والاستغفار بل عف ونسك وزهد ، ونسى عادات الشباب وأخلاق المجان والعكوف على اللهو والشراب ، وتعرف على المسجد والجماعة وصار بذلك مغرما ولوعا ؛ ويبدو أن أبا نواس قد تاب على يد الفضل بن الربيع بعد خروجه من السجن وذلك أقرب إلى العقل ، فالمفهوم أن أبا نواس حين أطلق سراحه ، بلغ شكره للفضل فى رقعة فيها هذه الأبيات :

أصبحت غير مدافع مولاكا	والحظ لى أنى أكون كذا كا
لله درك أى رهن منية	بالأمس كنت ، وهالكا لولا كا
أصبحت معتدا على بنعمة	ما كان ينعمها على سواكا

ثم توجه إلى أهله ، فأشبع غلة شوقه برؤيتهم ، وذهب للفضل يشكره على يده وحسن صنيعه ، وطبعا شمل الحديث ، بينهما ذكر السجن والوشاة ، فنصح الفضل له بأن يغير ماضيه الذى كان تكأة للوشاة فى وشيهم ، والمفترين ضده فى افترائهم ، فوعده أبو نواس بأن يسير كما أشار .. وتاب على يديه توبة نصوحة .. فذلك أصدق فى نظر العقل ، وهو ما تؤيده أقوال أبو نواس فى الفضل ، وإن شئت فاقرأ :

أنت يا ابن الربيع الزمتنى الفضل	وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى ، وأقصر حبلى	وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت بى الحسن البصرى	فى حسن سمته أو قتاده
المسابيح فى ذراعى والمصحف	فى لبتى مكان القلادة
ولقد طال ما شقيت ولكن	أدركتنى على يديك السعادة

مضى أبو نواس على سنن الهدى والصلاح ، ولكن سراج حياته كان آخذا فى الانطفاء ، ومدد روحه كان وشيك الانتهاء ، قدب به السقام علوا وسفلا ، حتى لكأن أعضاؤه السقيمة تموت متتالية وهو حى يراها ، ويأسف شد الأسف أن تذهب أيامه الطويلة فى حاجة نفسه ولا يذكر طاعة الله إلا هزيلا كبيرا مشرفا على الزوال ، ويتحسر كل التحسر أن مضت أيام الشباب لهوا ولعبا ، ويطلب من الله العفو والصفح ،

فى أبيات لو لم يكن لأبى نواس غيرها فى ميدان الأدب ، وميدان العمل الصالح ، لكفته :

دب فـــى الســقام علـــوا وســـفلا	وأرانـــى أمـــوت عضـــو افعضـــوا
لهـف نفســى عــلى لــيالى وأيــا	م تجــاوز تهـــن لعـــبا ولهـــوا
قـــد أســأنا كــل الإســاءة فــالل	هــم صــفحا عــنا ، وغفــرا وعفــوا
ذهبــت جدتــى بحاجــة نفســى	وتذكـــرت طاعـــة الله نضـــوا

وبعد قليل أنطفأت الشعلة ، وهمد الجسم الدائب ، وسكن هذا القلب الخافق ، وفاضت روح أبى نواس الشاعر فى بغداد سنة ١٩٩ هـ ، وصعدت إلى السماء بعد صراع طويل أوله للباطل وآخره للحق ، ونزاع كبير بدايته للدنيا ونهايته للآخرة .

شعره وأثره فى الأدب :

كان شعر بشار برزخا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبى نواس فى فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا محدثا جامعا لكل ما تصوره المحدثون فى الشعر من جد وهزل وجزالة وسهولة ، فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهر من كانت له طريقة فى الجد والهزل والهجاء ، غير أن بشار كان لا يزال على بقية من الاحتشام والتوقر ، فلم يهتف بالخمر فى شعره إلا لماما ، ولم يعجبه الغزل بالمذكر ، ولم يسلك مسالك التأنث فى غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل ، وأبو نواس سلك طريقه فى المجون والهزل ،وركب رأسه فى الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ، وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا فى جاهلية ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفه التشبيب والغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر وخلع العذار فى هذا الغزل وفى الخمريات ، حتى أصبح مثلا لمن نشأ فى عصره أو بعده من الخلعاء والمجان ، وحتى رسخ هذا اللون من الغزل والخمريات بعد حين فى أغراض الشعر .

وكان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقر من الوزراء ، والولاة والقواد يفخم الألفاظ ويتخيرها ويجيد رصفها ، ويكثرها من الغريب فيها ، ويسلك غالبا مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح . وإن ثار أحيانا على هذه الطريقة ، فدعا إلى افتتاح القصائد بوصف الخمر .

وكان في طردياته أعرابيا في شملة لا يصدق من يقرؤها أنها صادرة من حضرى خليع مثل أبى نواس .

والمشهور عنه في قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا ، فهو من أمثال الزهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة ، راعى أسلوب الحضرين في دماثته ولينه ورقة نسجه ، ومهد للمديح بذم الديار والأطلال والنوق و الجمال ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك . وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقق القول في المقطعات والخمريات ، ويسف إلى أن يقارب العامة في المجونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

وجمع أبو نواس في شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وأدبها ، على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين في الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالب معانيه بشار بن برد ، وأكثر معانيه المبتكرة هي في الخمريات والغزل بالمذكر .

ولقد قال أبو نواس الشعر في كل الأغراض ، وغلب عليه :

الغزل الماجن بالمذكر والأنثى والتفنن في وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوة بها وذكر سقاتها وندمائها وصبوحها وغبوقها ، وتغلغل في ذلك ما شاء .

ثم الهجاء ، وكان منه المقبول الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على المهجو . ومنه المقذع الفاحش الذى سلك فيه مسلك العامة في تسابها ومهاترتها ؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجائها حبسه الرشيد ، ثم هجا العرب وأهل باديتها منتسبا إلى كسرى . واستتبع هجوه لمضر خاصة أنه افتخر باليمن ، وهجوه للعرب عامة أن افتخر بالعجم ، وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر الشعوبية . وهجا نيل مصر لأنه رأى فيه تمساحا التقم رجلا .

ثم الطرد ووصف الصيد من الوحش والطير . وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل ، له فيه أراجيز تعد غاية في فصاحة اللغة .

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسب بهما ، ولكن مدحه على قلته بالإضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد جاراه فيها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مثل أبى نواس فى عبثه وتماجنه يفسح للزهديات من شعره بابا واسعا اشتمل على مقطعات ؛ منها ما هو غاية في الباب ، وكانت جديرة أن تصدر عن أبى العتاهية ، والحق أنه لم ينظم هذا النوع إلا مكايدة لأبى العتاهية وتفوقا عليه ، وإظهارا لقدرته على النظم فى أى غرض .

وأشعار الحسن بن هانىء فى الزهد كثيرة ، منها المقطوعات والقصائد ، ومنها ما جاء خالصا غير مشوب ، ومنها ومنها ما انتثر حتى فى قصائد مجونه وخمرياته، ولقد قال أبو العتاهية : قد قلت في الزهد عشرين ألف بيت وودت أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها أبو نواس :

يانواســــــى توقـــــر	وتعـــــــز وتصـــــبر
إن يكـــــن ســـــاءك دهـــــر	إن مـــــا ســـــرك أكـــــثر
يـــــا كـــــبير الذنـــــب عفـــــ	ـــــو الله مـــــن ذنـــــبك أكـــــبر

ومنها :

أعظـــــم الأشـــــياء مـــــن	أصـــــغر مـــــن عفـــــو الله أصـــــغر
لـــــيس للإنســـــان إلا	مـــــا قضـــــى الله وقـــــدر
لـــــيس لـــــلمخلوق تدبـــــ	ـــــير بـــــلى الله المدبـــــر

وفى كتاب ابن منظور : " قال أبو مخلد الطائى : جاء أبو العتاهية إلى عندى فقال لى : إن أبا نواس لا يخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئا ، فإنى قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقى ، فبعثت إلى أبى نواس فجاء إلى وأخذنا فى شأننا وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا ، فقلت لأبى نواس : إن أبا إسحق من قد عرفت في جلاله وتقدمه قد أحب أنك لا تقول فى الزهد شيئا ، فوجم أبو نواس عندك وقال يا أبا مخلد : قطعت على ما كنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع ، وقد فعلت ، ولا أخالف أبا إسحق فيما ذهب إليه .

ويروى ابن منظور[1] أنا أبا العتاهية كان يقول : سبقنى أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت إنى سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

---

(1) ص ٦٣ .

يـا كـبير الذنـب عفـو اللـ ـه مـن ذنـبك أكـبر

وقوله :

مـن لم يكـن لله مـتهما لم يمـس محـتاجا إلى أحـد

وقوله :

إذا امـتحن الدنـيا لبيـب تكشـفت لـه عـن عـدو فـى ثـياب صـديق

ومن جد أبى نواس ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين .

لقـد نزلـت أبـا العـباس مـنزلة مـا إن تـرى خلفها الأبصـار مطـرحا
وكلـت بالدهـر عيـنا غـير غافلـة مـن جـود كفك تأسو كل ماجـرحا

وقال يمدحه أيضا :

قـولا لهـرون إمـام الهـدى عـند احـتفال المجلـس الحاشـد
أنـت عـلى مـا بـك مـن قـدرة فلسـت مـثل الفضـل بـالواجد
لـيس عـلى الله بمسـتنكر أن يجمـع العـالم فـى واحـد

وقال فى الموعظة :

ألا كـل حـى هـالك وابـن هـالك وذو حسـب فـى الهـالكين عـريق
فقـل لمقـيم الـدار إنـك ظـاعن إلى سـفر نـائى المكـان سـحيق
إذا امـتحن الدنـيا لبيـب تكشـفت لـه عـن عـدو فـى ثـياب صـديق

وقال فى الكبير ينشأ عن الصغير ، وفى الجد يتولد من الهزل ، وفى النافع ينجم عنه ضار :

أيـة نـار قـدح القـادح وأى جـد بلـغ المـازح
لله در الشـيب مـن واعـظ وناصـح لـو قـبل الناصـح
يـأبى الفـتى إلا اتـباع الهـوى ومـنهج الحـق لـه واضـح

وقال فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أحرى :

ومسـتعبد إخوانـه بـثرائه لبسـت لـه كـبرا أبـر عـلى الكـبر
إذا ضـمنى يومـا إيـاه محفـل يرى جانبى وعرا يزيد على الوعر
أخالفـه فـى شـكله وأجـره على المنطق المنظور والنظر الشزر
وقد زادنى تيها على الناس أننى أرانـى أغـناهم وإن كنـت ذا فقـر
فـو الله لا يـبدى لسـانى حاجـة إلى أحـد حـتى أغيـب فـى القـبر
فـلا يطمعـن فـى ذاك مـنى طـامع ولا صاحب التاج المحجب فى القصر

فلـو لم أرث فخـرا لكانـت صيانتي عن الناس حسبى من سؤال من الفخر

وكان قوله : " فلا يطمعن – البيت " سببا فى غضب الأمين عليه .

ومن هزله قوله فى الخمريات :

دع عـنك لومـى فـإن اللـوم إغـراء وداونـى بالـتى كانـت هـى الـداء

صـفراء لا تـنزل الأحـزان سـاحتها إن مســها حجــر مســته ســواء

آراء النقاد فى شعره :

كان أبو عبيدة يقول : ذهبت إلى اليمن بجد العشر وهزله ، امرؤ القيس بجدد و أبو نواس بهزله ، وكان يقول : ذهبت اليمن بجد الشعر فى قديمه وحديثه ، امرؤ القيس فى الأوائل وأبو نواس فى المحدثين ، وكان يقول شعراء اليمن ثلاثة . امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس ، وقال أيضا : أبو نواس فى المحدثين مثل أمرؤ القيس فى المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعاني ، وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف فى فنونه ، وكان يقول : يعجبنى من شعر أبى نواس قوله:

بنيـنا عـلى كسـرى سمـاء مدامـة مكللـــة حافاتهـــا بـــنجوم

فلـو رد فـى كسرى بن ساسان روحه إذا لاصـطفاني دون كـل نديـم

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء ، فقال : إذا أردت من الجاهلين ، فلامرىء القس والأعشى ، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق ، ومن المحدثين فلأبى نواس فحسب ، وقيل للعتبى : من أشعر الناس ؟ قال : عند الناس أو عندى ؟ قيل عند الناس ، قال : امرؤ القيس ، قيل : فعندك ؟ قال : أبو نواس، وقال عبد الله بن محمد بن عائشة : من طلب الأدب فلم يروى شعر أبى نواس فليس بتام الأدب ، وسئل : من أشعر المحدثين ؟ فقال الذى يقول :

كـــأن ثـــيابه أطلعـــ ـــن مـــن أزراره قمـــرا

يـــزيدك وجهـــه حســـنًا إذا مـــا زدتـــه نظـــرا

بعـــين خـــالط التفـــتير[2] مـــن أجفانهـــا الحـــورا

ووجـــه ســـابرى[3] لـــو تصـــوب مـــاؤه قطـــرا

وقـــد خطـــت حواضـــنه لـــه مـــن عنـــبر طـــررا[1]

---

(1) طرر جمع طرة ، والحواضن جمع حاضنة وهى المربية .

(2) التفتير : الفتور .

(3) سابرى منسوب إلى سابور على غير قياس وهى كورة بفارس .. يوصف به الجيد ، وتصوب : تسفل .

يكن في الشعر لا بالبطيء ولا بالسريع بل كان في منزلة وسطى ، وكان الأصمعي يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيت واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقة من سقم
وأني لآتي الأمر من حيث يتقي ويعلم سهمي حين أنزع[1] من أرمي

وقال العتابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس ، والله لو أدرك الخبيث الجاهلية ما أفضل عليه أحد ، وقال أبو عمرو الشيباني : أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة : الأعشى[2] والأخطل وأبو نواس : قال محمد بن عمر لم يكن شاعر في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه : وقال أبو حاتم سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدي : " أيها المنتاب عن عفره " . وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدي : " طاب الهوى لعميده " ، فأما الذي أنا فيه وحدي وكله جيد فإذا وصفت الخمر ، وقال أبو ذكوان كنا عند التوزي فذكرت عنده أبا نواس فوضع منه بعض الحاضرين ، فقال له التوزي : أتقول هذا لرجل يقول :

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار

ويقول :

وما فاته جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ويقول :

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

وقال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعر ما قال أبو نواس في الخمر ؟ فقال بعضهم :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

وقال آخر :

كأن كبرى وصغرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وقال آخر :

فكأن الكئوس فينا نجوم دائرت بروجها أيدينا

وقال آخر :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

---

(1) نزع بالسهم كضرب : رمى .
(2) الأعشى : شاعر جاهلي مشهور .

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر انفراد بالإحسان فيه . وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لا يـنزل الليل حيث حلت فدهـر شـرابها نهـار

قال مسلم بن بهرام : لقيت أبا العتاهية فقلت له : من أشعر الناس ! قال : تريد جاهليها أو إسلاميها أو مولدها ؟ قال : كلا أريد ، قال : الذى يقول فى المديح.

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

والذى يقول فى الزهد :

ألا رب وجه فى التراب عتيق ويا رب حسن فى التراب رقيق
ويا رب حزم فى التراب ونجدة ويا رب رأى فى التراب وثيق
فقل لقريب الدار إنك راحل إلى منزل نائى المحل سحيق[1]
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وكان يقول : سبقنى أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أنى سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متهما لم يمس محتاجا إلى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات ، وقال الجاحظ : سمعت النظام يقول : - وقد أنشد شعرا لأبى نواس - كأن هذا الفتى جمع له الكلام فاختار أحسنه ، وقال بعضهم : كأن المعانى حبست عليه فأخذ حاجته وفرق الباقى على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس . وورد على العتابى بحلب عدة من الكبار من أهل قنسرين[2] فدخلوا وسلموا وكان فى يده رقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سلك صاحب هذه الرقعة واديا ما سلكه أحد قبله ، فنظروا فإذا هو شعر أبى نواس فى جنان وهو قوله :

---

(1) سحيق : بعيد من سحق ككرم وفرح .

(2) كورة بالشام منها حلب .

ربع الكرى بين الجفون محيل[2] | عفى عليه بكى عليك طويل
يا ناظرا ما أقلعت لحظاته | حتى تشحط[1] بينهن قتيل

وقال أبو عبد الرحمن الضرير : رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها فسألني عمن خلفت من الشعراء ، فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس وهو مقدم عندهم . فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رويدك يا إنسان لا أنت تقفز ، أرأيت قوله " تقفز " خرجت من بين فكي شاعرا قط ؟ ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يحيل[3] ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله؟ قال : أما فيما أحال ، فكقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه | لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا من الإغراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ، وأما في تخطيه بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقوله :

يجل أن تلحق الصفات به | فكل خلق لخلقه مثل

وكقوله :

بريء من الأشباه ليس له مثل

ومما قيل عن أبي نواس : إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء ، وأبا نواس لا يحسنهما ، وأجود شعره في الخمر والطرد ، وأحسن ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرقه ، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن أن يبني عليه حتى يجيء به قبيحا مثل قوله : ودواني بالتي كانت هي الداء ، أخذه من قول الأعشى ، وأخرى تداويت منها بها ، والذي أخذه منه أحسن ، ومنها أيضا قوله : إن الشباب مطية الجهل ، أخذه من قول النابغة الجعدي ، فإن مطية الجهل الشباب ، وقوله : كطلعة الأشمط من إهابه[4] أخذه من قول أبي النجم كطلعة الأشمط من كسائه ولكن رزق أبو نواس في شعره أن سار وحمله الناس وقدمه أهل عصره ، وإن له على ذلك لأشياء حسانا لا يدفعها ولا يطرحها إلا جاهل بالكلام أو حاسد .

وتوفي أبو نواس علم ١٩٨ هـ، أو ١٩٩ هـ عن ٥٩ سنة .

---

(1) تشحط بالدم : تضرج به .
(2) محيل : أتت عليه أحوال أي سنون .
(3) يحيل : يأتي بالمحال .
(4) الإهاب : الجلد .

أبو العتاهية

١٣٠ – ٢١٣ هـ

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم سويد بن كيسان العنزي بالولاء ، المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور ، ولد سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٨ م بعين التمر ،قيل لما غزا خالد بن الوليد عين التمر سبى كيسان مع جماعة من صبيان أهلها فوجهها إلى أبى بكر فوصلوا إليه بحضرته عباد بن رفاعة العنزي فجعل أبو بكر يسأل الصبيان عن أنسابهم حتى أتى على بن كيسان فذكر له أنه من عنزة فلما سمعه عباد استوهبه من أبى بكر فأوهبه له فاعتقه فتولى عنزة ،وكان أبو إسماعيل القاسم حجاما من أهل درجة ولذلك كان أبو العتاهية يقول لمن عيره فى نسبه :

إلا إنما التقوى هى العز والكرم	وحبك لدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة	إذا صحح التقوى وإن حاك أوحجم

ونشأ أبو العتاهية بالكوفة وكان هو وأهله يعملون الجرار الخضر ويبيعونها ، وقيل بل إن عبيد زيد أخيه كانت تعمل له الخزف والجرار وكان زيد يبيعها ويوردون شهادة على ذلك قول أبى العتاهية : أنا جرار القوافى وأخى جرار التجارة ،وكان على ما يحكى رجلا نظيفا أبيض اللون أسود الشعر له وفرة وجعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة، وكنى بأبى العتاهية لأنه كان يحب الشهوة والمجون والتعته، قيل إن الخليفة المهدى قال له يوما " أنت متحذلق متعته " فاستوت له كنية وسارت له في الناس .. وشعر أبى العتاهية لطيف المعانى سهل الألفاظ قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط والمزدول ،كان الأصمعى يقول : " شعر أبى العتاهية كساحة الملوك فيها الجوهر والذهب والتراب والخوف والنوى"، وأكثر شعره في الزهد والأمثال، قال المبرد "أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا "، وكان أبو العتاهية يقول " لو شئت أن أجعل كلامى كله شعرا لفعلت"، وامتدح أبو العتاهية الخليفة المهدى وكان يحضر ناديه وينال بره وتعرف بجاريته عتبة وأخذ يذكرها في شعره ،فغضب المهدى لذلك وأمر بحبسه فكتب إليه يستعطفه :

ألا أيهـــا الملـــك المـــرجي ... علــيه نواهــض الدنــيا تحــوم
اقلـــنى ذلـــة لم أجـــر مـــنها ... إلى لـــوم ولا مـــثلي ملـــوم
وخلصـــنى تخلـــص يـــوم بعـــثك ... إذا للـــنار بـــرزت الجحـــيم

فرق لـه وأمر بإطلاق سراحه، ولما بويع الهادى استخفى أبو العتاهية خوفا منه وكان الهادى ينقم عليه لملازمته أخاه هارون ثم أنفذ إليه رقعة فيها :

ألا شـــافع عـــند الخلـــيفة يشـــفع ... فـــيدفع عـــنا شـــر مـــا تـــتوقع
يردعـــنى موســـى عـــلى غـــير عـــثرة ... ومالى أرى موسى من العفو أوسع

فأرسل إليه الهادى أمانا وأمر لـه بمال ولم يزل عنده مكرما حتى توفى وتولى الأمر هارون الرشيد فدخل عليه وامتدحه بقصيدة غراء :

جـرى لـك مـن هارون بالسعد طائره ... أمـــام اعـــتزام لا تخـــاف بـــوادره

وكان لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر وكان الخليفة يجرى علية في كل سنة خمسين ألف درهم ولما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف ، وتزهد وكان أبو العتاهية شديد البخل ، وحدث ثمامة قال دخلت يوما إلى أبى العتاهية فإذا هو يأكل خبزا بلا شيئا فقيل له وكيف ذلك فقال رأيت قدامه خبزا يابسا من رقاق فطير وقدحا فيه لبن حليب فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها في اللبن ويخرجها فلا تتعلق منه بقليل ولا كثير فقلت له كأنك اشتهيت أن تتأدم بلا شيء وما رأيت أحدا قبلك يتأدم بلا شيء، ويحكى عن بخل أبو العتاهية حكايات غريبة غير هذه ولكنه كان يقول في شعره عكس ما يفعل ومنه :

إذا المـرؤ لا يعـتق مـن المـال نفسـه ... تملكــه المــال الــذى هـــو مالكـــه
ألا إنمـــا مـــالى الـــذي أنـــا مـــنفق ... ولـيس لى المـال الـذي أنـا تاركـه
إذا كنـت ذا مـال فـبادر بـه الـذى ... يحـــق وإلا اســـتهلكته مهالكـــه

وعاش أبو العتاهية إلى أيام المأمون وامتدحه ثم عاد إلى زهده وانقطع عن أصحابه إلى أن مرض مرضه الذى توفى فيه ،واختلف في سنة وفاته والراجح أنه مات سنة ٢١٣ هـ ودفن حيال قنطرة الزياتين في الجانب الغربى ببغداد وكان أمر أن يكتب على قبره :

أذن حــــتى تســـمعى	اسمعــى ثــم عــى عــى
أنـــا رهــن بمضــجعى	فـــإحذرى مــثل مصــرعى
عشـــت تســـعين حجـــة	اســـلمتنى لمضــــعجى
ثـــم تـــرى الحــى ثابــتا	فـــى ديـــار الـــتزعزع
لـــيس زاد ســـوى الـــتقى	فخــــذي مــــنه أو دعــــى

وقال محمد[1] بن أمية : كنت جالسا بين يدى إبراهيم بن المهدى ، فدخل إليه أبـو العتاهية ، وقد تنسك ولبس الصوف ، وترك قول الشعر إلا فى الزهد ، فرفعه إبراهيم وسر به ، وأقبل عليه بوجه ، فقال لـه أبو العتاهية : أيها الأمير : بلغنى خبر فتى فـى ناحيتك ومن مواليك يعرف بـابن أمية ، يقـول الشعر ،وأنشدت لـه شعرا فأعجبنى ،فما فعل ؟ فضحك إبراهيم ، ثم قال :لعله أقرب الحاضرين مجلسا منك، فالتفت إلى فقال: أنت هو ؟ فديتك ، فتشورت[2] وخجلت ، وقلت له : أنا محمد بن أمية جعلت فداءك ،وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبث بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشاب ، فقال لى: فديتك! ذاك والله زمان الشعر وإبانه ، وما قيل فيه غرره وعيونه ، ومازال ينشطنى ويؤنسنى حتى رأى أنى قد أنست به ،ثم قال لإبراهيم بن المهدى: إن رأى الأمير - أكرمه الله - أن يأمره بأنشادى ما حضر من الشعر ! فقال إبراهيم : بحياتى يا محمد انشده ،فأنشدته .

رب وعـــد مـــنك لا أنســـاه لى	أوجـــب الشـــكر وإن لم تفعـــل
أقطـــع الدهـــر بظـــن حســـن	وأجـــلى غمـــرة مـــا تنجـــلى
كـــلما أملـــت يومـــا صـــالحا	عـــرض المكـــروه لى فـــى أمـــلى
وأرى أيـــامى لا تدنـــى الـــذى	أرتجـــى مـــنك وتدنـــى أجـــلى

فبكى أبـو العتاهية حتى جرت دموعه عل لحيته ،وجعل يردد البيت الأخير منها وينتحب،وقام فخرج وهو يردده ويبكى حتى خرج إلى الباب !

وقال أبـو العتاهية [3]. حبسنى الرشيد لتركى الشعر ، وغلقت على الأبواب ، فبقيت دهشا كما يدهش مثلى لتلك الحالة ؛ فنظرت فإذا رجل جالس فى جانب السجن وهو مقيد ، فجعلت أنظر إليه ساعة ، فتمثل بقوله :

تعـودت حســن الصـبر حـتى ألفته	فأسـلمنى حسـن العـزاء علـى الصبر
وصـيرنى يأسـى مـن الـناس راجيا	لحسن صنيع الله من حيث لا يدرى

---

[1] الأغانى ص٣٠ ج١١ ،وكان محمد بن أمية ،كاتبا شاعرا ظريفا ،نديما لإبراهيم بن المهدى .

[2] تشور ،فعل ما يستحيا منه فى الأصل ،والمراد هنا الخجل .

[3] الطبرى ص ٩٢ ج ٤ ،بدائع البدائع ص١٥١ ج ١.

فقلت له : أعد - أعزك الله - هذين البيتين ، فقال لى : ويلك يا أبا العتاهية! ما أسوأ أدبك ! وأقل عقلك ! دخلت على السجن فما سلمت تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألت مسألة الحر للحر ، ولا توجعت توجع المبتلى ، حتى إذا سمعت بيتين من الشعر الذى لا فضيلة فيك سواه لم تصبر عن استعادتهما ، ولم تقدم قبل مسألتك عنهما عذرا لنفسك فى طلبهما ! فقلت : يا أخى؛ إنى دهشت من هذه الحال فلا تعذلنى واعذرنى متفضلاً، فقال : أنا والله بالدهش والحيرة أولى منك : لأنك حبست على أن تقول الشعر الذى به ارتفعت وبلغت ما بلغت ، وإذا قلته آمنت، وأنا حبست على أن أدل على ابن رسول الله ليقتل أو اقتل دونه ، و والله لا أدل عليه أبدا ، والساعة يدعى بى فأقتل ، فأينا أحق بالدهش ؟ فقلت : أنت والله أولى ، سلمك والله وكفاك ، و لو علمت أن هذه حالك ما سألتك ، فقال : إذن لا أبخل عليك . ثم أعاد على البيتين حتى حفظتهما وأجزتهما بقولى :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما   تكرهت منه طال عتبى على الدهر

ثم سألته عن أسمه ، فقال: أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد. قال : فلم نلبث إلا قليلا حتى سمعنا صوت الأقفال ، فقام ، فسكب عليه ماء من جرة كانت عنده ، ولبث ثوبا نظيفا ودخل الحرس ومعهم الشموع ، فأخرجونا جميعا ، وقدم قبلى إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسألنى عنه ، وافعل ما بدا لك ، فلو أنه تحت ثوبى ما كشفت عنه ، فأمر به فضربت عنقه ، ثم قال لى : أظنك يا أبا إسماعيل ارتعت ، فقلت : دون ما رأيت تسيل منه النفوس ، فقال : ردوه إلى محبسه ، فردونى !

وجلس المهدى للشعراء[1] يوما فأذن لهم ، وفيهم بشار و أشجع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه ، وكان فى القوم غير هذين أبو العتاهية . قال أشجع فلما سمع بشار كلام أبى العتاهية قال : يا أخا سليم ؛ أهذا ذلك الكوفى الملقب؟ قلت : نعم ! قال : لا جزى الله خيرا من جمعنا معه ، ثم قال له المهدى : أنشد ، فقال: ويحك ! أو يستنشد أيضا قبلنا ؟ فقلت : كما ترى فأنشد :

ألا ما لسيدتى مالها   أدلا فأحمل إدلالها

وإلا ففيم تجنت وما   جنيت ! سقى الله أطلالها

ألا إن جارية للإما   م قد أسكن الحسن سربالها

مشت بين حور قصار الخطأ   تجاذب فى المشى أكفالها

وقد أتعب الله نفسى بها   وأتعب باللوم عذالها

---

(1) الأغانى ص ٣٣ ج ٤ .

قال أشجع : فقال لي بشار : ويحك يا أخا سليم! ما أدرى من أى أمريه أعجب : أمن ضعف شعره ، أم من تشبيبه بجارية الخليفة ، وهو يسمع ذلك بأذنه ، حتى أتى على قوله :

أتـــته الخلافـــة مـــنقادة	إلـــيه تجـــرر أذيالهـــا
فلـــم تك تصلـــح إلا لـــه	ولم يـــك يصـــلح إلا لهـــا

قال أشجع : فقال لي بشار وقد اهتز طربا ، ويحك أترى الخليفة لم يطر عن فراشه .

ودخل الفراء على جعفر بن يحيى ، فقال له : أزعم أن أبا العتاهية أشعر هذا العصر ، فقال : هو والله أشعرهم عندى ، وقيل لداود بن زيد الشاعر : من أشعر أهل زمانه؟ فقال : أبو نواس ، وقيل لـــه : فما تقول فى أبا العتاهية ؟ قال : هو أشعر الأنس والجن[1]، وقال ابن الأعرابى : والله ما رأيت شاعرا قط أطبع ولاأقدر على بيت من أبى العتاهية ، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر[2] ويروى أن أبا العتاهية قال : قرأت البارحة " عما يتساءلون "، ثم قلت قصيدة أحسن منها[3]، وكذب أبو العتاهية فما يدرك إنسان بلاغة القرآن الكريم ولو حاول المستحيل ، وقال الأصمعى : شعر أبى العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى[4]، وقال أبو حاتم : كان أصحابنا يقولون : لو أن شعر أبى العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس[5]، وقيل لأبى نواس: والله لأنت أشعر من أبى العتاهية، فقال : والله ما رأيته قط إلا ظننت أنه سماء وإنى أرض[6]، وقيل لبشار : من أشعر أهل زماننا ؟ فقال : مخنث أهل بغداد يعنى أبا العتاهية .

ويروى أن أبا العتاهية وإبراهيم الموصلي وأبا عمرو والشيبانى توفوا فى يوم واحد من خلافة المأمون وذلك سنة ٢١٣ هـ[7].

---

(١) ص١٢٢/٣ الأغانى .

(٢) ١٢٧/٣ المرجع .

(٣) ١٣٧/٣ الأغانى .

(٤) ١٤٠/٣ الأغانى .

(٥) ١٥٢/٣ المرجع .

(٦) ١٥٦/٣ .

(٧) ١٧٥/٣ الأغانى .

أبـــو دلامـــة

المتوفى سنة ١٦١هـ

هو زند بن الجون ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، نشأ فى الكوفة واتصل بالخلفاء من بنى العباس ، فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه صلاتهم وله فى ذلك أخبار كثيرة ، وتوفى عام ١٦١ هـ .

قال أبو دلامة[1]، أتى بى إلى المنصور وأنا سكران ؛ فحلف ليخرجنى فى بعث حرب ؛ فأخرجنى مع روح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة[2]، فلما ألتقى الجمعان قلت لروح : أما والله لو أن تحتى فرسك ، ومعى سلاحك ، لأثرت فى عدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : لأدفعن ذلك إليك ، ولأخذنك بالوفاء بشرطك ؛ ونزل عن فرسه ، ونزع سلاحه، ودفعهما إلى ودعا بغيرهما ، فلما حصل ذلك فى يدى ، وزلت عنى حلاوة الطمع ، قلت له : أيها الأمير ؛ هذا مقام العائذ بك. وقد قلت بيتين فأسمعهما، قال ؛ هات ؛ فأنشدته :

إنى استجرتك أن أقدم فى الوغى	لـــتطاعن وتـــنازل وضـــراب
فهـب السـيوف رأيـتها مشـهورة	فتركـتها ومضـيت فـى الهـراب
مـا ذا تقـول لمـا يجـىء ومـا يـرى	مـن واردات المـوت فـى النشاب[3]؟

فقال : دع عنك هذا وستعلم ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة ، فقال: اخرج إليه يا أبا دلامة ! فقلت : أنشدك الله أيها الأمير فى دمى ! قال : والله لتخرجن . فقلت : أيها الأمير فإنه أول يوم من الآخرة ، وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما شبعت منى جارحة من الجوع ، فمر لى بشىء أكله ثم أخرج ! فأمر لى برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف ، فلما رآنى الشارى أقبل نحوى، وعليه فرو ، قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فأقفعل[4]، وعيناه تقدان ، فأسرع إلى . فقلت لـه : على رسلك يا هذا كما أنـت ! فـوقف . فقلت : أتقتل من لا يقاتلك ؟ قال : لا . قلت : أتقتل رجلا على دينك ؟ قال : لا . قلت : أفتستحل ذلك

---

[1] الأغانى ص٢٤٣ج١٠ ، نهاية الأرب ص٤٠ج٤ ، معاهد التنصيص ص٢١٢ ج٢ .

[2] الشراة : هم الخوارج .

[3] النشاب : السهم .

[4] اقفعل : تقبض .

قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك ؟ قال : لا ، فاذهب عني إلى لعنة الله ! ، قلت : لا أفعل أو تسمع مني . قال : قل ، قلت : هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة ؟ أو تعرفني بحال تحفظك علي! أو تعلم بين أهلي وأهلك وترا؟ قال : لا، والله. قلت : ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأى، وإني لأهواك، وأنتحل مذهبك، وأدين دينك. وأريد السوء لمن أراده لك، قال : يا هذا جزاك الله خيرًا فانصرف. قلت : إن معي زادا أحب أن آكله معك ، وأحب مواكلتك لتتأكد المودة بيننا ، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا ، قال : فافعل . فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكا ! فلما استوفينا ودعني ، ثم قلت له : إن هذا الجاهل - إن أقمت على طلب المبارزة - ندبني إليك فتتعبني وتتعب ، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل. قال : فعلت . ثم انصرف وانصرفت . فقلت لروح: أما أنا فقد كفيتك قرني! فقل لغيرى أن يكفيك قرنه كما كفيتك ، فأمسك ! وخرج آخر يدعو إلى البراز فقال لي : أخرج إليه ، فقلت :

إني أعوذ بروح أن يقدمني	إلى البراز فتخزى بي بنو أسد
إن البراز إلى الأقران أعلمه	مما يفرق بين الروح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها	وأصبحت لجميع الخلق بالرصد
إن المهلب حب الموت أورثكم	ومما ورثت اختيار الموت عن أحد
لو أن لي مهجة أخرى لجدت بها	لكنها خلقت فردا فلم أجد

فضحك وأعفاني !

ودخل أبو دلامة[1] على المهدى وعنده عيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وناس من بني هاشم ، فقال المهدى : يا أبا دلامة. قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : اهج من شئت ممن ضمه هذا المجلس ولك الجائزة ، فنظر في القوم فلم يرى إلا شريفا قريبا من المهدى ، فقال : أنا أحد من بالمجلس ثم أنشد :

ألا أبلغ إليك أبا دلامة	فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قردا	وخنزيرا إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما	كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
فإن تك قد أصبت نعيم دنيا	فلا تفرح فقد دنت القيامه

---

[1] ذيل زهر الآداب ص ٨٩، مهذب الأغاني ص ٢٠ ج ٩،المستطرف ص ٨٦ ج ١، المحاسن والمساوىء ص٢٨٧ طبع ليبزج، ذيل زهر الآداب ص ٩٠، الأغاني ص٢٥٨ ج ١٠ .

فضحك المهدى ، وسر القوم إذ لم يسيء إلى أحد منهم ، ثم قال له المهدى : تمن ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر لى بكلب صيد . فسبه وقال : ما تصنع به ؟ فقال : الحاجة لى أم لك ؟ فقال : صدقت اعطوه كلبا . فأعطى . فقال : يا أمير المؤمنين : لابد لهذا الكلب من كلاب[1]. فأمر له بغلام مملوك ، فقال : يا أمير المؤمنين : أو يتهيأ لى أن أصيد راجلا ؟ فقال : أعطوه دابة . فقال : ومن يسوس الدابة ؟ فقال : أعطوه غلاما سائسا . فقال : ومن ينحر الصيد ويصلحه ؟ فقال : أعطوه طباخا . فقال : ومن يأويهم ؟ فقال : أعطوه دارا فبكى أبو دلامة وقال : ومن يمون هؤلاء كلهم ؟ فقال : يكتب لهم بمائة جريب[2] عامرة ، ومائتى جريب غامرة ، فقال : وما الغامرة ؟ قال : التى لا نبات فيها . قال : فأنا أعطيك مائتى ألف جريب من فيافى بنى أسد ! فضحك وقال : ما تريد ؟ قال : بيت المال . قال : على أن أخرج المال منه . قال : فإذن يصير غامرا ، فاستفرغ ضحكا وقال : اذهب فقد جعلتها لك كلها عامرة . فقال :يا أمير المؤمنين ؛ ائذن لى أن أقبل يدك ، قال : أما هذه فدعها ، فقال: والله ما تمنع عيالى شيئا أهون عليهم منها ! فناوله يده فقبلها .

ويروى أن أبو دلامة[3]شرب فى بعض الحانات[4]؛ فمشى ، وهو يميل ؛ فلقيه العسس فأخذوه ، فقيل له من أنت ؟ وما دينك ؟ فقال :

دينى على دين بنى العباس ... ما ختم الطين على القرطاس

إذا اصطبحت أربعا بالكاس ... فقد أدار شربها برأسى

فهل بما قلت لكم من بأس

فأخذوه وخرقوا ثيابه وساجه[5]، وأتى به إلى أبى جعفر ، فأمر بحبسه مع الدجاج فى بيت ، فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة ، وجاريته أخرى ، فلا يجيبه أحد . وهو مع ذلك يسمع صوت الدجاج وزقاء[6] الديوك ، فلما أكثر قال له السجان: شأنك ؟ قال : ويلك ! من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : فى الحبس وأنا السجان ، قال : ومن حبسنى ؟ قال أمير المؤمنين ، قال : ومن خرق طيلسانى ؟ قال : الحرس ، فطلب أن يأتيه بدواة وقرطاس ، ففعل ، فكتب إلى أبى جعفر المنصور يقول :

---

(1) الكلاب : صاحب الكلاب .

(2) الجريب : المزروعة .

(3) نهاية الأرب ص ٤٢ ج ٤، الأغانى ص٢٥١ج١٠ طبعة دار الكتاب .

(4) الحانات : المواضع التى تباع فيها الخمور .

(5) الساج : الطيلسان الأخضر أو الأسود .

(6) زقاء الديك : صياحه .

أمـــير المؤمـــنين فدتـــك نفســـي	عـــلام حبســـتني وخرقـــت ســـاجي
أمـــن صـــهباء[2] صـــافية المـــزاج	كـــأن شـــعاعها لهـــب الســـراج
وقـــد طبخـــت بـــنار الله حـــتى	لقـــد صـــارت مـــن الـــنطف[1] النضـــاج
تهـــش لهـــا القلـــوب وتشـــتهيها	إذا بـــرزت ترقـــرق فـــي الـــزجاج
أقـــاد إلى الســـجون بغـــير جـــرم	كـــأني بعـــض عمـــال الخـــراج
فلـــو معهـــم حبســـت لكـــان ســـهلا	ولكـــنني حبســـت مـــع الدجـــاج
وقـــد كانـــت تخـــبرني ذنوبـــي	بـــأني مـــن عقـــابك غـــير نـــاجي
عـــلى أنـــي – وإن لاقيـــت شـــرا –	لخـــيرك بعـــد ذاك الشـــر راجـــي

فأستدعاه المنصور ، وقال : أين حبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدجاج ، قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أقوقيء[3]، إلى الصباح ، فضحك وخلى سبيله ، وأمر بجائزة ، فلما خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ! أما سمعت قوله: وقد طبخت بنار الله – يعني الشمس – فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ؛ شربت الخمر ، قال : لا ، قال : أفلم تقل : طبخت بنار الله – تعني الشمس ؟ قال : لا ، والله ما عنيت إلا نار الله الموقدة التي تطلع على فؤاد الربيع ! فضحك المنصور ، وقال : خذها يا ربيع ، ولا تعاود التعرض له .

وقال أيوب المورياني لأبي جعفر[4] وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة معتكف على الخمر ، فما يحضر صلاة ولا مسجدا ، وقد أفسد فتيان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لأجرت فيه وفي غيره من فتيان عسكرك بقطعه عنهم ، فلما دخل عليهم أبو دلامة قال له ما هذا المجون الذي يبلغني عنك ؟ فقال يأمير المؤمنين : ما أنا والمجون وقد شارفت باب قبري ! قال دعني من استكانتك وتضرعك . وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر في مسجدي ، فلئن فاتتاك لأحسنن أدبك ولأطيلن حبسك! فوقع في شر ، ولزم أياما ثم كتب قصته ودفعها إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه، وكان فيها :

---

(1) النطف : الماء الصافي قل أو كثر .

(2) الصهباء : الخمر .

(3) أقوقيء : أصيح .

(4) مهذب الأغاني ص٣٣ج٩ ،الأغاني ص٢٤٦ج١٠ ، ذيل زهر الآداب ص٩١ .

ألم تعلما أن الخليفة لزني[1] ... بمسجده والقصر ،مالي وللقصر !
أصلي به الأولى جميعا وعصرها ... فويلي من الأولى وويلي من العصر
أصليهما بالكره في غير مسجدي ... فمالي في الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان في قومي مساجد جمة ... ولم ينشرح يوما لغشيانها صدري
يكلفني من بعدما شبت خطة ... يحط بها عني الثقيل من الوزر
وما ضره – والله يغفر ذنبه- ... لو أن ذنوب العالمين على ظهري

فقال قد أعفيناك من هذه الحال على أن تصلي في مسجد قبيلتك ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أظل[2]فقال أفعل قال فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك[3]فقال أبو دلامة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر سمعا وطاعة ! فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسيا يجيء به فشق ذلك عليه وفزع إلى الخيزران وإلى أبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الاعفاء من القيام فلم يجبهم ، فقال لهم أبو عبيد الله[4] الدال على الخير كفاعلة فكيف شكرك ؟ قال أتم شكر ، قال عليك بريطة[5] ، فإنه لا يخالفها قال صدقت ثم رفع إليها رقعة ، يقول فيها :

أبلغنا ريطة أني ... كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمه الله ... وأوصى بي إليها
وأراها نسيتني ... مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشي ... مشية ما أشتهيها
قائدا لي ليلة القد ... ر كأني أبتغيها
ولقد عشت زمانا ... في فيافي وجيها
في ليالي من شتاء ... كنت شيخا أصطليها
قاعدا أوقد نارا ... لضباب[6] أشتويها
وصبوح وغبوق ... في علاب[7] أستحيها
ما أبالي ليلة القدر ... ولا تسمعنيها
فاطلبي لي فرجا منه ... ا وأجرى لك فيها

---

[1] اللز – لزوم الشيء بالشيء وإلزامه به .
[2] أظل : قرب وأشرف .
[3] حده : أقام عليه الحد .
[4] هو أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله ، وكان من رجالات المنصور ثم المهدي .
[5] ريطة . هي ابنة الخليفة أبي العباس وزوج المهدي .
[6] الضب : دويبة من الحشرات تحرص العرب على صيدها وأكله وجمعه ضباب .
[7] جمع علبة . وهي قدح ضخم من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيها .

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت إليه : اصطبر حتى تمضي ليلة القدر . فكتب إليها : إني لم أسألك أن تكلميه في إعفائي عاما قابلا ، وإذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر وكتب تحتها أبياتا :

خافي إلهك في نفس قد احتضرت ... قامت قيامتها بين المصلين

ماليلة القدر من همي فأطلبها ... إني أخاف المنايا قبل عشرينا

يا ليلة القدر كسرت أرجلنا ... يا ليلة القدر حقا ما تمنينا ؟

لا ارك الله في خير أومله ... في ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، ودخلت إلى المهدي ، فشفعت له إليه ، وأنشدته الأبيات ، فضحك حتى استلقى ، ودعا به وريطة معه في الحجلة[1]، فدخل فأخرج رأسه إليه وقال : قد شفعنا ريطة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم فقال : أما شفاعة سيدتي في حتى أعفيتني فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فإما أن تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة ، أو تنقصني منها ألفين فتصير خمسة آلاف ؛ فأني لا أحسن حساب السبعة ، فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين، وأنت أنت ! ثم تكلمت فيه ريطة فأتمها له عشرة آلاف درهم .

ابن وهيب

هو محمد بن وهيب الحميري صليبة ، شاعر من أهل بغداد من شعراء الدولة العباسية وأصله من البصرة ، وله أشعار كثيرة يذكرها فيها ويتشوقها ويصف إيطانه إياها ومنشأه بها .

ومن قوله يمدح المعتصم وفيه غناء :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

يحكي أفاعيله في كل نائبة ... الغيث والليث والصمصامة الذكر

ومن قوله من كلمة يمدح بها الحسن بها رجاء بن الضاحك :

وأجارتنا إن التعفف باليابس ... وصبرا على استدرار دنيا بإبساس[2]

حريان ألا يقذيا[3] بمذلة ... كريما وألا يحوجاه إلى الناس

أجارتنا إن القداح[4] كواذب ... وأكثر أسباب النجاح مع الياس

---

[1] الحجلة : بيت يزين بالثياب والأسرة والستور .

[2] أبس الحالب بالناقة : دعاها للحلب .

[3] أقذى عينه ألقى فيها القذى .

[4] جمع قدح بالكسر وهي السهام التي يستقسم بها فيما يهم الإنسان به حتى يقدم أو يحجم .

ودخل محمد بن وهيب على أبى دلف القاسم بن عيسى فأعظمه جدا ، فلما انصرف قال له أخوه معقل : يا أخى فعلت بهذا ما لم يستأهله ، ما هو فى بيت من الشرف ولا فى جمال من الأدب ولا بموضع من السلطان ، فقال : بلى يا أخى أنه لحقيق بذلك ، أولا يستحقه ؟ وهو القائل :

يدل على أننى عاشق ... من الدمع مستشهد ناطق
ولى ما لك أنا عبد له ... مقر بأنى له وامق
إذا ما سموت إلى وصله ... تعرض لى دونه عائق
وحاربنى فيه ريب الزمان ... كأن الزمان له عاشق

ولما قدم المطلب من عبد الله بن مالك من الحج لقيه بن وهيب مستقبلا مع من تلقاه ودخل إليه مهنئا بالسلامة بعد استقراره ، وعاد إليه فى الثانية فأنشده قصيدة طويلة مدحه بها يقول فيها :

وما زلت أستدعى لك الله غائبا ... وأظهر إشفاقا عليك وأكتم
وأعلم أن الجود ما غبت غائب ... وأن الندى فى حيث أنت مخيم
إلى أن زجرت الطير سعدا سوانحا ... وحم لقاء بالسعود مقدم
وظل يجانينى بمدحك خاطرى ... وليلى ممدود الرواقين أدهم
وقال طواه الحج فأخشع لفقده ... ولا عيش حتى يستهل المحرم
سيفخر ما ضم الحطيم[1] وزمزم ... بمطلب لو أنه يتكلم
ولو رد مخلوق إلى بدء خلقه ... إذا كنت جسما بينهن تقسم
سما بك منها كل خفيف فأبطح ... مما بك منه الجوهر المتقدم
وحن إليك الركن حتى كأنه ... وقد جئته حل عليك مسلم

فوصله صلة سنية وأهدى له هدية حسنة من طرف ما قدم به وحمله ، وكان محمد بن وهيب لما قدم المأمون من خرسان مضاعا مطرحا أنما يتصدى للعامة وأوساط الكتاب والقواد بالمديح ويسترفدهم فيحظى بالسير ، فلما هدأت الأمور واستقرت واستوثقت[2]، جلس أبو محمد الحسن بن سهل يوما منفردا بأهله وخاصته وذوى مودته ومن يقرب من أنسه فتوسل إليه محمد بن وهيب بالحسن بن رجاء

---

(1) الحطيم : جدار حجر الكعبة .

(2) استوثق لك الأمر : أمكنك .

حتى أوصله مع الشعراء، فلما انتهى إليه القول استأذن في الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده القصيدة التي أولها :

ودائع أسرار طوتها السرائر ... وباحت بمكنوناتهن النواظر
ملكت لها طي الضمير وتحته ... شبا لوعة عضب الغرارين[1] باتر
فأعجم عنها ناطق وهو معرب ... وأعجبت العجم الجفون المواطر
ألم تقذني السراء في رنق[4] الهوى ... غريرا بما تجني على الدوائر
تسالمني الأيام في عنفوانه ... ويكلؤني[2] طرف من الدهر ناظر
إلى الحسن الباني العلا حين يممت ... عوالي المنى حيث الحيا المتظاهر
إلى الأمل المبسوط والأجل الذي ... بأعدائه تكبو الجدود العواثر
ومن أنبعث عين المكارم كفه ... يقوم مقام القطر والروض داثر
تعصب تاج الملك في عنفوانه ... واطت[3] به عصر الشباب المنابر
ولو لم تكن إلا بنفسك فاخرا ... لما انتسبت إلا إليك المفاخر

فطرب أبو محمد حتى نزل عن سريره إلى الأرض وقال : أحسنت والله وأجملت ، ولو لم تقل قط ولا تقول في باقي دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، فأحضرت ، واقتطعه إلى نفسه فلم يزل في جنبته أيام ولايته وبعد ذلك إلى أن مات ما تصدى لغيره.

وله في مدح المأمون :

يا خير منتسب لمكرمة ... في المجد حتى ينتج العدد
في كل أنملة لراحته ... نوء يسح وعارض حشد[5]
وإذا القنا رعفت[6] أسنته ... علق وضم كعوبه قصد
فكأن ضوء جبينه قمر ... وكأنه في صولة أسد
وكأنه روح تدبرنا ... حركاته وكأننا جسد

---

[1] الغرار–حد الريح والسيف وعضب قاطع وكذلك باتر

[2] يكلؤني : يحفظني .

[3] أطت : صوتت .

[4] الرنق – الكدر ، والغرير – الشاب لا تجربة له . وأقذى عينه – جعل فيها القذى وأخرجه منها ضد .

[5] الحشد : الجماعة منن الناس .

[6] رعف الرجل : سال الدم من أنفه وهو هنا على المجاز . والعلق : الدم والكعوب جمع كعب وهو العقدة من عقد الرمح . والقصد جمع قصدة وهي القطعة مما يكسر .

وقد استحسنها المأمون وأمر بأن تعد أبيات قصيدته ويعطى لكل بيت ألف درهم فعدت فكانت خمسين ، فأعطاه خمسين ألف درهم ، وله في المأمون والحسن بن سهل خاصة مدائح شريفة نادرة ، ومن عيونها قوله للمأمون :

العـــذر إن أنصـــفت متضـــح ... وشـــهيد حـــبك أدمـــع ســـفح
فضـــحت ضـــميرك عـــن ودائعـــه ... إن الجفـــون نواطـــق فصـــح
وإذا تكلمـــت العـــيون عـــلى ... إعجامهـــا فالســـر منفضـــح
وبمـــا أبيـــت معـــانقي قمـــر ... للحســـن فـــيه مخـــايل نصـــح
نشـــر الجمـــال عـــلى محاســـنه ... بدعـــا وأذهـــب همـــه الفـــرح
يختـــال فـــي حلـــل الشـــباب بـــه ... مـــرح وداؤك أنـــه مـــرح
مـــازال يلثمـــني مراشـــفه ... ويعلـــني الأبـــريق والقـــدح
حـــتى اســـترد اللـــيل خلعـــته ... ونشـــا خـــلال ســـواده وضـــح
وبـــا الصـــباح كـــأن غـــرته ... وجـــه الخلـــيفة حـــين يمـــتدح

أبـــو تمام

١٩٠ - ٢٣١ هـ

هو حبيب بن أوس الطائي ، مولده ومنشؤه منبج[1] بقرية منها يقال لها جاسم. كان كما يقول أبو الفرج شاعرا مطبوعا و لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواصا على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب في المطابق[2] هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه ؛ والسليم من شعره النادر لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا ، وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعلمون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب ، وهذا ما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سببا للترفع وطلبا للرياسة ، وليست إساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الإحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت،

---

(١) منبج : مدينة بين الفرات وحلب ، وجاسم : قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ .

(٢) المطابق : نوع من البديع .

والتوسط في كل شيء أجمل، والحق أحق أن يتبع ، وقد روى عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جميعها إلا في بيت واحد ، فقال : له يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب ، فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه ، فهو وإن أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وإن هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر واعتذاره بهذا ضد ما وصف به نفسه في مدحه الواثق حيث يقول:

جاءتك من نظم اللسان قلادة	سمطان[1] فيها اللؤلؤ المكنون
حذيت حذاء الحضرمية أرهفت	وأجادها التخصير والتلسين[2]
إنسية وحشية كثرت بها	حركات أهل الأرض وهي سكون
ينبوعها خضل وحلى فريضها	حلى الهدى ونسيجها موضون[3]
أما المعاني فهي أبكار إذا	نصت ولكن القوافي عون[4]
أحذاكها صنع الضمير يمده	جفر[5] إذا نضب الكلام معين
ويسيء بالإحسان ظنا لا كمن	هو بابنه أو شعره مفتون

فلو كان يسيء بالإحسان ظنا ولا يفتتن بشعره كنا في غنى عن الاعتذار له، وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء من لا يشق الطاعنون عليه غبارا ولا يدركون وإن جدوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جده نظيرا ولا شكلا ، ولو لا أن الرواة قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره ، وأفرط معادوه في التشهير برديئه والتنبيه على رذله ودنيئه ، لذكرت منه طرفا ولكن قد أتى من ذلك لا يزيد عليه .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول : أشعر الناس طرا الذي يقول:

وما أبالي وخير القول أصدقه	حقنت[6] لي ماء وجهي أو حقنت دمي

فقيل له : من أشعر زماننا هذا ؟ فقال الذي يقول :

---

(1) السمط : خيط النظم .

(2) الملسنة من النعال : ما فيها طول ولطافة كهيئة اللسان . والمختصرة منها : مستدقة الخصر ، وأرهفت ، رققت ، والحضرمية ، نسبة إلى حضرموت .

(3) موضون مثنى بعضه على بعض ، والخضل ،كل شيء ند يترشف نداه .

(4) العوان من النساء التي لها زوج ، والجمع عون .

(5) الجفر : البئر لم تطو أو طوى بعضها .

(6) حقنت أي صنت .

مطـر أبـوك أبـو أهلـة وائـل ... مـلأ البسـيطة عـدة وعديـدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نـورا ومـن فلـق الصباح عمـودا
ورثـوا الأبـوة فـالحظوظ وأصـبحوا ... جمعوا جدودا[1] فى العلا وجدودا

والناس على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

وقدم عمارة بن عقيل بغداد ، فأجتمع الناس إليه فكتبوا شعره وشعر أبيه وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : هاهنا شاعر يزعم أنه أشعر الناس طرا ويزعم غيره ضد ذلك ، فقال : أنشدونى قوله ، فأنشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غـ ... ـد وعادا قتادا[2] عندها كل مرقد
وأنقذها من غمرة الموت أنه ... صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاق دمعا موردا ... من الدم يجرى فوق خد مورد
هى البدر يغنيها تورد وجهها ... إلى كل من لاقت وإن لم تودد

ثم قطع المنشد ، فقال له عمارة زدنا من هذا ، فوصل نشيده وقال :

ولكننى لم أحو وفرا مجمعا ... ففزت به إلا بشمل مبدد
ولم تعطنى الأيام نوما مسكنا ... ألذ به إلا بنوم مشرد

فقال عمارة : لله دره ! لقد تقدم فى هذا المعنى من سبقه إليه على كثرة القول فيه حتى لقد حبب الاغتراب ، هيه ، فأنشده :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسر مد

فقال عمارة : كمل والله ، لئن كان الشعر جودة اللفظ وحسن المعانى واطراد المراد واتساق الكلام فإن صاحبكم هذا أشعر الناس ، وكان على بن الجهم يصف أبا تمام ويفضله ، فقال رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك هذا ، فقال : إن لم يكن أخا بالنسب فإنه أخ بالأدب والمودة ، أما سمعت ما خاطبنى به حيث يقول :

إن[3] يكد مطرف الإخاء فأننا ... نغدو ونسرى فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا ... عذب تحدر من غمام واحد

---

(1) الجدود الأولى جمع جد بالفتح وهو أبو الأب . والثانية جمع الجد وهو الحظ .
(2) القتاد : شجر صلب له شوكة كالإبر .
(3) أكدى :وصل إلى الكدية وهى الأرض الغليظة ويكنى بذلك عن ضياع الفائدة . والمطرف : الطريف وهو الحديث وضده التالد .

أو يفـــترق نســـب يؤلـــف بينـــنا أدب أقمـــــناه مقـــام الوالـــــد

وجرى ذكر أبى تمام فى حلقة دعبل فقال : كان يتبع معانى فيأخذها ، فقال له رجل فى مجلسه ، وأى شيء من ذلك أعزك الله ؟ قال قولى :

وإن أمـــرأ أســـدى إلىّ بشـــافع إلـيه ويـرجو الشـكر مـنى لأحمـق
شـفيعك فاشـكر فـى الحوائـج إنـه يصـونك عـن مكروهها وهو يخلق [1]

فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال : قال :

فلقيــت بــين يديــه حلــو عطانــه ولقيــت بــين يــدى مــر ســؤاله
وإذا امــرؤ أســدى إلــيك صنيعة مــن جاهــه فكأنهــا مــن مالــه

فقال الرجل : أحسن والله. لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك، وإن كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه ، فغضب دعبل وأنصرف . وكان محمد بن حازم الباهلى يقدم أبا تمام ويفضله ويقول : ولو لم يقل إلا مرثيته التى أولها :

أصم بـك الـناعى وإن كـان أسمعا وأصبح مغـنى الجـود بعـدك بلقعا

وقوله :

لـو يقـدرون مشـوا عـلى وجـناتهم وجـــباههم فضـــلا عـــن الأقـــدام

لكفاه . وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : كان عمارة بن عقيل عندنا يومًا مؤدبًا كان لولد أخى يرويهم قصيدة أبى تمام :

الحــق أبــلج والســيوف عــوار فحــذار مــن أســد العرين حــذار

فلما بلغ إلى قوله :

ســود اللــباس كأنمــا نسـجت لهـم أيـدى السـموم مدارعـا مـن قـار [2]
بكـروا وأسـروا فـى بطـون ضوامر قــيدت لهــم مــن مــربط الــنجار
لا يــبرحون ومــن رآهــم خــالهم أبــدا عــلى ســفر مــن الأســفار

فقال عمار لله دره ، ما يعتمد معنى إلا أصاب أحسته كأنه موقوف عليه ، وقال : إبراهيم بن العباس ما اتكلت فى مكاتبتى قط إلا على ما جاش به صدرى إلا أنى قد استحسنت قول أبى تمام :

---

(1) خلق الثوب كفرح : بلى .
(2) القار : الزفت ، والمدارع جمع مدرعة بكسر الميم وهى جبة مشقوقة المقدم ولاتكون إلا من صوف ، وهى هنا مجاز .

إذا عـارق بـالغدر حـاول غـدرة | فـذاك حـرى أن تئـيم[1] حلائلـه
فإن باشر الإصحار[3] فالبيض والقـــنا وأحـواض المـنايا مـناهله
وإن بـين حـيطانا علـيه فانمـا | أولـئك عقالاتـه[2] لا معاقلـه
وإلا فأعـلمه بـأنك سـاخط | ودعـه فـإن الخـوف لا شـك قاتلـه

فأخذت هذا المعنى في بعض رسائلي فقلت : ما كان يحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم يعتقلهم ؛ ثم قال : إن أبا تمام اخترم وما استمع بخاطره ولا نزح ركى[4] فكرد حتى أنقطع رشاء عمره ، وقال محمد بن جابر الأزدى - وكان يتعصب لأبى تمام - أنشدت دعبل بن على شعرا لأبى تمام ولم أعلمه أنه له ، وقلت له : كيف تراه؟ قال : أحسن من عافية بعد يأس ، فقلت : أنه لأبى تمام ، فقال: لعله سرقه .

وقال يزيد المهلبى : ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما بالشعر فى حياة أبى تمام فلما مات أقتسم الشعراء ما كان يأخذه ، ولما قدم أبو تمام خرسان اجتمع الشعراء ، وسألوا أن ينشدهم ، فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غدا وستسمعونني، فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهـن عـوادى يوسـف وصـواحبه | فعـزما ، فقدمـا أدرك السـؤل طالـبه

فلما بلغ قوله :

وقلقـل[5] نـأيى مـن خرسان جأشـها | فقلـت أطمئنـى أنضر الروض عازبـه
وركـب كأطـراف الأسـنة عرسـوا[6] | عـلى مثـلها والليـل تسـطو غياهـبه
لأمـــر علـــيهم أن تـــتم صـــدوره | ولـيس علـيهم أن تـتم عواقـبه

فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله :وقال شاعر منهم - يعرف بالرياحى - لى عند الأمير أعزه الله جائزة وعدنى بها وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء عن قوله للأمير ، فقال : بل نضعفها لك ونقوم له بما يجب علينا ، فلما فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينار فلقطها الغلمان ولم يمس منها شيئا : فوجد عليه عبد الله وقال : يترفع عن برى ويتهاون بما أكرمته ! فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك ، فقال أبو تمام :

---

(1) تنيم من آمت المرأة : مات زوجها .
(2) عقالاته جمع عقال وهو داء فى رجل الدابة ، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط ، ويخص بالفرس .
(3) الإصحار : ملاقاة العدو فى الصحراء أى برز لقتاله .
(4) الركية : البئر ذات الماء ، والرشاء : حبل البئر .
(5) قلقل الشيء : حركه ، والناى : البعد ، والجاش : رواع القلب إذا أضطرب عند الفزع .
(6) التعريس : النزول ليلا .

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل ... ولا قشيب فيستكسى ولا سمل[1]

عدل عن الدمع أن يبكى المصيف كما ... يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل

يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت ... يسراه وهى لباس بعده بدل

فدخل أبو العميثل شاعر آل طاهر إلى عبد الله فقال : أيها الأمير أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فو الله لو لم يكن له من النباهة فى قدره والإحسان فى الشعر ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره والتوقى لذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن وفراقه السكن ، وقصدك عاقدا بك أمله ؛ معملا إليه ركابه ؛ متعبا فيك فكره وجسمه ؛ وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضيا ، ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع إلا قوله .

يقول فى قومس[2] صحبى وقد أخذت ... منا السرى وخطا المهرية القود

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

لكفى ، فقال له عبد الله : نبهت فأحسنت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى ، وأمر له بألفى دينار وما يحمله من الظهر وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر ببذرقته[3] إلى آخر عمله .

ومدح أبو تمام أبا دلف ، فقال أبو دلف لقومه : يامعشر ربيعة ما مدحتم بمثل هذا الشعر قط فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم[4] يرمون بها إليه ، فقال أبو دلف: قد قبلها منكم وأعاركم لبسها وسأنوب عنكم فى ثوابه ، تمم القصيدة يا أبا تمام، فتممها ، فأمر له بخمسين ألف دهم وقال : والله ما هى بإزاء استحقاك وقدرك فاعذرنا ، فشكره وقام ليقبل يده ، فحلف ألا يفعل ، ثم قال له أنشدنى قولك فى محمد بن حميد :

وما مات حتى مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ[5] المر والخلق والوعر

فأنبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر

---

[1] السمل : الثوب الخلق وجمعه أسمال . والقشيب هنا : الجديد .

[2] قومس : كورة كبيرة واسعة فى ذيل جبل طبرستان ، والقود جمع أقود وهو من الخيل والإبل ، الذلول والمهرية . منسوب إلى مهرة وهى بلد أو قبيلة .

[3] البذرقة : الخفارة .

[4] مطارفهم : جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذو أعلام وهو على وزن اسم المفعول أو بكسر الميم وفتح الراء.

[5] الحفاظ الأنفة .

غدا غدوة والحمد نسج ردائه | فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
كأن بني بهان يوم مصابه | نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو يعزى به العلا | ويبكي عليها الجود والبأس والشعر

فأنشده إياه ، فقال : والله لوددت أنها في ، فقال : بل أفدى الأمير بنفسي وأهلي وأكون المقدم ، فقال : إنه لم يمت من رثي بهذا الشعر أو بمثله .

وقدم أبو تمام مادحا للحسن بن رجاء ، فاستنشده قصيدته اللامية التي مدحه بها فلما انتهى إلى قوله :

أنا ذو[٢] عرفت فإن عرتك جهالة | فأنا مقيم قيامة العذال
عطفت ملامتها على ابن ملمة | كالسيف جأب الصبر[١] شخت الآل
عادت له أيامه مسودة | حتى توهم أنهن ليالي

فقال له الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم ، فلما قال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى | فالسيل حرب للمكان العالي
وتنظري خبب الركاب ينصها[٣] | محيى القريض إلى مميت المال

قام الحسن على رجليه وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه وقال :

قد قلت وهي تنال من عرض الفلا | بملاطس[٤] في الوخد غير أوالي
أحوامل الأثقال إنك في غد | بفناء أحمل منك للأثقال
لما وردنا ساحة الحسن انقضى | عنا تعجرف[٥] دولة الأمحال
أحيا الرجاء لنا برغم نوائب | كثرت بهن مصارع الآمال
أغلى عذارى الشعر إن مهورها | عند الكرام وإن رخصن غوالي
ترد الظنون بنا على تصديقها | ويحكم الآمال في الأموال
أضحى سمي أبيك فيك مصدقا | بأجل فائدة وأيمن فال
ورأيتني فسألت نفسك سيبها[٦] | لي ثم جدت وما انتظرت سؤالي
كالغيث ليس له ، أريد نواله | أو لم يرد ، بد من التهطال

---

(١) جأب الصبر : غليظة، وشخت الآل : ضعيف الشخص .
(٢) ذو : في لغة طيء كالذي .
(٣) نص ناقته : إستحثها واستقصى آخر ما عندها من السير .
(٤) الملاطس : الأخفاف . والوخد : الإسراع . وأوال : مقصرات .
(٥) التعجرف : التكبر .
(٦) السيب : العطاء .

فتعانقا وجلسا ، فقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ! فقال : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . وكان دعبل عند الحسن بن رجاء يضع من أبى تمام . فقال له قائل : يا أبا على اسمع منى ما قاله ، فإن رضيته فذاك ، وإلا وافقتك على ما تذمه منه ، وأعوذ بالله فيك من ألا ترضاه ، ثم أنشده :

أما أنه لولا الخليط المودع ... ومغنى عفا مصيف ومربع

فلما بلغ إلى قوله :

هو السيل إن واجهته انقدت طوعه ... وتقتاده من جانبيه فيتبع

ولم أر نفعا عند من ليس ضائرا ... ولم أر ضرا عند من ليس ينفع

معاد الورى بعد الممات وسيبه ... معاد لنا قبل الممات ومرجع

فقال له دعبل : لم ندفع فضل هذا الرجل ، ولكنهم ترفعونه فوق قدره ، وتقدمونه على من يتقدمه وتنسبون إليه ما قد سرقه ، فقال له : إحسانه صيرك له عائبا وعليه عاتبا.

وأنشد أبو تمام أبا الحسن محمد بن الهيثم بالجبل[1].

أسقى ديارهم أجش[2] هزيم ... وغدت عليهم نضرة ونعيم

فلما فرغ أمر له بألف دينار وخلع عليه خلعة حسنة .

وجاء دعبل إلى الحسن بن وهيب فى حاجة بعد وفاة أبى تمام ، فقال له رجل فى المجلس : يا أبا على ، أنت الذى تطعن على من يقول :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ... ومحت كما محت وشائع[3] من برد

وأنجدتم من بعد إتهام داركم ... فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

فصاح دعبل : أحسن والله ! وجعل يردد : " فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد " ثم قال : رحمه الله ، لو كان ترك لى شيئا من شعره لقلت إنه أشعر الناس ! .

وقال الواثق لأحمد بن أبى دؤاد : بلغنى أنك أعطيت أبا تمام الطائى فى قصيدة مدحك بها ألف دينار ، قال : لم أفعل ذلك يا أمير المؤمنين ولكنى أعطيته خمسمائة دينار للذى قاله المعتصم :

---

(1) الجبل : اسم للبلاد المعروفة بالعراق العجمى .

(2) الأجش من الرعد، الغليظ الصوت . والغيث الهزيم : الذى لا يستمسك .

(3) نسج الثوب بالوشيع والوشائع أى بهذا القصب الملفوف عليه .

فاشـدد بهـارون الخلافـة إنـه		سـكن لوحشـتها ودار قـرار

فتسم وقال : إنه لحقيق بذلك .

وقال محمد بن موسى بن حماد : كنا عند دعبل أنا والقاسم سنة خمس وثلاثين ومائتين بعد قدومه من الشام ، فذكرنا أبا تمام فتنبه وقال: هو سروق للشعر ، ثم قال لغلامه : يانفنف ، هات تلك المخلاة ؛ فجاء بمخلاة فيها دفاتر فجعل يمرها على يده حتى أخرج منها دفترا فإذا فيه قال مكنف أبو سلمى من ولد زهير ابن أبي سلمى يرثي ذفافة العبسي :

أبعد أبي العباس يستعتب الدهر		وما بعده للدهر عتبى ولا عذر

ثم قال : سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة فأدخلها في قصيدته :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر		فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقال أبو تمام الطائي[1] : خرجت يوما إلى سر من رأى ، حين ولي الواثق . فلقيني أعرابي وقد قربت منها ، فأردت أن أسأله عن شيء من أخبار الناس بها ، فخاطبه . فإذا أفصح الناس وأفطنهم ، فقلت : ممن الرجل ؟ قال : من بني عامر ، قلت: كيف علمك بأمير المؤمنين ؟ قال : قتل أرضا عالمها ! قلت : فما تقول فيه ؟ قال : وثق بالله فكفاه : أشجى العاصية ، وقمع العادية ، وعدل في الرعية . قلت : فما تقول في أحمد بن أبي داود ؟ قال : هضبة لا ترام ، وجندلة لا تضام ، تشحذ له المدى ، وتحبل له الأشراك ، وتبغي له الغوائل ، حتى قيل كأن قد ، وثب وثبة الذئب وختل ختل الضب ، قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع الداني شره ، وقتل البعيد ضره ، له كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا ندب مخلب[2] . قلت : فما تقول في عمرو[3] بن فرج ؟ قال : ضخم لهم[4] مستعذب للذم . قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ واستعذبت خطابه . قال ذاك رجل نشر بعد ما قبر ، فعليه حياة الأحياء وخفتة الموتى . قلت : فما تقول في أبي الوزير ؟ قال : كبش الزنادقة الذي تعرف ؛ ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله سنح ورتع ، فإذا هزه أمطر فأمرع . قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكل أكلة نهم ، فذرق ذرقة بشم[5] . قلت:

---

(1) أخبار أبي تمام للصولي ص ٨٩ .

(2) الندب : جمع ندبة . وهي أثر الجرح الباقي على الجلد .

(3) عمرو بن فرج : كان من علية الكتاب . وسخط عليه المتوكل سنة ٢٣٣هـ .

(4) اللهم : الرغيب الرأي . الجواد : العظيم الكفاية .

(5) البشم : التخمة .

فما تقول في ابن إسرائيل ؟ قال : لله دره ! أى قلقل[1] هو ! غرس في منابت الكرم حتى إذا اهتز لهم حصدوه . قلت : فما تقول في إبراهيم ابن رباح ؟ قال : أوبقه[2] كرمه ، وأسلمه حسبه ، وله معروف لا يسلمه ، ورب لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول في نجاح بن سلمة . قال : لله دره ! أى طالب وتر ومدرك نار ويتلهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة جلسة تزيل نعما ، وتحل نقمة .

قلت يا أعرابى ؛ أين منزلك ؟ قال : اللهم غفرا ، إذا اشتمل الظلام فحيثما أدركني الرقاد رقدت ! قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلق وجهى بمسألتهم ، أو ما سمعت قول هذا الفتى الطائى ، الذى قد ملأ الدنيا شعره :

وما أبالي وخير القول أصدقه ... حقنت لى ماء وجهى أوحقنت دمى

قلت : فأنا الطائى قائل هذا الشعر ! فدنا مبادرا فعانقنى ، وقال : لله أبوك! ألست الذى يقول :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت ... من ماء وجهى إذا أخلقته عوض

قلت : نعم ، قال : أنت والله أشعر أهل الزمان فرجعت بالأعرابى معى إلى ابن أبى دؤاد ، وحدثته بحديثه ، فأدخله إلى الواثق ، فسأله عن خبره معى ، فأخبره به ، فأمر له بمال ، وأحسن إليه ، ووهب له أحمد بن أبى دؤاد ، فكان يقول : قد عظم الله بركتك على !

ولما قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر بخرسان وامتدحه بقصيدته التى أولها :

أهن عوادى يوسف وصواحبه ... فعزما فقدمًا أدرك السؤل طالبه

أنكر عليه أبو العميثل وقال له : لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له : ولم لا تفهم ما يقال؟ فاستحسن منه هذا الجواب على البديهة.

وامتدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدة سينية فلما انتهى إلى قوله فيها:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له يعقوب الكندى الفيلسوف - وكان حاضرا - : ما صنعت شيئا ، شبهت ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين بصعاليك العرب ، ومن هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيرا ثم رفع رأسه وأنشد :

---

(1) القلقل : المعوان السريع التقلقل وهو التحرك .

(2) أوبقه : ذلله وأهلكه .

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

فعجبوا من فطنته وسرعة بديهته .

ونقدوا أبا تمام في قوله :

تكاد عطاياه بجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

قالوا : وما بالها يحوجها إلى الجنون ويلتمس منها العوذ والرقى ، هلا فك أسرها وقدم خلاصها ولم ينتظر بها نغمة الطالب ! ففعل مثل ما قاله أبو الطيب :

وعطاء مال لو عداه طالب أنفقته فى أن تلاقى طالبا

وقد تداول الناس هذا المعنى فقال مسلم :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته ولو لم أعرض السؤال ابتدانيا

وقال أبو العتاهية :

وانا إذا ما تركنا السؤال فلم نبغ نائله يبتدينا
وإن نحن لم نبغ معروفه فمعروفه أبدا يبتغينا

وقال أبو تمام أيضا :

فأضحت عطاياه نوازع شردا تسائل فى الآفاق عن كل سائل

ومما عيب على أبى تمام قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى وحطمت بالإنجاز ظهر الموعد

فإن حطم ظهر الموعد بالإنجاز استعارة قبيحة جدا ، والمعنى أيضا فى غاية الرداءة . فالاخلاف هو الذى يحطم ظهر الموعد لا الإنجاز ، وكان ينبغى أن يقول وحطمت بالإنجاز ظهر المال لا الموعد ، حينئذ فالموعد كان يصح ويسلم ، ويتلف المال .

وقوله :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره لفكر دهرا أى عبأيه أثقل

فجعل للدهر عقلا وجعله مفكرا فى أى العبأين أثقل ، وليس معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأشبه والأليق بهذا المعنى - لما قال " تحملت ما لو حمل الدهر شطره " أن يقول : لتضعضع ، أو : لا نهد أو لأمن الناس صروفه ونوازله ، ونحو هذا .

قولـه :

بيوم كطـول الدهر فـى عـرض مثله ووجـدى مـن هـذا وهـاذاك أطـول

فجعل للدهر عرضا ، وذلك محض المحال .

وقولـه :

كـانوا رداء زمـانهم فتصـعدوا فكأنمـا لـبس الـزمان الصـوفا

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى . ولم يرزق أحد السعادة فى شعره ، وتناول له الناس نقدا وشرحا واستشهادا مثل أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تنيف سنه عن الأربعين ، فكيف به لو عمر .... وأجاد أبو تمام القول فى كل فن من فنون الشعر ، وأما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر .

ويعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل و حكمتها من اليونان والفرس والهند ، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا ، ولما رأى أن قد فاته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد أن يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد فى الجناس والمطابقة والاستعارة من أنواع البديع ، فسلم له بعضها واعتل عليه بعضها ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالكلف فى صفحة البدر ، ومع هذا سلم له كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق ، وعجز عن محاكاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ، وصيغت فيه الألفاظ الرائقة ، وضمنته من الأمثال والحكم التى زادت فى ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى وغيرهم إلى حكمهم ، ومن مرثيته لمحمد بن حميد الطوسى الطائى المشهورة :

توفيـت الآمـال بعـد محمـد وأصبح فـى شغل عـن السفر السفر

ومـا كـان إلا مـال مـن قـل مالـه وذخـرا لمـن أمسـى وليس لـه ذخـر

وما كان يدرى مجتدى جود كفه إذا مـا استهلت أنـه خلـق العسـر

ألا فـى سـبيل الله مـن عطلـت لـه فجـاج سـبيل الله وانـثغر الـثغر

فـتـى كـلما فاضـت عـيون قبـيلة   دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فـنـى دهـره شـطران فـيما يـنويه   ففـى بأسـه شـطر وفـى جـوده شـطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة   تقـوم مقـام النصـر إن فاتـه النصـر
ومـا مـات حـتى مـات مضرب سيفه   مـن الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كـان فـوت المـوت سهلا فرده   إلـيه الحفـاظ المـر والخلـق الوعـر
ونفـس تعـافى العـار حـتى كأنمـا   هـو الكفر يـوم الوداع أو دونه الكفر
فأثبـت فـى مسـتنقع المـوت رجلـه   وقـال لهـا مـن تحـت أخمصـك الحشـر
غـدا غـدوة والحمـد نسـج ردائـه   فـلم ينصـرف إلا وأكفانــه الأجــر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة   ولكــن كــبرا أن يقــال بــه كــبر
فـتى سـلبته الخـيل وهـو حمـى لها   وبـزته نـار الحـرب وهـو لهـا حمـر

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء :

لا تـنكرى عطـل الكـريم مـن الغنـى   فالسـيل حـرب لـلمكان العـالى
وتـنظرى خبـب الـركاب ينصـها   محـيى القـريض إلى مميـت المـال

ومن قوله فى الحجاب :

يأيهـا الملـك الـنائى بغـرته   وجـوده لمـرجى جـوده كثـب
ليس الحجـاب بقص عنك لى أملا   إن السـماء تـرجى حـين تحتجـب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلـو صـورت نفسـك لم تـزدها   عـلى مـا فـيك مـن كـرم الطبـاع

ومـن أفخـم قصـائده قصيدته البائية التي هـنأ بهـا الخليفة المعتصم بفتح عمورية ويسخر فيها بالمنجمين ، وأولها :

السـيف أصـدق أنـباء مـن الكتـب   فـى حده الحـد بين الجـد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى   مـتونهن جـلاء الشـك والريـب

دعبل الخزاعى

المتوفى سنة ٢٤٦ هـ

هو دعبل بن على بن رزين الخزاعى الأزدى يكنى أبا على ، شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا افلت منه كبيرا أحد ، وكان شديد التعصب على النزارية [1] للقحطانية . وقال قصيدة يرد فيها على الكميت بن زيد ويناقضه فى قصيدته المذهبة التى هجا بها قبائل اليمن : ألا حييت عنا يا مدينا . وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى على صلوات الله عليه ، وقصيدته " مدارس آيات خلت من تلاوة " مشهورة .

وهى من أحسن الشعر وفاخر المقولة فى أهل البيت عليهم السلام ، وقصد بها على بن موسى الرضا بخرسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه ، وخلع عليه خلعة من ثيابه أعطاه بها أهل [2] قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها ، فقال لهم : إنما تراد لله عز وجل وهى محرمة عليكم فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون فى كفنه فأعطوه فكان من أكفانه ، وها هى ذى القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات [3]
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذى الثفنات
ديار عفاها كل جون [4] مبادر ... ولم تعف للأيام والسنوات
قفا نسأل الدار التى خف أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلوات

ودخل دعبل على على بن موسى الرضا فقال له أنشدنى شيئا مما أحدثت فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات

---

[1] النزارية : ولد نزار بن معد بن عدنان . والقحطانية : ولد قحطان وهم عرب اليمن .
[2] قم : مدينة ببلاد الفرس .
[3] العرصات جمع عرصة وهى وسط الدار .
[4] يريد بالجون السحاب الأسود المكفهر .

حتى انتهى إلى قوله :

إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم	أكفا عن الأوتار منقبضات

فبكى حتى أغمي عليه . و أومأ إليه خادم كان على رأسه أن اسكت ، فسكت ساعة ثم قال له - أعد - فأعاد حتى انتهى إلى هذا البيت أيضا فأصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى وأومأ الخادم إليه أن اسكت فسكت - فمكث ساعة أخرى ثم قال له : أعد فأعاد ، حتى انتهى إلى آخرها فقال له أحسنت ثلاث مرات ثم أمر له بعشرة ألاف درهم مما ضرب باسمه ولم تكن وقعت إلى أحد بعد وأمر له من منزله بحلي كثير أخرجه إليه الخادم فقدم العراق فباع كل درهم منها بعشرة دراهم اشتراها منه الشيعة فحصل له مائة ألف درهم فكان أول مال اعتقده .

قال دعبل بن علي : [1]حججت أنا وأخي رزين، وأخذنا كتبا إلى المطلب ابن عبدالله بن مالك ، وهو بمصر يتولاها . فصرنا من مكة إلى مصر . فصحبنا رجل يعرف بأحمد بن السراج ، فما زال يحدثنا ويؤنسنا طول طريقنا ، ويتولى خدمتنا كما يتولاها الرفقاء والاتباع ، ورأينله حسن الأدب - وكان شاعرا ولم نعلم - وكتمنا نفسه . وقد علم ما قصدنا له ، فعرضنا عليه أن نقول في المطلب قصيدة ننحله إياها ، فقال : إن شئتم ، وأرانا بذلك سرورا وتقبلا له ، فعملنا قصيدة ، وقلنا له تنشدها المطلب وإنك تنتفع بها ، فقال : نعم ، ووردنا مصر به ، فدخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبا كانت معنا ، وأنشدناه فسر بموضعنا ، ووصفنا له أحمد بن السراج هذا ، وذكرنا له أمره، فأذن له فدخل عليه ، ونحن نظن أنه سينشد القصيدة التي نحلناه إياها ، فلما مثل بين يديه عدل عنها وأنشده :

لم أت مطلبا إلا بمطلب	وهمة بلغت بي غاية الرتب
أفردته برجاء أن تشاركه	في الوسائل أو ألقاه في الكتب ى
رحلت عيسى إلى البيت الحرام على	ما كان من وصب فيها ومن نصب
ألقى بها وبوجهي كل هاجرة[4]	تكاد تقدح بين الجلد والعصب
حتى إذا ما قضت نسكي ثنيت لها	عطف[2] الزمام فأمت سيد العرب
فأممتك[5] وقد ذابت مفاصلها	من طول ما تعب لاقت ومن نقب[3]

---

[1] الأغاني ص ٤٧ ج ١٨ .

[2] عطف الشيء : جانبه .

[3] نقب البعير إذا حفي .

[4] الهاجرة : إنما تكون في القيظ نصف النهار .

[5] يقال . أممه بمعنى قصده .

فصاح مطلب : لبيك ! لبيك ! ثم قام إليه ، فأخذوه بيده وأجلسه معه وقال: يا غلام ، البدر[1] فأحضرت ، ثم قال : الخلع ، فنشرت ، ثم قال : الدواب ، فقيدت ، فأمر له من ذلك بم ملأ عينه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه ؛ وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر ، وغيظنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتياله علينا أكثر وأعظم ، فخرج بما أمر له ، وخرجنا صفرا ، ومكث دعبل أياما ثم ولاه المطلب أسوان ، ولكن دعبل كان قد هجاه غيظا منه فقال :

أمطلب أنت مستعذب ... حميا[2] الأفاعي ومستقتل

ستأتيك إما وردت العراق ... صحائف يأثرها دعبل

منمقة بين أثنائها ... مخاز تحط فلا ترحل

وضعت رجالا فما ضرهم ... وشرفت قوما فلم ينبلوا

إذا الحرب كنت أميرا لها ... فحظهم منها أن يقتلوا

شعارك في الحرب يوم الوغى ... إذا انهزموا : عجلوا عجلوا

هزائمك الغر مشهورة ... يقرطس[3] فيهن من ينضل

فأنت إذا ما التقوا آخر ... وأنت إذا انهزموا أول

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولاه ، فعزله عن أسوان ، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له ، وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ، ومنعه عن الخطبة وأنزله عن المنبر ، وأصعد مكانه ، فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب ، فقال له دعبل دعني أخطب فإذا نزلت قرأته ، قال لا ، لقد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه فقرأه ، وأنزله عن المنبر معزولا .

قال : محمد بن موسى الضبي[4] ، وكان نديما لعبد الله بن طاهر : بينما نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة يذاكرنا بالأدب وأهله ، وشعراء الجاهلية إذ بلغ إلى ذكر المحدثين حتى انتهى إلى ذكر دعبل فقال : ويحك يا ضبي ! إني أريد أن أحدثك بشيء على أن تستره طول حياتي ، فقلت له : أصلحك الله ، أنا عندك في موضع ظنك ؟ قال لا ، ولكن أطيب لنفسي أن توثق لي بالأيمان؛ لأركن إليها ويسكن قلبي عندها ، فأحدثك حينئذ ، قال قلت إن كنت عند الأمير في هذه الحال فلا حاجة به إلى إفشاء سره إليّ ، واستعفيته مرارا ولم يعفني ، فاستحييت

---

(1) البدر جمع بدرة (بفتح الباء) وهي عشرة آلاف درهم .

(2) الحميا من كل شيء شدته .

(3) قرطس أصاب القرطاس ، أي الغرض .

(4) الأغاني ص٥٦ ج١٧ .

مراجعته وقلت فلير الأمير رأيه ، فقال لى : يا ضبى ، قل : والله ، قلت : والله فأمرها على غموسا مؤكدة بالبيعة والطلاق وكل ما يحلف به مسلم ، ثم قال : أشعرت أن دعبلا مدخول النسب ؟ وأمسك ، فقلت أعز الله الأمير ، أفى هذا أخذت العهود والمواثيق ومغلظ الأيمان ! قال : إى والله ، فقلت : ولم ؟ قال : لأنى رجل لى فى نفسى حاجة ودعبل رجل قد حمل نفسه على المهالك وحمل جذعه على عنقه ، فليس يجد من يصلبه عليه، وأخاف إن بلغه أن يقول فى ما يبقى على عاره على الدهر . وقصاراى إن ظفرت به وأسلمته اليمن – وما أراها تفعل ؛ لأنه اليوم شاعرها والذاب عنها ، والمحامى لها دونها – أن أضربه مائة سوط وأثقله حديدا : وليس فى ذلك عوض على مما سار فى من الهجاء وفى عقبى من بعدى ، فقلت : ما أراه يفعل ويقدم عليك ، فقال لى : ياعاجز ، أتراه أقدم على الرشيد والأمين والمأمون وعلى أبى ولا يقدم على ! فقلت : فإذا كان الأمر كذا فقد وفق الأمير فيما أخذه على ، قال: وكان دعبل صديقا لى . فقلت : هذا شيء قد عرفته ، فمن أين ؟ قال الأمير : إنه مدخول النسب ، وهو فى البيت الرفيع من خزاعة ؟ فقال : اسمع ، إنه كان أيام ترعرع خاملا لا يؤبه له ، وكان ينام هو ومسلم بن الوليد فى إزار واحد لا يملكان غيره ومسلم أستاذه ، وهو غلامه يخدمه ، ودعبل حينئذ لا يقول شعرا يفكر فيه حتى قال :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وغنى فيه بعض المغنين وشاع ، فغنى به بين يدى الرشيد ، فطرب وسأل عن قائل الشعر فقيل له : دعبل بن على وهو غلام نشأ من خزاعة ، فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه ، فأحضر ذلك فدفعه مع خادم من خاصته وقال له : اذهب بهذا إلى خزاعة فسأل عن دعبل بن على فإذا دللت عليه فأعطه هذا وقل له: ليحضر إن شاء ، وإن لم يحب ذلك فدعه ، وأمر للمغنى بجائزة .

فسار الغلام إلى دعبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه ، فلم دخل عليه وسلم أمر بالجلوس فجلس ، واستنشده الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقا سنيا ، فكان أول من حرضه على قول الشعر ، فو الله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه ؛ وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد :

وليس حي من الأحياء نعلمه من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسار على جزر[1]
قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر[2]
أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس[3] على القبر الزكي إذا ما كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس : خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت له يداه فخذ ما شئت أو فذر

فهذه واحدة ، وأما الثانية فإن المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجه حتى دس إليه قوله :

أني يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق
إن كان إبراهيم[5] مضطلعا بها فلتصلحن من بعده لمخارق[4]

فلما قرأها المأمون ضحك وقال : قد صفحت عن كل ما هجانا به ، إذ قرن إبراهيم بمخارق في الخلافة ، وولاه عهده ، وكتب إلى أبي أن يكاتبه بالأمان ، ويحمل إليه مالا ، وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل ، فكتب إليه أبي بذلك ، وكان واثقا به ، فصار إليه ، فحمله فخلع عليه ، وأجازه وأعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل ، فلما دخل وسلم عليه تبسم في وجهه ، ثم قال : أنشدني :

مدارس آيات خلت من تلاوة ونزل وحي مقفر[6] العرصات

فجزع ؛ فقال له : لك الأمان فلا تخف ؛ وقد رويتها ولكني أحب سماعها من فيك ؛ فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة ونزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات[7]

---

(1) أيسار : جمع ياسر ، وهو الذي يلي قسمة الجزور . نوق تذبح وتقسم أقساما للمقامرة .
(2) الخزر : جيل من الترك ، بلادهم شمال فارس .
(3) طوس : مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد؛ دفن بها الرشيد على بن موسى الرضا، وأربع : أقم: والوطر: الحاجة.
(4) مخارق : مغن معروف .
(5) يريد إبراهيم بن المهدي .
(6) المقفر : الخالي من الناس والعرصات ، ساحات الدار .
(7) أسماء مواضع في مكة .

ديـــار عـــلي والحســـين وجعفـــر	وحمـزة والسـجاد ذى الثفـنات [1]
ديـار عفاهـا[2]كـل جـون مـبادر [3]	ولم تعـــف للأيـــام والســـنوات
قفـا نسـأل الـدار الـتى خـف أهـلها	مـتى عهدهـا بالصـوم والصـلوات ؟
وأيـن الألى شطت بهم غربة النوى	أفـــانين فـــى الأفـــاق مفترقـــات
ومــا الـــناس إلا حاسـد ومكـذب	ومضـــطغن ذو إحـــنة وتـــرات

ومضى فيها حتى أتى على آخرها . والمأمون يبكي حتى أخضلت لحيته بدمعه ، فو الله ما شعرنا به إلا وقد شاعت لـه أبيات يهجوا بها المأمون بعد إحسانه اليه وأنسه به ، حتى كان أول داخل وآخر خارج من عنده .

وقال عمرو بن مسعدة[4] : حضرت أبا دلف عند المأمون – وقد قال لـه المأمون : أى شىء تروى لأخى خزاعة ؟ فقال : وأى خزاعة يا أمير المؤمنين ! قال : ومن تعرف فيهم شاعرًا ؟ فقال : أما من أنفسهم ، فأبو الشيص ودعبل وابن أبى الشيص ، وداود ابن أبى رزين ، وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبدالله ، فقال : ومن عسى فى هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل ! هات ؛ أى شىء عندك فيه ؟ فقال أى شىء أقول فى رجل لم يترك أهل بيته حتى هجاهم ، فقرن إحسانهم بالإساءة ، وبذلهم بالمنع ، وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال: حين يقول فى المطلب بن عبد الله ابن مالك ، وهو أصدق الناس لـه ، وأقربهم منه ، وقد وفد إليه مصر ، فأعطاه الجزيل وولاه ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اضرب نـدى طلحة الطلحات متئدا	بلـؤم مطلـب فيـنا وكـن حكمـا
تخـرج خـزاعة مـن لـؤم ومـن كـرم	فـلا تحـس لهـا لؤمـا ولا كـرما

فقال المأمون : قاتله الله ، ما أغوصه وألطفه وأدهاه ، وجعل يضحك ثم دخل عبد الله بن طاهر ، فقال لـه : أى شىء تحفظ ويا عبد الله لدعبل ؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين ، قال : هاتها ، ويحك ، فأنشده :

---

[1] الثفنة : الركبة ومجتمع الساق والفخذ ، والسجاد ذو الثفنات هو على بن الحسين لأن طول السجود أثر فى ثفناته .

[2] عفاها :محاها .

[3] الجون المبادر : السحاب الماطر .

[4] أغانى ص٤٤ج١٨ .

سقيا ورعيا لأيام الصبابات ... أيام أرفل في أثواب لذاتي
أيام غصني رطيب من ليانته ... أصبر على غير جارتي وكناتي[1]
دع عنك ذكر زمان فات مطلبه ... واقذف برحلك عن متن الجهالات
وأقصد بكل مديح أنت قائله ... نحو الهداة بني بيت الكرامات

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال ، ونال ببعيد ذكرهم مالا يناله في وصف غيرهم ، ثم قال : لقد أحسن في وصف سفر سافره ، فطال ذلك السفر عليه فقال فيه :

ألم يأن[5] للسفر الذين تحملوا ... إلى وطن قبل الممات رجوع!
فقلت - ولم أملك سوابق عبرة ... نطقن بما ضمت عليه ضلوع[2]
تبين ، فكم دار تفرق شملها ... وشمل[3] شتيت عاد وهو جميع
كذاك الليالي صرفهن[6] كما ترى ... لكل أناس جدبة وربيع[4]

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى وهجيراى ومسليتي حتى أعود .

قال أبو خالد الخزاعي لدعبل : ويحك ، قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعا ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا صرفت هذا الشر عن نفسك ، فقال : ويحك ! إني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيدا إذا لم يخف شره ، ولم يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فإذا رآك أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ، إن الهجاء المقذع[7] آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع[8] ، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

---

(1) الكنة : امرأة الأبن والأخ .
(2) العبرة : الدمعة ، وما ضمت عليه الضلوع : الحزن والشوق إلى الوطن والأهل .
(3) الشمل : ما اجتمع من الأمر أو تفرق منه والشتيت المنفرق ، والجميع : المجتمع .
(4) جدبة وربيع : حالتا خير وشر .
(5) يأن : يقرب ويحضر ، والسفر : المسافرون .
(6) صرف الليالي : أحداثها .
(7) المقذع من أقذعه : رماه بالفحش وسوء القول وشتمه .
(8) المضرع : المذل .

قال دعبل : قال لي أبي رزين ما قلت من الشعر قط إلا هذين البيتن :

خليلي ماذا أرتجي من غد امرىء — طوى الكشح عني اليوم وهو مكين

وإن امرأ قد ضن منه بمنطق — يسد به فقر امرىء لضنين

وبيتين آخرين وهما :

أقول لما رأيت الموت يطلبني — ياليتني درهم في كيس مياح[1]

فياله درهما طالت صيانته — لا هالك ضيعة يوما ولا ضاح[2]

وكان سبب خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر[3] ويصحب الشطار فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة فجلسا على طريق رجل من الصيارفة ، وكان يروح كل ليلة بكسبه إلى منزله ، فلما طلع مقبلا إليهما وثبا إليه فجرحاه وأخذا ما في كمه فإذا هي ثلاث رمانات في خرقة ، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه ، وجد أولياء الرجل في طلبهما ، وجد السلطان في ذلك ، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن يهرب من الكو فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

وكان دعبل جالسا بالبصرة وعلى رأسه غلامه نفنف فمر به أعرابي يرفل في ثياب خز ، فقال لغلامه : ادع لي هذا الأعرابي ، فأومأ الغلام فجاءه ، فقال له دعبل: ممن الرجل ؟ قال : من بني كلاب ، قال : من أي ولد كلاب أنت ؟ قال : من ولد أبي بكر ، فقال : أتعرف القائل :

ونبئت كلبا من كلاب يسبني — ومحض كلاب يقطع الصلوات

فإن أنا لم أعلم كلابا بأنها — كلاب وأني باسل النقمات

فكان إذًا من قيس عيلان والدي — وكانت إذًا أمي من الحبطات[4]

وهذا الشعر لدعبل يقوله في عمرو بن عاصم الكلابي ، فقال الأعرابي : من أنت ؟ فكره أن يقول له من خزاعة فيهجوهم ، فقال : أنا أنتمي إلى القوم الذين يقول فيهم الشاعر :

---

(1) المياح : الذي يميح الماء أي يستقيه .

(2) ضاح : ظاهر .

(3) يتشطر : يعيش عيشة الشطار ، الشاطر : من أعيا أهله خبثا .

(4) الحبطات : قبيلة من بني تميم ، وقد تكسر باؤها .

أناس على الخير منهم وجعفر ... وحمزة والسجاد ذو الثفنات[1]

إذا فخروا يوما أتوا بمحمد ... وجبريل والفرقان والسورات

فوثب الأعرابى وهو يقول : مالى إلى محمد وجبريل والفرقان والسورات مرتقى ، ومن قول دعبل وفيه غناء :

أين الشباب وأية سلكا ... لا أين يطلب ضل بل هلكا

لا تعجبى يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى

ياليت شعرى كيف يومكما ... يا صاحبى إذا دمى سفكا

لا تأخذا بظلامتى أحدا ... قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

أخذ البيت الثانى من قول مسلم بن الوليد :

مستعبر يبكى على دمنة ... ورأسه يضحك فيه المشيب

فجاء به أجود من قول مسلم ، فصار أحق به منه ، وقال الأصمعى : سرقه من قول الحسين بن مطير الأسدى :

أين أهل القباب بالدهناء[3] ... أين جيراننا على الأحساء

فارقونا والأرض ملبسة نو ... ر الأقاحى[2] تحاك بالأنواء

كل يوم بأقحوان جديد ... تضحك الأرض من بكاء السماء

وقال البحترى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم وكان يتعصب له .

وقال أبو تمام مازال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرا بأستاذيته حتى ورد عليه بجرجان ، فجفاه مسلم وكان فيه بخل ، فهجره دعبل وكتب إليه :

أبا مخلد كنا عقيدى مودة ... هوانا وقلبانا جميعا معا معا

أحوطك بالغيب الذى أنت حائطى ... وأجزع إشفاقا من أن تتوجعا

فصيرتنى بعد انتكائك متهما ... لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا

غششت الهوى حتى تداعت أصوله ... بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا

---

(1) الثفنات جمع ثفنة وهى من الإنسان الركب ، وكان بها آثار من كثرة سجوده .

(2) الأقاحى : جمع الأقحوان وهو نبات له زهر أبيض فى وسطه كتله صغيرة صفراء وأوراق زهرة مفلجة صغيرة ، يشبهون به الأسنان .

(3) الدهناء : واد فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة ، والأحساء جمع حسى بكسر فسكون وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة أمسكته وهو علم لمواضع شتى ببلاد العرب .

وأنزلت من بين الجوانح والحشى ... ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تلحيني ليس لي فيك مطمع ... تحرقت حتى لم أجد لك مرقعا
فهبك يميني استأكلت فقطعتها ... وجشمت قلبي صبره فتشجعا

ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك .

وحدث دعبل الشاعر[1] أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس في مجلس ،فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم وما بعده ، فليات كل واحد منكم بأحسن ما قال فلينشده ، فأنشده أبو الشيص :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللوم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا ... ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي من حظي منهم

فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه ، ثم أنشد مسلم أبياتا من شعره الذي يقول فيه :

فأقسمت أنسى الداعيات إلى الصبا ... وقد فاجأتها العين والستر واقع
فغطت بأيديها ثمار نحورها ... كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع[2]

قال دعبل : فقال له أبو نواس : هات أبا علي ، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة ، فأنشدته :

أين الشباب ؟ واية[3] سلكا ؟ ... أم أين يطلب ؟ ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعري كيف صبركما ... يا صاحبي إذا دمي سفكا ؟
لا تطلبا بظلامتي أحدا ... قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ثم سألناه أن ينشد ، فأنشده :

لا تبك هندا ولا تطرب إلى دعد ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحدرت في كف شاربها ... أخذت بحمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة ... في كف جارية ممشوقة القد

---

(1) العقد ص٤ج٢ ، مهضب الأغاني ص٢٢٤ج٧ ، ديوان مسلم ص٢٠٩ طبعة أوربا .
(2) هي الغل تجمع اليدين إلى العتق .
(3) أية : أية سبيل .

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من بينهم وحدي

فقاموا كلهم : فسجدوا ! فقال : أفعلتموها لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا !

يزيد المهلبي

شاعر عباسي بليغ ، كان أخص الناس بالمنتصر ، وكان يجالسه قبل مجالسة المتوكل ، فدخل المتوكل يوما على المنتصر على غفلة فسمع كلامه فاستحسنه ، فأخذه إليه فجعله في جلسائه ، وكان المنتصر يريد أن يلازمه كما كان فلم يقدر على ذلك لملازمته أباه ، فعتب عليه لتأخره عنه على ثقة منه بمودته وأنس به، فلما أفضت إليه الخلافة استأذن عليه ، فحجبه وأمر بأن يعتقل في الدار ، فحبس أكثر يومه ، ثم أذن له فدخل وسلم وقبل الأرض بين يده وأمره بالجلوس ثم استأذنه في الإنشاد فأذن ، فأنشده :

ألا يا قوم قد برح الخفاء وبان الصبر مني والعزاء
تعجب صاحبي لضياع مثلي وليس لداء محروم دواء
جفاني سيد قد كان برا ولم أذنب فما هذا الجفاء
حللت بداره وعلمت أني بدار لا يخيب بها الرجاء
فلما شاب رأسي في ذراه[1] حجبت بعقب ما بعد الرخاء
فإن تنأى ستور الأذن عنا فما نأت المحبة والثناء
وإن يك كادني ظلما عدو فعند البحث ينكشف الغطاء
ألم ترى أن بالأفاق منا جماجم حشو أقبرها الوفاء
وقد وصف الزمان لنا زياد[2] وقال مقالة فيها شفاء
ألا يا رب مغموم سيحظى بدولتنا ومسرور يساء
أمنتصر الخلائف جدت فينا كما جادت على الأرض السماء
وسعت الناس عدلا فاستقاموا بأحكام عليهن الضياء
وليس يفوتنا ما عشت خيرا كفانا أن يطول لك البقاء

وكان المهلبي شاعرا أريبًا متفننا وكان من أحسن ندماء الملوك والخلفاء ، نادم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز ، وكان ذا حظوة لديهم ، وتهاجي هو

---

[1] ذراه : ظله وكنفه .

[2] يريد قول زياد بن أبي سفيان في خطبته بالكوفة : رب مسرور بقدومنا سيبتئس ، ومبتئس بقدومنا سيسر .

وعبد الصمد بن المعذل وكان المهلبي السمر حلو الحديث صاحب أخبار غزير الرواية تاريخ النادرة ، وكان له مجلس يسر من رأى يحض فاضل الأدباء والشعراء والكتاب ، وتوفي عام ٢٥٦هـ .

ابن أبي عيينة

هو ابن أبي عيينة بن محمد بن أبي عيينة ن المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، شاعر مطبوع ظريف غزل هجاء ، أنفذ أكثر شعره في هجاء ابن عمه خالد ، وكان من شعراء الدولة العباسية من ساكني البصرة ، وأبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذا من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة ، وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويقل التكلف ، وكان يتعشق فاطمة بنت عمر ويسر عشقها ويلقبها دنيا ، كتمانا لأمرها ، وكانت امرأة جليلة سرية من النساء ، وكان أبوها من أشد الفرسان وشجعانهم ، وقال في فاطمة هذه :

عيشها حلو وعيشك مر ... ليس مسرور كمن لا يسر

كمديم الحب تسخن فيه ... عينه أكثر مما تقر

قلت للائم فيها اله عنها ... لا يقع بيني وبينك أمر

أتراني مقصرا عن هواها؟ ... كل مملوك إذا لي حر

ومن قوله فيها:

ألم تنه قلبك أن يعشقا ... ومالك العشق لولا الشقا

أمن بعد شربك كأس النهى ... وشمك ريحان أهل التقى

عشقت فأصبحت في العالمـ ... ـين أشهر من فرس أبلقا

أدنياي من غمر بحر الهوى ... خذي بيدي قبل أن أغرقا

ومن مختار ما قاله في فاطمة :

قل لدنيا بالله لا تقطعينا ... واذكرينا في بعض ما تذكرينا

لا تخوني بالغيب عهد صديق ... لم تخافيه ساعة أن يخونا

واذكري عيشنا وإذ نقض الريـ ... ـح علينا الخيري[1] والياسمينا

حفظ الله إخوتي حيث كانوا ... من بلاد سارين أم مدلجينا

فتية نازحون عن كل عيب ... وهم في المكارم الأولونا

وهم الأكثرون يعلم ذاك النـ ... ـاس والأطيبون للأطيبينا

---

(١) الخيري : هو المنثور الأصفر .

أزعجتني الأقدار عنهم وقد كنـ ـت بقربى منهم شحيحا ضنينا
وتبدلت خالدا لعنة الله عليه ولعنة اللاعنينا
رجل يقهر اليتيم ولا يؤ تى زكاة وينهر المسكينا
ويصون الثياب والعرض بال ويرائى ويمنع الماعونا[1]
نزع الله منه صالح ما أعـ ـطاه آمين عاجلا آمينا
فلعمر المبادرين إلى مكة وفدا غادين أو رائحينا
إن أضياف خالد وبنيه ليجوعون فوق ما يشبعونا
وتراهم من غير نسك[2] يصومون ومن غير علة يحتمونا
يابنى خالد دعوه وفروا كم على الجوع ويحكم تصبرونا

وقال الرشيد للفضل بن الربيع : من أهجى المحدثين عندك يافضل في عصرنا هذا ؟ قال الذى يقول في ابن عمه :

لو كما ينقص يزدا د إذا نال السماء
خالد لولا أبوه كان والكلب سواء
أنا ما عشت عليه أسوأ الناس ثناء
أن من كان مسينا لحقيق أن يساء

ووفد إلى طاهر بن الحسين يسأله أن يعزل أمير البصرة وكان من قبله فعزله وأجزل صلته ، فقال :

يا ذا اليمينين قد أوقرتنى مننا تترى[3] هى الغاية القصوى من المنن
ولست أسطيع من شكر أجيء به إلا استطاعة ذى روح وذى بدن
لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة أوفى من الشكر عند الله في الثمن
أخلصتها لك من قلبى مهذبة حذوا على مثل ما أوليت من منن

وكان أمير البصرة إسماعيل بن سليمان قد أساء مجاورةابن أبى عيينة حتى تباعد ما بينهما وقبح ، وأظهر إسماعيل تنقصه وعتبه ، فخرج يشكوه إلى طاهر ، فلما دخل عليه سأله عن حوائجه وأدناه وأمره برفعها ، فأنشده :

---

(1) الماعون : المعروف أو كل ما انتفع به .
(2) النسك : العبادة .
(3) تترى : متتابعة .

إنـــي مـــن الله فـــي مـــراح غـــنـي ومنــــتدى واســـع وفـــي نعـــم
زارتـــك بـــي همـــة مـــنازعة إلى العـــلا مـــن كـــرائم الهمـــم
وإنــــني للجمــــيل محــــتمل في القدر من منصبى ومن شيمى
وقـــد تعلقـــت مـــنك بـــالذمم الـــ كـبرى الـتى لا تخيـب فـى الذمم
فـــإن أنـــل بغيـــتى فأنـــت لهـــا فـى الحـق حـق الـرجاء والـرحم
وإن يعـــق عـــائق فلســـت عـــلى جمـــيل رأى عـــندى بمـــتهم
فـــى قـــدر الله مـــا أحملـــه تعويـق أمـرى فـى اللـوح والقـلم
لم يضـق الصـبر والفجـاج عـلى حـــر كـــريم بالصـــبر معتصـــم

وكـان ابـن أبـى عيينة قد قصد قبيصة بن روح بن حاتم المهلبى واستماحة فلم يجد عنده ما قدره فيه . فانصرف مغاضبا ، فوجه إليه داود بن مزيد بن حاتم ، فترضاه وبلغ ما أحبه ورضيه من بره ومعنوته ، فقال بمدحه ويهجو قبيصة :

أقبيص لسـت وإن جهدت بمـدرك سـعى ابـن عمـك ذى العـلا داود
شـــتان بيـــنك يـــا قبـــيص وبيـــنه إن المذمـــم لـــيس كـــالمحمود
أخـــــتار داود بـــــناء محـــــامد واخـــترت أكـــل شـــبارق وثـــريد[1]
قـــد كـــان مجـــد أبـــيك لـــو أحييـــته روح أى خلـــف كمجـــد يـــزيد
لكـــن جـــرى داود جـــرى مـــبرز[2] فحوى المدى وجريت جرى بليد
داود محمـــــود وأنـــــت مذمـــــم عجـــبا لـــذاك وأنـــتما مـــن عـــود

وولى خالد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب جرجان[3] فأمر ابن أبى عيينة أن يصحبه ويخرج معه ووعده الإحسان والولاية وأوسع له المواعيد وكان ابن أبى عيينة جنديا فجرد اسمه فى جريدته وأخرج رزقه معه . فلما حصل بجرجان أعطاه رزقه لشهر واحد واقتصر على ذلك وتشاغل عنه وجفاه ، فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه وبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهله ووجوه رعيته ، فلم يقدر على معاقبته لموضع أبيه وسنه ومحله فى أهله ، فدعا به وقال : إنه قد بلغنى أنك تريد أن تهرب فأما إن أقمت لى كفيلا برزقك أوردته ، فأتاه بكفيل ، فأعنته[4] ولم يقبله ولم يزل يردده حتى ضجر ، فجاءه بما قبض من الرزق ، فأخذه . ولج أبو عيينة فى هجائه وأكثر فيه حتى فضحه فقال فيه :

---

[1] الشبارق : ما اقتطع من اللحم صغيرا وطبخ .

[2] المبز : السابق .

[3] جرجان : مدينة عظيمة فى الشمال من بلاد الفرس .

[4] أعنته : أوقعه فى العنت وهو المشقة .

دنـيا دعوتـك مسـرعا فأجيـبي | وبما اصطفيتك في الهوى فاثيبي
دومي أدم لك بالصفاه على النوى | إنـي بعهـدك واثـق فـثقي بـي
ومن الدليل على اشتياقي عبرتي | ومشيب رأسي قبل حين مشيب
أبكي لإليك إذا الحمامة طربت[1] | يـا حسـن ذاك إلى مـن تطريـب
تـبكي عـلى فـنن الغصـون حزيـنة | حـزن الحبيـبة مـن فـراق حبيـب
وأنـا الغريـب فـلا ألام عـلى الـبكا | إن الـبكا حسـن بكـل غريـب
أفـلا يـنادي للقـتول بـرحلة | تشفي جـوى مـن أنفـس وقلـوب
مالي اصطفيت على التعسف خالدا | والله مـا أنـا بعدهـا بأريـب
تـبا لصـحبة خـالد مـن صـحبة | ولخـالد بـن يـزيد مـن مصحـوب
يـا خـالد بـن قبيصـة هيجـت بـه | حـرب فدونـك فاصـطبر لحـروبي

البحـــترى

هو الوليد بن عبيد الله بن يحيى البحترى الطائى من بحتر بن عتود ثم من طيء ، ويكنى أبا عبادة ، وهو كما يقول أبو الفرج : شاعر فاضل حسن المذهب نقي الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ؛ وله تصرف حسن فاضل نقي في ضروب الشعر سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزرة ، وجيده منه قليل ، وكان ابنه أو الغوث يزعم أن السبب في قلة بضاعته في هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له: اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل ، فأمره بإحراقه ثم قال له : يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي وكافأت به قبيحا فعل بي ، وقد انقضى أربي في ذلك ، وإن بقي روى ، وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك ومعاشك لا فائدة لك ولا لي منه ، قال : فعلمت أنه قد نصحني وأشفق علي فأحرقته، والذى وجدناه وبقي في أيدى الناس من هجائه فأكثره ساقط لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه وتنبيء بركاكنها وغثاثة ألفاظها عن قلة حظه في الهجاء ، وكان البحترى يتشبه بأبي تمام في شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه في البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ، ويراه رائدا وإماما ويقدمه على نفسه ، ويقول في الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيد أبي تمام خير من جيده ووسطه خير من وسط أبي تمام ورديئة ؛ وكذا حكم هو على نفسه .

---

[1] طرب صوته : مده ورجعه وحسنه .

وحدث البحترى قال : قال أبو تمام : بلغنى أن بنى حميد أعطوك مالا جليلا فيما مدحتهم به فأنشدنى ، فأنشده بعض ما قلته فيهم ، فقال لى : كم أعطوك ؟ فقلت : كذا وكذا ، فقال : ظلموك ، والله ما وفوك حقك ، فلم أستكثر ما دفعوه إليك، والله لبيت منها خير مما أخذت ، ثم قال : لعمرى لقد استكثرت واستكثر لك لما ومات الناس وذهب الكرام وغاضت المكارم ، فكسدت سوق الأدب ، أنت والله يا بنى أمير الشعراء غدا بعدى ! فقمت فقبلت رأسه ويديه ورجليه وقلت له : والله لهذا القول أسر لقلبى وأقوى لنفسى مما وصل إلى من القوم .

وكان البحترى من أبغض الناس إنشادًا ، يتشادق ويتزاور فى مشيه: مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز برأسه مرة وبمنكبية أخرى ، ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله ! وقال الوليد بن عبيد الله البحترى : كنت فى حداثتى أروم الشعر وأرجع فيه إلى طبعى ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه حتى قصدت أبا تمام ، انقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه . فقال له : تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، وأحسن الأوقات لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر ، لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . فإن أردت النسيب فأجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مديح سيد ذى أياد ، فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه وأبن معالمه وشرف مقامه ونضد المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين: وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلفك من شعر الماضين . فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

وقال له أبو تمام يوما وقد سمع شعره وأعجب به :

نعيت والله إلى نفسى ، فقال : أعيذك بالله من هذا القول ، فقال : إن عمرى لن يطول وقد نشا فى طيء مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شبة وهو من رهطه يتكلم فقال : يا بنى ، لقد نعى إلى نفسى إحسانك فى كلامك ، لأنا من أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله ، فقال : بل يبقيك الله ويجعلنى فداءك ، ومات أبو تمام بعد سنة .

وقال عبد الله بن حسين بن سعد وقد أنشد البحترى شعرا لنفسه ولقد كان أبو تمام قال فى مثله - أنت والله أشعر من أبى تسام فى هذا الشعر ، فقال : كلا والله، إن أبا تمام للرئيس والأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد : لله درك يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك ! وقيل للبحترى : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام ، فقال : والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له آخذ منه لائذ به ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه ..وقال البحترى : كان أول أمرى فى الشعر ونباهتى أن صرت إلى أبى تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعرى ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل على وترك سائر من حضر ، فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف بالله حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة[1] النعمان وشهد لى بالحذق فى الشعر وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم ، فصرت إليهم ، فأكرمونى بكتابه ووظفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكان أول ما أصبته ، وكانت نسخة كتاب أبى تمام : " يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عبادة الطائى وهو على بذاذته[2] شاعر فأكرموه " .

قال البحترى : أول ما رأيت أبا تمام أنى دخلت على أبى السعيد محمد ابن يوسف وقد مدحته بقصيدتى :

أأفاق صب من هوى فأفيقا ... أم خان عهدا أم أطاع شفيقا

فسر بها أبو سعيد وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل على وقال : يا فتى ، أما تستحى منى ؟ هذا شعر لى تنتحله وتنشده بحضرتى ، فقال له أبو سعيد : أحقا تقول ؟ قال : نعم ، وإنما علقه منى فسبقنى به إليك وزاد فيه ، ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى وبقيت متحيرا ، فأقبل على أبو سعيد فقال: يا فتى ،قد كان فى قرابتك وودك لنا ما يغنيك عن هذا، فجعلت أحلف له بكل محرجة الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئا ، وأطرق أبو سعيد وقطع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض ، فقمت منكسر البال أجر رجلى ، فخرجت ، فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردونى ، فاقبل على الرجل فقال : الشعر لك يا بنى ، والله ما قلته ولا سمعته

---

[1] معرة : مدينة بين حلب وحماة ، كان منها أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرى .

[2] البذاذة : سوء الحال .

إلا منك ، ولكنني ظننت أنك تهاونت موضعى فأقدمت على الإنشاد بحضرتى من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتى وتكاثرتى حتى عرفنى الأمير نسبك وموضعك ، ولو وددت ألا تلد أبدا طائية إلا مثلك ، وجعل أبو سعيد يضحك ، ودعانى أبو تمام وضمنى إليه وعانقنى وأقبل يقرظنى ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به . ثم حظى البحترى بأبى سعيد وكان مداحا له طول أيامه ولابنه بعده ورثاهما بعد مقتلهما فأجاد ، ومراثيه فيهما أجود من مدائحه : وروى أنه قيل له فى ذلك ، فقال : من تمام الوفاء أن تفضل المراثى المدائح ، لا كما قال الآخر ، وقد سئل عن ضعف مراثيه ، فقال : كنا نعمل للرجاء ونحن اليوم نعمل للوفاء وبينهما بعد ، وكان البحترى من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة وأبخلهم على كل شيء ، وكان له أخ وغلام معه فى داره ، فكان يقتلهما جوعا فإذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان ، فيرمى إليهما بثمن أقواتهما مضيقا مقترا ويقول : كلا أجاع الله أكبادكما ، وأطال إجهادكما .

وقد توارد البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة للبحترى دالية أولها :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد	أما لكم من هجر أحبابكم بد

ومقطوعة للشريف الرضى أولها :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى	أتيح له بالليل عارى الأشاجع

وقد أجاد البحترى فى وصف حاله مع الذئب ، وأجاد الشريف فى وصف الذئب نفسه :

وقصيدة البحترى طويلة ومنها :

وأطلس ملء العين يحمل زوره	وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره	ومتن كمتن القوس أعوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريره	فما فيه إلا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا فى أسرتها الردى	كقضقضة المقرور أرعده البرد
سما لى وبى من شدة الجوع ما به	ببيداء لم تعرف لها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه	بصاحبه والجد يتعسه الجد
عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته	فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها	على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد إلا جرأة وصرامة	وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها	بحيث يكون اللب والرعب والحقد

فخر وقد أو ردته منهل الردى ... على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته ... عليه وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا من ثم تركته ... وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

أما قصيدة الشريف الرضى فى وصف الذنب ، فهى :

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى ... أتيح له بالليل عارى الأشاجع
أغيبر مقطوع من الليل ثوبه ... أنيس بأطراف البلاد البلاقع
إذا جن ليل طارد النوم طرفه ... ونص هدى ألحاظه بالمطامع
يراوح بين الناظرين إذا التقت ... على النوم أطباق العيون الهوامج
له خطفة حذاء من كل ثلة ... كنشطة أقنى ينفض الطل واقع
ألم وقد كاد الظالم تقضيا ... يشرد فراط النجوم الطوالع
طوى نفسه وانساب فى شملة الدجى ... وكل امرىء ينقاد طوع المطامع
إذا فات شىء سمعه دل أنفه ... وإن فات عينيه رأى بالمسامع
تظالع حتى حك الأرض زوره ... وراغ وقد روعته غير ظالع
إذا غالبت إحدى الفرائس خطمه ... تداركها مستنجدًا بالأقارع
جرىء يسوم النفس كل عظيمة ... ويمضى إذا لم يمض من لم يدافع
إذا حافظ الاعى على الضان غره ... خفى السرى لا يتقى بالطلائع
يخادعه مستهزئا بلحاظه ... خداع ابن ظلماء كثير الوقائع
ولما عوى والرمل بينى وبينه ... تيقن صحبى أنه غير راجع
تأوب والظلماء تضرب وجهه ... إلينا بأذيال الرياح الزعازع
له الويل من مستطعم عاد طعمة ... لقوم عجال بالقسى النوازع

ويكاد يكون من المجمع عليه أنه لم يأت بعد البحترى من هو أطبع منه على الشعر ولا أبداع للخيال الشعرى . قال له يوما أبو تمام أنت والله يابنى أمير الشعراء غدا بعدى و سئل هو عن أبى تمام فقال : جيده خير من جيدى وردينى خير من رديئه ، وسئل المعرى عن أبى تمام وأبى الطيب فقال المتنبى وأبو تمام حكيمان ، وأنما الشاعر البحترى ، وقد نشأ البحترى فى بلاد أشبه بالبدو منها بالحضر ينزلها كثيرا من بطون طى وقضاعة وتغلب و ولم تكن ألسنتهم فسدت بعد فتخرج عليهم مطبوعا على فصاحتهم وسهولة أساليبهم ، ولم يؤثر عنه أنه جلس إلى درس العلماء ولازم المتفلسفة ، فابتعد بذلك عن مذاهب الحاضرين وتعمقهم وفلسفتهم فكان شعره كله حسن الديباجة، صقيل اللفظ ، سلس الأسلوب، ينحدر إلى الأسماع انحدار السيل إلى القاع. وقلت فيه المعانى المعقدة العويصة التى تنشأ عن تراجم العلوم العقلية فى ذهن المعبر عنها، كما كان يقع من أبى تمام والمتنبى والمعرى، فسهل فهم شعره على جميع طبقات الناس من الخاصة والعامة. وتغنى به الغلمان والجوارى والقيان.

وبذلك الشعر كان البحترى محبوبا للناس قليل الخصوم منهم عامة حياته ، واتفق أن خالف طريقته السمحة فى قصيدة يقول فيها يصف الدنيا :

أخى متى خاصمت نفسك فاحتشد ... لها ومتى حدثت نفسك فاصدق
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى التـ ... ـجمع إلا علة للتفرق
أرى العيش ظلا توشك الشمس نقله ... فكس فى ابتغاء الرزق كيسك أو مق
أرى الدهر غولا للنفوس وإنما ... يقى الله فى بعض المواطن من بقى
فلا تتبع الماضى سؤالك لم مضى ... وعرج على الباقى فسائله لم بقى
ولم أر كالدنيا حليلة صاحب ... محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيناها وهى صنعة واحد ... فتحسبها صنعى لطيف وأخرق

فأوهم بيته الأخير المناقضة فى أفعال الخالق الحكيم المنزه عن الحكمة حتى ليحسب الناظر فى أحوال الدنيا أنها من خلق اثنين أحدهما حكيم يؤثر الخير والأصلح فى صنعه والآخر أخرق يؤثر الفساد والشر ، وهذا ما يشبه عقيدة المجوس القائلين بإلهين للعالم إله خير وإله شر ، فأول حساده البيت بهذا المعنى ، فأشاعوه فى العامة من الحنابلة وكانت غالبة على بغداد ، فخاف على نفسه وقال لابنه أبى الغوث قم يا بنى حتى نطفىء هذه النائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ونعود ، فخرج ولم يعد .

وللبحترى تصرف حسن فاضل نقى فى صنوف الشعر سوى الهجاء . فإن بضاعته فيه نزرة ، وجيده فيه قليل ، وأهم ما اشتهر به البحترى من الأغراض النسيب والمدح والوصف .. ومن شعره فى الغزل قوله :

حبيبى حبيب يكتم الناس أنه ... لنا - حين تلقانا العيون - حبيب
يباعدنى فى الملتقى وفوائده ... - وإن هو أبدى لى البعاد - قريب
ويعرض عنى والهوى منه مقبل ... إذا خاف عينا أو أشار رقيب
فتنطق منا أعين حين نلتقى ... وتخرس منا ألسن وقلوب

وقال فى المدح :

دنوت تواضعا وعلوت مجدا ... فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله فى الحكمة :

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها ... بنات زمان أرصدت لبنيه
متى أرت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب الا خمول نبيه

ابـــن الـــرومى

٢٢١ - ٢٨٣ هـــ ، ٨٣٥ - ٨٩٦ م

حياته وشاعريته :

ابـن الـرومى شـاعر مجـيد ، وعـلم مـن أعـلام القـريض فـى القـرن الثالـث الهجـرى، ويعـد فى الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهى الطبقة التى كانت من أبطالها أبـو تمـام والبحترى وابـن المعتز ، وورثـت مجـد الشعر بعد طبقة أبى نواس ، وكـان لهـا مـنهجها الأدبـى الخـاص ، الـذى يقـوم عـلى العناية بالصنعة الشعرية ، وعلى توليد المعـانى وعمـق الخـيال .. ولـد أبـو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى عـام ٢٢١ هـ مـن أبويـن مختلفى الأرومـة ، فأمـه تـنحدر مـن عنصـر فارسـى ، وأبوه[1] يـنحدر مـن عنصـر رومـى كـان يحـتفظ بطبيعتـه الشـاعرية ويعتـز بـه طـول حياتـه وكان مـولى لحفيـد مـن أحفـاد الخلـيفة أبـى جعفـر المنصـور ، وولـد فى بغداد فى دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده فى طفولة الشاعر . فنشأ فى ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هـو وأسـرته عـلى مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره ، فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ فى الشعر ونظم القريض وطـارت شهرته فى سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيرا يريد أن يعيش ، وجائعـا يـريد أن يـأكل ، وظمآن يريد أن يروى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة فى عصره مادحا فحرموه العطاء ، فعاش ساخطا على الحياة والأحياء .

فـى دولـتى أنـا مغصـوب وفـى زمـنى ... عـودى ظمـــىء بـلا رى ولا بلـل

كـان شـابا جمـيلا قـوى الملكـات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئا فـى حـياته ، وكـان يسمع ويرى حياة الترف الـتى يحـياها فـى عصره كثير من الـناس، فتمـنى لنفسـه حظـا مـن النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذى ذاق ألم اليتم والشـاعر المرهف الإحسـاس فاشـتد سـخطه عـلى الـناس، وأمطـرهم وابلا مـن أهاجيه التى بغضته إلى الناس، وزادت من آلامه فى الحياة .

---

[1] له شعر رواه ابنه ابن الرومى (١٣١:١ ديوان المعانى)

كان أبو الحسن على بن العباس إذن مزيجا من الدم الفارسى والرومى يعتز بإنتمائه للروم اعتزازه بانتسابه إلى الفرس :

كيف أغضى على الدنية والفر س خؤولى والروم هم أعمامى

نزح أجداد الشاعر إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية إبان نشأتها ، فأقاموا بها مع مواليهم بنى العباس ، وكان ابن الرومى كأجداده وآبائه مولى من موالى العباسيين له بهذا الولاء اعتزاز :

مولاهم وغذى نعمتهم والروم حين تنصنى أصلى

ونشأ فى كنف أخيه محمد بن العباس ، وفى ظلال مواليه ، لم يكن محمد ابن العباس صاحب ثروة ، ولا ذا جاه ، إنما كان أديبًا يكتب لولاة بنى العباس وقوادهم ، فعاش ابن الرومى اليتيم يرفل فى عطفه وبره ونعمته .. ثم دار الزمن دورته . فإذا الطفل شاب عريض الخيال ، طويل الآمال ، لكن اليتيم قد هاض جناحه . وراض جماحه ، فاعتصم الشاب الصغير بالأمانى العذاب ، وأقبل على حلقات العلم ومجامع الأدب ، يطفىء هم غلته ، ويرضى بالإقبال عليهما همته ، ويجد فيهم قبسا من الأمل الباسم والمستقبل المرموق ، جميل السلوى والعزاء .. الدولة دولة العباسيين وأصفيائهم من الموالى ، الذين صعدوا بالعلم والأدب إلى ذروة المجد والجاه ، وهذا ابن الرومى يتسلح بالعلم والأدب ، ليدرك بهما ما أدرك أفذاذ المولى من عزة ورفعة ، وعكف الشاب الطموح على الدرس والتحصيل ، فغذى عقله وروحه بالثقافات العربية والفارسية واليونانية ، وقرأ ما ترجم من لغة الفرس واليونان ، وما ألف فى شتى العلوم والمعارف ، حتى برع فى كل فن ونبغ فى كل علم ، وبذ أترابه فى ميدان اللغة وأدبها ، كما حصل علوم الفلسفة و الفلك والكلام ، وكما كان شاعرا كان كاتبا صاحب رسائل ، ومفكرا ينفذ فكره إلى كل شيء . وعالما يشار له فى علوم اللغة والأدب بالبنان .

وظل ابن الرومى ينهل من معين الثقافة العذب شابا ورجلا وكهلا ، تساعده على ذلك ذاكرة قوية وذهن خص وعبقرية نادرة ، وإحساس عميق ، وأخذت شهرة ابن الرومى الأدبية تطغى على جوانب شخصيته الأخرى ، وأصبح ابن الرومى الشاعر فى رأى المنصف إلى قمة المجد والنبوغ .. ولكن الأحداث لم تهادن الشاعر ، فرزىء وهو فى الثلاثين بوفاة أخيه ، فحزن عليه ورثاه بشعره ، ثم رزىء بوفاة أولاده واحدا بعد واحد . فجزع عليهم ورثاهم ، ثم توفيت زوجه بعدهم ، فأمضه الحزن ، وبعد ذلك ماتت أمه . فذابت نفسه حسرات ، وفاضت عينه عبرات :

رجعنا وأفردناك غير فريدة | من البر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدمي أنس المحل فطالما | عكفت ثآنست المحاريب في الظلم
نبا ناظري يا أم عن كل منظر | وسمعي عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمال مذ بنت والمنى | غوادر عندي غير وافية الذمم

وقضى ابن الرومي أيامه في بغداد، ظاهر البؤس، كثير لاألم والشكوى، يطلب الحياة فلا تلبي نداءه الحياة، ولا تذوب لشكاته نفوس أهل المروءة والأريحية، ولما نبا به حظه في بغداد هجرها، وطاف ببعض المدن ينشد فيها الأمل الضائع، بيد أنه لم يعثر فيها على أمانيه المنشودة، فعاد إلى بغداد مشوقا إليها، مشوقة إليه :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا | ولبست ثوب العمر وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيته | وعليه أغصان الشباب تميد

وقنع برزقه الضيق . وحياته الشقية . كارها الغربة والسفر :

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى | إلى وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد | وإن كنت في الإثراء أرغب راغب
لقيت من البر التباريح بعدها | لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

ومدح آل وهب وآل طاهر ينشد الثراء والجاه، ولكنه لم ينل منالا، حتى إذا وهن عظمه وناء بأحداث الزمن الجائر، أخذ يذكر الشباب في لوعة وأسى :

وعزاك عن ليل الشباب معاشر | فقالوا : نهار الشيب أهجى وأرشد
أأيام لهوى هل مواضيك عود | وهل لشباب ضل بالأمس منشد ؟

ولكن هيهات أن يعود الشباب .. وأخيرا مات الشاعر . سمه أحد أتباع القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، فسكنت النفس الشاعرة، وصمتت العبقرية الصادحة، وأوى شهيد الآمال إلى جدث أوت إليه معه العبقرية ورفت عليه العظمة وجلال الذكريات .

هذا هو ابن الرومي : يتيما حائرا، وشابا معذبا، ورجلا طامحا شقيا بطموحه وشيخا خاصمته الأيام، وحالفته الآلام، وذلك هو الشاعر : متعلما يقبل على الدرس والتحصيل، عالما متعمقا في فروع الثقافة والمعرفة، وشاعرا ذاع صيته في بغداد، وكاتبا يبذ الكتاب والأدباء .

وقد عاصر ابن الرومي المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتضد وتوفى فى عهد المعتضد عام ٢٨٣ هـ ... واشتهر ابن الرومي في عصره بالتشاؤم والطيرة ، وتروى له في طيرته قصص كثيرة ، وينطق شعره بتشاؤمه في الحياة ، وأفرط الشاعر في تشاؤمه ففتح ذلك بابا لطيرته لم يسده عليه إلا الموت ، فتطير من كل شيء ، حتى من الأسماء ، ومن ركوب الماء ، بل حتى من شربه :

وأخشى الردى منه على كل شارب　　　فكيف بأمنيه على نفس راكب

وليس بدعا من ابن الرومي هذه الطيرة ، فقد نزلت به خطوب فادحة ، أضلت صوابه ، فسكن إلى هواجس النفس ، ووساوس الشعور ..

وكان ابن الرومي حاد المزاج ، مرهف الشعور ، كثير الطيرة ..

روى علي بن إبراهيم قال : كنت بداري جالسا[1] فإذا حجارة سقطت بالقرب مني فبادرت هاربا ، وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح ، والنظر إلى كل ناحية من أين تأتينا الحجارة ؟ فرجع إلي وقال لي : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوقت[2] ، وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جرة من ماء وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة ، واتبعتها شيئا من الطعام ، ثم عادت إلي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابن الرومي ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ، ثم يصير إلى الباب ، والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب ، فتقع على جار له كان نازلا بإزائه؛ وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال : لا يفتح أحد الباب !

فعجبت لحديثها وبعثت خادم لي كان يعرفه ، فأمرته أن يجلس بإزائه - وكانت العين تميل إليه - وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدعو الجار الأحدب ، فلما حضر عندي أرسلت وراء غلامي لينهض إلى ابن الرومي ويستدعيه ، فإني لجالس ومعي الأحدب ، إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذعة الموسوس ، صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومي ، فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع

---

[1] زهر الآداب ص١٧٧ ج٢ - ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ - معجم الأدباء ص٢٩٦ ج١٣ .

[2] تشوقت : نظرت وتطاولت .

شسع[1] نعله، فدخل مذعورا ! وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حاله ، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له : يا أبا الحسن ، أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقني ما رأيت من العثرة لأني فكرت أن به عاهة ! وهي قطع أنثييه[2]، قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت : نعم ويفرط ! قال : ومن هو ؟ قلت : علي بن العباس[3] ، قال الشاعر ؟ قلت : نعم ! فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه	بتفريق بيني وبين الحبائب[4]
رجعت إلى نفسي فوطنتها على	ركوب جميل الصبر على النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها	فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه	وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطـ	ـرح تطير جار أو تفاؤل صاحب !

فبقي ابن الرومي باهتا ينظر إليه ! ولم أدر أنه قد شغل قلبه بحفظ ما أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وبرذعة معه .

فحلف ابن الرومي لا يتطير أبدا من هذا ولا من غيره ، وعجب من جودة الشعر ومعناه ، وحسن مأتاه ، قلت له : ليتنا كتبناه ؟ ! قال : اكتبه فقد حفظته وأملاه علي .

شاعريته وخصائصها :

كان للدم الرومي وأثر الوراثة ولحياة الشاعر وبؤسه ولثقافته وبيئته ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق ، كان لذلك كله أثره البعيد في شاعرية الشاعر وفنه الأدبي الذي كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة ، اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس وعمق الشعور بالمتناقضات في نفسه وفي زمنه ، فولدت في نفسه روح السخرية ، وأشاعت في فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور ، وهو فن الهجاء الذي امتاز به الشاعر وأجاده حتى حين يهجو من لم يؤذه بشيء ، كما يقول يهجو مغنيا من قصيدة طويلة:

---

[1] الشسع : أحد سيور النعل وهو الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام .

[2] يعني أنه مجبوب .

[3] هو اسم ابن الرومي .

[4] الحبائب : مفرده حبيبة .

ومسمع لا عدمت فرقته ... فأنها نعمة من النعم
مجلسه مأتم اللذاذات والقصف ... وعرس الهموم والسدم
وكأنني من طول ما أشاهده ... أشرب كأسي ممزوجة بدمي
إذا الندامى دعوة آونة ... تنادموا كأسهم على الندم

وكان لبؤسه في الحياة وفقده كثيرا من الأعزاء أثر واضح في إجادته فن الرثاء وداليته في رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها :

وبكاؤ كما يشفي وإن كان لا يجدي ... فجودا فقد أودى نظير كما عندي

وكذلك جيميته في رثاء يحيى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته في رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ [1] .. وشغف قلب ابن الرومي بالحياة . وتطلعه إلى متعها ولذاذاتها ، وحياته في مظاهر الحضارة التي كانت تغمر عصره . وأثر الوراثة في نفسه . كل هذا جعله من أعظم الوصافين في الشعر العربي . وقصيدته في وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ويقول منها :

ياخليلي تيمتني وحيد ... ففؤادي بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ... ومن الظبي مقلتان وجيد
تتجلى للناظرين إليها ... فشقي بحسنها وسعيد
تتغنى كأنها لا تغني ... من سكون الأوصال وهي تميد
مد في شأو صوتها نفس كاف ... كأنفاس عاشقيها مديد
فتراه يموت طورا ويحيا ... مستلذ بسيطة والنشيد
خلقت فتنة غناء وحسنا ... مالها فيهما جميعا نديد
هي شيء لا تسأم العين منه ... ولها كل ساعة تجديد
منظر مسمع معان من اللهو ... عتاد لما يحب عتيد

ومن وصفه كذلك :

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حواني
مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه ... وهو بادى الغنى عن الترجمان

---

[1] ذاد عن مقلتي لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام
. أمامك فانظر أي نهجيك تنهج ... طريقان شتى : مستقيم وأعوج

إلى غير ذلك من روائع قصائده في الوصف والتصوير . كما أجاد في وصف الخمر ، وفي وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ في العتاب الغاية في الجودة ، كما في قصيدته في عتاب أبي القاسم الشطرنجي . التي مطلعها :

يا أخي أين عهد ذاك اللقاء   أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات في المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته في أبي الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان   فيهن نوعان تفاح ورمان

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم   كلا لعمري ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف   كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي ، فهو يطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجوته اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن رشيق[1] .. كان بديع المعاني بعيدها ، كثير الاختراع والتوليد فيها ، والاستقصاء لها لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة في تشقيق المعاني وتفصيلها هي أخص خصائص شاعرية ابن الرومي ، ويقول ابن رشيق فيه : " إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعاني "، أما أسلوبه جمع بين الحديث والرديء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت في شعر أقل منها في شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومي يعنى بتهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديئه لكان في ذلك أجود الشعراء ، وفي الغالب أن شعراء المعاني كأبن الرومي وأبي تمام قلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومي لا يحفل باللفظ إلا بقدر أداء المعنى ، وتمتاز قصائده بطول النفس مما لا يجاريه فيه إلا ابن هانيء الأندلسي ، وقد ساعده على الإطاله أسلوبه الخاص في تناول كل معنى في معانيه بالإفاضة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه ، كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة في تأليفها ، حتى لكأنها قطعة واحدة مؤلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف ولا استطراد ، وخياله خيال يقظ . حسي في غالب شعره ، يترك الحس إلى عالم عقله أحيانا ، أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال .

---

[1] ١/٨٢ العمدة .

ولا تكاد تجد شاعرا أختلف النقاد في منزلته الأدبية مثل ابن الرومي . أهمله صاحب الأغاني إهمالا يعلله بعض بالخصومات الأدبية التي كانت بين ابن الرومي والأخفش أستاذ أبي الفرج . ويعلله آخر بأن ابن الرومي كان شعوبيا وأبا الفرج أمويا ، وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومي كانت لا تزال متأججة اللهب، لأهاجيه في رجالات الدولة ، وأعلله أن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومي في الشعر . ونهجه في نظم القريض ، ويقول القاضي الجرجاني عنه في وساطته: " وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومي . ويغلو في تقديمه . ونحن نقرأ القصيدة الوحيدة في شعره . وهي قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائده منه ، وهي واقفة تحت ظلها جارية على رسلها[1] ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ، وانتظار الفراغ منها[2]، ويقول ابن رشيق في عمدته : " وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتتانه . وقد غلب عليه الهجاء[3] " . ويقول ابن الشريف القيرواني فيه : "وابن الرومي شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع . وله في الهجاء ، ما ليس له في الإطرا . ولقد كان واسع العطن و لطيف الفطن[4] " ، ويقول المعرى عنه في رسائل الغفران : " وابن الرومي أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة[5] " ، ويقول فيه ابن خلكان : " هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبزها في أحسن صورها . ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقي فيه بقية " ، ويقول المسعودي فيه : " كان من مختلقي الشعر ؛ والمجودين في القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته " ، وقد أشاد به أدباء الشعر الحديث ، وعدوه شاعر الفن والتصوير في الشعر العربي ، ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفي أذواقهم ، تفرده ، ووحده ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعاني على طريقتهم[6] ، وقد صور ابن الرومي رأيه في شعره في قصيدة يقول فيها :

---

(1) الرسل : التؤدة .

(2) ٥٤ وساطة .

(3) ١/٢٥٥ العمدة .

(4) رسائل الانتقاد .

(5) ١٦١ - ١٦٤ رسالة الغفران .

(6) مقدمة ديوان ابن الرومي للعقاد .

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء[1] والخشب اليابس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن قصر في الشعر إنه بشر

وشعر ابن الرومي صورة لثقافته الواسعة المتعددة الألوان والعناصر . فهو طويل النفس في قصائده . بديع المعاني . كثير التحليل والتوليد والاختراع فيها . جميل التنسيق والاستقصاء . جزل الأسلوب ، متين الأداء . سلس الألفاظ . بعيد عن زلات اللسان وسقطات البيان وأخطاء اللغة ، وكذلك ترى شعره صورة صادقة لنفسه وحياته ، نرى فيه الغث والسمين . لأنه لم يكن يكر عليه بالتجويد والتهذيب ، كما كان يفعل سواه من الشعراء ، ومعانيه أكثرها مبتكر مبتدع ، وقل له أن ترى له معنى أخذه من غيره ، أو سرقة عمد إليها كما يفعل سواه من الشعراء، وكان إذا تناول معنى قديما أفاض عليه من شاعريته أثوابا من التجديد والبيان ، قال أبو تمام :

غربته العلى كثرة الأهـ ل فأضحى في الأقربين جنيبا

أخذه ابن الرومي فزاد فيه وأبدع في قوله :

غربته الخلائق الزهر في النا س وما أوحشته بالتغريب

وقد شهر ابن الرومي بالهجاء والإفذاع في السخرية ، يسخر من بخيل فيقول :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

ويقول في أصلع :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليلة

وهذه المقدرة البارعة في الهجاء والسخرية نشأت من سخطه على المجتمع والناس ، بيد أنك تلمح في هجائه العفة والشرف و النبل .

ويمتاز ابن الرومي بدقة الوصف دقة متناهية ، حتى لتلمح فيه درة الشاعر وبراعته وقوة شاعريته ، فإذا وصف جلي لك صورة ما يصف حتى لتراها أمامك في تمثال من الصور والتعابير .

---

[1] قشر الشجر .

صور فنية من شعره :

قال ابن الرومى فى امرأة ورقيبها :

ما بالها حسنت ورقيبها — أبدا قبيح ، قبح الرقباء

ما ذاك إلا أنها شمس الضحى — أبدا يكون رقيبها الحرباء

وهى صورة شعرية غنية بنفسها عن الأعجاب والشرح :

وأجود ما قيل فى الريق قوله :

يا رب ريق بات بدر الدجى — يمجه بين ثناياكا

يروى ولا ينهاك عن شربه — والماء يروى وينهاكا

فليس لهذا البيت مثل فى معناه .

وقال فى الخمر والنرجس :

ريحانهم ذهب على درر — وشرابهم درر على ذهب

فأجاد وأبدع فى إخراج هذه الصورة الساخرة .

وقال فى خبو الشمس حين غروبها :

كأن خبو الشمس ثم غروبها — وقد جعلت فى مجنح الليل تمرض

تخاوص عين بين أجفانها الكرى — يرنق[1] فيها النوم ثم تغمض

وهى صورة جيدة الشبه للشمس عند الغروب.

ومن جيد تشبيهات أبى نواس وقد نبه نديما للصبوح قوله :

فقام والليل يجلوه الصباح كما — جلا التبسم عن غر الثنيات

ولابن الرومى التقدم عليه بقوله فى الراح . وقد أخذ أصل المعنى ونقله إلى وصفها فقال :

يفتر ذاك السواد عن يقق — من ثغرها كاللآلىء النسق

كأنها والمزاج يضحكها — ليل تعرى دجاه عن فلق

وقال أبو نواس :

تبكى فتذرى الدر من نرجس — وتلطم الورد بعناب

---

(1) رنقة : كدرة .

أخذه سعيد بن حميد فقال :

وكأنما أثر الدموع بخدها   طل تساقط فوق ورد يانع

وقال البحترى فى هذا المعنى :

شقائق يحملن الندى فكأنه   دموع التصابى فى خدود الخرائد

وقال ابن الرومى فى دموع المحبين وقت الوداع :

كأن تلك الدموع قطر ندى   تقطر من نرجس على ورد

فأجاد وأبدع باختصار اللفظ وحسن السبك :

ومن الأبيات الجامعة فى المدح قول ابن الرومى :

هو الغرة البيضاء من آل هاشم   وهم بعده التحجيل والناس أدهم

ومن أجود ما قيل فى الثريا قول بعض الشعراء :

ولاحت لساريها الثريا كأنها   على الأفق الغربى قرط مسلسل

أخذه ابن الرومى فقال :

طيب طعمه إذا ذقت فاه   والثريا فى جانب الغرب قرط

ومن أحسن ما قيل فى شروق الكأس قول ابن الرومى ، وأتى بشىء لم يسبق إليه ، وهو تشبيه الحباب بفرق اللؤلؤ و فقال :

لها صريح كأنه ذهب   ورغوة كاللآلىء الفلق[1]

وقال ابن الرومى :

وقبلت أفواها عذابا كأنها   ينابيع خمر خضبت لؤلؤ البحر

قال أبو هلال فى ديوان المعانى[2] : البحر زيادة لا يحتاج إليها لأن اللؤلؤ لا يكون إلا فى البحر ، فلو كان فى غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة ... وأخيرا فلا بن الرومى القدرة الفائقة على تهجين ما أجمع الناس على استحسانه . كما فعل فى الورد من تهجينه وتفضيل النرجس عليه فى صورة جميلة مؤثرة[3].

---

(1) الفلق : الصبح .

(2) ١/٢٣٩ .

(3) وذلك فى قطعة شعرية طويلة أولها :

حجلت خدود الورد من تفضيله   خجلا توردها عليه شاهد

وقد حللها عبد القاهر وبين منزلتها فى البيان وفى جودة التخيل وحسن التعليل . حتى قال فيها : إنه جاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله الا له (٢٤٨ أسرار) .

وقال امرؤ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى أو مساويك إسحل

وحول هذا المعنى يقول أبو نواس :

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مدارى

ويقول ابن الرومى :

أشار بقضبان من الدر رقعت يواقيت حمرا ، فاستباح فؤادى

ويقول ابن المعتز :

أشرن على خوف أغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

وقال ابن الرومى :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه ، وهل بعد العناق تدان ؟

كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز :

يا رب أخوان صحبتهمو لا يملكون لسلوة قلبا

لو تستطيع قلوبهم فقدت أجسادها وتعانقت حبا

وقال أبو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضاحك وأحسن :

كأنما نصب كاسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومى فيه ، وكان أحسن منهما :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعا :

كأنه وكأن الكأس فى فمه هلال أول شهر غاب فى شفق

وهو أحسن ما وصف به كأس على فم .....

ومن أحسن ما قيل فى وصف مغن قول ابن المعتز :

ومغن ملحق كل نفس بهواها ، وهو للسكر عذر

وأجمع من ذلك قول ابن الرومي :

تتغنى كأنها لا تغنى ... من سكون الأوصال وهى تميد

ولها الدهر لائم مستزيد ... ولها الدهر سامع مستجيد

وقال ابن الرومي :

كأن نسيمها أرج الخزامي ... ولاها بعد وسمى ولى

إذا أنفاسها نسمت سحيرًا ... تنفس - كالشجى - لها الخلى

وحول هذا المعنى يقول ابن المعتز :

وما ريح قاع عازب طله الندى ... وروض من الريحان ذرت سحائبه

فجاءت سحيرا بين يوم وليلة ... كما جر فى ذيل الغلالة ساحبه

وقال ابن الرومي من قصيدة وصف مجلس الراح :

شمس من الحسن فى معصفرة ... ضاهت بلون لها معصفرها

فى وجنات تحمر من خجل ... كأن ورد البيع حمرها

يسعى إليها بكأسه رشأ ... أنثه الله وذكرها

فى كفه كالشهاب لاح على ... ظلماء ليل دجت فنورها

إن برزت للهواء غبرها ... أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز فى مجلس الراح أيضا من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه ... جن به مزهر ومزمار

وزانه من بنى العباد رشا ... بالجيد والمقلتين سحار

قد ركبت كفه مشعشعة ... إبريقها فى الكأس هدار

يلمع فيها من كل ناحية ... كوكب نوره إليك نظار

فظلت فى يوم لذة عجب ... وافى به للسعود مقدار

وقابل الشمس فيه بدر دجى ... يأخذ من نورها ويمتاز

١- ففى هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفى قطعة ابن الرومي زيادة وصف للقينة التى فى مجلس الراح .

٢- ووصف ابن الرومي الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣- شبه ابن الرومي نور الراح فى الكأس ، بالشهاب فى ظلام الليل .. أما ابن المعتز قد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس ، وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتار .

٤- ووصف ابن الرومى الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء ، ووصفها ابن المعتز بنور كوكب متوقد .

٥- وألفاظ ابن المعتز موسيقية ، وأعذب من ألفاظ ابن الرومى .

٦- وابن الرومى فى جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير ولا يعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧- وابن الرومى يفوته أحيانا ما هو أبلغ فى الوصف وأروع فى أداء الغرض ، من حيث لا يفوت ذلك ابن المعتز ، كما رأينا فى وصف ابن الرومى للساقى بالأنوثة . ووصف ابن المعتز له بالسحر .

وروى صاحب العمدة والبغدادى فى خزانة الأدب والعباسى فى معاهد التنصيص أن لائما لام ابن الرومى ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ، فقال : ألا تنشدنى شيئا من قوله ؟ الذى استعجزتنى عن مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة	قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدنى ، فانشده قوله فى الآذريون (وهو أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها	والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب	فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه ابن خليفة ،وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس ، هل لأحد قط مثل قولى فى الغمام :

وذاق صبيح للصبوح دعوته	فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم	فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا	على الجود كنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر	على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل	مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به	يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها في كفه كرة … وبين رؤيتها قوراء فالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة … في لجة الماء يلقى فيه بالحجر

نماذج من شعره:

أأيام لهوى هل مواضيك عود … وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟[1]
أقول وقد شابت شواتي، وقوست … قناتي، وأضحت كدنتي تتمدد[2]
ولذت أحاديثي الرجال، وأعرضت … سليمي وريا عن حديثي ومهدد[3]
وبدل إعجاب الغواني تعجبًا، … فهن روان يعتبرن وصدد[4]
لما تؤذن الدنيا به من صروفها … يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها، وإنها … لأفسح مما كان فيه وأرغد؟
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه … بما سوف يلقى من أذاها يهدد[5]
وللنفس أحوال تظل كأنها … تشاهد فيها كل غيب سبشهد[6]

وقال يرثي ابنه محمدًا:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدى … فجودا فقد أودى نظيركما عندى[7]
ألا قاتل الله المنايا ورميها … من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتي … فلله كيف اختار واسطة العقد[8]
على حين شمت الخير من لمحاته … وآنست من أفعاله آية الرشد[9]
طواه الردى عنى فأضحى مزاره … بعيدًا على قرب قريبًا على بعد[10]
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها … وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه … فلم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد

---

(1) منشد : مكان أنشده فيه وأطلبه.

(2) الشواة : جلدة الرأس، والمراد شاب شعرها والقناة هنا صلبه . الكدنة الشحم واللحم يريد أن سمنته أضحت تهزل.

(3) أي أصبحت أحاديثي تلذ الرجال بعد ما أعرض الغواني لشيبي وكان حديثي لذيذًا لديهن.

(4) الإعجاب بالشئ : السرور منه . والتعجب : الاستغراب والإنكار ، روان: دائمات النظر بسكون الطرف . صدد:معرضات.

(5) استهل الصبى : رفع صوته بالبكاء.

(6) يورد هذا البيت تأكيدًا لحسن تعليله.

(7) بكاؤكما : الخطاب لعينيه . ولا يجدى : لا ينفع . وأودى : هلك.

(8) توخى : تحرى.

(9) شمت الخير : توقعته.

(10) يريد بالقرب قرب المكان وبالبعد بعد اللقاء.

ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد[١]
وظل على الأيدي تساقط نفسه ويذوي كما يذوي القضيب من الرند[٢]
فيالك من نفس تساقط أنفسًا تساقط در من نظام بلا عقد
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعًا ولكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من معد[٣]
وإني وإن متعت بابني بعده لذاكره ما حنت النيب في نجد[٤]
وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد[٥]
لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي؟
لعمري لقد حالت بي الحال بعده فياليت شعري كيف حالت به بعدي؟

ثكلت سروري كله إذ ثكلته وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد
أريحانة العينين والأنف والحشا ألاليت شعري هل تغيرت عن عهدي؟
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدي[٦]
أعيني جودًا لي فقد جدت للثرى بأنفس مما تسألان من الرفد[٧]
كأني ما استمتعت منك بضمة ولا شمة في ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدي عليك من الأسى وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدي
محمد ما شيء توهم سلوة لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوة بل حزازة يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي
وأنت وإن أفردت في دار وحشة فإني بدار الأنس في وحشة الفرد

---

[١] الجادي : الزعفران وهو أصفر.
[٢] الرند : الغار وقد يسمى به الآس وهو نوع من الريحان.
[٣] معد من أعدى بمعنى نصر وأعان.
[٤] النيب : جمع ناب ، وهو الناقة المسنة.
[٥] الجوارح : أعضاء الإنسان.
[٦] أسعدت العين بالبكاء : أعانت.
[٧] الرفد : العطاء والصلة.

عليـك سـلام الله مـنى تحـية ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وقال يعاتب أبا القاسم التوزى الشطرنجي ويمدحه :

يـا أخـي أيـن عهـد ذاك الإخـاء أيـن مـا كـان بيننـا مـن صـفاء !
كشـفت مـنك حاجـتى هـنوات غطيـت بـرهة بحسـن اللقـاء[1]
تركتـنى ولم أكـن سـيء الظـن أسـيء الظـنون بالأصـدقاء
يا أخي هبك لم تهب لي من سع يـك حظـا كسـائر البخلاء
أفـلا مـنك رد جمـيل فـيه للنفس راحـة مـن عـناء
أجـزاء الصـديق إيطـاؤه العشـ ـوة حـتى يظـل كالعشـواء[2]
تاركـا سـعيه اتكـالا عـلى سـعـ ـيك دون الصـاحب والشـفعاء
كـالذي غـره السراب بمـا بمـا خيـ ـل حـتى هـراق مـا فـي السقاء
يـا أبـا القاسـم الـذي كنت أرجـوه لدهـري قطعـت مـتن الـرجاء
لا أجـازيك عـن غـرورك إيـاي غـرورا وقيـت سـوء الجـزاء
بـل أري صـدقك الحديـث ومـاذا ك لـبخل علـيك بالإغضـاء
أنـت عيني ولـيس مـن حق عيني غـض أجفانهـا عـلى الأقـذاء
مـا بأمـثال مـا أتيـت مـن الأمـر يحـل الفـتى ذرا العلـياء
بـذل الوعـد للأخـلاء سمحـا وأبـى بعـد ذاك بـذل العطـاء
فغـدا كـالخلاف يـورق للعـيـ ـن ويـأبى الإثمـار كـل الإبـاء
ليس يرضى الصديق منـك ببشـر تحـت مخـبوره دفـين جفـاه

ولقد هجا ابن الرومي البحتري الشاعر هجاء مقذعا .

ومن قوله في هجائه :

قد قلت - إذ نحلوه الشعر - : " حاش له إن الـبروك بـه أولى مـن الخبـب "
" وحسبه مـن حباء القـوم أن يهبوا لـه قفـاه - إذا مـا مـر - بالعصـب[3]
" الحـظ أعمـى ؛ ولـولا ذاك لم تـره للـبحتري لا عقـل ولا أدب . "
قـبحا لأشـياء يـأتي الـبحتري بهـا من شعره الغث بعد الكد و التعب
كأنهـا - حين يصغي السـامعون لهـا ممـن يمـيز بـين النـبع والغـرب
رقـى العقـارب أو هـذر البـناة إذا أضحوا على شغف الجدران في صخب
وقـد يجـيء بخلـط : فالـنحاس لـه وللأوائـل مـا فـيه مـن الذهـب

---

[1] الهنوات : جمع هنة ، وهي الشيء الصغير .
[2] العشوة النار ، وأوطاه العشوة : كناية عن أنه أضله ولم يهده ، والعشواء الناقة لا تبصر أمامها .
[3] جماعات الناس .

سمين ما نحلوه من هنا وهنا ، والغث منهم صريح غير مجتلب
يسيء عفا . فإن أكدت وسائله أجاد لصا شديد البأس والكلب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما إن تزال تراه لابسا حللا أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
شعر يغير عليه باسلا بطلا وينشد الناس إياه على رقب

كما هجا ابن الرومى الأخفش بقصيدة منها :

"قلت لمن قال لى "عرضت على الأخ ـفش ما قلته فما حمده . "
قصرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى إذا انتقده
ما قال شعرا ولا رواه ، فلا تعلبه كان ، لا ولا أسده
فإن يقل " إننى رويت " فكالدف ـتر جهلا بكل ما اعتقده
أرمت زينى بأن تعرضنى لمدحه فالذليل من عضده
أم رمت شينى بأن تعرضنى لثلبه ؟ فالسليم من قصده ."

إلى أن قال :

" شعرى شعر ، إذا تأمله الإنـ ـسان ذو الفهم والحجا ، عبده
لكنه ليس منطقا عث اللـ ـه آية لمن جحده
ولا أنا المفهم البهائم والطيـ ـر سليمان قاهر المرده
ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة "
لا رحم الله أم أخفشكم ولا سقى قبر والد ولده
ماذا عليه وقد رأى ولدا أعور جم العوار - لو وأده ،
سأسمع الناس ذمه أبدا ما سمع الله حمد من حمده "

وقال من قصيدة أخرى :

لا يأمنن السفيه بادرتى فإننى عارض لمن عرضا
عندى له السوط إن تلوم فى السير وعندى اللجام إن ركضا "
" أصحى مغيظا على أن غضب اللـ ـه عليه ونلت منه رضا
قولا له ينطح الجدار إذا أعيـ ـا وصم الصفا إذا امتعضا
ولا يحمل ضعيف منته حربى ، فما مثله بها نهضا "
" أقسمت بالله لا غفرت له إن واحد من عروقه نبضا "

ابن المعتز شاعر الحب والجمال

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

أديب ساحر وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التى نبغت فى القرن الثالث الهجرى ، وهو أمير التشبيه فى الشعر العربى : القديم والحديث .

يعد فى الطبقة الثالثة من المحدثين . وهى الطبقة التى خلفت طبقة أبى نواس . وطبقة بشار زعيم المحدثين . ويعدون معه فى طبقته أباتمام والبحترى وابن الرومى . وإن كان بعض النقاد يجعل أبا تمام والبحترى طبقة وحدهما . ويجعل ابن الرومى وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين . ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى طبقة متداركة . وتلاحقوا . وغطوا على من سواهم من الشعراء[1] ، ويقول : " وليس فى المولدين أشهر اسما من أبى نواس، ثم حبيب والبحترى ، ثم تبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، وطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبى نواس فى المحدثين ، وامرؤ القيس فى القدماء[2] " .

ولد أبو العباس عبد الله ابن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، فى بيت الخلافة ، وولى والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ ، ومكث فيه ثلاث سنين قتل بعدها بيد الأتراك ، الذين كان فى يدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنكبة والده أثر عميق فى حياته ونفسيته ، وقد تلقى ثقافته فى الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والأدب .

وكان من أساتذته المبرد م سنة ٢٨٥ هـ . وثعلب م سنة ٢٩١ هـ وسواهما من فحول العلماء ، وظهرت شاعريته فى أول عهده بالشباب ، فامتلأت به حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب . فكان البليغ الساحر . والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان ، وله مؤلفات كثيرة وجيدة ، منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع فى جزئين فى مصر والشام .

---

[1] ١/٨٣ العمدة .

[2] ١/٨٣ العمدة .

عاصر بن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسين هم : المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، والمكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥) ، وعاش بينهم معتزا بشخصيته ، نبيل النفس ، عظيم الخلق ، يظهر انصرافه عن الخلافة وهو فى نفسه ناقم على الحياة التى ملكت سواه مقاليدها ، وقبض عليه عدة مرات أطلق فيها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

من يشترى حسبى بأمن خمول   من يشترى أدبى بحظ جهول ؟

ولما مات المكتفى عام ٢٩٥ هـ ولى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا . فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ هـ ، ومكث فيها ليلة واحدة ، حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة ، تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ هـ . وبذلك انتهت حياة شاعر كبير من شعراء العربية المعدودين .

وقد عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب . كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد فى قصور الخلفاء والأمراء ، وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

ولقد أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته ومشاعره ووجدانه وإحساسه . فنشأ شاعرا بطبعه ملهم الشاعرية قوى الملكات .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره وما يختلج فى صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة ، فشعره إذًا صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانيا ، وللاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيرا ، وهو فوق ذلك صورة صادقة للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنيه خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال ، أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه ، أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والإخوانيات والغزل ، وخمرياته فيها دقة معان ورقة تصوير ، وكثرة تشبيهات ، وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيدا مبدعا . يقتفى فيه آثار امرىء القيس وأبى نواس ، والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها ، وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة

والإبداع ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينيه من مناظر طبيعية ومظاهر الحضارة . ووصفه وصف وجداني . له موسيقى عذبة وفيه رقة وسلاسة ، وروح وطبع ، ودقة وعمق وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمى ملكته فى نفسه دقة وحسه ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه بمشاهد الجمال وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويرا لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد ، أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا ، ترك الزهد لأبى العتاهية ، والرثاء لأبى تمام ، والهجاء لابن الرومى ، والمدح للبحترى ، وعاش هو شاعر الفن والترف والجمال ، وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق[1] ، ومعانى ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته وهو فيها دقيق الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير مجدد مبتكر حينا ومقلد أحيانا أخرى ، وخياله الشعرى خيال واقعى مستمد من الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ما ينطق به من معنى ووصف وتصوير ، وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجرى وراء عالم المثل والمعنويات ، ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته وبالرونق والعذوبة فى جزالة تشيع فى أعطافه حينا ،وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، ومع جمال فى ترف البيان وألوان البديع مما حذا به حذو بشار ومسلم وأبى تمام ، وتشيع فى أسلوبه الصياغة الفنية الممتلئة روحا وحياة وموسيقى ووضوحا فى دقة تصوير وقرب مأخذ وجودة قريحة فى بعد فكرة وحدة خيال كما يقول :

والصبا ممتلئ   حاجة وأملا

والمدرسة الأدبية التى يمثلها ابن المعتز هى مدرسة المحدثين التى قاد زمامها أبو تمام والبحترى ، والتى امتازت بميزتين :

الأولى :

هى التعمق فى المعانى واستنباطها ، مما يتجلى لك فى شعر أبى تمام وابن الرومى واضحا وملموسا .

والثانية :

هى الصناعة الشعرية المتأنقة التى تطلب ألوان الجمال فى الأداء وتعتمد على الترف البيانى فى الأسلوب : من جناس وطباق وتشبيه و استعارة وتمثيل ،

---

[1] ١/١٦٣ العمدة .

وكانت العرب كما يقول ابن رشيق " لا تنظر فى أعطاف شعرها . بأن تجنس أو تطابق أو تقابل أو تترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما فعل المحدثون . ولكن كان نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعانى وإبرازه . وإتقان بنية الشعر . وما وقع فيه من هذا النوع فعن غير قصد ولا تعمد . ممن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف . وأول من فتق البديع للمحدثين بشار وابن هرمة . ثم قلدهما فيه مسلم والعتابى والنمرى وأبو نواس ، وأتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز ، فانتهى علم البديع والصنعة إليه وختم به[1] . فابن المعتز إذا هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المكلفة ، فقد كان يحب الفن للفن. وينظم الشعر ليلهو به . وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين . وكان متكلفا مجيدا فى تكلفه بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه ، ويصف ابن رشيق فى صنعته فيقول : " ولا أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعا من ابن المعتز فإن صنعته خفيه لطيفه ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعرا وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم أوزانا وقوافى ، ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب[2] ، ويقول الجرجانى فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين[3] ، وكان الجرجانى يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : هو وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين ، وليس يمكن واصفا لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والريحان إلى غير ذلك أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق ، الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبى والظليم ، والناقة والجمل، والديار والقفار " . والأصفهانى يشير بذلك أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد جزل كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالبا ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف ، وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب . وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعر ودقة تشبيهاته إذا أثر من آثار البيئة فيه .

ولابن المعتز منزلة كبيرة فى البيان العربى فقد ألف فيه كتابه " البديع " ، الذى عدد فيه شتى أساليب البديع ومحاسن الشعر كما عرفها ابن المعتز وعصره ،

---

[1] ١٠٨ - ١/١١٠ العمدة .
[2] ١/١٠٩ العمدة .
[3] ٢٣٢ أسرار البلاغة .

وهذا الكتاب ليس قاصر على البديع بالمعنى الضيق المحدود . لأن ابن المعتز يذكر فيه الكناية والاستعارة و التشبيه وهي من صميم البيان العربي . ويذكر فيه الكناية ولكنه يريد بها معناها اللغوي وهو أعم من المعنى الاصطلاحي المعروف . فإذا قلنا أن ابن المعتز ألف في البيان فقد سرنا مع الحق والتفكير السليم . وإذا قلنا إنه ألف البديع فقد ضيقنا دائرة البحث بغير مبرر ، وإن كان البديع في الاصطلاح المتأخر جزاءا من البيان ، وإن كان البديع بالمعنى القديم المعرف عند بعض علماء البلاغة يرادف كلمة البيان والبلاغة. فابن المعتز إذا ذو أثر كبير في البديع ، وعلى وجه الدقة له أثره في البيان العربي ودراساته ، ذلك ما ستناوله الآن بالتحليل ، كان ابن المعتز من أئمة البيان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وله فيه آراء عظيمة الأهمية ناضجة التفكير[1] ؛ وقد اهتم بنوع خاص من أنواع البيان ، هو أسلوب البديع وألوان الترف في الأداء .

كان ابن المعتز يحتذي حذو أبي تمام في صنعة البديع ، ويوشي شعره بشتى ألوانه ، يقصدها قصدا ويتعمدها تعمدا ، وصوغ شعره فنا تغلب روح الصناعة فيه ملكات الطبع والفطرة ، وكان مع ذلك " يتحقق بعلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته "[2] ، وألف فيه عام ٢٧٤ هـ كتابة البديع ؟ [3] وسنه إذ ذاك سبعة وعشرين عاما ، مما يدلنا على أن ابن المعتز لم يتمش في العقد الثالث من عمره حتى قد كان قتل الشعر العربي حفظا ورواية ودرسا وفهما ، وكان لكتابه البديع دوى في المجامع الأدبية ؛ ثم شاع وذاع وتلقفته الأيدي ، وعكف العلماء والأدباء عليه وصار مصدرا ممتازا من مصادر الدراسات البيانية بعد عصر ابن المعتز ، ثم فقدت نسخ الكتاب الخطية وقل تداوله ولم يبق له أثر إلا ما نقرأ عنه في شتى كتب البيان والبديع ، ولكن العناية شاءت أن تحفظ من الكتاب نسخة خطية واحدة في الأسكوريال نشرها كراتشقوفسكي عام ١٩٣٥ ، وقد قمت بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه وتصحيحه ونشرته عام ١٩٤٥، فكان ذلك إحياء لكتاب ابن المعتز ، وخدمة للثقافة البلاغية ، وسعيا لتداول أهم مصدر ألف في البديع ، والكتاب أول مؤلف

---

[1] راجع وصفه لبلاغة القرآن (٦٣ رسائل ابن المعتز) . وتعريفه للبلاغة بأنها بلوغ المعنى ولم يطل سفر الكلام (٦٤ رسائل ابن المعتز ، ١/١٥٧ زهر ، ١/٤٦٢ وفيات ، ١/٢١٧ العمدة ، ٢/٢٢٣ شذرات ، ١٩٦ الأوراق ، ١/١٢٨ حاشية السبكي على التلخيص) . وله كلمة في الحكمة والبلاغة (٦٣ رسائل ابن المعتز . ١/١٤٩ زهر)

[2] ١٠ رسائل ابن المعتز . ٤/١٢٣ زهر .

[3] راجع ١٠٦ البديع .

البديع وصنعة الشعر كما أجمع على ذلك جميع الباحثين[1] . وهو من أهم كتب ابن المعتز بالنظر إلى اختصاصه في هذا الفن[2] وبعد فتحا جديدا[3] . ويقول ابن المعتز نفسه : وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد[4] .

ولقب البديع ليس لقبا مستحدثا في عهد ابن المعتز ، ولكنه اسم لهذه الألوان الساحرة في الأسلوب ، ولهذا الترف البياني في الأداء : من تشبيه واستعارة وتجنيس وتطبيق وسوى ذلك . سماه به مسلم بن الوليد الشاعر م ٢٠٨ هـ . وكان يعرف قبل ذلك باللطيف[5] . ودرج على هذا اللقب من بعده من العلماء والأدباء وفي الاغاني أن الأصمعي م ٢١٦ هـ كان يفضل بشارا لانه أكثر تصرفا وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعا[6] . وذكر الجاحظ البديع وبعض المشهورين به من الشعراء وأنه مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة[7] ، وذكر كثيرا من الشعراء الذين أكثروا منه في شعرهم ورأى أن لم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة[8] ، ويقول ابن المعتز : البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فاما العلماء بالشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو[9] ، والبديع ونشأته في اللغة العربية موضوع عناية الباحثين المحدثين ، فرأى مسيو مرسيه أن الزخرف الفني وألوان البديع قد وصلت إلى العرب من اليونان[10] . ورأى أنه عنصر أصيل في اللغة العربية وإن شاركتها في ذلك بعض اللغات[11] . وشاهد ذلك القرآن الكريم فهو أثر عربي صرف وهو مع ذلك يشتمل على ألوان من البديع . والخواص الفنية الموجودة في القرآن توجد كذلك في الشعر الجاهلي كما أثبته صاحب جمهرة أشعار العرب في مقدمتها ، وهي موجودة كذلك

---

(1) ١/٢٣٥ العمدة ، ١/١٤٦ معاهد التنصيص ، ٢٧٦ الزيات ، ٤٥٠ ج٢ أدب اللغة لمحمد بك دياب ط١٩٠٠ ، ١٤٨ / ١ كشف الظنون ، ١/٦٩٣ البستاني ، ١٩١ الاسكندرني ، ١٠٥ أدب اللغة للغلواهري .

(2) ٢/١٦٣ زيدان .

(3) ٢٨٠ المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية ، وراجع في الإشادة به ٩٣ - ١٠١ الصبغ البديعي في اللغة العربية للأستاذ أحمد موسى ، ١٠٣ - ١٠٧ تاريخ البلاغة العربية للأستاذ الشعراوي ، وهما مخطوطان بمكتبة كلية اللغة .

(4) ١٠٦ البديع .

(5) ١٠ ج٢ معاهد التنصيص .

(6) ٢٥ج٣ الأغاني .

(7) ٣/٢٤٢ البيان .

(8) ٥٤و١/٥٥ البيان .

(9) ١٠٦ البديع .

(10) ١/٤٤ النثر الفني .

(11) ١/٤٥ وما بعدها النثر الفني .

فى الآثار الأدبية التى عاصرت القرآن كالحديث وخطب الخلفاء والولاة الذين شهدوا عصر النبوة[1] ، والحق أن البديع أصباغ عربية خالصة كثرت ألوانه وتطورت زمنا بعد زمن ، ولدت قوة هذا التطور بتأثير الفرس واليونان ، فالاستعارة والتشبيه وكثير من هذه الأساليب تشترك فيها سائر اللغات[2] ولقد عرف البديع فنا منذ نشأ الأدب العربى ، وأما معرفته علميا فابتدأ من عصر بشار وأبى نواس ومسلم ، ثم عرف بصورة أوضح فى عهد أبى تمام والبحترى وابن المعتز ، وبما كتبه عنه الجاحظ مؤلف البيان .

وموضوع كتاب البديع ذكر لألوان البديع وشواهدها فى الأدب العربى شعرا ونثرا ، يذكر مؤلفه ما أثر للون البديعى من شاهد فى كتاب الله ثم فى حديث رسوله ثم فى كلام الصحابة الأعراب وبلغاء الكتاب ثم فى الشعر الجاهلى فالإسلامى فشعر المحدثين ، ويختم كل لون بذكر ما عيب من شواهده المتكلفة السقيمة ، والكتاب حافل بشتى النصوص التى جمعها ابن المعتز وساقها فى عرض جميل ونظام محكم ، وكان الباعث لابن المعتز على تأليفه هذا الكتاب أن يعلم كما يقول : " أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا هذا الفن - البديع - ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم أن حبيب بن أوس الطائى شغف به حتى غلب عليه وأكثر منه فأحسن فى بعض وأساء فى البعض الآخر ، وإنما كان يقول الشاعر من ذلك الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع[3]، فالغرض الأول منه " تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع[4] " ، ولقد نشأ ابن المعتز فى عصر لم يخل من آثار التعصب للتراث الأدبى القديم ، ومن المنكرين لمذاهب المحدثين فى البيان والناعين عليهم ما افتنوا فيه من ألوان البديع ، التى أكثر منها بشار ومدرسته ، ثم مسلم وأبو تمام ومن جاء بعدهما ، فكان لابد لابن المعتز أن يدافع ويناضل هؤلاء المتعصبين، نعم لقد وقف ابن المعتز بين مذهبين فى البيان متناقضين : مذهب المحدثين الذى يؤثره ويسير عليه فى الشعر وفهمه ونظمه ، ومذهب القدماء المتعصبين للقديم الذين كانوا يزدرون نهج المحدثين وقصدهم وتكلفهم البديع ، ولكنه انتصر بفطر به

---

(1) ١/٤٧ النثر .

(2) راجع : نقد النثر ، مراجعات للعقاد .

(3) ١٥و١٦ البديع و٧و٨ الموازنة .

(4) ١٨ البديع .

وذوقه للمذهب الأول الذى أحبه وشغف به . فأخذ يدافع عنه ، وألف فى ذلك كتابه البديع الذى أثبت فيه أن ألوان البديع كانت معروفة عند الشعراء القدامى والإسلاميين ، وألموا بها فى شعرهم كما ألم بها المحدثون ، فهى ليست غريبة على الشعر الجاهلى والإسلامى وليست جديدة على أساليب البيان فى شعر المحدثين ، وليست بدعا جديدة فى الأدب والشعر كما ذهب إليه من تعصبوا للأدب القديم ، واعتزوا بفحولة الشعر الجاهلى وجزالته ،وأنكروا مذاهب المحدثين فى صناعة الشعر وسهولته وتكلف البديع فيه .

وكان دفاع ابن المعتز رائعا قويا موفقا استحق عليه تقدير المنصفين من النقاد . ولون الثقافة الشائعة فى الكتاب هى الثقافة العربية العميقة الخالصة عن شوائب الثقافات الأخرى . فقد ألفه ابن المعتز وهو فى سن الشباب قبل أن يطلع ويلم ويتعمق فى دراسة آثار الثقافات الأخرى ، وإذا ما وازنا بين البديع لابن المعتز وفصول التماثيل أحد مؤلفاته فى أواخر حياته ، وجدنا الأول عربيا خالصا فى ثقا من حيث كان الثانى مظهرا لثقافة منوعة مختلفة الأصباغ والألوان .

وألوان البديع عند ابن المعتز خمسة : -

الاستعارة - التجنيس - المطابقة - ررد العجز على الصدر - المذهب الكلامى .

ويجعل ما عدا ذلك من محاسن الكلام والشعر ، ويقول أنها كثيرة ولا يرى حرجا فى إضافة هذه المحاسن أو غيرها إلى البديع[1] ، وذكر من المحاسن : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، الإفراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم ، حسن الابتداء - فابن المعتز جمع من ألوان البديع ثمانية عشر لونا ، ولقد عاصره قدامة ابن جعفر الكاتب الذى جمع منها عشرين نوعا . اشترك مع ابن المعتز فى سبعة منها وهى : الغلو أو الإفراط ، التشبيه - الاستعارة - الكناية ويسميها قدامة الإرداف مريدا بها المعنى الاصطلاحى للكناية فى حين أن ابن المعتز يريد بها المعنى اللغوى - التكافؤ وهو عند ابن المعتز المطابقة - المطابق والمجانس وهو عنده باب التجنيس - الالتفات .. وانفراد قدامة بثلاثة عشر هى : التصريع - المقابلة - المساواة - الإيغال - الاستطراف - صحة التقسيم - صحة التفسير - المبالغة وهى عير الغلو عند قدامة - الإشارة (الإيجاز) -

---

[1] ١٠٦ البديع .

التمثيل   التتميم   الترصيع وهو أن تكون أجراء البيت مسجوعة   التوشيح ... وهذه هي الأنواع الثلاثة عشر التي استقل بها قدامة إذا أضيفت إلى السبعة عشر نوعا التي جمعها ابن المعتز يكون البديع قد وصل في عهد قدامة إلى ثلاثين نوعا . ثم تتبع الناس هذه الألوان ، فجمع أبو هلال منها في الصناعتين سبعة وثلاثين نوعا: منها ٢٩ ذكرها أبو هلال في باب أنواع البديع[٢] ومنها التشبيه الذي ذكره في باب مستقل[٣] غير الباب الذي عقده للبديع وإن كان لا يشير إلى أنه من البديع فيكون الجميع ثلاثين نوعا يضاف إليها سبعة من زياداته[٤] وهي : التشطير والمجاورة . والاستنهاد والمضاعفة (التورية) والتطريز والتلطف والمشتق .. ثم جمع ابن رشيق من ألوان البديع مثل ما جمع أبو هلال وأضاف إليها في عمدته خمس وستين بابا في بحث الشعر ، وتلاه شرف الدين الشاشي فبلغ بها أكثر من ذلك . ثم تكلم فيها ابن أبي الأصبع المصري م عام ٦٥٤ هـ فأوصلها إلى التسعين في كتابة الجيد "تحرير التحبير في علم البديع " ، ثم صنف ابن منقذ كتابة التفريع في البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعا ، ثم جاء صفي الدين الحلي م ٧٥٠ هـ فجمع ١٤٠ نوعا في بديعيته في مدح الرسول التي سماها " الكافية البديعية " وشرحها بنفسه ، ثم حذا الناس حذوه ونظموا كثيرا من البديعات ، وأما السكاكي فذكر تسعة وعشرين نوعا من البديع ، وقد ذكر صاحب التلخيص من البديع المعنوي ثلاثين نوعا ومن اللفظي سبعة ، وقد ألم بتطور البديع في اختصار كثير من الباحثين[٥] .

ولكتاب البديع أهمية كبيرة في فهم نشأة البديع وتطوره في البيان العربي على مر عصورنا الأدبية ، وهو ينحو في دراسة ألوان البديع إلى الدراسة التطبيقية الواسعة التي لها أثرها في تكوين الملكة والذوق ودعم الفكرة والرأي في نفس القارئ ، ويشتمل الكتاب على ٣١٢ شاهدا من عيون الشعر العربي تبلغ نحو ٤٢٥ بيتا أو تزيد ، فوق ما اشتمل عليه من بليغ النصوص والشواهد من الذكر الحكيم وحديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وبلغاء الكتاب . والكتاب مع ذلك خلو

---

[١] سماه علي بن هارون المنجم تسهيما ، وسماه ابن وكيع المطمع وسماه المتأخرون إرصادا ، وهو أن يدل صدر البيت على قافيته .

[٢] ٢٥٨ صناعتين وما بعدها .

[٣] ٢١٦-٢٤٩ صناعتين .

[٤] ٣٩٩-٤١٧ صناعتين .

[٥] راجع ٩٢ عقود الجمان للسيوطي : ٤/٤٦٧ وما بعدها حاشية السبكي على التلخيص . ٢/٤٥ تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب .

من الاصطلاحات العلمية الدقيقة وتحديدات المنطقيين العميقة ، وهو يكتفى فى توقيفك على مدلول اللون البديعى بشرح أدبى موجز حينا وبما تدل عليه الشواهد حينا آخر ، وبأسلوب يفيض سهولة وبلاغة ، مما يدل على ذوق سليم وفطرة عربية مطبوعة ، وأهم سمة يمتاز بها الكتاب بعد ذلك كله هو النظام الدقيق فى العرض مما يتجلى فى جميع أبواب الكتاب ، مع حصافة الذوق وسعة الاطلاع وحسن الاختيار فى جميع شواهد الكتاب ، وهو فوق ذلك أظهر خطوة علمية موفقة فى للتأليف فى البديع والبيان ، وإذا أغمضنا النظر عن الخطوة الأولى التى خطاها ثعلب فى كتابه " قواعد الشعر " كان عمل ابن المعتز جديدا مبتكرا من كل نواحيه .

نماذج من شعر ابن المعتز :

ومن شعره فى وصف سحابة :

وسارية لا تمل البكا	**جرى دمعها فى خدود الثرى[1]**
سرت تقدح الصبح فى ليلها	**ببرق كهندية تنتضى[2]**
فلما دنت جلجلت فى السما	**رعدا أجش كجرس الرحا[3]**
ضمان عليها ارتداع اليفاع	**بأنوارها واعتجار الربا[4]**
فما زال مدمعها باكيا	**على الترب حتى اكتسى ما اكتسى[5]**
فأضحت سواء وجوه البلاد	**وجن النبات بها والتقى[6]**

وقال يصف سيفه :

ولى صارم فيه المنايا كوامن	**فما ينتضى إلا لسفك دماء[7]**
ترى فوق متنيه الفرند كأنه	**بقية غيم رق دون سماء[8]**

---

(1) السارية : السحابة تسرى ليلا ، ويريد بالبكاء الأمطار ، الثرى : الأرض .

(2) تقدح : تبرق ، والأصل قدح بالزند : أى حاول اخراج النار منه ، هندية سيوف : منسوبة إلى الهند ، لأنها كانت تجيد صنعها ، تنتضى : تسل ، يقول : إن برقها يلمع فى الليل كأنه صباح .

(3) جلجلت : رعدت ، أجش : غليظا ، الجرس : الصوت .

(4) الارتداع : الصبغ ، اليفاع : ما ارتفع من الأرض ، الاعتجاز : لف العمامة ، الربا جمع ربوة : الأرض المرتفعة . الأنوار جمع نور بفتح النون : الزهر .

(5) اكتسى ما اكتسى : أى اكتسى رداء جميلا .

(6) وجود البلاد : جوانبها ونواحيها ، جن النبات : زكا وطال .

(7) الصارم : السيف القاطع ، المنايا جمع منية : الموت ، كوامن : ساكنة .

(8) فرند السيف : وشيه وجوهره ، دون : أسفل ، والفرند للسيف : كالغيم للسماء .

وقال يصف غديرا :

غديـــر ترجـــرج أمواجـــه ... هـــبوب الـــرياح ومـــر الصـــبا[1]

إذا الشـــمس مـــن فوقـــه أشـــرقت ... توهمـــته جوشـــنا مذهـــبا[2]

وقال يحذر الطالبين من طلب الخلافة ويتوعدهم :

أبـى الله إلا مـا تـرون فمـا لكـم ... عـتاب علـى الأقـدار يـا آل طالـب[3]

تركـنا كـم حيـنا فهـلا أخـذتم ... تـراث النـبى بالقـنا والقواضـب[4]

زمـان بـنو حـرب ومـروان ممسكو ... أعـنة ملـك جائـر الحكـم غاصـب[5]

ألا رب يـوم قـد كسـوكم عمائمـا ... من الضرب فى الهامات حمر الذوائب[6]

فـلما أراقـوا بالسـيوف دمـاءكم ... أبيـنا ولم نملـك حـنين الأقـارب

فحـين أخذنـا ثـأركم مـن عدوكـم ... قعـدتم لـنا تـورون نـار الحباحـب[7]

وحـزنا الـتى أعيـتكم قـد علمـتم ... فمـا ذنبـنا ؟ هـل قـاتل مـثل سـالب ؟

عطـية ملـك قـد حـبانا بفضـله ... وقـدرة رب جـزيل المواهـب

ولـيس يـريد الـناس أن تملكوهـم ... فـلا تثـبوا فـيهم وثـوب الجـنادب[8]

وإيـاكم إيـاكم وحـذار مـن ... ضراغمة فى الغاب حمر المخالب[9]

ألا إنهـا الحـرب الـتى قـد علمـتم ... وجربـتم والعـلم عـند الـتجارب

وقال فى الطرد :[10]

لمـا تفـرى الأفـق بالضـياء ... مـثل انتسـام الشـفة اللمـياء[11]

وشمطـت ذوائـب الظـلماء ... وهـم نجـم اللـيل بالإغفـاء[12]

---

[1] الصبا : ريح شرقية .

[2] الجوشن : الدرع ، مذهب : مموه بالذهب .

[3] يريد أن الله أبى عليكم أن يوليكم أمر المسلمين ويجعل الخلافة فيكم .

[4] التراث : الميراث ، والقنا : الرماح ، والقواضب : السيوف .

[5] زمان : مضاف إلى الجملة الاسمية بعده ، ويريد ببنى حرب ومروان دولة بنى أمية .

[6] الهامات : الرؤس . والوانب : جمع ذؤابة وهى هنا طرف العمامة .

[7] الحباحب : ذباب يطير بالليل لـه شعاع فى ذنبه وما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة ونحوها، وأورى نار الحباحب كناية عن الفتن لا تفيد شيئا .

[8] الجنادب : جمع جندب : حيوان كالجراد كثير القفز .

[9] الضراغمة : الأسود .و الغاب : مأوى الأسد . والمخالب : الأظفار . ويريد بالضراغمة العباسيين وجنودهم .

[10] الطرد بفتحتين : مزاولة الصيد .

[11] تفرى : تشقق ، والشفة اللمياء المشربة سمرة فى حسن .

[12] شمطت : اختلط سوادها ببياضها .

قدنا لعين الوحش والظباء ... داهية محذورة اللقاء [1]

شائلة كالعقرب السمراء ... مرهفة مطلقة الأحشاء [2]

كمدة من قلم سوداء ... أو هدبة من طرف الرداء [3]

تحملها أجنحة الهواء ... تستلب الخطوة بلا إبطاء

ومخطفا موثق الأعضاء ... خالفها بجلدة بيضاء [4]

كأثر الشهاب في السماء ... ويعرف الزجر من الدعاء

بأذن ساقطة الأرجاء ... كوردة السوسنة الشهلاء [5]

ذا برثن كمثقب الحذاء ... ومقلة قليلة الأقذاء [6]

صافية كقطرة من ماء ... ينساب بين أكم الصحراء

مثل انسياب حية رقطاء ... آنس بين السفح والفضاء [7]

سرب ظباء رتع الأطلاء ... في عازب منورة خلاء [8]

أحوى كبطن الحية الخضراء ... فبه كنقش الحية الرقشاء [9]

كأنها دفائر الشمطاء ... يصطاد قبل الأين والعناء [10]

خمسين لا تنقص في الإحصاء

---

[1] العين : جمع أعين وهو ثور بقر الوحش ، ويريد بالداهية كلبة الصيد .

[2] شائلة : مرتفعة الذنب ، ومرهفة : مدببة .

[3] المدة : الواحدة من المداد ، الهدبة : الطرف .

[4] المخطف : الضامر ، وهو عطف على داهية السابقة .

[5] الأرجاء : الأنحاء . والسوسن : الزنبق .

[6] البرثن : المخلب . والحذاء : الإسكاف .

[7] السفح : عرض الجبل ، وآنس : أبصر ، والفاعل ضمير يعود على المخطف .

[8] سرب ظباء في البيت بعده مفعوله المفعول .. عازب أي مرعى خصيب مزهر .

[9] الأحوى : شديد الخضرة في سواد وهو وصف للعازب قبله .

[10] الأين : التعب .

أبو الطيب المتنبى

المتوفى سنة ٣٥٤ هـ

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الكندى الجعفى الكوفى المعروف بالمتنبى . ولد أبو الطيب سنة ٣٠٣ هـ - ٩١٥ م بالكوفة فى محلة تسمى كندة فنسب إليها ، وليس هو من قبيلة كندة المشهورة ، بل هو جعفى القبيلة ، وقيل له المتنبى لأنه أدعى النبوة فى بادية السماوة وتبعه خلق كثير من بنى كلب وغيرهم فخرج عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأمراء الأخشيدية فأسرره وفرق أصحابه وحبسه ، ثم استتابه وأطلقه .. وعاش أبو الطيب فى ضيق عيش إلى أن لحق بالأمير سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٩٤٨ م ، فصار يمتدحه وبسبر فى صحبته، وله فيه القصائد العديدة ، وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء فيتكلمون بحضرته فوقع مرة بين أبى الطيب وابن خالويه النحوى كلام فوثب ابن خالويه على المتنبى وضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه ولم ينتصر سيف الدولة لأبى الطيب ، فغضب وفارقه ، ودخل مصر سنة ٩٥١ م ، ومدح كافورا الأخشيدى وكان كافور صاحب مصر ، فأكرم أبا الطيب وأنعم عليه بصلات جزيلة ووعده بولاية بعض أعماله ، ولكن لما رأى كافور تفاخر أبى الطيب بشعره وسموه بنفسه خافه ولم يعطه ولاية ، ولما يرضه هجاه ، وفارقه سنة ٩٦١ م .. ولما عوتب كافور فى أبى الطيب قال : " يا قوم من ادعى النبوة مع محمد أما يدعى المملكة مع كافور فحسبكم " ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم تلحقه وقصد أبو الطسب بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمى ، فأجزل جائزته ورجع من عنده قاصدا بغداد ثم إلى الكوفة ، فعرض له فى طريقه فاتك بن أبى جهل الأسدى فى عدة من أصحابه ، وكان مع أبو الطيب أيضا جماعة من أصحابه فقاتلوهم ، قيل لما رأى أبو الطيب أن الغلبة عليه أراد يفر فقال له غلامه مفلح : لا يتحدث عنك الناس بالفرار أبدا وأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم..

فكر راجعا حتى قتل ، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٩٦٥ م . وقد اشتغل أبو الطيب بفنون الأدب ومهر فيها ، وكان من المطلعين على غريب اللغة وحواشيها ، وقد عاش فى صباه مدة طويلة بين أهل البدو فاكتسب الحرية وشرف النفس ، وترى ذلك فى كثير من أشعاره ، ومما يدل على ذلك أنه لم يلتحق بسيف الدولة حتى

شرط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه حين يدخل عليه وأن لا يقول الشعر إلا جالسا . كان أبو الطيب يقف بين يدى كافور وبين رجله خفان وفى وسطه سيف ومنطقة ، وكان يحب الصدق والعفاف ويعاب عليه التكبر وحب الذات والبخل .. فأما شعره فهو فى غاية البلاغة حتى أنه يعد فى درجة امرىء القيس ، وكان ينتقد شعره قبل أن يقول ، واشتهر فى وصف وقائع الحرب والمدح والشجاعة وفى الحكم ، وحكمه أشهر من أن تذكر ، وقد اعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ويقال أنه يوجد أكثر من أربعين شرحا لديوانه – ولى دراسة مفصلة عنه فى كتابى "قصص من التاريخ"

شعر المتنبى :

صاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية والحياة ، وقوة التعبير سمة من سمات أبو الطيب نجدها فى ألفاظه وأساليبه ، كما نجدها فى معانيه وقد أفاضت روح القوة فى نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبى الفنية ، وقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعرى وذوقه الفنى الحساس ، ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويطرد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة إرسالا لا يبالى بنقد النقاد :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وهو فى ذلك نظير الفرزدق وأبى تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ، ولقد هب النقاد فى عصر المتنبى وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعرى ، ومن استعماله الوحشى النابى ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه فى المبالغة والأغراق ، وخروجه عن المنهج العربى ، وذلك ما أخذه عليه الثعالبى فى اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت فى شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، وهذا إلى تعسفه فى اللغة والتراكيب وقبح المطلع أحيانا .. غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآراءه وآماله فى أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته ، وتقيد من حريته ، أو تخفى فى ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر فى شعره ، أو تضعف شخصيته فى أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ أى قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك ، وتتحدث إليك ، وتناجى

بآمالها وآلامها لديك . فتهز من عواطفك . وتدعك مؤمنا بما آمنت به من : نزوع إلى المثل العليا . وثورة صاخبة على الحياة . ثم تحفز همتك على السير في النهج الذى يريده الشاعر الثائر الداعية .

وفى شعر أبو الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرها وأثرها . فالشاعر لا يترك هذا المذهب الفنى الذى رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعانى . وشعره امتداد لمذهب أبى تمام الشعرى ، والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح فى شعر الشاعرين . لاسيما فى روعة التعليل وسمو التخيل . ودقة التدقيق وجمال الخيال وسحر الاستعارة والكناية والتشبيه . وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير . والتورية والتوجيه . ونحو ذلك .

وهو كأبى تمام فى كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : " أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى " . غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة فى اللغة والتراكيب فى بعض شعره . وأطلق الشعر من بعض القيود التى قيده بها أبو تمام ومن ثم أطلق عليه شاعر الطريقة الابتداعية فى الشعر العربى لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن فى شعر المتنبى روح العمق والقوة التى لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه ، ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبى تمام فقال[1] :

" أولا يجوز للأديب أن يعرف شعر أبى تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر ، ويقول ابن الأثير : " إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبى ينشد روائع أبى تمام ويروى جميع شعره ". ولقد امتاز أبا الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، ويقظة العقل الأدبى، الذى وعى التراث الشعرى ، للقدامى والمحدثين . فهضمه وأخرجه أدبا حيا جديدا. رائعا فى فكرته وحكمته ، روعته فى مادته وصياغته . قويا فى دعواته ومراميه ، قوته فى أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفى هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية وقوية ، تحرر فيها نفوس بنى قومه من غلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

---

(1) ۸۰ صبح

وكان شعره مثالا رائعا للحياة القومية في عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الألم و الأمل ، وبين اليأس والرجاء ، والسخط والرضاء ، والحب والبغض . وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التي دعها إليها " نتشه " في العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الإنساني في جميع مظاهره ، كما حاربه " نتشه " ، ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة بأقصى ما يمكن من قوة إقدام كما دعى إلى ذلك " نتشه " ، وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعي إليها والظفر بها في شتى صورها ، وذلك هو السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين آرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها في مطالعات للعقاد (١٥٧ – ١٦٣) ، وشعر المتنبي يتحدث كثيرا عن منازع الحياة البشرية ويصف الطباع الإنسانية وصف المحيط بها الذي أكلها تجربة وبحثا ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الإنسانية ودقة تغلغلها في صميم الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه ، بما كان يختلج في صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظبا السيف أو بشباة اليراع .... وأبو الطيب رائع في رثائه كما هو رائع في مدحه وفخره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التي يستمدها الشاعر من ثقافاته وحياته ، ويضمنها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود ، كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء والصبر والعزاء .. ومدحه ليس تفانيًا في شخصيات ممدوحيه ، إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذه سلما يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان .

وتشيع في أعطاف هجائه روح التهكم والسخرية والإقناع، وفلسفة السخرية نشدها المتنبي في ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها في دقة وخفاء . ولكنها عند ابن الرومي نزعة طبيعية في نفسه ظهرت في شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا في تصويرها . وإبعاد مرماها ، وإصماء وقعها ، وترى روح السخرية عند المتنبي في أهاجيه لكافور ، وفي مدائحه التي كان يثني بها عليه وكان يطوي فيها المدح على الهجاء حذقا منه بصنعة الشعر كما يقول ابن جني[1] .. ويمكننا أن نرجع روح الشاعرية عند المتنبي إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس

---

[1] ٣٧٩ج١ العكبري .

والحياة . وإلى روح العظمة وشذوذ العبقرية في نفسه ، وإلى نهمه في الانتقام ممن يتعرض له بشر ، أو يحول بينه وبين غاياته ، وهي في وضوحها وغلبتها على شعره لا يعادلها إلا دعواته الساخطة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الحياة والأحياء : وأبو العلاء يستمد من أبي الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه في بواعثه وفي نتائجه ، فسخط أبي العلا وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق ببعد الإنسانية عن حياتها المثلى ، أما تشاؤم أبي الطيب فراجع إلى إخفاقه في آماله . وسخط أبي العلاء ينتهي به إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبي الطيب معولا هدم به صروح المجد التي أقامها من هجاهم . فإذا هم صورة مشوهة هي سخرية الأجيال وحديث القرون .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحومات الوغى، وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبي لا سيما في الفترة التي قضاها في بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته، وللمتنبي نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل في معانيه ، بعيد عن روح الغزل في أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغواني وقلب أبي الطيب صلة ، فهو طالب مجد وداعي قوة وشاعر سيف ورمح ورسوله فضيلة ومثل ، فماله للغواني والنسيب بهن ؟ والنسيب إنما هو وحي الحب الصادق والروح الوادعة ، والعواطف المتيمة حين يقع القلب في أسر الهوى ، وما أبعد المتنبي عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول:

وما العشق إلا غرة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية ... وغير بناني للرخاخ ركاب

وهو الذي يدعو على الغواني مثل هذا الدعاء الجاف :

أيا خدد الله ورد الخدود ... وقد قدود الحسان الغيد

وليس لنسيب المتنبي خطر في روحه . إنما أثره في فنه وأسلوبه كقوله :

سقاك وحيانا بك الله إنما ... على العيش نور والخدود كمائمه

وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة ... لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم الحسان الغر في فعلها به ... وتعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به ... وعيشا كأني كنت أقطعه وثبا

ونسيبه على العموم تقليدى بحت ، ولم يكن المتنبى ممن شغفوا بجمال الطبيعة وأسرارها ، ولا ممن تأصلت فى نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد أقبل بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يختلج فى النفوس المجاهدة من آمال ، وروح الخيال عنده كما هو عند أبو العلاء ضعيف ، إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير لا خيال وتصوير .

شهرتــــه:

وشهرة المتنبى الأدبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبى كما ترجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية .

فحياة أبى الطيب فى قصور ملوك الشرق وأمرائه : الحمدانيين والأخشيديين والبويهيين ، وفى عواصم العالم الإسلامى إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والكوفة وبغداد وشيراز ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضات الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها ، مما أذاع فى العالم الإسلامى شهرته ، ثم هذه الخصومات العنيفة التى منى بها المتنبى فى كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجازاته أو تحديد فى سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعر خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذى يؤدى رسالته ، كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء والشعراء فى عصره وبعد عصره ، فالصابى والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره فى رسائلهم، وكذلك نسج الشعراء على منواله وحاكوه فى شتى العصور ، لا سيما فى حركة الإحياء الأدبى فى العصر الحديث ، وعصبية شاعر كأبى العلاء له هى عصبية للفن والأدب قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

المتنبى والنقد الأدبى :

ولا نكاد نجد شاعرا اختلفت الناس فى منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء ، فى عهده وبعد عهده ، مثل المتنبى ، فقد افترق النقاد فبه فرقا ثلاثة :

فطائفة بالغت فى التعصب له ورفعته إلى منزلة كبيرة فى الأدب وعلى عرش القريض.

وطائفة بالغت فى التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره ، فوضعته فى مكانة دون مكانته ، ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده . أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعا ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان بريئا من الغايات ، لم تدفعه إلا يد النقد الأدبى النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لا له فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سببا فى كثرة الدراسات الأدبية التى تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبى خاصة للأدب والشعر والبيان عامة ، وحسبك أن المتنبى شرح شعره وعلق عليه وألف فى نقده وكتب عن شعره فحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من الشرقيين والمستشرقين ..... كتب عن المتنبى الثعالبى م ٤٢٩ فى الجزء الأول من اليتيمة كتابة فيها دراسة لحياته ونقد لشعره وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هـ [1] ، وابن خلكان م ٦٨١ هـ [2] ، وألف البديعى م ١٠٧٣ هـ فى حياته وشعره كتابه " الصبح المنبى " وكذلك فعل كثير من الكتاب والأدباء فى العصر الحديث نخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكرى فى كتابه " أخبار أبى الطيب المتنبى " ، " والمتنبى " للأستاذ جبرى، "ومع المتنبى " فى جزأين للأستاذ طه حسين ، و" ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام " للدكتور عبد الوهاب عزام ، و " المتنبى " للأستاذ محمود محمد شاكر وقد نشرته مجلة المقتطف فى عدد خاص ، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبى ، وصحيفة دار العلوم ، وسواها من الدراسات للمؤلف ، وكان العيد الألفى لذكرى أبى الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات فامتلأت الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره ، وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الأدبية فيه ، وفى " مطالعات " للعقاد ، و" حصاد الهشيم المازنى دراسة واسعة للمتنبى وفنه ، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد : ابن جنى م ٣٩٢ هـ فى ثلاثة مجلدات وله كتاب فى " معانى أبياته " ، ولابن فورجة " التجنى فى الرد على ابن جنى " و " الفتح فى الرد على أبى الفتح " ، ورد على ابن جنى كذلك على بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٣٥ هـ فى كتابه " التنبيه " وشرح ديوانه كذلك ابن الأفليلى م ٤٤١

---

[1] ٣٦٦ج١ طبقات الأدباء .

[2] ٣٦ج١ ابن خلكان .

وأبو العلاء م ٤٣٥ في كتابه " اللامع الغريزي في معجز أحمد " والواحدي م ٤٨١ هـ. وعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ ، والتبريزي م ٥٠٢ هـ ، والعكبري م ٦١٦ هـ ، واليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث .

ونقد شعره كثير من النقاد في مختلف العصور . فللصاحب م ٣٨٥ هـ في نقد شعره رسالته " الكشف عن مساوئ المتنبي " . وللخوارزمي م ٣٨٣ هـ كتاب مفقود[١] ، ولأبي الحسن الجرجاني م ٣٩٢ هـ كتابه الممتع " الوساطة بين المتنبي وخصومه ". وللحاتمي م ٣٨٣ هـ " رسالته الحتامية " وكتابه " جهة الأدب " ، تحدث في الأولى عن مناظرته للمتنبي ، وفي الآخر عن سرقاته من أرسطو[٢] ، ولمحمد ابن وكيع المصري الشاعر م ٣٩٣ هـ كتابه " المنصف " فصل فيه سرقات المتنبي [٣] ، وللعميدي كتابه " الإبانة " وقد نقل عنه البديعي كثيرا من نقده وناقشه [٤] ، ولابن حسنون المصري كتابه " نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب " ، وألف أديب آخر كتاب " المآخذ الكندية من المعاني الطائية " أي سرقات المتنبي من أبي تمام . وغير ذلك من كتب النقد التي تدور حول شعر المتنبي .

وقد أبدى علماء الأدب في شتى العصور رأيهم في المتنبي وشعره : كالشريف الرضي م ٤٠٥ هـ[٥] ،و ابن رشيق له ٤٥٦ هـ في " عمدته " وابن خلدون م ٨٠٨هـ في " مقدمته عن الشعر " [٦] ، وسيف الدولة الحمداني م ٣٥٦ هـ[٧] وابن العميد م ٧٦٠ هـ وأبو فراس الحمداني م ٣٥٧ هـ [٨] ، وابن خالويه النحوي[٩] وسيبويه المصري[١٠] والحاتمي، وقد عرض الكيلاني في كتابه " صورة جديدة من الأدب العربي " مناظرة الحاتمي لأبي الطيب ، وغير هؤلاء من الباحثين ، ونقده كثير من الكتاب المحدثين ، وكثير من المستشرقين مثل : وايسكي ، دي ساسي ، بولمين ، بركلمان ، نيكلسون ، عامر ، ديتريشي ، وكتب المستشرقين الإنجليزي هندلي في تاريخ حياة أبي الطيب بحوثا قيمة نشرها في القرن التاسع عشر .

---

(١) ١٦١ صبح ، ٢٦١ج٢ النثر الفني .
(٢) ١١١ - ١١٩ ج٢ المرجع .
(٣) ١٥٨ و١٦١ صبح .
(٤) ١١١٤-٥٩ صبح .
(٥) ١٠٣ صبح .
(٦) ٤٣ صبح .
(٧) ٤٦-٤٨ صبح .
(٨) ٤٥ و٩٠-١٠٣ صبح .
(٩) ٦٣صبح .
(١٠) ٧١ - ٨٠صبح ، ١٠٦-١٣٧ صور جديدة لكيلاني .

بين المتنبي وابن هانىء شاعر المعز

- ١ -

عاش المتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤) فى العصر الذى عاش فيه ابن هانىء الشاعر (٣٢٠ - ٣٦٢) هـ .ولقد كان أبو الطيب المتنبى شاعرا . ولكنه أراد أن يكون ملكا على عرش من العروش ، أو أميرا على ولاية من الولايات . فأخفق ، أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التى لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، فملأ شعره سخطا على الناس ، وغضبا على المجتمع ، وبرما بالحياة ، بعد أن كان يذيعه أنغاما حية من الطموح والأمل والأقدام ، وأخذ يدعو إلى مذاهب جديدة متشائمة ، أوحى بها إليه سخطه وغضبه ، وآرائه وتجاربه ، وآماله وآلامه ، بعد كان يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر صريعا مضرجا بالدماء .

وأخطأ أبو الطيب من حيث أصاب القدر ، فهذا المجد السياسى الفانى الذى طلبه المتنبى فى حياته ما قيمته وما جدواه وما شاوه أمام هذا المجد الأدبى الخالد ، الذى كتبته له الأيام بعد وفاته ، وقلدته عروشه الباقية الخالدة .

فالمتنبى كشاعر هو هو ، هو الذى عصف فى حياته بخصومه وأقرانه فى مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره فى أرجاء العالم الإسلامى إذ ذاك ثائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق ... وغرب حتى ليس للغرب مغرب

يردده الناس ، وتشدو به الحياة :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وهو الذى فتن بشعره ، فتنة الفنان بفنه ، حتى رأى أنه يتبوأ فى الشعر العربى عروش الإمارة ، من حيث حرمها هو :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك ... سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم ... شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

ثم كان أبو الطيب الشاعر الذى نال بعد حياته من المجد الأدبى ما لم ينله شاعر من الشعراء ، فشدت الأجيال بشعره ، وهتفت القرون بذكره ، وعكف كثير من فحول الأدب والبيان فى كل عصر وجيل على تراثه الأدبى بحثا ودراسة ونقدا ، وعدوه شاعر العربية فى عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ فى شتى عصورها الأدبية ، وأحاطوا ذكره بهالة من التقدير والإعجاب ، وجلال الذكر عظمة الفن ، تشبه الهالة التى يحيط بها الأوربيون ذكرى شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى من أدباء الغرب الخالدين .

- ٢ -

ومن الغريب فى البحث الأدبى حقا أن نرى بين أبى الطيب المتنبى وابن هانىء الشاعر وجوها كثيرة من التشابه فى العقيدة وفى الشخصية وفى الشاعرية وفى المنزلة الأدبية فى عصر الشاعرين :

فحياة ابن هانىء تشبه حياة المتنبى فى كثير من مظاهرها والعقيدة الفاطمية التى كان يؤمن بها ابن هانىء شبيهة بالعقيدة الإسماعلية التى آمن بها أبو الطيب ! وطموح ابن هانىء لا يعادله إلا طموح المتنبى ، ومكانة ابن هانىء عند الأمراء والملوك فى عصره هى مكانة أبى الطيب فى بلاط سيف الدولة وكافور وعضد الدولة ، وتتويج ابن هانىء أميرًا على إمارة القريض فى دولة المعز هو ما حدث لأبى الطيب من إمارته على الشعر فى المشرق ، وشاعرية الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب نكادان تتعادلان فى شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانىء لم يصل إلى مكانة المتنبى فى الحكمة وضرب المثل وفى الرثاء وفى بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لم يصل إلى مكانته فى دقة المعانى وبعدها وعمق الثقافة العقلية وتنوعها ، وإن كان ابن هانىء يجارى أبا الطيب فى هذا الميدان إلى حد ما ، وروح الشاعرية فى الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، تتشابه من حيث قوة الأسلوب وفحولته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن الألفاظ المترفة ، والإلمام بكثير من الغريب ، وتتشابه فى الكثير من السمات الفنية الخاصة التى تراها فى شعر الشاعرين وفى تراث الشاعرين ، وفى إنتاج هذين الشخصيتين .

- ٣ -

ويشبه النقاد وعلماء الأدب ابن هانىء بالمتنبى ، ويلقبونه بمتنبى المغرب ، ويسلمون له زعامة الشعراء فى المغرب والأندلس ،ثم حاولوا أن يقارنوا بينه وبين

المتنبى . ولكن المقارنة – مع اتحاد العصر وتوافق البيئة والمؤثرات العامة وتوافق الشاعرين فى كثير من مميزاتهما – غير ممكنة ، لأن لكل شاعر طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ، ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ، وإن كان ابن هانىء أقرب الشعراء إلى المتنبى ، وأقربهم مكانة فى عصر الشاعرين ، ويكاد المجد الأدبى الذى لاقاه ابن هانىء فى حياته يضارع الشقاء الذى لاقاه أبو الطيب فى عصره ، كما يكاد الذكر الأدبى السائر الذى ناله المتنبى بعد حياته يضارع الخمول الأدبى الذى لازم اسم ابن هانىء بعد وفاته .

– ٤ –

ولقد كان ابن هانىء بطبيعة سنه تلميذا أو كالتلميذ لأبى الطيب ، قرأ ديوان المتنبى وتأثر به فى كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته ، وفى كثير من قصائده فقد استعار ابن هانىء ديوان أبى الطيب بعد وفاته ، أى بعد عام ٣٥٤ هـ ، من أديب أساء بعد فى طلبه منه ، فنظم فى ذلك الشاعر قصيدته :

تنبأ المتنبى فيكم عصرا   ولو رأى رأيكم فى شعره كفرا
مهلا فلا المتنبى بالنبى ولا   أعد أمثاله وشعره السورا
تهتم علينا بمرآه وعلكم   لم تدركوا منه لاعينا ولا أثرا

وابن هانىء فى قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين للمتنبى ، ثم يحاول أن ينكر فضله فيقول :

ويلمه شاعرا أخملتموه ولم   نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا

ثم يصف جناية القوم على شعره ، وتصحيفهم إياه ، ويتهكم بهم ، إلى أن يقول :

أريتمونى مثالا من روايتكم   كالأعجمى أتى لا يفصح الخبرا
أصم أعمى ، ولكنى سهرت له   حتى رددت إليه السمع والبصرا
كانت معانيه ليلا فامتعضت له   حتى إذا ما بهرن الشمس والقمرا
ضجرتم وأتانا من ملامتكم   ومن معارضيكم ما يشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته   كما حرصتم على ديوانه نشرا

وظاهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء كان كثير التصحيف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثروا من الضجر من ابن هانىء ،

وقول ابن هانيء " فلو حرصتم على إحياء مهجته " - أى المتنبى - دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبى .

وابن هانيء : فى أول قراءته لديوان المتنبى لم يعترف له - كما يقول - بقدر ولا خطر . ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبى الطيب وتقليده لا سيما فى أمثاله وحكمته ، وفى شعر ابن هانيء قصائد وأبيات كلها تسير على روح قصائد وأبيات للمتنبى ، ولذلك كانت الحكمة فى شعر ابن هانيء متأخرة جدا فى حياته لم تواته إلا وهو فى نهاية عصر رجولته ، وكذلك أيضا تجد بين ابن هانيء وأبى الطيب تشابها كثيرا فى كثير من الأساليب والمعانى ، مما يطول بنا الحديث لو حاولنا تفصيل ذلك والإلمام بنواحيه .

- ٥ -

وهناك أسطورة أدبية رواها البديعى م ١٠٩٣ فى " الصبح المنبى عن حيثية المتنبى " ، تحدثنا بأن أبا الطيب عزم وهو فى مصر على أن يهاجر إلى المغرب فلقيه ابن هانيء فى الطريق ، فأنشده أبو الطيب شعرا له ، ثم أنشده ابن هانيء من شعره . فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لابن هانيء شاعره .

وهى أسطورة أدبية حافلة بالبواعث التى دعت إلى اختلافها ، وفيها إشادة بابن هانيء وبفنه وشاعريته .

بين المتنبى والنقاد

- ١ -

هذه مثل لما دار بين النقاد من آراء فى النقد ، ومناقشات فى الحكم على الشعراء ، انكر النقاد على المتنبى قوله :

جللا كما بى فليك التبريح ... أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح

فقال رجال الأعراب : حذف النون من يكن خطأ ما دام قد وليها اللام ، ورد عليهم الجرجانى بأن ضرورة الشعر تجيز ذلك الحذف .. وقال أصحاب المعانى : قطع المصراع الثانى عن الأول فى اللفظ والمعنى ، فقال لهم الجرجانى فى وساطته : إنما يصوغ الإنكار لو قطعهما عن بعض قبل تمام المعنى ، فأما أن يستوفى مراده ثم ينتقل إلى غيره فليس بعيب ، والمصراعان فى هذا كالبيتين ، يجوز استقلال كل بمعناه ، وقال البعض : قد يفعل الشاعر مثل ذلك فى النسيب خاصة

ليرى أنه مشغول عن تقويم خطابه بالحب الذى غلبه . والشوق الذى تمكن منه ، وقال غيره إن بين المصراعين اتصالا لطيفا . فلما أخبر عن عظم تبريحه وشدة أسفه بين أن الذى أورثه ذلك هو الأغن الذى شككه غلبة شبه الغزلان عليه فى غذاءه .

٢- وأنكروا عليه قوله :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه   فلا أحد فوقى ولا أحد مثلى

لأن ما ليست للتشبيه ، وقد سئل أبو الطيب عن هذا فذكر أن ما تأتى لتحقيق التشبيه ، تقول : هو الأسد وما هو إلا الأسد وإلا كالأسد . فقال الجرجانى ردا على أبى الطيب رأيه : إن التشبيه بما به محال ، وإنما يقع التشبيه فى هذه المواضع بحرفه ، وما لم تتعد موضعها من النفى ، ولكنه لما كانت ما وإلا تأتى لتحقيق المعنى الذى يفيده أصل التركيب كالتشبيه فى مثل ما هو إلا الأسد ، صح أن ينسبه التشبيه تجوزا إلى ما ، إذ كان لها هذا الأثر ، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله.

٣- وينكر النقاد على أبى الطيب جمعه بوقا على بوقات فى قوله :

إذا كان بعض الناس سيف لدولة   ففى الناس بوقات لها وطبول

وإنما الصحيح جمعه على أبواق ، فقال لهم الجرجانى : إن أصل الجمع التأنيث ، فإن جمع أسما لم يجد عن العرب جمعا له فأجراه على الأصل لم يسغ الرد عليه ، أو أن ينسب الخطأ لأجله ، وإن كان لأبى الطيب عن مثل هذا مندوحة .

٤- ومما أنكره النقاد على أبى الطيب قوله :

وإنى لمن قوم كأن نفوسنا   بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وكان الأسلوب يفرض عليه أن يقول : نفوسهم ، ولكنه قطع قبل استيفاء الكلام وإتمام الخير ، وقد رد عليهم بعض النقاد بأن الكلام جرى على أسلوب الالتفات بحمله على المعنى وصرف الضمير على وجهه ، وهو أسلوب تنطق به العرب كثيرا فى بلاغتهم وبيانها ، ولكن الجرجانى لا يقبل ذلك الرأى لما فى هذا الأسلوب، إذا سير عليه دائما من تداخل الضمائر والتباس المعانى ، وهو أسلوب له مواضع تختص بالجواز ، وأخرى تبعد عنه ، ويرى القاضى أن بيت أبى الطيب غير مستكره فيما يجوز فى أسلوب الالتفات ، ولكنه غير معذور بتركه باب الصحة إلى المشكل الواهى الضعيف .

ولقد كان في المتنبي كبر وزهو . وكان يعتد كل الاعتداء بنفسه وفنه حتى رأى شعره يتبوأ في الشعر العربي عروش الإمارة التي نشدها لنفسه فأخفق وحرم منها:

إن هذا الشعر في الشعر ملك   سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم   شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبي منتهاه ، كان أبلغ شحيح بشعره على رجالات العالم الإسلامي وشخصياته البارزين : فلم يمدح أحدا إلا في القليل النادر عن الذين تربطهم بالشاعر صلات خاصة ، أو ممن كان يسعى لديهم في سبيل تحقيق مطامحه في الإمارة .

وفي عام ٣٥٣ هـ كان المتنبي في بغداد فأخذ يفاوضه رجالاتها كالصابي م سنة ٣٨٣ والمهلبي الوزير في ان يقلدهم مدحة من مدائحه فاعتذر ، وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسي أن يشيد أبو الطيب بدولتهم فلم يفعل ، فأثار وجود المتنبي مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو الطيب ، فيمم وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشا يتبوؤه ، وطمع الصاحب بن عباد في زيارته له بأصفهان ، فكتب إليه يرحب بقدومه ويعلن استعداده لأن يشاطره ماله ، ولكن أبا الطيب أبى أن يقلد شعره شابا ليس في يده تحقيق آماله البعيدة ومطامحه الواسعة ، فرفض عرض الصاحب شاخصا إلى عضد الدولة لنفس غاياته ، لا رغبة في إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاها   والجأ إليه تكن حدياها

وكان رفض المتنبي اليد التي مدها الصاحب إليه باعثا على عداوة " ابن عباد " له ، ونقده إياه ، وحمله الأدباء والكتاب على ثلبه ومهاجمته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبي الجائر ، وألف بباعث العصبية والخصومة رسالته الصغيرة الحجم الكبيرة المغزى والقيمة : " الكشف عن مساوىء المتنبي في شعره " ينقد فيه شعره سواء في اللفظ والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه ، وكان الصاحب لاذعا عنيفا في نقده للمتنبي ، وتهكمه في شعره ، غير آبه لجانب الإحسان والروعة في شعره ، ولقد تجاهل الصاحب - عصبية منه على المتنبي - نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والآمال والاتجاه فيه ، وأخذ يحكم

عليه أحكاما قاسية لا هوادة فيها ولا رحمة . وهو في هذا الاتحاد يناقض الجرجاني . الذى فهم النقد على أنه البحث في هدى العدالة والإنصاف عن مكانة الشاعر الأدبية على ضوء خصائص فنه وميزات شعره ، ووزن ما زل فيه الشاعر وما أجاد فيه بقسطاس مستقيم عادل ، ونهج الصاحب في نقده صورة لاتجاه أستاذه ابن العميد فيه ، مما عبر عنه الصاحب في رسالته بقوله " وكان ابن العميد يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولايرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن[1] " . فهو نقد لمعاني الشاعر ،وطبعه الأدبي ،وذوقه الاجتماعي ، ونقد لأسلوبه في صياغته ، واختيار ألفاظه ، وحروفه ، وقافيته ، وموسيقاه .

وذكر أن المتنبي يضؤل أمام أبي تمام والبحتري في صياغته ما كان يقتبس منهما من معان ، كما يضؤل بجانب الفرزدق في الفخر .. وكانت غاية الصاحب من وراء ذلك كله هدم مجد المتنبي الأدبي ، وتشويه سمعته كشاعر ممتاز من شعراء العربية ، وان كان الصاحب وصل إلى بعض ما أراد في حياة أبي الطيب فإن مجده قد عصف بكل ما أراد خصومه : فوهب ذيوع الشهرة ومجد الخلود .

وقد نقد ابن رشيق في عمدته في مواضع مفرقة منها آراء الصاحب في نقده فرد عليه مثلا نقده لبيت المتنبي :

صلاة الله خالقنا حنوط ... على الوجه المكفن بالجمال[2]

والإنصاف يلزمنا أن نقول : إن نقد الصاحب كله لم يكن مدفوعا ببواعث الهوى أو بمنأى عن العدالة والإنصاف ، وإن كان الصاحب يتجاهل لغاية في نفسه شخصية الشاعر وروحه وأثرهما في فنه : فنراه مثلا ينقد بيت أبي الطيب :

لو استطعت ركبت الناس كلهم ... إلى سعيد بن عبد الله بعرانا

نقدا لازعا[3] . وللنقاد حق السخط على هذا البيت في بادى الرأى : ولكن النظرة الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر في بيته هذا إصر كل مؤاخذة ، فهذه هي روح الشاعر المتهكمة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذى لم ينل فيه آماله، المعتزة بنفسها وشخصيتها - تتجلى في البيت في صورة واضحة رائعة وهل أبلغ في السخرية وأمعن في التهكم ، من اتخاذ الناس مطايا يركبها الشاعر إن استطاع ليصل عليها إلى ممدوحه ؟ إن من الغريب حقا أن يكون فن شاعر كأبي

---

[1] ٢ الكشف .
[2] ٢٤٧ ج ٢ العمدة .
[3] ٢٦ الكشف .

الطيب رائعا كل الروعة ، بالغا نهاية القوة والسحر ، حين ينظر إليه كله كأثر أدبى حافل ، فيحكم على قصيدة من قصائده ، أو على مجموعة منها أو عليها كلها ، حينئذ يرتفع أبو الطيب إلى الذروة وينتهي شعره إلى الغاية ، أما إذا قطعت أوصاله فنظرت إلى بعضه كحرف في كلمة من كلماته ، أو لفظ في بيت في قصيدة من قصائدة ، أوخذ الشاعر وحوسب حسابا غير يسير ،لقد تعمد الصاحب أن ينظر إلى فن أبى الطيب هذا النظر الجزئى ، مخفيا وراء نقده ما فى نفسه من إعجاب وتقدير ، وقد شاء الجرجانى فى وساطته ألا يترك هذه الناحية أو يغفلها ، فطالب بالحكم على فن أبى الطيب كله أو جله أو كثير منه ، لا على جزيئاته الضئيلة التى لا تحط زلاته فيها من مكانته ومنزلته ، وعرض كثيرا من روائعه ، طالبا الإنصاف فى الحكومة و العدالة فى الرأى .

– ٣ –

رسالة الحاتمى فى نقد المتنبى[١] :

قال أبو على الحاتمي[٢] : كان أبو الطيب المتنبى عند وروده مدينة الإسلام، التحف رداء الكبر ، وأذال[٣] ذيول التيه ، وصعر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا[٤] مذرويه ، رافلا من التيه فى برديه ؛ يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره ، وروض لم يرع نواره سواه ، فدل بذلك مديدة أجرته رسن[٥]الجهل فيها ، فظل يمرح فى تثنيه ، حتى إذا تخيل أنه القريع[٦] الذى لا يقارع ، والنزيع[٧] الذى لا يجارى ولا ينازع وأنه رب الغلب ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام ! فطأطأ كثيرا منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه[٨] ، وتخيل أبو محمد المهلبى، أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ، ولا يقوم بتتبعه بشىء من مطاعنه ، وساء

---

(١) معجم الأدباء ص١٥٩ج١٨ ، ٤٨٢-٤٨٦ج٣ وفيات الأعيان نشر محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلثمائة وهو تلميذ غلام ثعلب (٢٦١-٣٤٥هـ)- راجع ٤٥٤-٤٥٧ ج٣ وفيات .

(٣) أذال : تبختر وجر ذيله على الأرض تيها .

(٤) نافضا : محركا . والمذروان : ناحيتا الرأس .

(٥) الرسن : الحبل .

(٦) القريع الذى يقارعك ، والمقارعة : المضاربة بالسيوف .

(٧) النزيع : الشريف من القوم الذى نزع إلى عرق كريم .

(٨) الجأش : النفس وقيل القلب .

معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل . فلا يكون في مملكته أحد يماثله في صناعته . ويساويه في منزلته !

فنهدت[1] حينئذ متتبعا عواره . ومتعقبا آثاره . ومطفيا ناره . ومهتكا أستاره ، ومقلما أظفاره ، وناشرا مطاويه . وممزقا جلباب مساويه . متحينا أن تجمعنا دار ، فأجرى أنا وهو في مضمار ، يعرف فيه السابق من المسبوق ، حتى إذا لم أجد ذلك قصدت موضعه الذى كان يحله في ربض[2] حميد .

فوافق مصيرى إليه حضور جماعة تقرأ شيئا من شعره عليه . فحين أوذن بحضورى ، واستؤذن عليه لدخولى . نهض عن مجلسه مسرعا . ووارى شخصه عنى مستخفيًا : فنزلت عن بغلة كانت تحتى ، وهو يرانى نازلا عنها . لا نتهائى بها إلى أن حاذيته . فجلست في موضعه . وإذا تحته قطعة من زيلو[3] مخلقة . قد أكلتها الأيام ، وتعورتها السنون . فهى رسوم خافية . وسلوك[4] بادية . حتى إذا خرج إلى نهضت إليه فوفيته حق السلام . غير مشاح[5] له في القيام . لأنه إنما اعتمد بنهوضه ألا ينهض لى عند موافاتى ، وإذا هو قد لبس سبعة أقبية كل قباء[6] منها لون . وكان الوقت آخر أيام الصيف ، وأخلقها بتخفيف اللبس ، فجلست وجلس وأعرض عنى ساعة لا يعيرنى فيها طرفه ، ولا يسألنى عما قصدت له ، وقد كدت أتميز[7] غيظا ، وأقبلت أسخف رأيى في قصده ، وأفند نفسى في التوجه نحو مثله ولوى عذاره عنى مقبلا على تلك الزعنفة[8] التى بين يديه ، كل واحد يومى إليه ، ويوحى بطرفه ، ويشير إلى مكانى بيده ، ويوقظه من سنة جهله ، وهو يأبى إلا ازورارا ونفارا ، وجريا على شاكلة خلقه المشكلة .

ثم رأى أن يثنى رأسه إلى ، فو الله ما زادنى على أن قال : أى شىء خبرك؟ قلت أنا بخير ! لولا ما جنيت على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى في المصير إلى مثلك ! ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى القرار ، وقلت له : أبن لى - عافاك الله - مم تهيك ! خيلاؤك وعجبك ؟ وما الذى يوجب ما أنت عليه من التجبر

---

[1] نهد : نهض . وعوراه : عيبه .

[2] الربض : المسكن .

[3] زيلو : معناها لحاف بالفارسية .

[4] السلوك : جمع سلكة وهى الخيط الذى يخاط به الثوب .

[5] منازع .

[6] القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .

[7] أتميز : أتقطع .

[8] الزعنفة : الطائفة من القبيلة تنفرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أصلهم واحدا.

والتنمر[1] ؟ أنسب فرعت سماء المجد به ! أم علم أصبحت علما يقع الايماء إليك فيه؟ هل أنت إلا وتد بقاع[2] في شر البقاع ؟ وجفاء [3] سيل دفاع ؟ يا الله ! استنت الفصال حتى القرعى[4] ! وإني لأسمع جعجعة[5] ولا أرى طحنا ! فامتقع لونه عند سماع كلامي ، وعصب[6] ريقه وجحظت عيناه . وسقط في يده ، وجعل يلين في الاعتذار لينا . كاد يعطف عليه عطف صفحي عنه ، ثم قلت : يا هذا إن جاءك رجل شريف في نسبه ، أو عظيم في أدبه ، صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه لم تعرف موضعه ، فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ! لكنك مددت الكبر سترا على نقصك ، وضربته رواقا دون جهلك ، فعاد إلى الاعتذار ، وأخذت الجماعة في تليين جانبي ، والرغبة إلى في قبول عذره ، واعتماد مياسرته ، وأنا آبى إلا استشراء[7] واجتراء ، وهو يؤكد الأقسام ويواصلها أنه لم يعرفني ، فأقول له : يا هذا ألم يستأذن لي عليك باسمي ونسبي ؟ أما في هذه العصابة من يعرفك بي لو كنت جهلتني ؟ وهب ذلك كذلك ، ألم ترني ممتطيا بغلة رائعة يعلوها مركب ثقيل ، وبين يدى عدة من الغلمان ؟ أما شاهدت لباسي ، أما شممت نشر عطري ؟ أما راعك شيئا من أمري ، أتميز به في نفسك عن غيري ؟ وهو في أثناء ما أكلمه يقول : خفض عليك ! أرفق ! استأن[8] : فأصحب[9] جانبي بعض الأصحاب ، ولان شماسي[10] بعض الليان ، وأقبل على وأقبلت عليه ساعة ، ثم قلت : أشياء تختلج في صدري من شعرك أحب أن أراجعك فيها ! قال : وما هي ؟ قلت : خبرني عن قولك :

فإن كان بعض الناس سيف لدولة ... ففي الناس بوقات لها وطبول

أهكذا يمدح الملوك ؟ ! وعن قولك :

ولا من في جنازتها تجار ... يكون وداعها نفض النعال

---

[1] التنمر : التشبه بالنمر ، والنمر لا يلقى إلا متنكرا غضبان .

[2] القاع : أرض سهلة مطمئنة .

[3] ما نفاه السيل من الزبد .

[4] يضرب مثلا للرجل يدخل نفسه في قوم ليس منهم ، والقرعى من الفصال : الذى أصابها قرع وهو بثر ، والاستنان : النشاط .

[5] مثل يضرب للذى يكثر الكلام ولا يعمل ، وللذى يعد ولايفي ، والجعجعة : صوت الرحى ونحوها ، والطحن : الدقيق .

[6] عصب : جف .

[7] استشراء : لجاجة وعنادا .

[8] استأن : لا تعجل .

[9] أصحب جانبي : انقاد .

[10] شماسي : امتناعي وإبائي .

أهكذا تؤبن أخوات الملوك[1] ؟ والله لو كان هذا في أدنى عبيدها لكان قبيحا ! وأخبرني على قولك :

خـف الله واسـتر ذا الجمـال بـبرقع   فإن لحت ذابت في الخدور العواتق[2]

هكذا تنسب بالمحبوبين ؟ وعن قولك :

وإذا أشـــار محدثــا فكأنــه   قـــرد يقهقـــه أو عجـــوز تلطـــم

أما كان لك في أفانين الهجاء التي تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الرذل ينفر عنه كل طبع ، ويمجه كل سمع ؟ وعن قولك :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم   إذا رأى غـير شــيء ظــنه رجــلا

أفتعلم مرئيا يتناوله النظر لا يقع عليه اسم شيء ؟ وما أراك نذلرت إلا إلى قول جرير :

مازلـت تحسـب كـل شـيء بعدهـم   خـــيلا تكـــر علـــيهم ورجـــالا

فأحلت المعنى عن جهته ، وعبرت عنه بغير عبارته ؛ وعن قولك :

ألـيس عجيــبا أن وصــفك معجــزا   وأن ظـنوني فـي معاليـك تظلـع[3]

فاستعرت الظلع لظنونك ، وهي استعارة قبيحة ! وتعجبت من غير متعجب ؛ لأن من أعجز وصفه لم يستنكر قصور الظنون وتحيرها في معاليه ، وإنما نقلته وأنشدته من قول أبي تمام :

ترقـت مـناه طـود عـز لـو ارتقـت   بـه الـريح فترا[4] لا نثنت وهي ظالع

وعن قولك تمدح كافورا :

فـإن نلـت مـا أملـت مـنك فـربما   شـــربت بمـــاء يعجـــز الطـــير ورده

إنها مدح أو ذم ؟ قال : مدح! قلت : إنك جعلته بخيلا لا يوصلك إلى خيره من جهته ، وشبهت نفسك في وصلك إلى ما وصلت إليه منه بشربك من ما ء يعجز الطير ورده ، لبعده وترامي موضعه !

---

[1] المعروف أن هذا البيت من قصيدة المتنبي في رثاء والدة سيف الدولة وأولها : نعد المشرفية والعوالي .

[2] العواتق : جمع عاتقة : الجارية أول ما أدركت . والخدور : الستور .

[3] الظلع : الغمز في المشي .

[4] الفتر : ما بين طرف الابهام وطرف الشيرة .

وأخبرني أيضا عن قولك في صفة كلب وظبي :

وصار ما في جلده في المرجل   فلم يضرنا معه فقد الأجدل[1]

فأي شيء أعجبك من هذا الوصف ؟ أعذوبة عبارته ؟ أم لطف معناه ؟ أما قرأت رجز[2] ابن هانيء وطرد[3] ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعاني التي ابتدعها هذان الشاعران وغرر المعاني التي اقتضباها ما تتشاغل به عن بنيات صدرك هذه ؟ وإلا اقتصرت على ما في أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم تسف إلى هذه الألفاظ القلقة والأوصاف المختلفة ؟ فأقبل علي ، ثم قال : أين أنت من قولي :

كأن الهام[4] في الهيجا عيون   وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم   فما يخطرن إلا في الفؤاد

وأين أنت من قولي في صفة جيش :

في فيلق[5] من حديد لو رميت به   صرف الزمان لما دارت دوائره

وأين أنت من قولي :

لو تعقل الشجر التي قابلتها   مدت محيية إليك الأغصنا

وأين أنت من قولي :

أيقدح[6] في الخيمة العذل   وتشمل من دهرها يشمل
وما اعتمد الله تقويضها[7]   ولكن أشار بما تفعل

وفيها أصف كتيبة :

وملمومة[8] زرد ثوبها   ولكنه بالقنا مخمل

وأين أنت عن قولي :

الناس ما لم يروك أشباه   والدهر لفظ وأنت معناه

---

[1] الضمير في جلده للظبي ، والمرجل : القدر من النحاس ، والضمير في معه للكلب ، والأجدل : الصقر .
[2] الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستفعلن ست مرات .
[3] الطرد : مزاولة الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر .
[4] الهام جمع هامة ، والهيجاء من أسماء الحرب وطبع السيف طرقه .
[5] الفيلق : الجيش ، وجعله من حديد لكثرة ما عليه ممن الدروع ، وصرف الزمان : حدثانه .
[6] ضربت خيمة لسيف الدولة فسقطت من ريح هبت .
[7] تقويضها : هدمها ، واعتمد الأمر : قصده.
[8] ملمومة مجموعة مضمومة والمخمل ما جعل له خمل ، وهو هدب القطيفة ونحوها .

والجــود عــين وأنــت ناظــرها والــبأس بــاع وأنــت يمــناه

أما يليهك إحساني في هذه عن أساءتي في تلك ؟

قلت : ما أعرف لك إحسانا في جميع ما ذكرته ! إنما أنت سارق متبع ! وآخذ مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعاني التي ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل بقولك ! فأما قولك :

كــأن الهــام فــي الهــيجا عــيون وقــد طبعــت ســيوفك مــن رقــاد

فهو منقول من بيت منصور النميري :

فكأنمــا وقــع الحســام بهامــه خــدر المنــية أو نعــاس الهــاجع

وأما قولك :

في فيلقي من حديد لو رميت به صـرف الـزمان لمـا دارت دوائـره

فنقلته نقلا لم تحسن فيه ، من قول الناجم :

ولي فــي حــامد أمــل بعــيد ومــدح قــد مدحــت بــه طــريف

مديــح لــو مدحــت بــه اللــيالي لمــا دارت عــلى لهــا صــروف

والناجم إنما نظمه من قول أرسطاليس : قد تكلمت بكلام لو مدحت به الدهر لما دارت على صروفه .

وأما قولك :

لــو تعقــل الشــجر الــتي قابلــتها مــدت محيــية إلــيك الأغصــنا

فهذا معنى متداول ، تساجلته[1] الشعراء ، وأكثرت فيه ، فمن ذلك قول الفرزدق :

يكــاد يمســكه عــرفان راحــته ركـن الحطـيم إذا مـا جـاء يسـتلم

ثم تكرر في أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :

لــو سـعت بقعــة لا عظــام أخــرى لسـعى نحوهــا المكــان الجديــب

وأخذه البحتري فقال :

لــو أن مشــتاقا تكلــف فــوق مــا فــي وسـعه لمشـى إلـيك المنـبر

---

[1] تساجلته : تبارت فيه .

وأما قولك :

ومـــا اعـــتمد الله تقويضـــها ولكـــن أشـــار بمـــا تفعـــل

فقد نظرت فيه إلى قول رجل مدح بعض الأمراء بالموصل ، وقد كان عزم على السير فاندق لواؤه ، فقال :

مـا كـان مـندق اللـواء لريـبة تخشـى ولا أمـر يكـون مـزيلا[1]

لكـن لأن العـود ضـعف متـنه صـغر الولايـة فاسـتقل الموصـلا

وأما قولك :

ومـــــلمومة زرد ثوبهـــــا ولكـــنه بالقـــنا مخمـــل

فمن قول أبي نواس :

أمـام خمـيس[3] أرجـوان كأنـه قمـيص محـوك مـن قـنا وجـياد[2]

وأما قولك :

الــناس مــالم يــروك أشــباه والدهــر لفــظ وأنــت معــناه

فمن قول على بن نصر بسام في عبيد الله بن سليمان يرثيه ؛ (ويروى لابن المعتز) :

قـد استوى الـناس ومات الكمـال وصاح صرف الدهر : أين الرجال ؟

هــذا أبــو القاسـم فــى نعشــه قوموا انظروا كيف تزول الجبال

فقوله : قد استوى الناس ، ومات الكمال ..... هو قولك : الناس ما لم يروك أشباه !

فقال : بعض الحاضرين : ما أحسن قوله : قوموا انظروا كيف تزول الجبال ؟ فقال : أبو الطيب : اسكت ! ما فيه من حسن ، ألم يسرقه من قول النابغة الذبياني .

يقولـون حصـن ثـم تـأبى نفوسـهم وكـيف بحصـن والجـبال جـنوح ؟

قال الحاتمي ، فقلت : قد سرقه النابغة من أوس حين قال :

ألم تكســف الشــمس الــنهار والــبدر للقمــر الواجــب[1]

لفقــد فضــالة لا يســتوى القــ ــعود ولا خلــة الذاهــب

---

[1] زيله : فرقه .

[2] جمع جيد : المدرعة الصغيرة .

[3] الخميس : الجيش .

ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأخذ فقال الرجل : أجل ، فقال المتنبي : يا محسد خذ بيده، وأخرجه - يريد بمحسد ابنه - فرجعت إلى أن تركه ، ثم قلت له : وأما قولك : الدهر لفظ وأنت معناه .. فمنقول من قول الأخطل - إن كان البيت له - في عبد الملك ابن مروان :

وإن أميـر المؤمنين وفعلـه		لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد قال جرير حين قال الفرزدق :

فإني أنا الموت الذي هو نازل		بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

وقال جرير :

أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد		فجئني بمثل الدهر شيئا يطاوله

ثم قلت : أترى أن جريرا أخذ قوله " يفني الموت " من أحد ؟ وأن أحدا شركة في إفناء الموت ؟ ففكر طويلا ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ! عمران بن حطان حيث يقول :

لن يعجز الموت شيء دون خالقه		والموت فإن إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع		بالموت ، والموت فيما بعده جلل

فأمات الموت ، وأحياه ، وما سبقه إلى ذلك أحد ثم قلت له : أترى إن البيت المتقدم ، الذي يقول فيه :

وإن أميـر المؤمنين وفعلـه		لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

مأخوذ من أحد ؟ فأطرق هنيهة ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يستدل على موضعك ، ومواضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ، أساء سمعا فأساء إجابة ! ما أردت ما ذهبت إليه ، قلت : فإنه أخذه من قول النابغة ، وهو أول من ابتكره :

وعيرتني بنو ذبيان خشيته		وما علي بأن أخشاك من عار

ثم أخذه أبو تمام فأحسن بقوله :

خشعوا لصولتك التي هي فيهم		كالموت يأتي ليس فيه يعار

---

[1] الواجب : الغائب .

قال : ومن أبو تمام ؟ قلت : الذي سرقت شعره . فأنشدته . قال : هذه خلائق السفهاء . لا خلائق العلماء . قلت : أجل ! أنت سفهت رأيي ولم يكن سفيها . ألست القائل :

ذي المعالي فليعلون من تعالى — هكذا هكذا وإلا فلالا
شرف ينطح الثريا بروقيـ[1] — ـه وفخر يقلقل الأجبالا

قال : بلى ! قلت : فإنك أخذت البيت الأول من بيت بكر بن النطاح :

يتلقى الندى بوجه حيي — وصدور القنى بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالي — طرق الجد غير طرق المزاح

وأخذت البيت الثاني فأنشدته من قول أبي تمام :

همة تنطح الثريا وجد — آلف للحضيض فهو حضيض

قال : وبأي شيء أفسدته ؟ قلت : بأن جعلت للشرف قرنا . قال : وأنى لك بذلك ؟ قلت : ألم تقل : ينطح السماء بروقيه ؟ والروقان : القرنان ؟ قال : أجل ! إنما هي استعارة ، قلت : نعم ! هي استعارة خبيثة .

قال : أقسمت غير محرج في قسمي أنني لم أقرأ شعرا قط لأبي تمامكم هذا ! فقلت : هذه سوءة لو سترتها كان أولى ! قال : السوءة قراءة شعر مثله : أليس هو القائل :

خشنت عليه أخت بني خشين — وأنجح فيك قول العادلين

والذي يقول :

لعمري لقد حررت يوم لقيته — لو أن القضاء وحده لم يبرد

والذي يقول :

تكاد عطاياه يجن جنونها — إذا يعوذها[2] بنغمة طالب

والذي يقول :

تسعون ألفا كآساد الشرى[3] نضجت — أعمارهم قبل نضج التين والعنب

---

(1) الروقان : القرنان .
(2) يعوذها : يحفظها .
(3) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها مثل .

والذى يقول :

ولى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ حث النجاء[1] وخلفه التنين

والذى يقول :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

والذى يقول :

أقول لقرحان من البين لم يصب رسيس[2] الهوى بين الحشا والترائب

ما قرحان البين ؟ أخزي الله لسانه ! فأحفظنى[3] ذلك وقلت : يا هذا من أدل الدليل على أنك قرأت شعر هذا الرجل تتبعك مساويه ؛ فهل فى الدلالة على اختلافك إنكاره أوضح مما ذكرته ؟ وهل يصم أبا تمام أو يسمه بميسم النقيصة ما عددته من سقطاته ، وتخونته[4] من أبياته ، وهو الذى يقول فى النونية :

نوالك رد حسادى فلولا وأصلح بين أيامى وبينى

فهلا اغتفرت الأول لهذا البيت الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، وأما قوله :

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب[5]

فلهذا البيت خبر لو استقريت صحفة لأقصرت عما تناولته بالطعن فيه ، ثم قصصت الخبر ، وقلت : فى هذه القصيدة ما لا يستطيع أحد من متقدمى الشعراء وأمراء الكلام وأرباب الصناعة أن يأتى بمثله ، قال : وماهو ؟ لو قال قائل : إن أحدا لم يبتدى بأوجز ولا أحسن ولا أخصر من قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حدة الحد بين الجد واللعب

لما عنف فى ذلك ، وفيها يقول :

رمى بك الله برجيها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم يصب

---

[1] النجاء : السرعة فى المشى .

[2] رسيس الهوى : بقيته وأسره .

[3] فأحفظنى : فأغضبنى .

[4] تخونته : تنقصته .

[5] أى أن جيش العدو كان تسعين ألفا حل أجليهم قبل أن ينضج التين والعنب وفى هذا تهكم بالمنجمين .

وفيها يقول :

فـتح تفـتح أبـواب السـماء لـه ... وتـبرز الأرض فـى أثوابهـا القشـب

وفيها يقول :

بكـر فمـا افترعـتها كـف حداثـة ... ولا ترقـت إلـيها همـة الـنوب

وفيها يقول :

غـادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشـله[1] وسـطها صـبح مـن اللهـب

حـتى كـان جلايـب الدجـى رغبـت ... عـن لونهـا وكـأن الشـمس لم تغـب

وفيها يقول :

أجبـــته معلـــنا بالســـيف منصـــلتا ... ولـو أجبـت بغير السيف لم تجـب

وأما قولـه : أقـول لقرحان مـن الـبين .. فإنه يريد رجلا لم يقطعه أحبابه ولم يبينوا عـنه قبل ذلك ، إذا كانت حاله كذلك كان موقع البين أشد عليه وأفت في عضده ، والأصل في هذا : أن القرحان الذى لم يجدر[2] قط ، وقد قال جرير :

وكنـــت مـــن زفـــرات الـــبين قـــرحانا

وفـى هـذه القصيدة مـن المعانى الـرائعة والتشبيهات الواقعة والاستعارة البـارعة ما يغتفر معه هذا البيت وأمثاله ، على أنا أبنا عن صحة معناه وعن أمثاله فمن ذلك :

إذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد ... تقطـع مـا بيـنى وبـين النوائـب

يـرى أقـبح الأشـياء أوبـة آمـل ... كسـته يـد المـأمول حلـة خائـب

وأحسـن مـن نـور يفـتحه الـندى ... بـياض العطايا فـى سـواد المطالـب

ولـو كـان يفـنى الشعر أفناه ما قرت[3] ... حياضـك مـنه العصـور الذواهـب

ولكـنه فـيض العقـول إذا انجلـت ... سـحائب جـود أعقبـت بسـحائب

فبهره ما أوردتـه ممـا قصر عنان عبارته ، وحبس بنيات صدره ، وعقل عن الإجابـة لسانه ، وكاد يشغب[4] لـولا ما تخوفه من عاقبة شعبه ، ما عرفه من مكانى فى تلك الأيام ، وأن ذلك لا يتم له ، فما زاد على أن قال قد أكثرت من أبى تمام

---

(1) أى يطرده .

(2) أى لم يصب بالجدرى .

(3) ماقرت : ما جمعت .

(4) يشغب : يهيج الشر .

لاقدس الله أبا تمام وذويه ! قلت : ولا قدس السارق منه والواقع فيه ، ثم قلت له : ما الفرق - في كلام العرب - بين التقديس والقداس والقداس والقادس ؟ فقال : وأى شيء عرضك في هذا ؟ فقلت : المذاكرة ! فقال بل المهاترة[1] ! ثم قال : التقديس: التطهير في كلام العرب ، ولذلك سمي القدس قدسا لأنه يشتمل على الذى به الطهور ، وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقلت : ما أحسبك أنعمت النظر في شيء من علوم العرب ، ولو تقدمت منك مطالعة لها ما استجزت أن تجمع بين معاني هذه الكلمات مع تباينها ، وذلك لأن القداس بتشديد الدال : حجر يلقى في البئر ليعلم بها غزارة مائها من قلته ، حكى ذلك ابن الأعرابي ، والقداس : الجمان حكى ذلك الخليل ، والقادس : الفينة قال الشاعر يصف ناقة :

وتهفـــو بهــــاد لهــــا مــــتلع[3] كمـا اقـتحم القـادس الأردمونـا[2]

فلما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمة إليك اللغة ! قلت : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرها[4] وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع في اشتقاقها والكلام على أفانينها ؟ وما أحد أولى بأن يسأل عن لغته منك ، فشرعت الجماعة الحاضرة في إعفائه وقبول عذره والتواطؤ [5] له . وقال كل منهم : أنت أولى بالمراجعة والمياسرة لمثل هذا الرجل من كل أحد ، وكنت قد بلغت شفاء نفسي ، وعلمت أن الزيادة على الحد الذى انتهيت إليه ضرب من البغي ، لا أراه في مذهبي ، ورأيت له حق القدمة[6] في صناعته ، فطأطأت له كتفي ، واستأنفت جميلا من وصفه ونهضت.

فنهض لي مشيعا إلى الباب حتى ركبت وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه ، وتشاغلت بقية يومي بشغل عن لي ، تأخرت معه عن حضرة المهلب ، وانتهى إليه الخبر ، وأتتني رسله ليلا فأتيته فأخبرته بالقصة ، فكان سروره وابتهاجه بما جرى مما بعثه على مباكرة معز الدولة قائلا له : أعلمت ما كان من فلان والمتنبي ؟ قال : نعم ! قد شفي منه صدورنا !

---

[1] المهاترة : المسابة بالقبيح من القول .

[2] الأردمون : جمع أردم : وهو الملاح الحاذق .

[3] من أتلع فلان : مد عنقه متطاولا .

[4] أبو عذرها : يريد ممهد سبيلها .

[5] أي موافقته .

[6] القدمة : التقدم .

وهذه سرقات شعرية نفاضل من ثناياها بين الشعراء ، قال النابغة :

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى قد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضرب من العبارات فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال أبو تمام :

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا إنها لم تقاتل

وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء إلا أنهم جاءوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك ، أو من جهة الإيجاز فى اللفظ ، ولم نر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلك هذا الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها خوفا فأنفسها إليك تطير
لو حاكمتك فطالبتك بذحلها شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى ، وكذلك فعل أبو الطيب فإنه لما انتهى الأمر إليه سلك هذا الطريق التى سلكها من تقدمه إلا أنه خرج فيها على غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الإحسان بجملته . وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره ، فمما جاء منه قوله له :

تفدى أتم الطير عمرا سلاحه نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أراد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال :

سحاب من العقبان ترجف تحتها سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفي الإغراب، والإعجاب ، وقال في موضع آخر :

وذي لجـب لاذو الجـناح أمامـه ... بـناج ولا الوحـش المـثار بسـالم
تمـر عليه الشـمس وهـي ضـعيفة ... تطالعـه مـن بـين ريـش القشـاعم
إذا ضـوؤها لاقـى مـن الطير فرجة ... تـدور فـوق البـيض مـثل الدراهـم

وهذا من إعجاز أبي الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الإحسان في شعره الا هذه الأبيات ، لا ستحق بها فضيلة التقدم .

وقال أبو تمام :

فـتى لا يـرى أن الفريصـة مقـتل ... ولكـن يـرى أن العـيوب مقـاتل[1]

وقال أبو الطيب المتنبي :

يـرى أن مـا بـان مـنك لضـارب ... بأقـتل ممـا بـان مـنك لعائـب

فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ، ومثاله في ذلك كمن أودع الوشي شملا ، وأعطى الورد جعلا ، وهذا من أرذل السرقات ، وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان[2] :

نحـن نعـزيك ومـنك الهـدى ... مسـتخرج والصـبر مسـتقبل
نقـول بـالعقل وأنـت الـذى ... نـأوي إلـيه وبـه نعقـل
إذا عفـا عـنك أودى بـنا الدهـر ... فـذاك المحسـن المجمـل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال :

إن يكـن صـبر ذي الـرزية فضـلا ... تكـن الأفضـل الأعـز الأجـلا
أنـت يـا فـوق أن تعزى عـن الأحبـ ... ـاب فـوق الـذي يعـزيك عقـلا
وبألفـاظك اهـتدى فـإذا عـزاك ... قـال الـذي لـه قلـت قـبلا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمسخ ، وأما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، فإن لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحا وتهذيبا ، فمن قول أبي الطيب المتنبي :

لـو كـان مـا تعطيهم مـن قـبل أن ... تعطـيهم لم يعـرفوا التأمـيلا

وقول ابن نباتة السعدي :

---

(1) الفريصة واحدة الفرائص : أوداج العنق ، أو هي اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد ، وعلى كلا المعنيين فهي من المقاتل .

(2) المعروف بديك الجن .

لم يـبق جـودك لى شـيئا أؤمله   تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها :

جـن علـى جـن وإن كـانوا بشـر   كأنمـا خـيطوا علـيها بالإبـر

ثم جاء المتنبى فقال :

فكأنهـا نتجـت قـياما تحـتهم   وكـأنهم ولـدوا عـلى صـهواتها

وبين القولين كما بين السماء والأرض ، فإنه ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة وكذلك يقال ها هنا أيضا ، فإنه بقدر ما فى قول أبى نواس من النزول والضعف ، فكذلك فى قول أبى الطيب من العلو والقوة .

مع الشعراء المحدثين

١ - مدح رؤبة بن العجاج[1]عقبة بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار حاضر يسمعه . فاستحسن ذلك من رؤبة ، فقال له رؤبة : هذا طراز لاتحسنه أنت يا أبا معاذ. وكان رجزهم فى ذلك الوقت يتأثر بطريقتهم البدوية إلى غايتها فى إيثار الغريب، فتأثر بشار من ذلك ، وأنشأ أرجوزة فى مدح عقبة بن مسلم يعارض بها أرجوزة رؤبة ، وهى:

يـا طـل الحـى بـذات الصـمد   بـالله خـبر كـيف كنـت بعـدى
أحسـنت مـن دعـد وتـرب دعـد   سـقيا لأسمـاء ابـنة الأشـد
قامـت تـرانى إذ رأتـنى وحـدى   كالشـمس تحـت الزبـرج المـنقد

إلى أن قال فى مدح عقبة :

أسـلم وحييـت أبـا الملـد   مفـتاح بـاب الحـدث المنسـد
مشـترك النـيل ورى الـزند   أغـر لـباس ثـياب الحمـد
لله أيـامك فـى معـد   وفـى بـنى قحطـان غـير عـد
كـل امـرىء رهـن بمـا يـؤدى   ورب ذى تـاج كـريم الجـد
كـآل كسـرى وكـآل بـرد   أنكـب جـاف عـن سـبيل القصـد

فصـلته عـن مالـه والولـد

[1] فى كتاب الشعر والشعراء عقبة بن رؤبة .

٢- وروى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يأتيان بشارًا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها في ابن قتيبة ؟ قال هى التى بلغتكما . قالا بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما:

بكــرا صــاحبى قــبل الهجــير إن ذاك الــنجاح فــى التــبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : يا أبا معاذ لو قلت مكان " إن ذاك النجاح " " بكرا فالنجاح " كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت " إن ذاك النجاح " كما يقول الأعراب البدويين ،ولو قلت " بكرا فالنجاح " كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف فقبل بين عينية .

٣- وحدث هارون بن سعدان قال : كنت مع أبى نواس فى بعض طرق بغداد ، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل ، بين أبى هاشم وفتيانهم ، والقواد وأبناءهم ، ووجوه أهل بغداد ، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم ،ولا يقبض رجله إليه ، إذ أقبل شيخ راكبا على حمار ، وعليه ثوبان دييقيان : قميص ورداء ، قد تقنع ورده على أذنيه ، فوثب إليه أبو نواس ، وأمسك الشيخ عليه حماره ، واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه فمكثا بذلك مليا، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى ، مستريحًا من الإعياء ، ثم انصرف الشيخ ، وأقبل أبا نواس فجلس فى مكانه ، فقال له بعض من بالحضرة : من هذا الشيخ الذى رأيتك تعظمه هذا الإعظام ؟ وتجله هذا الإجلال ، فقال : هذا إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية ، فقال له السائل : لم أجللته هذا الإجلال؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه ، قال : ويحك لا تفعل فو الله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى ، وأنا أرضي .

٤- قال سلم الخاسر : صار إلى أبو العتاهية ، فقال : جئتك زائرا ، فقلت : مقبول منك، ومشكور أنت عليه ، فأقم ، فقال : إن هذا مما يشتد على ، قلت : وأنا أضحك وأعجب عن مكابرته ، " رمتنى بدائها وانسلت " . فقال : دعنى من هذا واسمع منى أبياتا ، فقلت مات ، فأنشدنى :

نغــص المــوت كــل لــذة عــيش يــا لقومــى لــلموت مــا أوحــاه

عجــبا إنـــه إذا مـــات ميــت　　صــد عـــنه حبيـــبه وجفـــاه
حيــثما وجــه امــرؤ لــيفوت الــ　　ــموت فــالموت واقــف بحــذاه
إنمـــا الشــيب لابـــن آدم نـــاع　　قـــام فـــي عارضـــيه ثـــم نعـــاه
مـــن تمـــنى المـــنى فأغــرق فــيها　　مـــات مـــن قـــبل أن يـــنال مـــناه
مـا أذل المقـل فـي أعـين الـناس　　لإقلالـــــــه ومـــــا أقمـــــاه
إنمـــا تـــنظر العـــيون مـــن الـــنا　　س إلى مـــن تـــرجوه أو تخشـــاه

ثم قال لى : كيف رأيتها ؟ فقلت له : لقد جودتها لو لم تكن سوقية ، قال : والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها .

٥- وذكر ابن رشيق أبا العتاهية فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ ، ويعنى بها مع الإجادة وملاحة القصد ، وأنه اجتمع يوما مع أبى نواس والحسين بن الضاحك الخليع ، فقال أبو نواس : لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده ، من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية :

يـــا إخوتـــى إن الهـــوى قاتـــلى　　فســـيروا الأكفـــان مـــن عـــاجل
ولا تلومـــوا فـــى اتـــباع الهـــوى　　فإنـــنى فـــى شـــغل شـــاغل
عيـــنى عـــلى عتـــبة مـــنهلة　　بدمعهـــا المنســـكب الســـائل
يـــا مـــن رأى قبـــلى قتـــيلا بكـــى　　مـــن شـــدة الوجـــد عـــلى القـــاتل
بســـطت كفـــى نحوكـــم ســـائلا　　مـــاذا تـــردون عـــلى الســـائل
إن لم تنـــيلوه فقولـــوا لـــه　　قـــولا جمـــيلا بـــدل الـــنائل
أو كنـــتم العـــام عـــلى عســـرة　　مـــن فمـــنوه إلى قـــابل

فسلما له وامتنع من الإنشاد بعده ، وقالا به : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارات ، فلا تنشد شيئا ، قال ابن رشيق : وذلك في بابه من الغزل جيد أيضا ، لا يفضله غيره .

٦- وحدث عبد الله بن الحسن قال : جاءنى أبو العتاهية وأنا فى الديوان ، فجلس إلى فقلت : يا أبا إسحاق أما يصعب عليك شيء من الألفاظ ، فتحتاج فيه في استعمال الغريب ، كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر ، أو إلى ألفاظ مستكرهة قال : لا ، فقلت له : إنى لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافى السهلة ؛ قال : فاعرض على ما شئت من القوافى الصعبة ، فقلت : قل أبياتا على مثل البلاغ ، فقال : من ساعته :

أى عـــيش يكـــون أبلـــغ مـــن عـــيـ　　ـــش كفـــاف قـــوت بقـــدر الـــبلاغ

صاحب البغي ليس يسلم منه ... وعلى نفسه بغى كل باغ
رب ذى نعمة تعرض منها ... حائل بينه وبين المساغ
أبلغ الدهر فى مواعظة بل ... زاد فيهن لى على الابلاغ
غيبتنى الأيام عقلى ومالى ... وشبابى وصحتى وفراغى

٧- وقال مسعود المازنى : لقيت ابن مناذر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الإسلام ؟ فقال : أترى من إذا شئت هزل . وإذا شئت جد ؟ قلت من ! قال : مثل جرير حين يقول فى النسيب :

غيضن من عبراتهن وقلن لى ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ثم قال حين جد :

إن الذى حرم المكارم تغلبا ... جعل النبوة والخلافة فينا
مضر أبى وأبوك الملوك فهل لكم ... يا آل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إلى قطينا

ومن المحدثين فى هذا الخبيث الذى يتناول الشعر من كمه ، فقلت من ؟ قال أبو العتاهية ، قلت فى ماذا ؟ قال قوله :

الله بينى وبين مولاتى ... أبدت لى الصد والملالات
لا تغفر الذنب إن أسات ولا ... تقبل عذرى ولا مواتاتى
منحتها مهجتى وخالصتى ... فكان هجرانها مكافاتى
أقلقنى حبها وصيرنى ... أحدوثة فى جميع جاراتى

ثم قال حين جد :

ومهمه قد قطعت طامسه ... قفر على الهول والمحاماة
بحرة جسرة عذافرة ... خوصاء عيرانة علنداة
تبادر الشمس كلما طلعت ... بالسير تبغى بذاك مرضاتى
يا ناق خبى بنا ولا تعدى ... نفسك مما ترين راحات
حتى تناخى بنا إلى ملك ... توجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مفرقه ... تاج جلال وتاج إخبات
يقول للريح كلما عصفت ... هل لك يا ريح فى مباراتى
من مثل من عمه الرسول ومن ... أخواله أكرم الخؤولات

·ويوجد كثير غير ابن مناذر يشاركه هذا الرأى فى أبى العتاهية ، ومن ذلك بشار بن برد ، وقد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مخنث أهل بغداد ، يعنى أبا العتاهية .

٨- وقال بعض الأدباء : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ، فكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جوابا عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعهما فى قول الشعر ، فإذا تعاطيا جميعا السرعة فضله أبو العتاهية ، وإذا توقفا وتمهلا فضله أبو نواس.

٩- وروى عن ابن أبى الأبيض أنه قال : أتيت أبا العتاهية ، فقلت له : إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنه ، لأنى أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى ، فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردىء ، قلت : وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت صدقت ، ثم أنشدنى قصيدته :

لدوا للموت وابنوا للخراب	فكلكم يصير إلى تباب
أيا موت لم أر منك بدا	أتيت وما تحيف وما تحابى
كأنك قد هجمت على مشيبى	كما هجم المشيب على شبابى

فعلم أبو نواس فقال : والله ما أحسب فى شعره مثل ما أنشدك بيتا آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبى نواس فأنشدنى قصيدته التى يقول فيها :

طول التعاشر بين الناس مملول	ما لابن أدم إن فتشت معقول
يا راعى الشاة لا تغفل رعايتها	فأنت عن كل ما استرعيت مسئول
إنى لفى منزل مازلت أعمره	على يقين بأنى عنه منقول
وليس من موضع يأتيه ذو نفس	إلا وللموت سيف فيه مسلول
لم يشغل الموت عنا مذ أعد لنا	وكلنا عنه باللذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب	والحى ما عاش مغشى وموصول
كل ما بدا لك فالآكال فانية	وكل ذى أكل لابد مأكول

قال : ثم أنشدني عدة قصائد ما هي بدون هذه . فصرت إلى أبي نواس فأخبرته . فتغير لونه . وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد . ولم يقل فيها سواءًا.

١٠- اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل في مجلس فقالوا : لينشد كل واحد منكم أجود ما قاله من الشعر فاندفع رجل منهم كان معهم فقال : اسمعوا مني أخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبل أن ينشد . قالوا : هات . فقال لمسلم : أما أنت يا أبا الوليد فكأني بك قد أنشدت :

إذا ما علت منا ذؤابة واحد ... وإن كان ذا حلم دعته إلى الجهل
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

فقال له مسلم : صدقت ، ثم أقبل على أبي نواس فقال له : كأني بك يا أبا علي قد أنشدت :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد
تسقيك من عينها خمرا ومن يدها ... خمرا فما لك من سكرين من بد

فقال له : صدقت ، ثم أقبل على دعبل فقال : يا أبا علي فكأني بك تنشد قولك :

أين الشباب وأية سلكا ؟ ... لا أين يطلب ، ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل ... ضحك المشيب برأسه فبكى

قال : صدقت ، ثم أقبل على أبي الشيص فقال له : وأنت يا أبا جعفر كأني بك تنشد :

لا تنكري صدي ولا إعراضي ... ليس المقل عن الزمان براض

فقال : لا ، ما هذا أردت ولا هذا بأجود شيء قلته ، قالوا : فأنشدنا ما بدا لك ، فأنشدهم قوله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا ... ما من يهون عليك ممن يكرم

وقال أبو خالد العامري لابن المعتز : من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذلك ، والله لكان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان ،

وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك ، وليس توجد هذه الصفات كما ذكر في ديوان شعره ، ولا هو ساقط ، ولكن هذا سرف شديد .

١١- وقد أكثر أبو نواس من الثورة في شعره على منهج العرب في القصيدة وعاب عليهم بدءها بمساءلة الأطلال فقال :

صفة الطلول بلاغة القدم   فاجعل صفاتك لابنه الكرم

وقال :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند   واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقال :

سقيا لغير العلياء فالسند   وغير أطلال مي بالجرد

وقال :

يا ربع شغلك إني عنك في شغل   لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي

وقال :

تبكي على طلل الماضين من أسد   لا در درك قل لي من بنو أسد
لا جف دمع يبكي على حجر   ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

١٢- وقال بشار في تأييد إبراهيم بن عبدالله بن حسن حينما خرج على المنصور ، نعى فيها على المنصور استبداده في الرعية ، ونصح إبراهيم أن يقيم حكمه على أساس الشورى :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم   ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى   ويصرعه في المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج   عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم   وأمسى أبو العباس أحلام نائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى   وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادرا في طريقهم   ولا تتقي أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله   وتعري معطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله   فعادوا عليك بالسيوف الصوارم

ثم التفت إلى إبراهيم فقال :

أقــول لبســام علــيه جلالــة ... غــدا أريحــيا عاشــقا لــلمكارم
إذا بلـغ الـرأى المشـورة فاسـتعن ... بـرأى نصـيح أو نصـيحة حــازم
ولا تجعـل الشـورى علـيك غضاضـة ... فــإن الخوافــى قــوة للقــوادم
ومـا خـير كـف أمسـك الغـل أخـتها ... ومــا خــير سـيف لم يؤيـد بقـائم
وخـل الهويـنى للضـعيف ولا تكـن ... نـئوما فــإن الحــر لــيس بــنائم

١٣- ومـن روائع المحدثين فى الحكمة أرجوزة أبى العتاهية المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال . وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها . ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل . وقد قال أبو دلف محمد بن هاشم الخزاعى ، تذكروا يوما شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال ، فأخذ بعض من حضر ينشدها ، حتى أتى على قوله :

يــا للشـباب المــرح التصــابى ... روائــح الجـنة فــى الشــباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ؛ ثم قال انظروا إلى قوله : " روائح الجنة فى الشباب " . فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى هذه الأبيات :

حســبك مــا تبتغــيه القــوت ... مــا أكــثر القــوت لمــن يمــوت
الفقــر فــيما جــاوز الكفافــا ... مــن اتقــى الله رجــا وخافــا
هــى المقاديــر فلمــنى أو فــذر ... إن كنـت أخطـأت فمـا أخطـا القـدر
لكــل مــا يــؤذى وإن قــل ألم ... مـا أطـول الليـل عـلى مـن لم يـنم
مــا انــتفع المــرء بمــثل عقلــه ... وخـير ذخـر المـرء حسـن فعلـه
إن الفســاد ضــده الصــلاح ... ورب جــد جــره المــزاح
مــن جعــل الــنمام عيــنا هلكــا ... مــبلغك الشــر كباغــية لكــا
إن الشــباب والفــراغ والجــده ... مفســدة لــلمرء أى مفســده
يغنــيك مــن كــل قبــيح تــركه ... يــرتهن الــرأى الأصـيل شـكه
مــا عــيش مــن آفــته بقــاؤه ... نغــص شــيئا كلــه فــناؤه
يــا رب مــن اسـخطنا بجهـده ... قــد ســرنا الله بغــير حمــده
مــا تطلــع الشــمس ولا تغيــب ... إلا لأمــر شــأنه عجيــب
لكــل شــىء معــدن وجوهــر ... وأوســط وأصــغر وأكــبر

مــن لــك بــالمحض وكــل ممــتزج وســاوس والصــدر مــنه تعتــلج

وكـــل شـــىء لا حـــق بجوهـــره أصـــغره متصـــل بأكـــبره

مـــا زالـــت الدنـــيا لـــنا دار أذى ممـــزوجة الصـــفو بـــألوان القـــذى

الخـــير والشـــر بهـــا أزواج لـــذا نـــتاج ولـــذا نـــتاج

مــن لــك بــالمحض ولــيس محــض يخبــث بعــض ويطيــب بعــض

لكـــل إنســـان طبيعـــتان خـــير وشـــر وهمـــا ضـــدان

إنـــك لـــو تستنشـــق الشـــحيحا وجدتـــه أنـــتن شـــىء ريحـــا

والخـــير والشـــر إذا مـــا عـــدا بيـــنهما بـــون بعـــيد جـــدا

عجبـــت حـــتى غمـــنى الســـكوت صـــرت كـــأنى حائـــر مـــبهوت

كـــذا قضـــى الله فكـــيف أصـــنع الصـــمت إن ضـــاق الكـــلام أوســـع

موازنات أدبية بين أعلام الشعراء

- ١ -

يقول صاحب المثل السائر ، إن مما تقع فيه المفاضلة أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ، وهناك يتبين فضل أحدهما عل الآخر .

١ - فما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثيته لولدين صغيرين :

مجـــد تـــأوب طارفـــا حـــتى إذا قلـــنا أقـــام الدهـــر أصـــبح راحـــلا[1]

نجمـــان شـــاء الله ألا يطلعـــا إلا ارتـــداد الطـــرف حـــتى يـــأفلا

إن الفجـــيعة بالـــرياض نواضـــرا لأجـــل مـــنها بالـــرياض ذوابـــلا

لهفـــى علـــى تلـــك الشـــواهد فـــيهما لـــو أخـــرت حـــتى تكـــون شمـــائلا

إن الهـــلال إذا رأيـــت نمـــوه أيقنـــت أن ســـيكون بـــدرا كـــاملا

قـــل للأمـــير وإن لقيـــت موقـــرا منه يريـــب الحادثـــات حـــلا حـــلا[2]

إن تـــرز فـــى طـــرفى نهـــار واحـــد رزأيـــن هاجـــا لوعـــا وبـــلا بـــلا[3]

فالـــثقل لـــيس مضـــاعفا لمطـــية إلا إذا مـــا كـــان وهمـــا بـــازلا[4]

---

[1] تأوب أتى ليلا : والطارق الذى يأتى ليلا .

[2] " لقيت موقرا منه " تجريد : ويريب الحادثات يشككها : والحلاحل السيد الشجاع .

[3] ترز : سهلت همزته بالقلب ألفا ثم حذفت للجازم ، والبلابل الوساوس .

[4] الوهم الجمل الذلول فى ضخامة وقوة : والبازل الذى طلع نابه وذلك فى التاسعة من سنيه .

لا غــرو إن فنــنان مــن عــيدانه ... لقــيا حمامــا للــبرية آكــلا

إن الأشــاء إذا أصــاب مشــذب ... مــنه اتمهــل ذرا وأث أســافلا[1]

شمخت خلا لك أن يواسيك امرؤ ... أو أن تذكــر ناســيا أو غــافلا

إلا مواعــظ قادمــا لــك سمحــة ... إســجاح لــبك ســامعا أو قــائلا[2]

هــل تكلــف الأيــدى بهــز مهــند ... إلا إذا كــان الحســام القاصــلا[3]

وقال أبو الطيب فى مرثية لطفل صغير[4] :

فان نك فى قبر فإنك فى الحشا ... وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل

ومــثلك لا يــبكى عــلى قــدر سنه ... ولكــن عــلى قــدر الفراسة والأصــل

ألســت مــن القــوم الــذى رمــاحهم ... نداهــم ومــن قتلاهم مهجة البخل

بمولودهــم صــمت اللســان كغيره ... ولكــن فــى أعطافه مــنطق الفصــل

تســليهم علــياؤهم عــن مصــابهم ... ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به ... فــإنك نصــل والشــدائد للنصــل

تخــون المــنايا عهــده فــى ســليله ... وتنصــره بــين الفــوارس والــرجل

بنفسـى ولـيد عـاد مـن بعـد حمله ... إلى بطــن أم لا تطــرق بــالحمل[5]

بــدا ولــه وعــد الســحابة بالــروى ... وصــد وفيــنا غلــة الــبلد المحــل[6]

وقــد مــدت الخــيل العــتاق عــيونها ... إلى وقت تبديل الركاب من النعل

وريــع لــه جــيش العــدو ومــا مشى ... وجاشت لـه الحرب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد وكيف هام كل واحد منهما فى واد منه مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين ما اتفق فيه وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول : أما الذى اتفقا فيه فإن أبا تمام قال :

لهفــى عــلى تلــك الشــواهد فــيهما ... لــو أخــرت حــتى تكــون شمــائلا

---

[1] أشاء النخل صغاره واحدته أشاءه : والمشذب مصلح الشجر بالقطع اتمهل اعتدل وارتفع ، وأث كثر والتف .

[2] الإسجاح : السماحة واللين .

[3] القاصل : القاطع .

[4] ابن لسيف الدولة يسمى عبد الله ويكمنى أبا الهيجاء .

[5] يريد بالأم هنا الأرض ومعنى لا تطرق بالحمل لا تخرج الولد من بطنها .

[6] الروى الماء الكثير يروى وينقع . والغلة العطش .

وأما أبو الطيب فإنه قال :

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن في أعطافه منطق الفصل

فأتي بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل " . وقال أبو تمام :

نجمان شاء الله آلا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال أبو الطيب :

بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفينا غلة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله " وصد وفينا غلة البلد المحل ". لأنه بين قدر حاجاتهم إلى وجودهم وانتفاعهم بحياته . وأما ما اختلفا فيه فإن أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضاً ، وذلك أن معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وتقدمه ، وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب فإن أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه فإن أبا الطيب قال :

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فإنك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

إن ترز فى طرفى نهار واحد رزأين هاجا لوعة وبلابلا
فالثقل ليس مضاعفاً لمطية إلا إذا ما كان وهما بازلا

فإن قول أبى الطيب " والشدائد للنصل " أكرم لفظاً ومعنى من قول أبى تمام : إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضاً :

تخون المنايا عهده فى سليلة وتنصره بين الفوارس والرجل

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لا غرو إن فنان من عيدانه لقيا حماما للبرية آكلا
إن الأشاء إذا أصاب مشذب منه اتمهل منه ذرا وأث أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب :

ألست من القوم الذى من رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

شمخت خلالك أن يواسيك أمرؤ أو أن تذكر ناسياً أو غافلا
إلا مواعظ قادها لك سمحة إسجاح لبك سامعا أو قائلا

٢- ومما ينتظم بهذا النوع ما توارد عليه أبو عبادة البحترى وأبو الطيب المتنبى. في وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان فأول إحدهما [١] :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا خيال إذا ىب الظلام تأوبا

وأول الأخرى [٢]

فى الخد إن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

أما البحترى فإنه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها.

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً [٣]

وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم تسم قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها ، لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب وفيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه .

فما جاء للبحترى من قصيدته :

وما نقم الحساد إلا أصالة لديك وفعلا أريحيا مذهبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث مخدر يحدد نابا للقاء ومخلبا
إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا [٤]
شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى له مصلتاً غاضباً من البيض مقضباً
فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكاً إذا الهيابة النكس كذباً [٥]

---

[١] هى البحترى يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف مبارزته الأسد .

[٢] هى للمتنبى فى بدر بن عمار وكان قد هاج أسداً عن بقرة افترسها فوثب الأسد على كفل فرسه فأعجله بضربة من سوطه ودار به الجيش فقتل الأسد .

[٣] ذكر البديع قصة بشر هذا فى الملح التى اختتم بها مقاماته وأثبت فيها القصيدة كاملة .

[٤] العانة الأتان والقطيع من حمر الوحش . والسرب القطيع من الظباء والربرب القطيع من بقر الوحش .

[٥] الهيابة الشديد الخوف ، والنكس بالكسر الضعيف .

هزيراً مشى يبغي هزيراً ، وأغلباً من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثم هالته صولة رآك لها أمضى جنانا وأشغبا[1]
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً وأقدم لما يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف ، لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبا

ومما جاء لأبي الطيب المتنبي في قصيدته :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن أدخرت الصارم المصقولا [2]
ورد إذا ورد البحيرة شارباً ورد الفرات زئيره والنيلا[3]
متخضب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلا
ما قوبلت عيناه إلا ظنتا تحت الدجى نار الفريق حلولا[4]
في وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آس يجس عليلا[5]
ويرد غفرته إلي يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا[6]
قصرت مخافته الخطا فكأنما ركب الكمي جواده مشكولا[7]
ألقى فريسته وزمجر دونها وقربت قربا خاله تطفيلا
فتشابه القربان في إقدامه وتخالفا في بذلك المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما متنا أزل وساعدا مفتولا [8]
مازال يجمع نفسه في زوره حتى حسبت العرض منه الطولا [9]
وكأنما غرته عين فادني لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك في عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا

---

(1) الشغب بالفتح ويحرك تهييج الشر .
(2) يقال عفره إذا رماه في العفر بالتحريك وهو التراب والهزبر السيء الخلق .
(3) الورد الجرىء والبحيرة التي يعنيها هنا بحيرة طبرية . والفرات والنيل معروفان ، وأولهما يقع إلى الشرق منها والثاني إلى الغرب .
(4) الفريق الجماعة : أكثر من الفرقة ، وحلولا : حالين .
(5) الآسي الطبيب .
(6) الغفرة شعر العنق . واليافوخ أعلى الرأس .
(7) الكمي الشجاع المستتر في سلاحه ، وشكل الجواد ربطه بالشكال .
(8) فسر في العجز العضوين اللذين أرادهما في الصدر . والأزل الممسوح القليل اللحم .
(9) الزور عظم الصدر .

خذلـــته قوتـــه وقـــد كافحـــته فاستنصـــر التســـليم والـــتجديلا[1]
سمـــع ابـــن عمـــته بـــه وبحالـــه فمضـــى يهـرول أمـس مـنك مهـولا
وأمـــر ممـــا فـــر مـــنه فـــراره وكقـــتله ألا يمـــوت قتـــيلا
تلـف الـذى اتخـذ الجـراءة خلـة وعـظ الـذى اتخـذ الفـرار خلـيلا

فمعاني أبي الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشيء سوى ذلك . . وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أمعفـــر الليـــث الهزبـــر بســـوطه لمـــن ادخـرت الصـارم المصـقولا

ثم أنه تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه ، وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية ، التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين ، عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك ، أنه لم يعرض لما ذكره بشر فى أبياته الرائية ، لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئاً يقوله فيها ؛ ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيراً كبيراً ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريقة وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزاً .

٣- واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد ، يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبى ها هنا على وصف الأسد ، وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر أو فى بيتين ، ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ، فإن بعد المدى يظهر ما فى السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر . فإذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتهما فى مراثى النساء التى مفتتح إحداهما :

---

[1] التجديل الانطراح على الأرض .

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب ... كناية بهما عن أشرف النسب

وهي لأبي الطيب . ومفتتح الأخرى :

غروب دمع من الأجفان ينهمل ... وحرقة بغليل الحزن تشتعل

وهي للبحتري فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به في معاني قصيدته والبحتري أتى بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل. ومن الواجب أنه إذا سلك الناظر أو الناثر مسلكاً في غرض من الأغراض ألا يخرج عنه . كالذي سلكه هذان الرجلان في الرثاء بامرأة ، فإن حذاقة الصنعة أن يذكر هنا ما يليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مفلقي الشعراء قديماً وحديثاً فإنهم قصروا عنه . وله في هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها :

نعد المشرفية والعوالي ... وتقتلنا المنون بلا قتال[1]

وكفى بهما شاهداً على ما ذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به . وأبو الطيب أنفذ في المضيق وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحتري فإنه أعرف بصوغ الألفاظ وحوك ديباجتها . والحكم بين الشاعرين في اتفاقهما في المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق في المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهوراً يعلم ببديهة النظر ، ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ؛ وما اختلافهما في المعنى فإنه يحتاج في الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه ولا ينفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، لا بل لا يتفطن له إلا الفذ الواحد من الناس.

– ٢ –

ويقول صاحب المثل السائر عن الشعر في باب السرقات : وكان ختامه على يد الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام والبحتري والمتنبي . . ويعد من باب المعاني الجديدة قول المتنبي في عضد الدولة وولديه :

وأنت الشمس تبهر كل عين ... فكيف وقد بدت معها اثنتان

فعاش عيشة القمرين يحيا ... بضونهما ولا يتحاسدان

ولا ملكا سوى ملك الأعادي ... ولا ورثا سوى من يقتلان

وكان ابنا عدو كاثراه ... له ياءى حروف أنيسيان

---

[1] قالها في رثاء والدة سيف الدولة ، وقد توفيت بميافارقين سنة ٣٣٩ وجاءه الخبر بحلب .

وهذا معنى لأبى الطيب وهو الذى ابتدعه ، أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير فإنها زيادة نقص . وما ينبغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو :

يشكى المحب ويلفى الدهر شاكيه كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومى ، وليس كذلك ولكنه مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم " يلدغ ويصى " ويضرب ذلك لمن يبتدىء بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد ابتدع معانى أخر غير ما ذكرته. وليس الغرض أن يؤتى على جميع ما جاء به هو وغيره من المعانى المبتدعة . بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره . . ومن شعر بن الخياط بيت فى قصيدة أولها :

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه

ويزعمون أنه من المعانى الغربية وهو :

أغار إذا آنست فى الحى أنة حذارا عليه أن تكون لحبه

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبى فى قوله :

لو قلت للدنف المشوق فديته مما به لأغرته بفدائه

وقول أبى الطيب أدق معنى وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظا . . ولعمارة اليمنى:

فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبى تمام فى قوله مادحاً لبعض الخلفاء ، فى حجة حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة :

يا من رأى حرما يسرى إلى حرم طوبى لمستلم يأتى وملتزم

ثم يقول ابن الأثير : ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطراً من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ؟ ، فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده : ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذا المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف ، فى اللفظ الجزل اللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل .

وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام حبيب بن أوس وأبي عبادة الوليد وأبي الطيب المتنبي . وهؤلاء الثلاثة لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء . . أما أبو تمام فإنه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الأغراب ، وبرز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام [1]. فخذ مني في ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذي علم عليم . وأما أبو عبادة البحتري فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون في شظف نجد ، إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : " أنا وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري " ، ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن أبا عبادة أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية ، ورقي في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ، ولا منه ملثماً ، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة ، كان لسانه أمضى من نصالها ؛ وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه في ذلك تضل بسالكه ،وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط ، فإما مفرط في وصفه وإما مفرط . وهو وإن انفرد بطريق صار أبا عذرته ، فإن سعادة الرجل كانت أكبر من شعره. وعلى الحقيقة فإنه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة:

---

[1] امرأة من العرب عرفت بالصدق فيهم حتى ضرب بها المثل .

لا تطلـــبن كـــريما بعـــد رويـــته	ان الكـرام بأسـخاهم يـدا خـتموا
ولا تـــبالي بشـــعر بعـــد شـــاعره	قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى، وعين المعرفة التى ما ضل صاحبها وما غوى، وجدته أقساما خمسة، خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره، وخمس من جيد الشعر الذى يساوبه فيه غيره. وخمس من متوسط الشعر. وخمس دون ذلك، وخمس فى الغاية المتفهقرة التى لا يعبأ بها: وعدمها خير من وجودها، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها. فانها هى التى ألبسته لباس الملام. وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوال. وهؤلاء الشعراء الثلاثة لم أعدل إليهم اتفاقًا، وإنما عدلت إليهم نظرًا واجتهادًا. وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها، حتى لم أترك ديوانًا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك، إلا عرضته على نظرى، فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة، ولا أكثر استخراجًا منهما للطيف الأغراض والمقاصد، ولم أحد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبى عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا منه، فاخترت حينئذ دواوينهم، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها، مع ما بقى على خاطرى من غيرها.

أبو العلاء المعرى

٣٦٣ – ٤٤٩ هـ – ٩٧٣ – ١٠٥٧م

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد سليمان بن داود، ينتهى نسبه إلى النعمان[١] بن عدى. وهو حكيم العربية وشاعرها الكبير، كان جده لأبيه سليمان بن داود يلى قضاء المعرة وحمص ومات سنة ٢٩٠هـ، فولى بعده أبو بكر محمد بن سليمان عم أبى العلاء، فلما مات ولى القضاء بعده أخوه عبد الله بن سليمان والد أبى العلاء فمات سنة ٣٧٧هـ ، وترك أبا العلاء وأبا المجد محمد بن عبد الله وأبا الهيثم عبد الواحد بن عبد الله. وكانوا جميعا من الشعراء .. وأم أبى العلاء من أسرة بحلب شهرت بالكرم والعلم، وهم "آل سبيكة".

---

[١] لقب النعمان بساطع الجمال وسبه الأعلى إلى تيم الله الى قضاعة إلى قحطان.

ولد أبو العلاء في يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول عام ٣٦٣هـ - ٩٧٣م بمعرة النعمان، وكف بصره عام ٣٦٧هـ على إثر جدري أصابته ذهبت بيسرى عينيه جملة، وغشيت يمناهما ببياض ففقدت ما فيها من قوة الإبصار.

درس على أبيه علوم اللغة والنحو والأدب، ثم رحل إلى حلب حاضرة الحمدانيين، ثم إلى إنطاكية وطرابلس الشام حيث أقام فيها عند أخواله. وبدأ يقرض الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره، وعرف في اللاذقية من الرهبان بعضا من الفلسفة وعلوم الأوائل وقواعد الأديان. وعاد إلى المعرة بعد أن قضى دراسته في طرابلس.، وتوفي أبوه عام ٣٩٥هـ ، فرثاه بشعره، وعاش بعده على غلة وقف لأسرته، كان يدر عليه في السنة ثلاثين دينارًا، دون أن يتكسب بشعره كشعراء عصره، ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ طلبا للعلم والثقافة، ومكث بها إلى رمضان عام ٤٠٠هـ، وقدم أول قدومه إلى أبي حامد قصيدة يصف فيها متاعب رحلته، ويستعين بها على ضيق يده، ومنها:

وبالعــراق رجــال قــربهم شــرف   هاجرت في حبهم رهطي وأشياعي

وقد بهر المعري الذين اتصل بهم ببغداد بعلمه وكان يسعى إلى دروس العلماء، ويزور مكتباتها العامة والخاصة، ويتصل بمجامعها العلمية والأدبية والفكرية.

ولكن حقد الحاقدين وحسد الحاسدين جعله يرحل من بغداد، وكذلك ضيق يده، وشقاؤه النفسي، كل ذلك ألجأه إلى العودة للمعرة، مودعا من أهل بغداد أجمل وداع، وبلغه نعي أمه وهو في طريقه إلى المعرة، فحزن أشد الحزن، واعتزل بعد عودته الناس، وأقام في داره، وسمى نفسه رهين المحبسين، ولكنه فشل في طلب العزلة، فقد سعى إليه بالمعرة الأمراء والعلماء والأدباء والشعراء والمتكلمون، وراسله الخلفاء والكبراء فذاعت شهرته في الآفاق، وهجر أبو العلاء أكل الحيوان والزواج فاتهم بالزندقة، وظل يعيش في ظلال الهرم والشيوخة، حتى توفي في ١٣ ربيع الأول عام ٤٤٩هـ - ١٠٥٨.

وكان المعري شاعرا حكيما من أقدر الشعراء الذين أخضعوا الشعر للفلسفة، وقد أضفى التاريخ على اسم أبي العلاء جلالا ومجدا كان بهما جديرا، فهو علم من أعلام الأدب، وشاعر من أنبه الشعراء ومؤلف من أكبر المؤلفين. وقد ألف "رسالة الغفران" عام ٤٢٤هـ[1] في أسلوب قصصي خيالي، ردا على رسالة ابن القارح التي

---

[1] يرجح زين لقول المعري في الغفران: ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ ماني سنة أحد أمير حلب في سنة ٤٢٤هـ اسمه فلان (٨٤ : ٢ الغفران) طبعة كيلاني ، وراجع ٢٥٨ - ٢٧٠ : النثر الفني.

بعث بها إلى أبى العلاء، وموضوع رسالة الغفران زيارة خيالية للجنة والنار وحوار طريف بين الأدباء والشعراء والمفكرين وتضمنت الرسالة كثيرا من فلسفة أبى العلاء فى الأخلاق والثقافة والأدب، وفى الدين والاجتماع، وفى الشعراء وشعرهم. ويشابهها فى ذلك الكوميديا الإلهية، لدانتى شاعر عصر الإحياء فى إيطاليا.

أما ابن القارح فهو أبو الحسن على بن منصور الحلبى، وتلميذ ابن خالويه وأبى على الفارسى. أقام فى حلب ثم رحل إلى بغداد ومصر. ورسالته التى أرسل بها من مصر إلى أبى العلاء فيها شىء من الهزل والدعابة، وصور فيها آراءه فى الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين. كما صور فيها حياته. وطلب من المعرى أن يجيبه عليها. وكان جواب المعرى عليها هو رسالته الخالدة "رسالة الغفران" التى ناقش فيها آراء ابن القارح فى رسالته فى أسلوب جميل من الحوار مع أهل الجنة وأهل النار. وهو أسلوب جديد فى اللغة العربية. ويظن أن المعرى تأثر فيها برحلة الإسراء والمعراج وبرحلة الموبد الزرادشتى أورده ويران إلى الجنة والنار.

وللمعرى ديوانه "اللزوميات"، وديوان "سقط الزند"، وبعض المؤلفات الأخرى.

أما مسألة : هل سرق دانتى رسالة المعرى؟

فهى مسألة طال حولها الحوار والجدل، ولم نر دليلا ماديا على السرقة أو على البراءة منها، ولكن قوما يردونها .. قال الأستاذ محمد كرد على: أن أعمى المعرة كان معلما لنابغة إيطاليا فى الشعر والخيال. وبعض الباحثين من المستشرقين فى أوروبا على أن دانتى فى روايته الإلهية قد اقتبسها - ولاسيما الجحيم - من رسالة الغفران للمعرة. وقال جورجى زيدان: إن المعرى توفى سنة ٤٤٩هـ ودانتى توفى سنة ٧٢٠هـ، وملتن الإنجليزى توفى سنة ١٠٨٤هـ. فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه .. وأقدمهما (دانتى) لم يظهر إلا بعد احتكاك الإفرنج بالمسلمين والإيطاليون أسبق الإفرنج إلى ذلك .. ذلك هو رأى جورجى زيدان توسع فيه حتى أدخل ملتن (١٦٠٨ - ١٦٧٤) أيضًا فى الاقتباس من المعرى وحجته تأخر الزمن بدانتى وملتن واحتكاك الإفرنج بالمسلمين، وذلك كله لا ينهض دليلا على اقتباس الفكرة، ولا يكفى برهانا على الأخذ؟ والمسألة لا تعدو الحدس والظن. وإنا لنرى البراهين تنحاز ناحية دانتى فتبعده عن الأخذ وعن الاقتباس. فقد بدأ حياته يتعلم الدين، يكمل ثقافته على يد القديس فرانشسكو، ولقد كان عصره عهد قوة سلطان الباباوات والكهنة. ولن يقوم لهؤلاء سلطان إلا بقوة النزعة الدينية، وإبان

ذلك تتكاثر صور الجنة والنار واردة في أخيلة الناس وأذهانهم .. أو ليس في نشأته الدينية. وفي عهده الملئ بالتعصب الديني ما يكفي في أن ترد الجنة والنار في خياله؟ على أن فكرة الجنة والنار والنعيم والجحيم تدور برؤوس الناس منبلج الصباح وأفول الشمس في كل يوم، فهي حق شائع لجميعهم لا يعده الأدباء أخذا، ولو أنهم عدوه لكان كل شعرائنا وأدبائنا سراقا، ولكان امرؤ القيس سارقا لأنه بكى الديار كما بكاها ابن حذام من قبله، إذ يقول امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وإنما الذي يعده الأدباء سرقة هو أخذ الفكرة النادرة التي ينفرد واحد بها. أو الترتيب الذي لا يستطيعه إلا الشواذ والأفذاذ، فهل سرق دانتي الترتيب من رسالة الغفران؟ اللهم لا. فحراس الجحيم في خيال المعري ملائكة، وفي خيال دانتي شياطين. وأشخاص الرواية عند المعري شعراء ورواة، وعند دانتي رجال دين وعصاة ومذنبون. والجنة عند دانتي تسعة أقسام لكل قسم طائفة عملوا الخيرات كل على حسب عمله. وعند المعري ثلاثة أقسام. "جنة الجن" وجنة (الرجاز) والجنة الأصلية، وقد بلغ المعري أسمى خياله لدى وصفه الفردوس، كما كان أخصب النواحي خيالا عند دانتي وصف الجحيم.

على انه إن كان لابد من أن نتهم الشاعر الطلياني بالاقتباس. فأولى أن نعتقد أخذه من فرجيليو الذي كان دليله في رحلته وهاديه في ظلمات الجحيم. ولفرجليو هو الآخر رحلة في أعماق الجحيم هي أقرب لخيال دانتي من رسالة الغفران، ولقد كانت لدانتي أحلام فيها ملائكة وفيها موتى، هي إرهاص ومقدمة لرسالته العتيدة، فقد رأى في حلم من الأحلام أنه ضل في غابة موحشة فأطلت عليه محبوبته بياتريشي في سحابة من الملائكة وعليها لهب قرمزي كأنه اللهب المتأجج، وخيل إليه أنه يتغلغل في عالم الأموات؛ كما تحدث في بعض أشعاره قائلا: ها أنذا جالس في مكاني أذكرها وأذكر أيامها السعيدة، فيلوح لي كأن ملائكة من السماء تهبط من عل، وتأخذ أماكنها على المقاعد الموجودة حولي.

فإذا ضممنا لذلك كله أن حبه ألهمه خيال الجنة ليستمتع بمن أحب، وأن بغضه لمن حاربوه، ونفوه وشردوه يوحي إليه أن يتخيلهم في دركات الجحيم، وأن تلك طبيعة النفس تشره لنيل آمالها ولو عن طريق الخيال، عرفنا براءته من السرقة.

وقد ألف ملتون ملحمته (الفردوس المفقود) عام ١٦٦٧ بعد أن كف بصره. واتخذ مصادرها من التوراة في رأى بعض الباحثين وهي رحلة إلى السماء والجنة

والجحيم ويصف فيها آدم وحواء والشيطان البطل الحقيقي للقصيدة. وقد صوره يعيش حياة عنيفة غنبة، ممجدا في شخصيته الكبرياء والحرية[١].

وكان أبو العلاء مفرطا في الذكاء والفطنة. ومن ذكاء المعرى ما يروى من أنه دخل عليه أبو نصر المنذرى[٢] المعرى في جماعة من أهل الأدب: فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر، وأنشده أبو نصر:

وقانـا لفحـة الرمضـاء واد	سقاد مضاعف الغيث العميم
نزلـنا دوحـه[٣] فحـنا علينـا	حنو الوالـدات علـى الفطيم
وأرشـفنا علـى ظمـأ زلالا[٤]	ألـذ مـن المدامـة للنـديم
يصـد الشـمس أنـى واجهتـنا	فيحجـبها ويـأذن للنسـيم
يـروع[٥] حصـاه حاليـة[٦] العـذارى	فتـلمس جانـب العقـد النظـيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر من بالشام. ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدًا، فأنشد كل واحد منهم ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنذرى فأنشد :

لقـد عـرض الحمـام لـنا بسـجع	إذا أصـغى لـه ركـب تلاحـى[٧]
شجى[١٠] قلب الخلى فقيل : غنى	وبـرح[٨] بالشـجى[٩] فقـيل : ناحـا
وكـم للشـوق فـي أحشـاء صـب	إذا اندملـت أجـد لهـا جـراحا
ضـعيف الصـبر عـنك وإن تقـاوى	وسـكران الفـؤاد وإن تصـاحى
بـذاك بـنو الهـوى سـكرى صحاة	كـأحداق المهـا مرضـى صـحاحا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق – عطفا على قوله : من بالشام –! ولكن الشعر الأول يروى لغير المنذرى كما يعلم شداة الأدب ودارسوه.

---

(١) ١٠١ ١٠٦ الأدب الإنجليزى بول دوتان.

(٢) المستطرف ص٤٦ ج ١ - والأبيات مشهورة لحمدونة الأندلسية

(٣) الدوح : جمع دوحة : الشجرة العظيمة من أى شجر كان.

(٤) ماء زلال : عذب. * المدامة : الخمر .

(٥) يروع : يفزع.

(٦) حليت المرأة : صارت ذات حلى فهى حلية وحالية.

(٧) تلاحى : تنازع.

(٨) برح به الأمر : جهده.

(٩) شجاه : أطربه

(١٠) الشجى : الحزين

الأمير الشاعر ابن سنان الخفاجي

٤٢٢ – ٤٦٦

–١–

عاش ابن سنان في حلب، وتنقل بين ربوع الشام وامبراطورية الروم، وورث النزعات الأدبية عن أسرته العربية الصميمة، وعن البيئة الأدبية الخصبة التى عاش فيها. فحلب كانت عاصمة سيف الدولة الحمدانى (٣٠٣ – ٣٥٦هـ)، وعاصمة دولة الحمدانيين عامة، وكانت تموج فى عهدهم بالعلماء والفلاسفة والأدباء والكتاب والشعراء والخطباء. عاش فيها المتنبى حقبة من الزمن، ونشأ عاش فيها أبو فراس الحمدانى الشاعر ٣٥٧هـ ، وأبو عبد الله الحسين بن خالويه م ٣٧٠ وأصله من همذان واستوطن حلبا .. كما أقام فيها حينا أبو الفتح عثمان بن جنى م ٣٩٢هـ. والفارابى الفيلسوف م ٣٣٩هـ. ومن شعرائها : النامي، والناشئ الأصغر، وأبو القاسم الزاهى، وأبو الفرج الببغاء، وكثير من أمراء العرب من بنى حمدان وبنى عامر وبنى عقيل وخفاجة.

وبجوار حلب فى معرة النعمان ولد ونشأ وعاش المعرى الشاعر الفيلسوف م ٤٤٩هـ وهو الذى تتلمذ عليه ابن سنان. هذا فضلاً عن بيئة الشام الأدبية عامة، ومن حفلت بهم من أعلام الأدب والشعر والخطابة : كأبى طالب الرقى والخليع الشامي، وأبى الفرج الوأواء الدمشقي، وعبد المحسن الصورى، وأبى الرقعمق، وسواهم من الشعراء والأدباء .. وكان عبد الرحيم بن نباتة م ٤٠٥هـ خطيب جيوش سيف الدولة المفوه.

فلا عجب أن تبعث هذه البيئة الأدبية فى نفس ابن سنان حب الأدب وتذوقه والإجادة فى نظمه. أما الذى ربى فى نفس ابن سنان حب النقد والبلاغة وملكة التأليف فيها فهو اتصاله بأستاذه المعرى، وعكوفه على كتب الأدب القديمة قراءة وفهما وتذوقا: كالبيان والتبيين للجاحظ ونقد النثر والموازنة للآمدى. والوساطة للقاضى الجرجانى، والبلاغة وإعجاز القرآن للرمانى، والصناعتين لأبى هلال العسكرى، وإعجاز القرآن للباقلانى. فوق تأثره ببحوث المتكلمين فى إعجاز القرآن الكريم وفصاحته. فلا بدع أن يكون ابن سنان بعد ذلك كله أديبًا ملهمًا وشاعرًا مطبوعًا ، وناقدًا موهوبًا، وعلمًا من الأعلام فى النقد والبلاغة والبيان.

-٢-

وابن سنان كما يدل عليه كتابه سر الفصاحة ناقد ممتاز. تشهد بذلك آراؤه وأحكامه الأدبية فى هذا الكتاب. وإذا ذكرنا الموازنة والوساطة والصناعتين فلابد أن نذكر معها سر الفصاحة لابن سنان. وله فوق ذلك منزلة كبيرة فى البلاغة. فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع. وقدامة قد ألف نقد الشعر. وأبو هلال قد ألف الصناعتين. وابن رشيق قد ألف "العمدة". فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم "سر الفصاحة". فإنه حلقة بين هذه الكتب وبين كتب عبد القاهر والسكاكى ومدرسته. فابن سنان كعبد القاهر: كلاهما بنى البلاغة العربية صرحًا شاهقًا تعتز به وتفخر. وكلاهما أقام بحوثه للبلاغة على نهج جديد. كان أساسًا لبحوث البلاغيين من بعد، وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف فى البلاغة هى الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته فإنها كذلك هى الإعجاز. وخرج منها صفر اليدين، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة ولكن ابن سنان يرى أن سر الإعجاز هو صرف الله الناس عن الإتيان بمثل القرآن الكريم. وعبد القاهر يرى أن سره هو دقائق ولطائف فى نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين وأسكنت صوت المتحدين؛ أو قل إن سر الإعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمات من معان .

-٣-

وقد ترجم له صاحب فوات الوفيات. فقال : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي الشاعر الأديب، كان يرى رأى الشيعة، وكان قد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب، وكان بينه وبين أبى نصر محمد بن الحسن بن النحاس الوزير لمحمود بن صالح مودة مؤكدة. فأمر محمود أبا نصر بن النحاس أن يكتب إلى الخفاجى كتابًا يستعطفه ويؤنسه، وقال لا يأمن إلا إليك، ولا يثق إلا بك. فكتب إليه كتابًا، فلما فرغ منه وكتب إن شاء الله تعالى شدد النون من إن. فلما قرأه الخفاجي خرج من عزاز قاصدًا حلب، فلما كان فى الطريق أعاد النظر فى الكتاب. فلما رأى التشديد على النون أمسك رأس فرسه. وفكر فى نفسه. وقال : إن ابن النحاس لم يكتب هذا عبثًا، فلاح له أنه أراد "إن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك. فعاد إلى عزاز، وكتب الجواب : أنا الخادم المعترف بإنعام، وكسر الألف من أنا وشدد النون وفتحها. فلما وقف أبو نصر على ذلك سر وعلم أنه قصد به "إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها". وكتب الجواب يستصوب رأيه. فكتب إليه الخفاجى:

خف من أمنت ولا تركن إلى أحد ... فما نصحتك إلا بعد تجريب
إن كانت الترك فيهم غير وافية ... فما تزيد على غدر الأعاريب
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم ... وكاد أن يدرسوها في المحاريب

واستدعى محمود أبا نصر بن النحاس، وقال : أنت أشرت على بتولية الخفاجي وما أعرفه إلا منك، ومتى لم يفرغ بالي منه قتلتك، وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة. فقال له: مرني بأمر أمتثله، قال: تمضي إليه وفي صحبتك ثلاثون فارسًا، فإذا قاربته عرفه بحضورك، فإنه يلتقيك، فإذا حضر سألك النزول عنده والأكل معه، فامتنع؟ وقل له: إني حلفتك أن لا تأكل زاده، ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك في الحضور عندي، وطاوله في الحديث وأخرج هذه الخشكانجتين فكل أنت هذه، وأطعمه هذه، فإذا استوفي أكلها عجل الحضور إلى، فإن منيته فيها، نفعل ما أمره به، ولما أكلها الخفاجي رجع أبو نصر إلى حلب ورجع الخفاجي إلى عزاز، ولما استقر بها وجد مغصا شديدا، ورعدة شديدة، فقال : قتلني والله يا أخي أبو نصر، ثم أمر بالركوب خلفه ورده، ففاتهم، ووصل إلى حلب، وصبح من الغد محمود، فجاءه من عزاز[1] من أخبره أن الخفاجي في الرمق الأخير، ومات . وكانت وفاته في سنة ٤٦٦ هـ، وحمل إلى حلب[2] .

- ٤ -

وثقافة ابن سنان ثقافة واسعة منوعة فهو أديب ملم بالأدب متذوق له، وهو علم من أعلام النقد الأدبي كما يتجلى ذلك من كتابه سر الفصاحة، وهو شاعر مبدع ملهم تتجلى في شعره سمات الشاعرية المجددة الساحرة، وهو فوق ذلك كله عالم ملم بشتى العقائد والفلسفات والمذاهب العقلية والدينية كما يتجلى ذلك في كتابه "سر الفصاحة" وفي كثير من شعره، وكان ينتصر للرأي القائل بأن سبب إعجاز القرآن

---

(1) بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب. بينهما يوم، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة لا يوجد فيها عقرب وليس بها شيء من الهوام (٦/١٦٧ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦) . وجاء في معجم البلدان لياقوت عند ذكر حلب من رسالة لابن بطلان كتبها سنة ٤٤٠هـ ما نصه : وفيها حدث يعرف بأبي محمد بن سنان قد ناهز العشرين، وعلا في الشعر طبقة المحنكين. فمن قوله:

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم ... وإن مدحت فكيف الري باللهب
فحين لم ألق لا خوفا ولا طمعا ... رغبت في الهجو إشفاقًا من الكذب

(٣١٣ ج ٣ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦).

(2) ٢٩٧ - ٣٠٠ / ١ فوات الوفيات لابن شاكر ط ١٢٨٢ هـ - وراجع ترجمة ابن سنان بإفاضة في كتابي "بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي).

هو أن الله عز وجل صرف العرب وسواهم عن معارضته وقد أيد هذا الرأى فى كتابه سر الفصاحة وألف فيه كتابا سماه الصرفة[1] .. وهو فوق ذلك العلم الفذ فى البلاغة، وكتابه يعد أول تأليف مفصل فى علوم البلاغة والبيان وأجمع دراسة لشتى ألوان البلاغة وفنونها وصورها وجميع أسبابها من اللفظ والمعنى والتأليف والنظم، وكل هذه الثقافات تدل على عقلية واسعة عميقة ولا شك أن مما نماها فيه تلمذته على أستاذه أبى العلاء وسواه من علماء العربية وأدبائها، فوق عكوفه على المطالعة والقراءة والبحث والتأليف، وفى أستاذه المعرى يقول من قصيدة رثى بها جماعة من أهله وأصدقائه :

ومقيمًا على المعرة تطويه   الليالى وذكره منشور[2]

وقد ألفّ ابن سنان الكتب الآتية :

١- سر الفصاحة.
٢- كتاب الصرفة ذكر فيه قضية إعجاز القرآن وأن سبب الإعجاز هو صرف الله العرب عن معارضته[3].

ومذهب الصرفة ينسب إلى إبراهيم بن يسار النظام المعتزلى وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلى البغدادى. وكان الجعد ابن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولا قريبًا من ذلك. وقد رجح هذا المذهب ابن سنان فى كتابه.

٣- وله ديوان شعر صغير، إلى غير ذلك من كتبه المفقودة.

- ٥ -

وابن سنان شاعر مشهور وله ديوان شعر يقع فى ست عشرة ومائة صفحة ويمتاز شعر بامتلائه بالمعانى والأفكار العقلية وبقوته وجمال العاطفة فيه وظهور شخصية الشاعر وغلبتها عليه، وسندرسه دراسة واسعة فى كتاب مستقل إذا وفق الله. ونشير فى هذا المقام إلى أن البارودى قد جعل فى مختاراته ابن سنان من الشعراء الذين نقل عنهم من شعرهم. وكان من الشعراء الذين عاصروا ابن سنان فى حلب: أبو الفتح بن أبى حصينة المتوفى عام ٤٥٦ (راجع ١٨٨ جـ ٤ أعلام النبلاء)، ومنهم

---

[1] راجع ١٣٩ جـ ٣ معجم الأدباء وقد نقل عنه ياقوت.
[2] ص٣٥ من الديوان .
[3] ١٣٩ جـ ٣ معجم الأدباء.

أبـو العـباس الملقب بالمشكور (راجـع ٣٣٣ و٣٣٤ ج١ أعـلام النبلاء) وسـواهما مـن الشعراء. ومـن ديوانـه نسخة خطية بـدار الكتب وطبع الديـوان ببيروت فـى ١١٦ صفحة. وشعر ابـن سنان الخفاجي كله مختار جيد لاسيما ما نظمه من بعد عصر صباه وهـو مظهر لشخصيته فـى يأسه وأمله وفقره وغناه وظفره وفشله وفى فضائله الخلقية الكريمة وفـى طموحه البعيد الوثاب وفى نظراته الفلسفية التى استمدها من أستاذه أبى العلاء. وهو فى رثائه وفى عتابه وفى غزله وفى مدحه وفى وصفه وفى التعبير عن وجدانه وعواطفه، رائع بالغ حدود الجمال الفنى والعاطفى. ولا مانع من أن نعرض هنا عدة نماذج لشعر ابن سنان. قال الخفاجي:

أيهـــا الـــنوام ويحكـــم	قـــد حملـــنا عـــنكم الســـهرا
نحـــن فـــى ظـــلماء داجـــية	مالهـــا صـــبح فينـــتظر
فجـــرها والصـــبر بعدهـــم	مـــا سمعـــنا عـــنهما خـــبرا

وقال من قصيدة يرثى بها جماعة من أهله وأصدقائه:

طلـب الأمـن فـى الـزمان عسير	وحديـــث المـــنى خـــداع وزور
لا تظـــن الفقـــيد أفـــرده الـــبين	فقـــد أعجـــل المقـــيم المســـير
إن فـى جانـب المقطـم مهجـورا	ومـــن أجلـــه تـــزار القـــبور
ومقـــيمًا عـــلى المعـــرة[1] تطويـــه	اللـــيالى وذكـــره منشـــور
وضـــريحين بالعواصـــم مـــبذولين	والصـــبر عـــنهما محظـــور
وغريـــبا بالديـــر بـــان لـــه العـــيش	وغـــاض الـــندى ومـــات الســـرور
صـــارم فلـــت النوائـــب حديـــه	وغصـــن تحـــت الـــثرى مهجـــور
أيهـــــا الظاعـــــنون لازال	للغيـــث رواح علـــيكم وبكـــور
لســت أرضـــى بـــالدمع فـــيكم فهـــل	يملـــك رى الـــبحور إلا الـــبحور
قـــد رأيـــنا ديـــاركم وعلـــيها	أثـــر مـــن عفـــاتكم مهجـــور
وســـألنا أطلالهـــا فأجابـــت	ومـــن الصـــمت واعـــظ ونذيـــر
عرصـــات كـــأنهن لـــيال	فارقـــتها عـــند الكمـــال الـــبدور
ياديـــار الأحـــباب غـــيرك الدهـــر	فكانـــت بعـــد الأمـــور أمـــور
أيـــن أيامـــنا بظلـــك والشـــمل	جمـــيع والعـــيش غـــض نضـــير
نشـــوة أعقبـــت خمـــارًا مـــن الهـــم	ولكـــن قـــد يفـــرق المخمـــور
يـــا نجـــوم العـــلى غربـــتم ومـــا فـــى	اللـــيل مـــن بعدكـــم نجـــوم تغـــور

---

[1] هو أستاذه المعرى الفيلسوف الشاعر م ٤٤٩ هـ.

حـــال عمـــا عهدتمـــوه ولم يجـر عـلى رسمـه الصباح المـنير
وعفــا الجــود فالكــريم بخــيل فــى المــلمات والغــنى فقــير
لا يجــاوركم الصــعيد بســوء فهــو للــنازلين بــنس المجــير
وســقاكم مــن الســحاب صــناع الكـف يسدى فـى روضكم وينير
مـا أرى الشعر كافيًا فـى مراثيكم ولكــن قــد ينفــث المصــدور

وقـال :

يـا خجلـتى للطـيف لمـا سـرى فــى خطــر اللــيل إلى ســاهر
زيـــارة ضـــاعت ولكـــنها جــناية الشــوق عــلى الزائــر

وقال :

لى راحــة يفــرق مــنها الغــنى لأن مـــا يـــنزلها يســـتباح
لابـــد أن أعمـــرها بالقـــنا فطالمـــا أقفـــرتها بالســـماح

وقال :

تجاهلـت حـتى أنكرتـنى خفاجـة وقالت : وهـل ضـل الأعز المشيع ؟

وقال فى صباه :

وحــى مــن خفاجــة رحــت فــيه عــلى جــرداء حالــية الأديــم
أبــاح الخمـر فـيه حمـى همومـى فأشـــربها وتفـــتك بالـــنديم

وقال فى مقامه بديار بكر من قصيدة طويلة :

سقى الهضبة الأدماء من أرض جوشن ســحائب تســدى روضــه وتــنير
وحـل عقـود المـزن فـى حجـراته نســيم بــأدواء القلــوب خــبير
فمــا ذكــرته الــنفس إلا تــبادرت مدامــع لا يخفــى بهــن ضــمير

وقال ابن سنان :

هـل تـسمعون شـكاية مـن عاتـب أو تقــبلون إنابــة مــن تائــب
أم كـل مـا يـتلو الصـديق علـيكم فــى جانـب وقلوبكـم فـى جانـب
أمـا الوشـاة فقـد أصـابوا عـندكم ســوقا تـنفق كـل قـول كـاذب
فمللـــتم مـــن صــابر، ورقـــدتم عــن ساهر وزهـدتم فـى راغـب

وقال على مذهب لزوم مالا يلزم :

مضى الصبا وأناس فى الصبا غرقوا أســتودع الله إطــرابى وأتــرابى

ولو عقلت لما عنيت بعدهم
نفسي وأتعبت آرابي بآرابي

وكنت في جانب الغبراء معتزلا
عزى قنوعي وحصني ظل محرابي

لا أطلب الرزق من سيف ومن قلم
ولا أفكر في روم وأعراب

أقول حقًا ولكني أخالفه
ولو عقلت لكان الصمت أحرى به

وقال :

من مبلغ اللوام أن مطامعي
صارت حديثا بينهم وقصائدا

ركضت على أعراضهم وهي التي
تطوى البلاد شواردا ورواكدا

مالي أجاذب كل وقت معرضا
منهم وأصلح كل يوم فاسدا

وأقيم سوق المجد في ناديهم
حتى أنفق فيه فضلا كاسدا

أرأيت أضيع من كريم راغب
يدعو لخلته لئيما زاهدا

ومعرس بركابه في منزل
يلقى الصديق به عدوًا حاسدًا

عكس الأنام فإن سمعت بناقص
فاعلم بأن لديه حظا زائدا

وتفاوت الأرزاق أوجب فيهم
أن يجعلوه مصالحا ومفاسدا

ومعدد في الفخر طارف ماله
حتى تلوت عليه مجدا تالدا

طوقته بأوابد ولطالما
أهديت أغلالا بها وقلائدا

مهلا فإنك ما تعد "مباركًا"
خالا ولا تحصي "سنانا" والدا

بيت له النسب الجلي، وغيره
دعوى تريد أدلة وشواهدا

وقال :

أستغفر الله لا فخر ولا شرف
ولا وفاء ولا دين ولا أدب

كأنما نحن في ظلماء داجية
فليس ترفع عن أبصارنا السجف

تزيد بالبحث جهلا إن طلبت هدى
وهل يضيء لعين المدلج السدف

وفي الفلاسفة الماضين معتبر
فطالما قصدوا فيه وما عسفوا

وقد أتوك بمين من حديثهم
يكاد يضحك منه الحبر والصحف

ظن بعيد وأقوال ملفقة
تخفى على الغمر أحيانًا وتنكشف

الأمر أكبر من فكر يحيط به
والعمر أقصر أن يلقى له طرف

أعظم بدائك إن حاولت واضحة
ومت به فعلى هذا مضى السلف

جاءت أحاديث عن قوم أظنهم
عاشوا طويلاً وقالوا بعد ما خرفوا

يدين قوم بأن الشهب خالدة
وعند قوم لها وقت ومنصرف

وما رضيت بعقلي في جدالهم
ولا توهمت إلا غير ما وصفوا

ورب قــوم أضــاعونى وقــد فهمــوا قــدرى فمـا أنكروا فضلى ولا اعترفوا

وقال على طريق الشعر المعروف باستغفر واستغفرى :

استغفر الله القديـم وعـذ بـه مـن شر عـاو فـى الحطـام منافس
وافعـل جمـيلا لا يضـع لـك صنعه واسمـح بقوتـك للضـعيف البـائس
واقـنع ففـى عـيش القـناعة نعمـة لا تـتقى كفـى الـزمان الخـالس
لا تركـنن إلى المـراء فإنـه سـبب لكـل تـنافر وتشـامس
عـاذت بنو حواء من إبليس فى الد نـيا وكـم فـيهم فـنون أبـالس
درسـوا العلـوم لـيملأوا بجدالهـم فـيها صـدور مراتـب ومجـالس
وتـزهدوا حـتى أصـابوا فرصـة فـى أخـذ مـال مسـاجد وكـنائس[1]
إيـوان كسـرى صـار مـرتع ثلـة وديـاره باتـت مـناخ عـرائس
والحـيرة البيضـاء بـدل أنسـها قـدر أطاعـته مدائـن فـارس
يـا عقـل مـالك فـى اللطائف منهج فـإذا عـثرت فـلا لعـا للـناعس
عـندى لقـد ذهـب الذيـن تفكـروا فـيها ومـا ظفـروا بغـير وسـاوس
مـا قـول بطلـيموس عـنها حجـة عـندى ولا المـروى مـن رسـطالس
جـار الأنـام فـلا دلالـة ناظـر تشـفى العقـول ولا إمـارة قـابس
لا تحفلـن بمـا حوتـه صـحائف لهـم وإن وجـدت بخـط دارس
عجـبا لهمـام يـنازع خصـمه فـى آل يـربوع وأسـرة حـابس
هـيهات مـا شـرف الأصـول بـنافع حـتى يكـون ذوائـب كمغـارس
لا تفخـرن وإن فضـلت فبالـتقى ناضـل ، وفـى بـذل المكـارم نـافس

أسامة بن منقذ

ولد أسامة فى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ – يوليه سنة ١٠٩٥م، من أسرة توارثت إمارة "شيزر" وهى مدينة فى الشمال الغربى لحماة تبعد عنها خمسة عشر ميلا، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصى من جهات ثلاث وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة، وكان لهذه القلعة قيمتها فى عصر الحروب الصليبية لمركزها الحربى الحصين، ومكانها بين الولايات السورية، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين. ولد أسامة لأب صالح، يقضى وقته بين تلاوة القرآن، والصيد فى النهار، ونسخ كتاب الله فى الليل، ووالدة شهرت بالشجاعة،

[1] وينسب هذا البيت والذى قبله لابن خفاجة الأندلسى (راجع ديوان ابن خفاجة شاعر الأندلس م٥٣٣ طبعة سنة ١٢٦٦ بمصر ص٧٨).

والنخوة. والإقدام. وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار، ويركب الصعب من الأمور، فلا ينهاه عن أن يمضي إلى عمل يريده أو عقبة يقتحمها وهو ثابت رابط الجأش. ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر، وقتل ما يصرعه منها .. وهكذا شب جريئا لا يهاب. ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه في رياضته المفضلة عنده، وهي الصيد.

ومع هذه النشأة التي تعد للحرب والنضال تلقى أسامة الثقافة التي كان يتلقاها الأمراء في ذلك العصر. فدرس الحديث والأدب والفقه والنحو واللغة وحفظ الكثير من الشعر، وأخذ من ذلك بنصيب واف يشهد له به كتبه وما ضمنت من أحاديث كثيرة منوعة الأغراض.

كان أسامة أثيرا لدى عمه أبي العساكر سلطان حاكم "شيزر" ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابنا له، وكان يرى فيه أمير المستقبل لشيزر، ووارث الملك من بعده فكان يكلفه من الأمور ما يتطلب شجاعة وجرأة. واشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعًا عن مدينتهم شيزر. وعاش أسامة في تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا في آخر أمره، أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التي تربطه بأسامة بدلا من حبه وعطفه عليه. وبدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه خوفا على أولاده من مكانة أسامة. وحذرا أن ينول الملك إليه دونهم، فمضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكي الذي صار أكبر أبطال الحروب الصليبية في وقته وأول خطر حقيقي داهم للصليبيين. فانتظم أسامة في جنده وحارب تحت قيادته في عدة معارك، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر عندما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٢هـ ١١٣٨م، فقد مضى إليه وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عنه. وربما كان قد عزم على البقاء في شيزر بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١هـ، غير أن عمه أبا العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر فقد أيقن أنه أصبح خطرا على ملكه وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة في شيزر. فأمره وإخوته بالرحيل فتشتتوا في البلاد، وكان في ذلك الخير لهم، فإنهم نجوا من الزلازل التي هدمت شيزر وقضت على بني منقذ بأسرهم وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢هـ.

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق. واتصل بحاكمها معين الدين. واعتمد هذا الحاكم على أسامة في تصريف أمور رعيته بدمشق. ثم سافر إلى القاهرة عام ٥٣٩هـ. وبعد حين عاد لدمشق، وتوفي بها عام ٥٧٨هـ – ١١٨٨م.

وقد ترك أسامة عدة كتب منها :

١- كتاب الاعتبار.
٢- كتاب لباب الآداب.
٣- كتاب العصا، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا منذ عرفت في التاريخ، وأثبت فيه أيضًا كثيرًا من شعره.
٤- كتاب البديع، وقد جمع فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين، المصنفة في نقد الشعر، وذكر محاسنه وعيوبه. وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبي الإصبع في كتاب بدائع القرآن. ومن الكتاب نسخة خطية بدار الكتب.
٥- كتاب المنازل والديار. قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية : إنه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ - ١١٧٣م في أثناء اقامته في حصن كيفا. والدافع له على كتابته زلزال أغسطس سنة ١١٥٧م وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل والديار والأطلال والربوع والدمن والرسوم وغيرها ، وبالمتحف الأسيوى بلننغراد نسخة منه.
٦- مختصر مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي.
٧- مختصر مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي أيضًا .. والكتابان مخطوطان بدار الكتب.
٨- تاريخ القلاع والحصون.
٩- أخبار النساء.
١٠- التاريخ البدري، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدرًا من الفريقين.
١١- التجائر المربحة والمساعي المنجحة.
١٢- النوم والأحلام .
١٣- الشيب والشباب.
١٤- التأسي والتسلي.
١٥- ذيل يتيمة الدهر.
١٦- أخبار النساء.
١٧- نصيحة الرعاة.

ومن شعر أسامة :

أشكو زمانًا قضى بالجور في. ولم ... يزل يجور على مثلي ويعتسف
وقد دعوتك مظلومًا ومرتجيًا ... وفي يديك الغنى والعدل والخلف

ومنـه :

والـدى طـبعك الكـريم ، فمـا أهـ ـنـى نـوالا تنـيله وتثيـب
جـاءنى والـبعاد دونـى كمـا جـا ـبـت فـيافى الـبلاد ريـح هـبوب
وعجيـب أن المواهـب تـسرى ويقـيم المسـترفد الموهـوب

ومن شعره أيضًا :

لمـا رأيـت صـروف هـ ـذا الدهـر تلعـب بالـبرايا
يعلـو بهـا هـذا، ويهـبط ذا ، وقصـرهم المـنايا
ورأيـته مسـترجعًا نـزر المواهـب والعطايـا
مـتغاير الأحـوال مخـ ـتلف الضـرائب والسـجايا
لا نعمـة فـيه تـدو م . ولا تـدوم بـه الـبلايا
لم أغتـبط فـيه بفـا ئـدة ، ولم أخـش الـرزايا

وقال :

إذ ماعدا خطب من الدهر فاصطبر فـإن اللـيالى بـالخطوب حوامـل
فكـل الـذى يـأتى بـه الدهـر زائـل سـريعًا فـلا تجـزع لمـا هـو زائـل

وقال :

والـذى أوهـم عينـى أن فـى الـنوم قذاهـا
يا ملـولا قلما اسـتر عى عهـودا ، فرعاها
يـا ظلومـا كـلما اسـتعطفته ، صـد وتاهـا
زدت فـى تـيهك والشـىء إذا زاد تـناهى
تنقضـى دولـة الحسـن ، وإن طـال مداهـا
راحـتى لـو سمـع الشـكوى إلـيه ، ووعاهـا
غـير أن الصـم لا تـسمع دعـوى مـن دعاهـا
وهـو لـو نـادى عظـامى رمـة لـبى صـداها

القسم السادس

تراجم الأدباء والكتاب والنقاد

الأصمعي الناقد الراوية

هو الإمام أبو سعيد عبد الملك بن قريب[1] (١٢٢ - ٢١٦هـ)، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار ، وكان راوية اللغة والأدب، ذواقة الشعر، وإماما في الأخبار والنوادر والملح والغرائب، وكان كثير الحفظ حتى قيل إنه كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة، وأنه لم يكن يدعي شيئا من العلوم إلا وله به معرفة تامة .. وكان حسن العبارة والرواية .. وهو من أهل البصرة، قدم بغداد في أيام الرشيد، وكان المأمون يجله ويكبره، وطلبه أن يأتي إليه فلم يفعل، واحتج بكبره وضعفه فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويرسل به إليه ليجيب عنه. وتوفي بالبصرة وقيل بمرو.

وينسب الأصمعي إلى جده أصمع، وهو من قيس .. ونشأ بالبصرة وتأدب على علمائها وأئمتها، وكان يقول : "أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة"، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر .. وقد امتاز بطلاوة الأسلوب وجمال الحديث وحلاوة التعبير، حتى قال الشافعي فيه: "ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي". وسئل أبو نواس عنه وعن أبي[2] عبيدة فقال : أما أبو عبيدة فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته" .. وكان ثقة في روايته وأثنى عليه الشافعي وأحمد بن حنبل ووصفوه بالصدق، وكان يفضل خلفا[3] في علم الشعر ونقده، وكان مقصرًا في العروض.. وكان إسحاق الموصلي يعظمه ويأخذ عنه ويتتلمذ له.

وقد تتلمذ الأصمعي على أشياخ عصره، من مثل عبد الله بن عون وشعبة بن الحجاج وحماد بن سلمة وحماد بن زيد والخليل بن أحمد .. وتتلمذ عليه جمهور كثير من الرواة، وفي مقدمتهم ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله وأبو عبيد بن القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستاني وأبو الفضل الرياشي وأحمد بن محمد اليزيدي ونصر بن علي الجهضمي، والتوزي وسواهم.

---

[1] يجعل الذهبي ميلاده عام ١٢٨ هـ (١/٣٧٠ العبر في خبر من غبر).

[2] هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء (١١٤ - ٢٠٨هـ)، أخذ عن يونس وأبي عمرو بن العلاء وأخذ عنه كثير من الأعلام .. وكان من أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها، وهو أول من صنف في غريب الحديث. وكان أعلم الناس بالأنساب والأيام. وكان أبو نواس يتتلمذ عليه. قدم بغداد من البصرة في عهد الرشيد .. وله مصنفات كثيرة.

[3] هو خلف الأحمر المتوفى عام ١٨٢هـ الراوية الأديب الناقد المشهور.

وللأصمعي مؤلفات كثيرة بعضها لا يزال مخطوطا[1]، ومنها كتاب معانى الشعر وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء وكتاب الصفات، وكتاب الميسر والقداح وكتاب جزيرة العرب، وكتاب الغريب وهو مخطوط فى الاسكوريال، وكتاب رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .. ومما طبع من آثار الأصمعي هذه الكتب:

١- كتاب النخل والكرم - طبع ببيروت عام ١٩٠٢.
٢- كتاب النبات والشجر - طبع ببيروت مع مجموعة من كتبه.
٣- كتاب الفرق - وهو مطبوع بفينا.
٤- كتاب الدارات - مطبوع ببيروت فى مجموعة من كتبه.
٥- كتاب الشاء مطبوع عام ١٨٩٦م.
٦- كتاب الخيل - مطبوع بفينا.
٧- كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع ببيروت مع مجموعة من كتبه.
٨- كتاب الإبل - مطبوع فى بيروت.
٩- كتاب أسماء الوحوش - مطبوع.
١٠- كتاب الأصمعيات وهو مجموع مختارات من الشعر، طبعت فى لبسك سنة ١٩٠٢م.

ولما توفى الأصمعي رثاه بعض الشعراء بهذه الأبيات :

أسفت لفقد الأصمعي لقد مضى	حميدا له فى كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده	وودعنا إذ ودع الأنس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته	فلما انقضت أيامه أفل النجم

ويقول فيه الشريشي شارح المقامات : "كان الأصمعي حافظا عالما فطنا بارعا بأشعار العرب وأخبارها، كثير التطوف بالبوادى لاقتباس علومها ، وتلقى أخبارها، فهو صاحب غرائب الأشعار وعجائب الأخبار، وقدوة الفضلاء وقبلة الأدباء، قد استولى على الغايات فى حفظ اللغات، وضبط العلوم الأدبيات، صاحب دين متين. وعقل رصين، وكان خاصا بالرشيد، آخذا لصلاته".

وللأصمعي كتاب "فحولة الشعراء" وهو كتاب فريد فى بابه وموضوعه، وهو أساس لكتب النقد التى ألفت بعد عصر الأصمعي .. وقد عثرنا على نسخة خطية من الكتاب فى مكتبة الأزهر ضمن مجموعة محفوظة برقم ١١٨١ مجاميع أباظة ٦٣٢٣.

---

[1] ٨٣ الفرست لابن النديم ، ١٤٧ - ١٥١/ ٢ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان.

كما عثرنا على نسخة خطية أخرى من الكتاب في المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية، وقد نسخت عام ١٣٣٩هـ عن نسخة مكتبة الأزهر غالبًا، لأنها النسخة الوحيدة القديمة المخطوطة في مكتبات مصر، والذى نسخها هو محمد أبو العينين عطية، وخطها خط النسخ الواسع الجيد. وقد توليت نشر الكتاب عام ١٩٥٣ لأول مرة[1].

وهو ثابت النسبة للأصمعى، وقد نقل المرزبانى عنه بعض دراساته وآرائه النقدية، وذلك فى كتابه المشهور "الموشح".

والكتاب برواية الإمام الجلل الراوية أبى حاتم السجستانى العالم اللغوى الثقة، المتوفى عام ٢٥٥هـ عن الإمام الأصمعى.

وطريقه طريق الحوار والمساءلة، يسأل أبو حاتم الأصمعى عن أحد الشعراء هل هو فحل أو لا؟ أو هل هو من الفحول؟ فيجيبه الأصمعى ويرشده إلى ما يرى، مستدلا على رأيه ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد أو أبيات جيدة تسلكه فى عداد الفحول، وينبه على الشاعر الذى لم يبلغ منزلة الفحول، مبينا تقصيره وحاجته إلى الزيادة على ما قال حتى يصير فحلا، وفى بعض الأحيان يتهكم الأصمعى على بعض الشعراء تهكما لاذعا كما فعل مع زهير الشاعر الجاهلى المشهور، الذى قال فيه إنه لا يصلح أن يكون أجيرًا للنابغة، وقد يبالغ الأصمعى فى تقدير ما يروقه من آثار أدبية شعرية فيرفعه إلى أعلى منزلة، ويقول : ليس فى الدنيا مثل هذا البيت، أو ليس فى الدنيا مثل هذه القصيدة. والكتاب على العموم صورة واضحة لنفس الأصمعى وعلمه بالأدب والشعر والنقد.

وموضوع الكتاب، كما علمنا، فحولة الشعراء أو فحولهم. ويجمع الفحل على فحول وفحولة، وفحول الشعراء - كما فى اللسان - هم الذين غلبوا على من هاجاهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة، وكان يسمى فحلا لأنه عارض امرأ القيس فى قصيدته البائية المشهورة التى يقول فيها "خليلى مرابى على أم جندب"، وذلك حيث يقول فى قصيدته : "ذهبت من الهجران فى غير مذهب". والفحول أيضًا كما فى اللسان الرواة، الواحد فحل . ويريد الأصمعى بالفحل ما كان له مزية على غيره من الشعراء كمزية الفحل على سواه. والكتاب أثر أدبى ونقدى نفيس، وقيمته فى تراثنا الأدبى

---

[1] نشرد تورى أيضا (راجع ١٥٠/٢ بروكلمان تاريخ الأدب العربى).

ثمينة للغاية، بل إنه أصيل نادر، وكتاب خصب، وكانت المكتبة العربية في مسيس الحاجة إليه، خاصة وأنه أقدم الكتب التي ألفت في النقد ودراسة الشعراء في مطلع العصر العباسي.

وللأصمعي روايات كثيرة مدونة في مصادر الأدب وأصوله، وهي تدور حول الأدب والشعر والنقد واللغة وأخبار العرب وأيامهم، ولا بأس أن نذكر بعضا منها :

قال الأصمعي[1] : قصدت في بعض الأيام رجلا كنت أغشاه لكرمه؛ فوجدت على بابه بوابًا؛ فمنعني من الدخول إليه : ثم قال : والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله، وقصور يده؛ فكتبت رقعة فيها :

إذا كان الكريم له حجاب ... فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له : أوصل رقعتي إليه؛ ففعل وعاد بالرقعة، وقد وقع على ظهرها:

إذا كان الكريم قليل مال ... تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار. فقلت : والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر؛ فلما رآني قال : من أين يا أصمعي ؟ قلت : من عند رجل من أكرم الأحياء، حاشا أمير المؤمنين . قال : ومن هو ؟ فدفعت إليه الورقة والصرة، وأعدت عليه الخبر. فلما رأى الصرة قال : هذا من بيت مالي، ولابد لي من الرجل! فقلت : والله يا أمير المؤمنين إني أستحيي أن تروعه[2] برسلك، فقال لبعض خاصته : امض مع الأصمعي ؛ فإذا أراك الرجل، فقل له : أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج ! فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له : أنت الذي رفعت لنا بالأمس وشكوت رقة الحال، وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكله[3]؛ فدفعنا إليك هذه الصرة لتصلح بها حالك؟ فقصدك الأصمعي ببيت واحد ؛ فدفعتها إليه ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين! والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال، لكني استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي إلا كما أعادني أمير المؤمنين، فقال له المأمون : لله أنت ؟ فما ولدت العرب أكرم منك !

وروى[4] الأصمعي قال : لقيت أعرابيا بالبادية فاسترشدته إلى مكان فأرشدني وأنشدني :

---

[1] ثمرات الأوراق للحموي ص٢٣٢ ج١.

[2] روعه : أفزعه .

[3] الكلكل : الصدر.

[4] أمالي المرتضى ص١٤٠ ج٢.

ليس العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فإنما خلقت أخا عقل لتسأل بالعقل

ثم رجعت إلى البصرة فمكثت بها حينا، ثم قدمت البادية، فإذا الأعرابى جالس بين ظهرانى قوم وهو يقضى بينهم، فما رأيت قضية أخطأت قضية الصالحين من أقضيته، ثم جلست إليه وقلت : يرحمك الله أما من رشوة أما من هدية ! أما من صلة ! فقال : إذا جاء هذا ذهب التوفيق، فشكوت إليه ما ألقى من عذل حليلة لى إياى فى طلب المعيشة، فقال : لست فيها بأوحد وإنى لشريكك، ولقد قلت فى ذلك شعرًا، قلت : أنشدنيه فأنشدنى:

باتت تعيرنى الإقتار والعدما لما رأت لأخيها المال والخدما
عنف لرأيك ما الأرزاق من جلد ولا من العجز بل مقسومة قسما
يا أمة الله إنى لم أدع طلبًا للرزق قد تعلمين الشرق والشأما

وكان الأصمعى كثير العناية بالرواية، يذهب إلى البادية، وإلى كل الجهات، ليسمع خبرًا، أو يرى أثرًا، أو ينصت للهجة، أو يحادث عجوزًا، أو يتحدث مع رجل؛ وكان يتخذ من ذلك مادة لسمره فى مجالس الخلفاء، وقصور الأمراء.

قال الأصمعى[1] : دخلت بعض مقابر الأعراب، ومعى صاحب لى، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال، وعليها من الحلى والحلل مالم أر مثله، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى! فالتفت إلى صاحبى فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال: لا والله ولا أحسبنى أراه، ثم قلت لها : يا هذه إنى أراك حزينة وما عليك زى الحزن! فأنشأت تقول :

فإن تسألانى فيم حزنى فإننى رهينة هذا القبر يا فتيان
وإنى لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يرانى

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حلى وفى حللى كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عبرى مولهة عجيبة الزى تبكى بين أموات !

---

[1] العقد الفريد ص٢٦ ج١.

وقال الأصمعي[1] : دفعت يومًا في تلمسي بالبادية إلي واد خلاء، لا أنيس به إلا بيت معتنز[2] . بفنائه أعنز، وقد ظمئت، فيممته فسلمت، فإذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخم[3] ، فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن؟ فقلت: ما كان بغيتي إلا الماء فإذا يسر الله اللبن فإني إليه فقير.

فقامت إلي قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت إلي الأعنز فتغبرتهن[4]، حتى احتلبت قراب[5] ملء القعب ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطفت ثمالته[6] كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتني إياه فشربت حتى تحببت[7] ريا واطمأننت.

فقلت : إني أراك معتنزة في هذا الوادي الموحش والحلة[8] منك قريب، فلو انضممت إلي جنابهم[9] فأنست بهم، فقالت : يا ابن أخي ! إني لآنس بالوحشة وأستريح إلي الوحدة ويطمئن قلبي إلي هذا الوادي الموحش، فأتذكر من عهدت، فكأني أخاطب أعيانهم وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لي أندية رجالهم وملاعب ولدانهم ومندى أموالهم.

والله يا بن أخي، لقد رأيت هذا الوادي بشع[10] للديدين[11] بأهل أدواح[12] وقباب، ونعم[13] كالهضاب، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويحمون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قما[14] بغرقة، فأصبحت الآثار دارسة ، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به.

---

(1) الأمالي ص٧ ج٢.
(2) معتنز : منفرد.
(3) الراخم : التي تحضن بيضها.
(4) تغبرتهن : احتلبت الغبر وهو بقية اللبن في الضرع.
(5) قراب : قريب.
(6) الثمالة : الرغوة .
(7) تحببت : امتلأت .
(8) الحلة : وجمعها حلال : بيوت الناس.
(9) الجناب : فناء الدار .
(10) بشع : ملآن.
(11) اللديدان: الجانبان.
(12) الأدواج : الأشجار العظيمة.
(13) الهضاب: الجبال الصغار.
(14) قما : كنسا.

ثم قالت : ارم بعينيك في هذا الملا[1] المتباطن[2]، فنظرت فإذا قبور نحو أربعين أو خمسين. فقال: ألا ترى تلك الأجداث؟ قلت : نعم. قالت: ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ، أو ابن عم، فأصبحوا قد ألمأت[3] عليهم الأرض. وأنا أترقب ما غالهم. انصرف راشدًا رحمك الله!

وقال الأصمعي[4]: سرت في تطوافي في العرب بجبلي طيىء: فدفعت إلى قوم منهم يحتلبون اللبن، ثم يصيحون : الضيف! فإن جاء من يضيفهم وإلا أراقوه فلا يذوقون منه شيئًا دون الضيف، إلا أن يجهدهم الجوع. ثم دفعت إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله، فسألته القرى فقال: القرى والله كثير ولكن لا سبيل إليه، فقلت: ما أحسب عندك شيئا، فأمر بالجفان، فأخرجت مكرمة بالثريد، عليها وذر[5] اللحم، وإذا هو جاد في المنح، فقلت : والله ما أشبهت أباك حيث يقول:

وأبرز قدري بالفناء قليلها ... يرى غير مضنون به وكثيرها

فقال : إلا أشبهه في هذا ، فقد أشبهته في قوله:

أماوي إما مانع فمبين ... وإما عطاء لا ينهنهه[6] الزجر

فأنا والله مانع مبين. فرحلت عنه. ودفعت إلى امرأة من ولد ابن هرمة فسألتها القرى، فقالت: إني والله مرملة مسنتة[7]، ما عندي شيء، فقلت : أما عندك جزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ولا دجاجة ولا بيضة! فقلت : أما ابن هرمة أبوك؟ فقالت: بلى والله! قلت: قاتل الله أباك! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أمتع العوذ[9] بالفصال ولا ... أبتاع إلا قريبة الأجل

إني إذا ما البخيل آمنها ... باتت ضموزًا[8] مني على وجل

ووليت ، فنادت : أربع أيها الراكب، فعله والله ذلك أقله عندنا، فقلت : إلا تكوني أوسعتنا قرى، فقد أوسعتنا جوابًا!

---

(1) الملا : ما اتسع من الأرض.

(2) المتباطن : المتطامن .

(3) ألمأت : احتوت.

(4) ذيل الأمالي ص١١١ - الطبعة الأميرية.

(5) الوذرة من اللحم : القطعة الصغيرة لا عظم فيها.

(6) ينهنهه : يكفه.

(7) أسنتت : أصابتها السنة وهي الجدب.

(8) ضمز البعير : أمسك جرته في فيه ولم يجتر.

(9) العوذ : الحديثات النتاج.

ابــن المقفــع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد بلغاء الكتاب الأولين والمترجمين المتأدبين وهو من سلالة فارسية من أهل خوزستان التى سمتها العرب الأهواز، وهى ولاية فارسية شرقى البصرة. وكان أبوه المقفع مجوسيا يسمى داذويه، وسبب تلقيبه بالمقفع أنه كان يعمل فى جباية الخراج لولاة العراق زمن بنى أمية، فاختان بعض مال الخراج فضربه الوالى ضربا تقفعت منه يده، وولد له ابنه هذا حوالى سنة ١٠٦ هـ، وسماه روزبه، فنشأ بالبصرة وهى يومئذ تعج بفصحاء العرب وخطبائها ونحاتها وشعرائها وبالوافدين عليها من فصحاء أعراب البادية، فأخذ ثقافته عن كل هؤلاء وتعلم على أبيه صناعة الكتابة واللغة الفارسية وآدابها، حتى بذ شبان عصره، فاستكتبه داود بن يوسف بن عمر بن هبيرة أحد ولاة بنى أمية على العراق، ثم اتخذه فى عصر الدولة العباسية عم الخليفة أبى جعفر المنصور كاتبا له أيام ولايته على كرمان من بلاد فارس وعلى يديه أسلم، وتسمى عبد الله وتكنى أبا محمد، ثم ألزمه أخوه إسماعيل بعض أولاده ليؤدبهم.

ثم خدم آخر حياته أخاهما سليمان بن على والى البصرة. واتصل بأبى جعفر المنصور وهو فى خدمة أعمامه، فكلفه ترجمة كثير من كتب الأدب والفلسفة اليونانية المنقولة قديما إلى الفارسية، واغتاله خفية سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان، لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام وذلك سنة ١٤٢ هـ.

وكان ابن المقفع نادرة فى الذكاء والإحاطة بعلوم اليونان وأدب الفرس، وكان أمة فى البلاغة، مع الإحكام ورصانة القول وشرف المعانى، وعبارته فى كليلة ودمنة ليس لها نظير فى السهولة ورشاقة الأسلوب مع بيان غرض وصحة مبنى، وقد مضى على كتابتها نحو مائتى سنة وألف، ولا يزال شبان مدارسنا يقرؤونها ويفهمونها معجبين بها كأنما كتبت لأطفال هذا العصر خاصة، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول : "البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها"، ولكن عبارته فى الحكمة المنقولة من اليونان أو الفرس لا تخلو من تصعب، ولعل لحرصه على المحافظة على المعنى الأصلى أثرا فى جعل عبارته فيها ليست ناصعة البيان. وطبع له فى مصر كليلة ودمنة وكتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب الصغير، وله غيرهما رسائل وكتب وضعها أو ترجمها .. ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال. ومنها القصار.

أحمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح أحد فحول كتاب الرسائل في دولة بني العباس . وآل صبيح هم أهل بيت اشتهر بالكتابة والأدب والعمل الرفيع في دواوين الحلفاء أكثر من قرن، وكان جدهم صبيح مولى قبطيا لبني عجل أقام بالكوفة ونشأ بها ابنه القاسم عربي اللسان بليغ الكتابة. وخدم في دواوين بني أمية، وخلفه في صناعته ابنه يوسف، حتي جاءت الدولة العباسية فخدم بها ونشأ له ابنه أحمد أبلغ آل بيته، إذ تخرج على أيدى الرؤساء من البرامكة، وتقلبت به الأحوال حتى صار كاتبا للفضل بن سهل وزير المأمون، ثم اتخذه المأمون رئيس ديوان رسائله، فصدرت عنه أبلغ الكتب والتوقيعات، حتى غضب عليه المأمون غضبة مات في أثرها سنة ١١٣ .. وكان أحمد بن يوسف أحد الذين يضرب بهم المثل في البلاغة، وأحد الذين ملكوا ناصية الكتابة في الإيجاز وا لإطناب في جزالة لفظ وسلاسة أسلوب وجودة معنى وهو أول من افتتح المكاتبة في التهانئ بالنيروز والمهرجان[1] . ومن أشهر رسائله الرسالة التى كانت سبب رقيه في دولة المأمون، وقد كتبها على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بقتل الأمين وهي: "أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق حكم الكتاب بينه في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين. قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه : "يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح". ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شيء لمشيئته".

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول أبلغ كتاب الإيجاز. وهو ابن عم إبراهيم بن العباس الصولي. وجدهما صول تركي من أشراف جرجان، أسلم على يد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة في أثناء فتوحه بخراسان، وخدم أحفاده في دواوين الدولة العباسية، فكان عمرو هذا كاتب التوقيعات بين يدى الوزير جعفر

---

(1) ١ : ٩٥ ديوان المعاني.

البرمكي وزير الرشيد، وظهرت له نجابته وهو صغير، قال عن نفسه : كنت أوقع بين يدي جعفر، فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم فرمى بها إلي وقال: أجب عنها فكتبت: "قليل دائم خير من كثير منقطع"، فضرب بيده على ظهري وقال: أي وزير في جلدك .. وصدقت الأيام فيه ظن جعفر فصار بعد أحد وزراء المأمون الثقات عنده، وكان يعجبه بلاغته في إيجازه.

وتوفي في غزوة من الغزوات التي غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة ادنة سنة ٢١٧ .. ومن رسائله الموجزة : ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص : "كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه، معني بمن كتب له، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية" .. وكتب مرة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره:

"كتابي إلى أمير المؤمنين ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم" .. فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه ، وأمر للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر.

وحدث أحمد بن أبي خالد الأحول : أنه سمع المأمون يومًا – وعنده علي ابن هشام، وأخواه – قد ذكر عمرو بن مسعدة[1] فاستبطأه، وقال : أيحسب عمرو أني لا أعرف أخباره، وما يجبى إليه، وما يعامل به الناس! بلى والله! ونهض وانصرفنا. فقصدت عمرا من ساعتي، فخبرته بما جرى، وأنسيت أن أستحله من حكايته عني؛ فراح عمرو إلى المأمون، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له.

فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه، وقال : يا أمير المؤمنين، أنا عائذ بالله من سخطه، ثم عائذ بك من سخطك. يا أمير المؤمنين، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد، أو يسر على ضغنا يبعثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه! فقال : وما ذاك؟ قال عمرو : فخبرته بما بلغني ولم أسم له مخبري، فقال لي: لم يكن الأمر كما بلغك، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به، وإنما أخرج مني ما خرج معنى تجاريناه. وليس لك عندي إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، فأعدت الكلام، فما زال يسكن مني، ويطيب من نفسي، حتى تحلل بعض ما كان في قلبي، ثم بدأ فضمني إلى نفسه : وقبلت يده، فأهوى ليعانقني، فشكرته،

[1] وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء توفي سنة ٢١٧ هـ (١٤٥ - ١٤٨ / ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان)، أو ٢١٤ هـ (١٢٧ ١٦/١٣١ معجم الأدباء لياقوت).

وتبينت فى وجهه الحياء والخجل مما تأدى إلى. قال أحمد : فلما غدوت على المأمون، قال لى: يا أحمد، أما لمجلسى حرمة؟ فقلت : يا أمير المؤمنين، وهل الحرم إلا لما فضل عن مجلسك! قال: ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأية معاملة يا أمير المؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه، قال: بلى، أما سمعت ما كنت فيه أمس من ذكر عمرو! ذهب بعض من حضر من بنى هاشم فخبره به، فراح إلى عمرو مظهرًا منه ما وجب عليه أن يظهره، فدفعت منه ما أمكن دفعه، وجعلت أعتذر إليه منه بعذر قد تبين فى الخجل منه! وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تكلم به! ألا يتبين فى عينيه وشفتيه ووجهه، ولقد أعطيته ما كان يقنع منى بأقل منه، وما حدانى عليه إلا ما دخلنى من الخساسة، وإنما كان نطق به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به.

فقلت : يا أمير المؤمنين، أنا أخبرت عمرًا به لا أحد من ولد هاشم، فقال: أنت! قلت : أنا ! فقال : ما حملك على ما فعلت؟ فقلت : الشكر لك والنصح، والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولاسيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل، ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا فخبرته به ليصلحه، ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه، ويتلافى ما فرط منه، ولا يفسده مثله، وإنما يكون ما فعلت عيبًا لو أشعت سرا فيه قدح فى السلطان، أو نقض تدبير قد استتب، فأما مثل هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنبا على.

فنظر إلى مليا، ثم قال: كيف قلت؟ فأعدت عليه، ثم قال: أعد فأعدت، فقال: أحسنت والله يا أحمد! لما خبرتنى به أحب إلى من ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف.

وعقد خنصره وبنصره والوسطى، ثم قال : أما ألف ألف فلنفيك عنى سوء الظن، وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لى بمال!

الجاحظ شيخ الكتاب والنقاد

-١-

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الإسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب، ويدوى فى كل أفق، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب.

وعاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، كما يقول ابن العميد، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعد له شرف ومجدا يدنيهم من بلاط الملوك، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الإسلامية فى شتى عصورها، فألفوا الكتب فى الإشادة به - كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ - ، وبالغوا فى الإشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والبيان، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل أولاً والأدب ثانيًا، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الإسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد. ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة، سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة "التربيع والتدوير" .. وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجيدها[1].

ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة، وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة، فقد عاش الجاحظ محرومًا من كل شىء إلا من مجد الأدب، وشهوة العلم، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها فى عهده كثير من الكتاب، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه، أو قل إنه حورب فيها من أجله، حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون، وهذا الإخفاق فى

---

[1] ٢١١ ج٣ البيان نشر السندوبى ط ١٩٢٧.

الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته "الزوابع والتوابع"، ومما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون، وإن كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا.

ولكن ما سر هذا الإخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة، مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس: إما لأنه كان مقصرا فى الكتابة وجميع أدواتها، أو لأنه كان ساقط الهمة، أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شىء قد يكون غريبا، فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل.

أما أن الجاحظ ينقصه أداة - أيّا كانت هذه الأداة - من أدوات الكتابة، فذلك ما ترده الحقيقة المقررة، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب. وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح، لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح. وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الإخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة، حتى إنه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

الحق أن الجاحظ كان عربيًا فى روحه ودمه وحياته؛ وكان يتعصب للعرب فى كل شىء حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ والسلطان فى الدولة فيه للعناصر الأجنبية لاسيما الفرس؛ وكثيرًا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب، إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣هـ، والذى أهدى له كتابه "الحيوان" وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء، ولم يستطع أو لم يتسن لـه، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبى دؤاد الذى سيق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك؛ ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه، وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه.

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب، لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية

مكانا عليا، ما كان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهما حلق في أجوائها، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها، وكان خوضه في معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض في ميادين السياسة والاجتماع، وكانت لذته في الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته في مجد السياسة وسلطانها؛ فالجاحظ أولا وقبل كل شيء هو رجل الثقافة والأدب، وهو المعتزلي الذي تتلمذ على النظام، ثم عاف تقليد غيره في العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية الذي وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات في شتى علوم الدين والدنيا؛ وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ - ٢٥٥هـ)، وكان له في صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها في اللغة والأدب وفي علوم الدين والكلام والتفكير والمنطق، كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة في الدولة؛ وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا في عقليته وثقافته، هيأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية في عصره، لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع.

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمذاني: فيه من أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف[1]، فقد يجيد الرجل في باب من أبواب الأدب دون باب. ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه ؛ ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ، وليته وقف عند هذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيد الإشارات، قليل الاستعارات قريب العبارات، وأنه منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله، وأنه ليس له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة[2]. وإنما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبًا وبيانًا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي مازجت الثقافة الإسلامية في عصره، فهو عالم من علماء الدين، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها إحاطة لا تقف عند غاية؛ وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى، التي سرت في تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثاني الهجري، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في البيئة الإسلامية في عصر الجاحظ. ولا شك أن عصر الجاحظ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث

---

[1] ص ٢٨ مقامات البديع المقامة الجاحظية .

[2] ص٨٢ و٨٣ المرجع.

وعكوفه على القراءة، ونشأته بالبصرة، وتلقيه اللغة عن الأعراب في المربد والعلماء في حلقات البصرة ومجامعها العلمية، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية في شتى مناحيها، كأبي يوسف القاضي والنظام والأصمعي والأخفش وابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري، كان له أثره في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب، المتعددة الألوان.

وشخصية الجاحظ تطالعك في أدبه وكتبه من كل جانب وناحية: وهي شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته، المؤمن بها، الحريص على كرامته، المعتز بنفسه. يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم، فلا يفني شخصيته في شخصياتهم، بل يراهم إخوانه، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليها. وأنت حين تقرأ في كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب في جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها، وبتوجيهها الساحر لعقل القارئ وفكره وشعوره، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة، تملك عقلك وعاطفتك، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها، وتتركك صريعا في معارك فكرية، ترى الجاحظ فارسها المعلم، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدي تسترعي السمع والبصر، وتبهت الفكر والعقل، وتلهب العاطفة والشعور.

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته في تآليفه جعلت كثيرًا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتبا لا شخصية له، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم، ولا تلمس آثاره بينهم.

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة في فكره وفي كتابته وأسلوبه، وفي بحثه وتأليفه. فإذا فكر فبعقل الخاصة، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم. ولمن يفكر في مجال تفكيرهم، وليس ذلك لأن الجاحظ "يستمسك بفائدته ويضن بما عنده، غيرة على العلم، وشحا بثمرة الفهم، ولذلك كان كتاب "البيان" موقوفًا على أهله، ومن كرع في حوضه، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه " كما يقول ابن شهيد، إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء، ويرضي شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات. كما يرى بعض الباحثين

المعاصرين[1]؛ وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته فى كتبه ومؤلفاته، ما داموا لا يستطيعون مجاراته فى نواحى ثقافته العقلية والأدبية. وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب : البيان والتبيين.

-٢-

ألف الجاحظ كتابه "الحيوان"، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار. ثم ألف بعده كتاب "البيان" وأهداه إلى أحمد ابن أبى دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار، والجاحظ يشير فى مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان، وكان لظهور "البيان والتبيين" ضجة كبيرة فى الأدب والبيان، حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات.

وكتاب "البيان" ألفه الجاحظ على نمط طريف فى التأليف، من كثرة الرواية التى قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والإعجاب كما يقول الجاحظ نفسه فى كتابه، وينال كتابه الذكر والذيوع، ومن كثرة الاستطراد الذى يستدر به الجاحظ نشاط القارئ وإعجابه كما يقول الجاحظ فى تعليله له، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم فى كتابه ترتيبا يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ كبير، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شيء، إنما هو مذهبه فى الاستطراد والانتقال.

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله - أو كثيرا منها - محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسغ عليها أحيانًا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال، وأسلوب الكتاب الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا فى كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكر ولا يفى بوعده، وهذا الأسلوب الاستطرادى أيضًا جعل الجاحظ ينقد نفسه فى ترتيب فصول كتابه، وجعله يرسم منهجه فى أجزاء كتابه فى آخر الجزء الأول منه، وجعله يضع فى أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارئ بمزيد الابتسام، فهو يعنون فصولا بباب البيان، وأخرى يسميها باب الصمت، وأخرى باب اللحن أو باب الزهد، إلى آخر هذه الألقاب، التى نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها إلا للتغرير بالقارئ، واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته. وكتاب "البيان"، يجمع بين دفتيه الكثير

---

[1] ٤٩ / ٢ النثر الفنى.

من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم، ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده؛ والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصره.

ولكتاب البيان كذلك أثره فى النقد الأدبى، فهو سجل حافل للآراء المختلفة فى النقد ممالا يزال إلى الآن موضع البحث والإعجاب. والجاحظ الذى نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء، وآثر مذهب المطبوعين، كان يضع بذلك أسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبى. وعصرنا الحديث يؤمن كل الإيمان برأى الجاحظ ويسير فى تياره الفكرى والأدبى، كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وبلاغته.

وكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة، التى أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب؛ وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والإحاطة التامة بالبيان وبلاغته؛ وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير. وأثر "البيان" وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وإيفاؤه حقه من التقدير والإنصاف ودقة الحكم: فالكتاب أصل من أصول الأدب، وهو فى أسلوبه وفى نهجه وفى رواياته وفى آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين فى أدبها. وقيمته فى البيان العربى خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها، واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغايتها وأثرها.

والبيان أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه، ويشيد به أبو هلال [1]؛ ويعده ابن خلدون من أركان الأدب [2]؛ والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة، ويتناول النقد واللغة، ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية، وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والإسلام [3]، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا [4]، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه [5]. وينقد ابن شهيد الكتاب [6] ورد عليه بعض المعاصرين [1].

---

[1] ٦، ٧ الصناعتين.

[2] ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون.

[3] ٣٥ الجاحظ لمردم.

[4] ٢٢٧ / ١ العمدة.

[5] ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف.

[6] ١٩٨ / ١ ذخيرة.

والكتاب بجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وأثرها، سواء كانت هذه الآراء من جميع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة[2]، أو كما يصورها بشر ابن المعتمر[3]، أو كما يراها ابن المقفع[4]، ولهذه النصوص قيمة كبيرة، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربى لما جمعه من النصوص التى توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى، وتعطينا صورة مجملة لنشأته[5].

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة، فهو يعرف الاستعارة[6]، ويتكلم على السجع[7]. ويشير إلى التفصيل والتقسيم[8]، والاستطراد، والكتابة[9]، والأمثال[10]، والاحتراس[11] و القلب[12]، والأسلوب الحكيم[13]، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب للكلامى بهذا الاصطلاح[14] ، ويرى الجاحظ أن البلاغة فى النظم لا فى المعانى قال : والمعانى مطروحه فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجود السبك[15]، وهو ما ذهب إليه ابن خلدون[16] ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا. وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها، مما لا داعى إلى ذكره هنا

---

(1) ٥٠ / ٢ النثر الفنى.

(2) ١/٧٩ البيان.

(3) ١/٤ وما بعدها البيان.

(4) ١/٩١ البيان.

(5) ٣ مقدمة نقد النثر.

(6) ١/١١٦ البيان.

(7) ١/١٩٤ البيان.

(8) ١/١٧٠ و ٢/٩١ البيان، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر، ٣٣٢ صناعتين.

(9) ١/١٨٠ و ٢٩ و ٣١ و ٣٥ / ٣ البيان.

(10) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ / ١ و ٢٢٤ / ٢ البيان.

(11) ١٦١ / ١ وما بعدها البيان.

(12) ١٨٠ / ١ البيان.

(13) ٢٠١ و ٢٠٢ ج٣ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ "اللغز فى الجواب" (١١٦ / ٢ البيان).

(14) ١٠١ البديع. ٧٦ / ٢ العمدة.

(15) ٣/٤٠ الحيوان.

(16) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون.

خوفا من كثرة الإسهاب .. والجاحظ يشيد بالإيجاز ويدعو إليه كثيرا فى بيانه[1]، وبعد فالجاحظ وكتابه "البيان" أثر فى نشأة البيان العربى وأى أثر. ويعد ابن خلدون الجاحظ من السابقين فى التأليف فى البيان[2].

خدم الجاحظ البيان العربى خدمة لا تقدر بالكتابة - فى كتبه - فى شتى بحوثه، وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وألوانه، ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربى بتأليف قبل الجاحظ، إنما كان كل ما هنالك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب، وكانت خسارة البيان فى عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة منتهاها، وما تجده فى الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبى عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فإنما هو قليل من كثير إذا قيس بما جمعه الجاحظ فى كتبه ومؤلفاته، نعم لا يمكن لأى باحث أن ينكر حقيقتين هامتين:

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بمعناه العام بالتأليف فى كتابه الكبير (البيان والتبيين)، وثانيتهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه، والجمع والإحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد، ومنزلة العالم فى الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها، وإذا قرأت كتب الجاحظ لاسيما "الحيوان" و"البيان" عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل. ومن الغريب أن نرى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب، بعكس كثير من العلماء والباحثين. والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه "البيان" على الخصوص، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيان العربى وقواعده.

وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان: اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه. واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير. فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته، مع حرص على إرضاء الطبع والذوق، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية

---

[1] ٨٠ و ٨٦ و١١٤ و١٥٢ و١٨٧ و٢/١٩٨ البيان .

[2] ٥٥١ مقدمة ابن خلدون.

والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى.

والجاحظ إمام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد، وهو من أئمة المعتزلة، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره، فخرج واسع الثقافة عميق التفكير، كثير الإحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات إلى العربية.

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة، وعن طريق المتكلمين، وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية[١]. كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه، وتوسع في الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب[٢]، وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو المذهب الكلامى عند البديعيين[٣]، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية، وخاصة كتاب المنطق، بأنه في أسلوب سقيم، فالجاحظ ولا شك قد تأثر "بالخطابة" لأرسطو[٤]، وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرًا بخطابة أرسطو أو صدى له، لأن الجاحظ لم يره[٥] وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين[٦].

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلمامًا واسعًا، ويبدو لى أنه كان يعرف اللغة الفارسية، ففى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق: لو خرجت من جلدك لم أعرفك، قال الجاحظ وترجمة هذا الكلام بالفارسية "كراز بوستت بارون ببائى نشاسيم[٧] .. وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتبه وفى مؤلفه "البيان" .. أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضًا فى الحيوان وفى كتابه البيان، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب

---

(١) ١/٤٠١ ضحى الإسلام.

(٢) ٣٨٧/ ١ المراجع.

(٣) ٦٢٠ و٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة فى أسبوع الجاحظ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (٣/١٥ البيان)، فليس ذلك إلا فى مقام الرد على الشعوبيين، وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان.

(٤) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦.

(٥) ٦٦٢ المرجع السابق.

(٦) مقدمة نقد النثر.

(٧) ص١٩ البخلاء.

الحيوان واستدل برأى لأرسطو فيه[1] وكان مصدرا كبيرا له فى كتابه "الحيوان"، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للإنسان كثيرًا[2]، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه[3]، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان[4] ويذكر كتب اليونان فى المنطق، وأن الحكماء جعلتها معيارًا للتفكير[5]، ويذكر نوادر ريسموس اليونانى[6] ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر[7] .. وأقسام الدلالة عند الجاحظ[8] هى من تفكير أرسطو، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها، ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها فى المنطق، وللهند حكمها وسيرها وعللها، ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة[9]. وللجاحظ رسالة فى نقد الكندى[10].

ويذكر الجاحظ فى البيان "صناعة الكلام"، ويعنى بها حينًا علم الكلام[11]، وحينًا آخر البيان[12]؛ ويذكر اصطلاحات أخرى: كصناعة المنطق[13]، وصناعة الخطابة، ويذكر أحيانًا "أصحاب الخطابة والبلاغة"[14].

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى[15] له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة،[16] وقال "ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة

---

[1] ١/٦١ البيان.

[2] ٦٩ و١/١٢٨ البيان.

[3] ٣/١٥ البيان.

[4] ١/٧٥ البيان.

[5] ٣/٧ البيان.

[6] ١٦٥ ج٢ البيان.

[7] ٣/١٥ البيان، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شىء من خطابتهم.

[8] ١/٦٩ البيان، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء، ٩ نقد النثر.

[9] ٣/٧ البيان.

[10] ٤٢ الجاحظ لمردم.

[11] ٦٩/ ١ البيان.

[12] ١٠٨/ ١ البيان. ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ج ٤ زهر).

[13] ٧٩/ ١ البيان.

[14] ١٨٣/ ١ البيان.

[15] ١٠٥ و١١٠ و١٧٦/ ١ البيان.

[16] نقلا من الشفاء لابن سينا.

العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة"؛ ودعوة الجاحظ إلى الوضوح [1] لها نظير عند أرسطو حيث يذكر "حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الأغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن في الإغرابات، بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور" .. واللحن وخروجه عن حد البلاغة [2] موجود في خطابة أرسطو، حيث يوجب أن "يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه"، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط في مواضعه والمقصور - المحذوف الموجز - في مواضعه [3] والإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يوم الإطناب [4]، وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الإيجاز والإسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقامًا. وعلى أي حال فمرجع هذا التشابه في الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيرًا عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو في النقد، وعلى الأخص الخطابة والشعر. ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيرًا من النظريات التي شرحها أرسطو في كتابيه، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التي ألم بها أرسطو [5] لا يشير إليها الجاحظ في بيانه، وهو على العموم لم يطلع على كتابي أرسطو، ولا نشك في أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التي شاعت في عصره كثيرًا، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو .. ويكفينا ذلك التحقيق في هذا المقام.

عبد الله بن طاهر

كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخفاء ، يستغني به عن التقريظ له، والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يدفع، وفي السماحة والشجاعة مالا يقاربه فيه أحد .. ولد سنة ١٨٢ وتوفي عام ٢٣٠ هـ .. أعطاه المأمون مال مصر لسنة خراجها وضياعها فوهبه كله وفرقه في الناس، ورجع صفرًا من ذلك، فغاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتًا قالها في هذا المعنى وهي:

---

[1] ٦٨ و ١١٠ و١٧٦ ج١ البيان.

[2] ١٢١ / ١ البيان.

[3] ١/٥١ البيان ويشير إلى ذلك في مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و١٤٧ و١٦١ و١٨٠/١ البيان).

[4] ١٢٠ رسائل الجاحظ وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة أدب الكاتب).

[5] كدراسته للاستعارة، وللرباطات (حروف العطف)، وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد. وللجناس وسواه، ونظرية أرسطو في الوصل هي التي يفيض عبد القاهر في شرحها في الدلائل .. ونصيب في نقده للكميت في قوله "تكامل فيها الأنس والشنب"لأنه باعد في القول (١٣٤/ الأغاني. ٣٥٥/ ١ الكامل) لا ينم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية.

نفسي فداؤك والأعناق خاضعة — للنائبات أبيا غير مهتضم
إليك أقبلت من أرض أقمت بها — حولين بعدك في شوق وفي ألم
أقفو[1] مساعيك اللائي خصصت بها — حذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضلي فيها أني تبع — لما سننت من الأنعام والنعم
ولو وكلت إلى نفسي عنيت بها — لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم

فضحك المأمون، وقال : والله ما نفست عليك مكرمة نلتها، ولا أحدوثة حسن عندك ذكرها، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لم شعثك[2] وإصلاح حالك، وزال ما كان في نفسه. ولما فتح عبد الله مصر وأعطاه المأمون خراجها صعد المنبر فلم يزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها فأتاه معلى الطائي[3] وقد أعلموه ما صنع بالناس في الجوائز وكان عليه واجدًا فوقف بين يديه تحت المنبر، فقال : أصلح الله الأمير، أنا معلى الطائي، وقد بلغ مني ما كان منك من جفاء وغلظ، فلا يغلظن على قلبك، ولا يستخفنك الذي بلغك، أنا الذي أقول :

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرة — وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجري ماؤه ذهبا — لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلي[4] بما فيه رق الحمد تملكه — وليس شيء أعاض الحمد بالغالي
تفك باليسر كف العسر من زمن — إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمختبط[5] — ومرهف قاتل في رأس قتال
وما بثثت رعيل[6] الخيل في بلد — إلا عصفن بأرزاق وآجال
إن كنت منك على بال مننت به — فإن شكرك من قلبي على بال
ما زال مقتضبا لولا مجاهرة — من ألسن خضن في صدري بأقوال

فضحك عبد الله وسر بما كان منه وقال: يا أبا السمراء أقرضني عشرة آلاف دينار، فما أمسيت أملكها فأقرضه، فدفعها إليه.

---

(1) أقفو : أتبع .. الشراك : سير النعل على ظهر القدم.
(2) الشعث : من شعث أمر فلان كفرح : انتشر .
(3) معلى الطائي : شاعر مصري كثيرًا ما يذكر في شعره حوادث مصر.
(4) أغلى الشيء : جعله غاليًا.
(5) المختبط : سائل المعروف ، والمرهف : السيف.
(6) الرعيل : القطعة من الخيل.

ولعبد الله ألحان صاغها، ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه في شعر أخته عاصية، فإنه صوت نادر جيد، صحيح العمل، مزدوج النغم، بين لين وشدة، على رسم الحذاق من القدماء، وهو :

هلا سقيتم بني سهم أسيركم ... نفسي فداؤك من ذي غلة صادي [1]
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها ... مضرج بعد ما جادت بإزباد [2]

ومن غنائه أيضًا :

راح صحبي وعاود القلب داء ... من حبيب طلابه لي عناء
حسن الرأي والمواعيد لايلـ ... ـفي لشيء مما يقول وفاء
من تعزى عمن يحب فإني ... ليس لي ما حييت عنه عزاء

ولما شخص [3] أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر، وهو بخراسان، أقبل الشتاء وهو هناك، فاستثقل البلد، وقد كان عبد الله وجد [4] عليه، وأبطأ بجائزته ؛ لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فقال: يحتقر فعلي، ويترفع علي، فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء، كالقوت. فقال أبو تمام:

لم يبق للصيف رسم ولا طلل ... ولا قشيب فيستكسي ولا سمل [5]
عدل من الدمع أن يبكي المصيف كما ... يبكي الشباب ويبكي اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت ... يسراه وهي لنا من بعدها بدل

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعر آل طاهر، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله ابن طاهر. ثم دخل إلى عبد الله فقال : أيها الأمير : أتتهاون بمثل أبي تمام، وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة في قدره، والإحسان في شعره، والشائع من ذكره، لكان الخوف من شره، والتوقي لذمه، يوجب على مثلك رعايته ومراقبته. فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن، وفراقه السكن، وقد قصدك عاقدا بك أمله. معملا إليك ركابه، متعبا فيك فكره وجسمه، وفي ذلك ما يلزمك قضاء حقه، حتى ينصرف راضيا، ولو لم يأت بفائدة إلا قوله:

---

[1] كالصادي : العطشان.

[2] كالإزدباء : الإتيان بالزبد كما يفعل البعير إذا هدر . والمضرج : المدمي. والنجلاء : الواسعة.

[3] الأغاني ص١٠٣ ج١٥.

[4] وجد عليه غضب.

[5] السمل : الثوب الخلق.

يقول في قومس[3] صحبي وقد أخذت | منا السرى وخطا المهرية[1] القود[2]
أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا؟ | فقلت : كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله : لقد نبهت فأحسنت، وعاتبت فأوجعت، ولك ولأبي تمام العتبى[4]. ادعه يا غلام فدعاه. فنادمه يومه، وأمر له بألفي دينار وما يحمله من الظهر، وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه، وأمر ببذرقته[5] إلى آخر عمله.

وقال أبو السمراء: خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر، حتى إذا كنا بين الرملة[6] ودمشق، إذا نحن بأعرابي قد اعترض، فإذا شيخ فيه بقية، على بعير له أورق[7]، فسلم علينا فرددنا عليه السلام، وكان معنا إسحق ابن إبراهيم الرافقي، وإسحاق بن أبي ربعي، ونحن نساير الأمير، وكنا يومئذ أفره من الأمير دواب، وأجود منه كسا[8]. فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا، فقلت : يا شيخ، قد ألححت في النظر! أعرفت شيئًا أم أنكرته؟ قال: لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا. ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم؛ ولكني رجل حسن الفراسة في الناس، جيد المعرفة بهم؛ فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربعي، فقلت : ما تقول في هذا؟ فقال:

أرى كاتبًا : داهي الكتابة بين | عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن إنه | عليم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي، فقال:

ومظهر نسك ما عليه ضميره | يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جبنا وبخلا وشيمة | تخبر عنه إنه لوزير

ثم نظر إلي، وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنس | يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راويًا | فبعض نديم مرة وسمير

---

(1) قومس : إقليم في طبرستان.
(2) الأبل المهرية : تنسب إلى مهرة: حي في العرب.
(3) القود : جمع أقود وهو الطويل العنق.
(4) أعتبه : سرد بعد ما ساءه والاسم العتبى.
(5) البذرقة : الخفارة.
(6) الرملة : خمسة مواضع أشهرها بلد بالشام.
(7) الأورق من الإبل : ما في لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحمًا لا سيرًا.
(8) جمع كسوة.

ثم نظر إلى الأمير، وأنشأ يقول:

وهـذا الأمـير المرتجى سيب كفـه	فمـا إن لـه فـيمن رأيـت نظـير
علـيه رداء مـن جمـال وهيـبة	ووجـه بـإدراك الـنجاح بشـير
لقـد عصـم الإسـلام مـنه بذائـد	بـه عـاش معـروف ومـات نكـير
ألا إنمـا عـبد الإلـه بـن طاهـر	لـنا والـد بـر بـنا وأمـير

فوقع ذلك، من عبد الله أحسن موقع، وأعجبه ما قال الشيخ؛ فأمر له بخمسمائة دينار، وأمره أن يصحبه.

وقال محمد[1] بن الفضل الخراساني : لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التي يفخر فيها بمآثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم المخلوع[2]، عارضه محمد بن يزيد الأموي الحصني[3]، فأفرط في السب، وتجاوز الحد في قبح الرد. فلما ولي عبد الله مصر ورد إليه تدبير أمر الشام علم الحصني أنه لا يفلت منه إن هرب، ولا ينجو من يده حيث حل. فثبت في موضعه، وترك أمواله ودوابه، وكل ما كان يملكه في موضعه. وفتح باب حصنه وجلس عليه. ونحن نتوقع من عبد الله بن طاهر أن يوقع به.

فلما شارفنا بلده، وكنا على أن نصبحه، دعاني عبد الله في الليل، فقال لي: بت عندي الليلة وليكن فرسك معدا عندك. ففعلت، فلما كان السحر أمر غلمانه وأصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب وركبت معه أنا وخمسة من خواص غلمانه. فسار حتى صبح الحصني، فرأى بابه مفتوحًا، ورآه جالسًا؛ فقصد، وسلم عليه ونزل عنده، وقال له: ما أجلسك هاهنا وحملك على أن فتحت بابك، ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل، ولم تتنح عن عبد الله بن طاهر، مع ما في نفسه عليك وما بلغه عنك؟ فقال : إن ما قلت لم يذهب عني، ولكني تأملت أمري، وعلمت أني أخطأت خطيئة حملني عليها نزق الشباب وغرة الحداثة، وأني إن هربت منه لم أفته، فباعدت البنات والحرم، واستسلمت بنفسي وكل ما أملك، وإني أثق بأن الرجل إذا قتلني، وأخذ مالي شفى غيظه، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، ولا يوجب جرمي أكثر مما بذلته. قال: فوالله ما أتقاه عبد الله إلا بدموعه تجري على لحيته. ثم

---

[1] الأغاني ص١١ ج١٢، وكان محمد بن الفضل الخراساني من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله، وكان أديبًا عاقلا فاضلا.

[2] المخلوع : الأمين.

[3] من ولد مسلمة بن عبد الملك.

قال له: أتعرفني؟ قال: لا والله، قال : أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله تعالى روعتك، وحقن دمك وصان حرمك، وحرس نعمتك، وعفا عن ذنبك، وما تعجلت إليك وحدي إلا لتأمن هجوم الجيش، ولئلا يخالط عفوي عنك روعة تلحقك؛ فبكى الحصني وقام فقبل رأسه، وضمه عبد الله وأدناه، ثم قال له: أما بعد فلابد من عتاب: يا أخي - جعلني الله فداك - قلت شعرًا في قومي أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبك، ولا ادعيت فضلا عليك، وفخرت بقتل رجل - وإن كان من قومك - فهم القوم الذين ثأرك عندهم، فكان يسعك السكوت!

فقال : أيها الأمير ؛ قد عفوت فاجعله العفو الذي لا يخلطه تثريب، ولا يكدر صفوه تأنيب. قال : قد فعلت، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقًا بالضيافة. فقام مسرورا، فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعده، فأكلنا وجلسنا نشرب في مستشرف له. وأقبل الجيش، فأمرني عبد الله أن أتلقاهم فأرحلهم، ولا ينزل أحد منهم إلا في المنزل، وهو على ثلاثة فراسخ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خراجه ثلاث سنين، وقال له : إن نشطت لنا فالحق بنا، وإلا فأقم بمكانك، فقال: فأنا أتجهز وألحق بالأمير، ففعل فلحق بنا بمصر، ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه، حتى رحل إلى العراق فودعه، وأقام ببلده!

سليمان بن وهب

هو أخو الحسن بن وهب[1] (١٨٦ - ٢٦٥هـ)، وينتمي إلى بني الحارث ابن كعب، استوزر سليمان المهتدي ولقبه الوزير حقًا، لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها، ولما ولاه قام إليه رجل من ذوي حرفته فقال : أعز الله الوزير، خادمك المؤمل دولتك، السعيد من أيامك، المطوي القلب على ودك، المنشور اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

وفيت كل أديب ودني ثمنًا ... إلا المؤمل دولاني وأيامي
فإنني ضامن ألا أكافئه ... إلا بتسويغه فضلي وإنعامي

---

[1] هو أبو علي الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب العالم الشاعر الأديب. وهو من ذلك البيت الذي تسلسل في الكتابة للأمراء والوزراء والخلفاء من بني أمية وبني العباس، وقد ظلت الوزارة في هذا البيت أيام بني العباس زمنًا يتوارثونها كابرا عن كابر. وكان الحسن يكتب أولا لمحمد بن عبد الملك الزيات. ثم ترقت به الحلل إلى أن تولى ديوان الرسائل ببغداد، ثم تقلد البريد بالشام في عهد المتوكل على الله العباسي. وله رسائل مدونة آية في البلاغة، وشعر غاية في الجودة، وكان مولده ببغداد سنة ١٨٦هـ وتوفي في نحو عام ٢٦٥هـ.

وإني لكما قال القيسي : مازلت أمتطي النهار إليك، واستدل بفضلك عليك، حتى إذا جنني الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، أقام بدني، وسافر أملي، وإذ بلغتك فهو مرادي فقط. فقال له سليمان : لا عليك فإني عارف بوسيلتك، محتاج إلى كفايتك، ولست أؤخر عن أمري النظر في أمرك، وتوليتك ما يحسن أثره عليك.

ولما استوزر سليمان جلس للناس، فدخل إليه شاعر يقال له هارون بن محمد البسالسي فذكر مظلمة له ببلده، ثم أنشده:

زيد في قدرك العلي علو	يابن وهب من كاتب ووزير
أسفر الشرق منك والغرب عن ضو	ء من العدل فاق ضوء البدور
أنشر الناس غيثكم بعدما كا	نوا رفاتًا من قبل يوم النشور
شرد الجور عدلكم فسرحنا	بينكم بين روضة وسرور

فوقع في ظلامته، ووصله بمائة دينار. قال أحمد بن الخصيب: لقيت يزيد ابن محمد المهلبي عند سليمان بن وهب بعدما استوزره المهدي، وقد أجلسه إلى جانبه وهو ينشد قوله:

وهبتم لنا يا آل وهب مودة	فأبقت لنا جاها ومجدا يؤثل[1]
فمن كان للآثام والذل أرضه	فأرضكم للأجر والعز منزل
رأى الناس فوق المجد مقدار مجدكم	فقد سألوكم فوق ما كان يسأل
يقصر عن مسعاكم كل آخر	وما فاتكم ممن تقدم أول
بلغت الذي قد كنت أملته لكم	وإن كنت لم أبلغ بكم ما أؤمل

فقطع عليه سليمان الإنشاد، وقال له: يا أبا خالد فأنت والله عندي كما قال عمارة ابن عقيل لابنه :

أقهقه مسرورًا إذا أبت سالما	وأبكي من الإشفاق حين تغيب

فقال له يزيد : فيسمع مني الوزير آخر الشعر لا أوله، وتمم فقال :

ومالي حق واجب غير أنني	بجودكم في حاجتي أتوسل
وأنكم أفضلتم وبررتم	وقد يستنم النعمة المتفضل
وأوليتم فعلا جميلا مقدمًا	فعودوا! فإن العود بالحر أجمل
وكم ملحف قد نال مارام منكم	ويمنعنا من مثل ذاك التجمل

---

[1] يؤثل : يتأصل ويثبت.

وعودتمونـا قـبل أن نسـأل الغـنى ... ولا بـذل لـلمعروف والوجـه يـبذل

فقال لـه سليمان : لا تبرح والله إلا بقضاء حوائجك كائنة ما كانت، ولو لم أستفد من كتبة أمير المؤمنين إلا شكرك، لرأيت جنابي بذلك ممرعا، وغرسي مثمرًا، ثم وقع له في رقاع كثيرة.

ومن قوله وقد نكبه الواثق:

نوائـــب الدهـــر أدبتـــني ... وإنمـــا يوعـــظ الأديـــب
قـد ذقـت حلـوًا وذقـت مـرًا ... كـذاك عـيش الفـتى ضـروب
مامـــر بـــؤس ولا نعـــيم ... إلا ولي فـــيهما نصـــيب

ومن قوله يرثي أخاه الحسن[1] (١٨٦ - ٢٦٥هـ) :

مضى مذ مضى عز الليالي وأصبحت ... لآلي الحجى والقول ليس لها نظم
وأضـحى نجـى الفكـر بعـد فـراقه ... إذا هـم بالإفصـاح مـنطقه كظـم[2]

ومن قوله وفيه غناء :

أمـــين الخـــالق الـــباري ... وراعـــي كـــل مخلـــوق
أدر راحـــك فـــي المعشـــو[3] ... ق مـــن راحـــة معشـــوق

ولما قبض الموفق على سليمان بن وهب وابنه عبد الله تذاكر جماعة أنه إنما استكتبهما ليقف منهما على ذخائر موسى بن بغا وودائعه؛ فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما، فقال ابن الرومي وكان حاضرًا:

ألم تـر أن المـال يـتلف ربـه ... إذا جـم[4] آتـيه وسـد طـريقه
ومـن جـاور المـاء الغزيـر مجمـه ... وسـد مغـيض المـاء فهـو غـريقه

ومات سليمان في محبسه وهو مطالب عام ٢٧٢هـ[5] ، وله أخ يسمى سعيد بن وهب كان من كتاب البرامكة، وأكثر شعره في الغزل وتوفى في عصر المأمون[6].

---

[1] راجع : ١٧٧ فهرست، ٥٠٦ : ١ سمط اللآلي ٢٤٨ ابن الرومي العقاد ، ٤٤ : ٣ زهر الآداب ٢٢١ - ٢٢٣ : ٣ معجم الأدباء لياقوت وفي معجم الأدباء أنه ولد عام ١٨٦ ومات في آخر خلافة المتوكل أي عام ٢٤٧هـ.
[2] كظم : سكت وصبر .
[3] المعشوق : قصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء في وسط البرية، عمره المعتمد على الله.
[4] جم الماء كنصر وضرب : كثر واجتمع.
[5] ٢٤٩ ابن الرومي للعقاد، ١٧٧ فهرست، ١٥٤ - ١٦٠ : ٧ مهذب الأغاني ٥٠٦ : ١ :سمط اللآلي، ٤٨٥ معجم الشعراء، ٣٨٦ : ١ وفيات الأعيان، ٤٦ : ٣ زهر الآداب .
[6] ١ : ١٠٥ الحيوان للجاحظ .

أبو العيناء

١٩١ - ٢٨٣ هـ[1]

يقول الرواة أن أبا العيناء ولد فى آخر المائة الثانية وتوفى سنة ٢٨٢، أو سنة ٢٨٣هـ؛ فمن ثم يكون قد أظلته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد، وصدر من خلافة المعتضد بالله الذى تولى سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٢٨٩هـ. ولقد كانت الحياة فى عصر أبى العيناء كلها ترف ولذة، يسودها المجون والخلاعة، ويروج فيها العبث واللهو، وقد روى لنا المؤلفون كثيرًا من مجالس لهوهم ومنادمتهم، ومساجلات الشعراء فى خلواتهم.

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالاً شديدًا، وسنعلم إلى أى حد أثر فيه هذا الاتصال، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل، وإنما اتصل بغيره كما اتصل به، ولكن المتوكل هو الذى رفع له الحجاب، وجعل يصغى لأحاديثه، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة، وذاك الذكاء الوقاد، حتى رأيناه يمزح معه فى كثير من مجالسه، ويرفع الكلفة بينه وبينه.

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة، فاتصل به، وعرف وزيره الحسن بن سهل، وأخذ منهما الصلات والعطايا، ولقد أثر ذلك المعروف فى نفسه، حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل: والله لئن أتعب المادحين، لقد أطال بكاء الباكين، والله لقد أصيب بموته الأنام، وخرست لفقده الأقلام. قال أبو العيناء: حصلت لى ضيقة شديدة قد خلت يوما على يحيى بن أكثم فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص، فهل لك فى الحضور؟ قلت نعم ومضيت معه، فلما دخلنا أجلسه وأجلسنى، ثم قال يا أبا العيناء: بالألفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دون الناس كلهم ... وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لى أسباب أعيش بها ... ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال لغلامه : انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال بقية من مال. قال فادفع له منها مائة ألف، وابعث له بمثلها فى كل شهر. فلما كان بعد

[1] راجع ٤٦٦ - ٤٧٠ : ٣ وفيات الأعيان لابن خلكان.

أحد عشر شهرًا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه، فقال له بعض أولاده : يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء. فقال:

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وبرواية أخرى : قال أبو العيناء :[1] حصلت لى ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائى، فدخلت يومًا على يحيى[2] بن أكثم، فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم فهل لك فى الحضور؟ قلت : نعم ! فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال : يا أبا العيناء، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم تكن لى أسباب أعيش بها ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال : لخازنه، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين؟ فقال : بقية من مال! قال : فادفع إليه مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها فى كل شهر ! فلما كان بعد أحد عشر شهرًا مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده؛ فقال : يا أبتاه ! بعد ذهاب العين، ماذا ينفع البكاء؟

ولأبى العيناء شعر ورسائل مشهورة فى البلاغة.

المبرد

٢١٠ – ٢٨٥هـ

المبرد عالم جليل من أعلام اللغة العربية، عاش فى القرن الثالث (٢١٠ – ٢٨٥هـ)، يخدم اللغة والثقافة، ويدرس مذهبه فى النحو وآراءه فيه لتلامذته، ويبحث ويكتب ويؤلف ويعلم، حتى أصبح بحق شيخ العلماء والنحاة وإمام العربية وقطبها .. وأهم مؤلفات المبرد هو كتابه الكامل، الذى يعد من أهم مصادر الأدب العربى، وضمنه آراءه فى الأدب والنقد والبيان، وأشار فيه إلى بعض آرائه فى النحو العربى

(١) ثمرات الأوراق للحموى ص٢٤٥ ج٢.

(٢) ابن يحيى أكثم : قاض رفيع القدر، عالى الشهرة، مات سنة ٢٤٢ هـ.

ودراسته، وكتاب الكامل مجموعة كبيرة من الأدب العربي؛ شعره ونثره؛ في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وصدر عصر المحدثين، ساقها المبرد على غير نظام ولا ترتيب، وأضاف إليها شروحا وتعليقات وتفسيرات وتوجيهات قيمة في دراسة الأدب العربي، ونحن يعنينا هنا أن ندرس كل ما يتصل بالبلاغة والبيان في كتاب "الكامل للمبرد" لنتبين أثره في هذا الميدان .. والبيان العربي أو قل البلاغة العربية دراسة خطيرة لأصول التعبير والأداء والذوق الأدبي في اللغة العربية، وقد ساعد على إنضاج هذه الدراسات مجهود العلماء المتواصل إلى آخر القرن الثالث الهجري، في كشف أسرار البلاغة العربية، ودراسة أصولها وعناصرها وألوانها، ولكن مجهود هؤلاء كان مفرقا موزعًا على المناسبات، يأتي عرضًا حين تحليل بيت أو ذكر قصيدة، وأهم العلماء الذين كان لهم أثرهم في بدء نواة هذه البحوث البيانية هو الجاحظ صاحب البيان والتبيين، ثم جاء المبرد، وألف كتابه "الكامل" فجاء فيه كثير من الآراء في البيان والبلاغة : بعضها استنبطه وابتكره ، وبعضها الآخر تابع فيه الباحثين قبله : كالجاحظ وابن قتيبة وسواهما، هذا فضلاً عن أنه ألف كتاب "قواعد الشعر" وكتاب "البلاغة[1]"، مما لا شك في أثره واتصاله بالبيان ودراسات البلاغة في مرحلة نشأتها الأولى .. ونحن نشير هنا إلى أهم هذه الآراء التي وردت في "الكامل":

أشار المبرد إلى أسلوب القلب[2] في كامله، وذهب إلى جوازه في الكلام للاختصار إذا لم يدخله لبس[3]، وعلى نهج المبرد في ذلك سار ابن فارس في الصاحبي[4]، ويسمى قدامة هذا الأسلوب (المقلوب)، ويجعله من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا[5].

وأشار المبرد في "الكامل" إلى أسلوب "الالتفات[6]"، قال : والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب.

وقد سبق أبو زيد في "جمهرة أشعار العرب" المبرد إلى ذكر هذا الأسلوب[7]، وسار على نهجه ابن فارس[8].

---

[1] ٨٨ فهرست ابن النديم.

[2] ٢١٧ / ١ الكامل للمبرد، وص٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم للمبرد.

[3] ٢١٧ / ١ الكامل للمبرد، وص٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم للمبرد.

[4] ص١٧٢ / الصاحبي في فقه اللغة العربية.

[5] ١٣٠ نقد الشعر.

[6] ١٧١ / ١ ، ٣٠ / ٢ الكامل للمبرد.

[7] ص٣ الجمهرة ط١٩٢٦.

[8] ١٧٢ الصاحبي.

وعرف المبرد السجع بأنه ائتلاف أواخر الكلام على نسق، كما تأتلف القوافي[1]. وهو روح كلام الجاحظ الذى عرف السجع بأنه الكلام المزدوج على غير وزن[2]. والسجع يذكره أرسطو في خطابته، ويوجب أن "يكون كل واحد من المصاريع مسوقا إلى المصراع الذى يليه والذى إنما يتم به المعنى[3]"، ويذكر الجاحظ آراء رجال البيان في السجع وآثر المطبوع منه[4]، كما أشار الجاحظ إلى الازدواج[5]. ويذكر قدامة في نقد النثر أن "من أوصاف البلاغة السجع في موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه[6]".

وقسم المبرد في "كامله" الكلام إلى الاختصار المفهم والأطناب المفخم، وقال: "وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوى الألباب .. وإن قيل: بل الكلام القبيح في الحسن أظهر، كان ذلك، ولكن يغتفر السيء للحسن، والبعيد للقريب.

ويشير المبرد إلى التعقيد اللفظى في بيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

ويشرح البيت وينقده . ويشير إلى أسلوب الاستعارة التمثيلية في قولك "فلان عليه دين أو ركبه دين" تريد أن الدين علاه وقهره، ويذكر مثلا للتمثيل كقوله تعالى "والسموات مطويات بيمينه" وسواه. ويشير إلى مثل للاستعارة ويحللها، ويشير أيضًا إلى الاستعارة ويقول : "والعرب تستعير من بعض لبعض"، وقد سبقه الجاحظ بتعريف الاستعارة[7] الذى هو روح تعريف المبرد.

ويحلل المبرد في الكامل مثلا من أمثلة التجريد .. ويشير إلى أسلوب اللف والنشر، فيقول : "والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمى بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره إلخ"، وسار على نهجه الصاحبى[8]، وقدامة يسمى ذلك صحة التفسير[9]. ويشير المبرد إلى مثل للكناية الاصطلاحية[10]، ويسميها ابن فارس في

---

(1) ٣٨٢/ ١ الكامل.

(2) ١٣٣/ ١ البيان والتبيين ط١٩٢٧.

(3) الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا.

(4) ١/١٩٤ وما بعدها من البيان والتبيين.

(5) ٢/٩٦ و١٦ / ٣ البيان.

(6) ١٠٧ نقد النثر.

(7) ١١٤ ج١ البيان والتبيين.

(8) ٣٠٦ الصاحبى.

(9) ٨١ نقد الشعر.

(10) ٧٧ و١٦٦ / ١. ٢٩٢ و ١٨١ / ٢ الكامل.

الصاحبى الإيماء[1]، ويقسم الكلام إلى مصرح وما يكنى عنه بغيره وما يقع مثلا فيكون أبلغ فى الوصف، ويذكر أقسام الكناية[2] وإن كان المبرد يقصد الكناية اللغوية لا الاصطلاحية، وكذلك فعل ابن فارس فى الصاحبى[3]. ويشير المبرد إلى أسلوب التغليب: كالقمرين للشمس والقمر، والعمرين لأبى بكر وعمر .. إلى ما سوى ذلك من الآراء البيانية التى تضمنها الكتاب.

وبعد فلا شك أن هذه الآراء كلها وردت مبثوثة مفرقة فى الكامل، وخالية من الاصطلاحات العلمية، وحينا يقف عند أسلوب من أساليب البيان ويحلله ويعجب به ولا يسميه، لأن علماء البيان والأدب لم يكونوا قد وضعوا له اسما، وإنما بلاغته وسحره لا يخفيان على متذوق.

أبو العباس ثعلب

٢٠٠ - ٢٩١ هـ

إمام الكوفيين فى النحو واللغة، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن يسار الشيبانى، المعروف بثعلب[4]، الإمام النحوى اللغوى المشهور.

ولد فى الكوفه عام ٢٠٠هـ ونشأ بها، والكوفة يومئذ مدرسة جامعة من مدارس العربية والشعر والأدب والنحو، وعلماؤها لهم منزلتهم العلمية عند العلماء، ومكانتهم الكبيرة فى قصور الأمراء والخلفاء والوزراء. وأخذ حب العربية يغلب عليه، فعكف على دراستها وتفرغ لها وهو فى سن السادسة عشرة، وما بلغ سن الخامسة والعشرين حتى طار صيته فى النحو والعربية، وذاع ذكره، واختلف الناس إليه[5]. أخذ عن ابن الأعرابى م٢٣١هـ اللغة. وعن سلمة بن عاصم م ٢٣٧هـ النحو، وروى عن ابن نجدة كتب أبى زيد الأنصارى، وعن الأشرم كتب أبى عبيدة، وعن أبى

---

(1) ٢١٠ الصاحبى.

(2) ٥ و٦ ج٣ الكامل.

(3) ٢١٨ و٢١٩ الصاحبى.

(4) راجع ترجمته فى : ص١١٠ - ١١١ فهرست ابن النديم . و٢٩٣ نزهة الالبا فى طبقات الادبا. و١٣٣ - ٢/١٥٤ معجم الأدباء نشر مرجليوث. و١٠٢ - ٥/١٤٦ معجم الأدباء نشر فريد رفاعى. و١/٥١٢ وفيات الأعيان لابن خلكان. و٢/١٨٠ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان، و٤/٢١٦ وما بعدها مروج الذهب للمسعودى، و٨٤ /١ كتاب الأعلام و٤١ كتاب طبقات المفسرين،و٤٥ كتاب غاية النهاية و١٧٢ بغية الوعاة للسيوطى.

(5) ٥/١٤٠ معجم الأدباء.

نصر كتب الأصمعي، وعن عمر بن أبي عمرو كتب أبيه أبي عمرو بن العلاء. وحفظ كتب القراء كلها وسنه لم تتجاوز الخامسة والعشرين. وكان ثعلب يدرس كتب الفراء م٢٠٧هـ والكسائي .. وثعلب من أعلام الكوفيين في النحو[1]: وكان يعاصر ثعلبا من أئمة النحويين: أبو عبيدة م٢١٣هـ والأصمعي م٢١٥هـ وأبو زيد الأنصاري م٢١٥هـ وابن سلام الجمحي م٢٣١ هـ والأخفش الأوسط م٢١٨هـ، والجرمي م٢٢٥هـ، والتوزي م٢٣٨هـ، والمازني م٢٤٩هـ والزيادي م٢٤٩هـ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥هـ، والرياشي م٢٥٧هـ والمبرد م٢٨٥هـ. كما كان يعاصره من أئمة النحويين الكوفيين: ابن حازم المعروف باللحياني م٢٢٠هـ. وأبو عبيد القاسم ابن سلام م٢٢٣ هـ، وابن الأعرابي م٢٣١هـ، وابن سعدان م٢٣١هـ، والطوال م٢٤٣هـ، وابن السكيت م٢٤٤هـ، وأبو جعفر محمد بن قادم م٢٥١هـ. كما عاصره: ابن دريد (٢٢٣ – ٣٢١)، وسواه من العلماء. وكان من أساتذته: محمد بن زياد الأعرابي ولزمه بضع عشرة سنة[2]، وسلمة ابن عاصم، ومحمد بن سلام الجمحي، والزبير بن بكار م٢٥٦هـ، وغيرهم؛ وكان يعنى بالنحو أكثر من عنايته بغيره، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعاني والغريب، وقدم الرياشي البصري بغداد عام ٢٣٠، فأخذ عنه ثعلب أيام الناس والأخبار والأشعار[3]. وكان ثعلب ثقة دينًا، مشهورًا بصدق اللهجة، والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم، مقدمًا بذ الشيوخ وهو حدث، ثقة بعلمه وحفظه، أصدق أهل العربية لسانًا، وأعظمهم شأنًا، وأبعدهم ذكرًا، وأرفعهم قدرًا، وأوضحهم علمًا، وأرفعهم مقامًا، وأثبتهم حفظًا، وأوفرهم حظًا في الدين والدنيا[4]، وكان ثقة متقنًا حجة، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين[5]، وتبحر في مذهب البصريين[6]، فوق إمامته في النحو على المذهب الكوفي. وكان مشهورًا بغزارة حفظه، ومع ذلك لم يكن موصوفًا بالبلاغة؛ وإذا كتب إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة، فإذا أخذ في الغريب والشعر ومذهب الفراء والكسائي رأيت من لا يفي به أحد. وكان هو والمبرد عالمين ختم بهما تاريخ الأدب[7]؛ وإليه وإلى المبرد انتهى الاجتهاد في النحو[8]؛ كما انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثعلب وكانا

---

(1) راجع ٥/١٤٣ المرجع نفسه.

(2) ٥/١٠٩ معجم الأدباء.

(3) ١٥/١٣٢المرجع.

(4) ١٩٣ وما بعدها نزهة الألبا.

(5) ٥/١١٩ معجم الأدباء.

(6) ٥/١٢٠ المرجع.

(7) ٥/١٢٢ المرجع.

(8) نشأة النحو للشيخ محمد طنطاوي.

ثقتين، كما يقول أبو الطيب في مراتب النحويين[1]. وتتلمذ عليه كثير من العلماء وفي مقدمتهم: الأخفش م٣١٨هـ، وابن عرفة نفويه م٣٢٣هـ، والزجاجي البغدادي النحوي م٣٠٧هـ، والزجاج م٣١١، وابن الأنباري. كما تتلمذ عليه ابن المعتز[2] م ٢٩٦هـ، وقدامة م٣٣٧هـ، والصولي م٣٣٦هـ، وسواهم من الأدباء والعلماء والشعراء والأمراء. وكان علي بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه[3]؛ وكان أبو علي أحمد بن جعفر النحوي ختنه زوج ابنته .. ومع ذلك كان يختلف إلى المبرد ويأخذ منه[4].

وكان بين المبرد وثعلب الكثير من المناظرات؛ وتعصب لكل منهما كثير من العلماء. واختلف الناس في تفضيل أحدهما على الآخر؛ والمنصفون من العلماء ينوهون بالرجلين ويرفعون من شأنهما، وسئل أبو بكر بن السراج تلميذ المبرد م٣١٦ هـ عنهما أيهما أعلم؟ فقال : ما أقول في رجلين العالم بينهما[5].

عاصر ثعلب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي، وعاش مبجلاً عند الأمراء والخلفاء والعلماء وعامة الناس، وجمع ثروة كبيرة، وكان مع ذلك مقترا على نفسه، ولم يرزق غير بنت واحدة، وتوفي ليلة السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى عام ٢٩١ هـ في خلافة المكتفي، ودفن بمقابر باب الشام، وقبره هناك معروف[6] .. ولشاعر في رثائه :

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب ... ومات أحمد أنحى العجم والعرب
فإن تولى أبو العباس مفتقدًا ... فلم يمت ذكره في الناس والكتب

وترك ثعلب ثروة علمية كبيرة وكتبا مشهورة متداولة بين الناس في عصره، منها:

١- شرح ديوان زهير، ومنه نسخة خطية في الاسكوربال.
٢- شرح ديوان الأعشى، ومنه نسخة خطية في الاسكوربال.

---

(١) راجع ٥/١٢٧ معجم الأدباء.
(٢) ٣٠١ نزهة الألبا، ٣٤١ فوات الوفيات، ٥/١٤٠ التمدن الإسلامي، ١٠/٩٥ تاريخ بغداد، ١٠٧ و١١٤ و١١٦ الأوراق للصولي قسم أشعار أولاد الخلفاء، ١٧٢ أدب الكتاب الصولي.
(٣) ٥/١٢٧ معجم الأدباء.
(٤) ٥/١٢٠ المرجع.
(٥) ١٣٨ ج٥ المرجع.
(٦) ١٠٥ ج٥ معجم الأدباء.

٣- كتاب الأمالي ذكره صاحب المزهر وصاحب خزانة الأدب. ومنه نسخة خطية في مكتبة برلين[١]، وفي المكتبة الخديوية نسخة منه[٢] باسم "مجالس ثعلب" في ١٣٢ صفحة، وسننشره إن شاء الله.
٤- كتاب الفصيح؛ ويعرف بفصيح ثعلب، وقد نشرناه عام ١٩٤٨م.
٥- قواعد الشعر، وقد نشرناه من مدة قريبة، وقد طبع بليدن عام ١٨٩٠م طبعة سقيمة محرفة فيها الكثير من الأخطاء. وفيه آراء كثيرة في النقد والبيان.
٦- ومن كتبه أيضًا: حد النحو، غريب القرآن، معاني الشعر، المصون في النحو، اختلاف النحويين؛ وغيرها من نفائس المؤلفات التي بددتها الأيام.

وبعد ؛ فثعلب إمام من أئمة العربية، مقدم عند العلماء. وله مع ذلك كله روايات كثيرة في الأدب، تجد بعضها في الموشح لمرزباني؛ كما أن له ذوقا في فهم الشعر ونقده، عاب قول قيس بن الخطيم: "كأنها عود بانة قصف":

لأن المرأة تشبه بالعود المتثني لا المتقصف[٣]. وكان يفضل جريرًا على الفرزدق[٤]، وكان هو وابن الأعرابي يتعصبان على أبي تمام[٥]. ويشرح ثعلب بيت العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

بأن الإنسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يغنم في سفره فيعود إلى محبوبه مستغنيًا عن التصرف، فيطول اجتماعه معه[٦].

وهكذا كان ثعلب بحق إمامًا جليلاً، وشيخًا معدودًا من شيوخ اللغة والأدب والشعر والعربية؛ فرحمه الله وأجزل مثوبته كفاء خدمته للعلم والدين ولغة الكتاب الحكيم.

ولثعلب كتاب قواعد الشعر .. وقواعد الشعر أحد مؤلفات هذا العالم الكبير، وللمبرد كتاب اسمه: "قواعد الشعر" أيضًا، لا ندري عنه ولا عن موضوعه شيئًا، ولا نعلم من منهما الذي سبق بتأليف كتابه، وإن كان يغلب على ظني أن ثعلبا هو السابق

---

[١] ١٨٠ ج ٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان.
[٢] بنمرة ٢٣ ش لأبي مقسم النحوي، وهي مجموعة مجالس يروي أكثرها عن أستاذه ثعلب. مجلد مخطوط.
[٣] ٣٤٧ الموشح للمرزباني.
[٤] ١١٧ الموشح للمرزباني.
[٥] ٣٢٩ الموشح للمرزباني.
[٦] راجع ١٣٤/ ٥ معجم الأدباء.

بتأليف كتابه لتقدمه في السن، والكتاب جديد في شتى نواحيه: أما من حيث موضوعه فقد درس ثعلب في الكتاب هيكل الشعر العربي دراسة عامة جيدة جميلة مبتكرة؛ فتكلم على قواعد الشعر العامة وأنها أربع : أمر ونهي وخبر واستخبار، ولا شك أن ذلك لا يختص بالشعر وحده، بل النثر مثله فيه؛ كما عرض لفنون الشعر وقسمها إلى: مدح وهجاء ومرثية واعتذار وتشبيه وتشبيب واقتصاص أخبار. وذكر شواهد التشبيه الجيد، وشواهد لرائع المديح. ثم تحدث عن : المبالغة (الإفراط في المعنى)، وذكر شواهد لها من الشعر العربي؛ وعن لطافة المعنى (التعريض والكناية بدل التصريح) وشواهدها؛ والاستعارة ومثلها؛ وحسن الخروج أو التخلص كما يقول البلاغيون، ومجاورة الأضداد أو الطباق كما يسميه البلاغيون؛ والمطابق وهو نوع من الجناس مع ذكر نماذج لكل باب من هذه الأبواب من جيد الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، دون أن يتخطى ذلك في الاستشهاد إلى شعر المحدثين؛ ثم عرف الجزالة في الشعر؛ وتكلم على اتساق النظم ومحترزاته. وأخيرًا تجده يقسم الشعر خمسة أقسام، ويتحدث عن كل قسم ويحدده ويوضحه، ويذكر شواهد كثيرة له.. وبذلك ينتهي الكتاب.

والكتاب أول أثر علمي لعالم من علماء القرن الثالث يتحدث فيه مؤلفه عن الشعر بهذا اللون من الدقة والتحديد والوضوح والفهم للشعر والأدب والتذوق لهما، والوقوف على أثر بلاغتهما. و"البديع لابن المعتز" م٢٩٦هـ لا يشارك كتابنا "قواعد الشعر" في هذا، لابن المعتز ألف "البديع" ليتحدث فيه عن ألوان البديع العامة كما كان يعرفها هو ويعرفها عصره، لا ليتحدث عن الشعر بمثل هذا الحديث الجيد النقدي. و"الرسالة العذراء" لابن المدبر م٢٧٩هـ لا تشارك "قواعد الشعر" في ذلك أيضًا، لأنها إلى البلاغة أقرب منها الحديث عن الشعر، و"الكامل" للمبرد م٢٨٥هـ ليس فيه أثر للتخصص في دراسة الشعر أو البديع أو البلاغة بوجه عام. و"البيان" للجاحظ وما فيه من دراسات عن الشعر أو النقد أو البيان هي دراسات عامة لا تخصص فيها، والكتاب لم يؤلف لها، وأحكامه الأدبية والبيانية أحكام مقاربة، ليس فيها مثل هذا الوضوح ولا مثل تلك الدقة.

وأما أثر الكتاب في البيان فهو ولا شك أثر كبير، فنحن نجد أنفسنا لأول مرة أمام عالم يؤلف ويكتب ويتحدث عن كثير من ألوان البديع والبيان: كالتشبيه، والاستعارة، ولطافة المعنى، أو التعريض والكناية كما نقول نحن، وكالإفراط في المعنى (المبالغة)، وحسن الخروج ومجاورة الأضداد (الطباق)؛ والمطابق (لون من أول الجناس). والثلاثة الأنواع الأولى هي أصل علم البيان وباقي الأنواع هي أبرز

ما في البديع من فنون. وابن المعتز من غير شك أفاد من أستاذه ثعلب في هذه الدراسة، ونحن نكاد نجزم بأن ثعلبًا ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف ابن المعتز كتابه "البديع" عام ٢٧٤هـ لأن ثعلبًا عالم معمر، ولأنه لو كان ابن المعتز كتابه "البديع" عام ٢٧٤هـ لأن ثعلبًا عالم معمر، ولأنه لو كان ابن المعتز قد سبقه بالتأليف لما أمكن ثعلبًا أن يقف عند هذا الحد في عرض ألوان البيان والبديع الساحرة في الشعر العربي والتي ألم بها ابن المعتز، مثل الالتفات والاعتراض وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن الابتداء وحسن التضمين وتأكيد المدح بما يشبه الذم والمذهب الكلامي وغيرها. إذ كان ثعلب ولا شك سيستفيد من دراسات ابن المعتز - لو كان ابن المعتز قد ألف كتابه "البديع" قبل أن يؤلف أستاذه "قواعد الشعر" - وسيحاول أن يقتبس منها بعض الاقتباس في كتابه .. ومن الغريب أن لا يشير ابن المعتز في "البديع" إلى كتاب "قواعد الشعر"، مع أنه ساق بعض الشواهد الواردة في "قواعد الشعر"، ومع أنه قريب في تحديد الاستعارة وغيرها من أستاذه ثعلب. بل ومن الغريب أيضًا أن يخالفه في تسمية "المطابق" الذي سماه ثعلب "مجاورة الأضداد"، وفي تسمية "الجناس" الذي سمى ثعلب نوعا منه "المطابق"، ولكن لا ضير في اختلاف الاصطلاحات، فلكل مؤلف أو مفكر الحق في تسمية ما يشاء بما يشاء، ومن قبل ذكر أرسطو أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء[1]. ولكن الغريب حقًا أن يقول ابن المعتز عن نفسه "وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد[2]"، فلا شك أن لثعلب الفضل في أنه جمع في "قواعد الشعر" بعض ألوان البديع التي ذكرها ابن المعتز في كتابه مثل: التشبيه والاستعارة ولطافة المعنى والتعريض ومجاورة الأضداد والمطابق .. وهذه الأنواع هي أهم ما في كتاب "البديع" لابن المعتز من ألوان البديع، و"قواعد الشعر" يمتاز بأنه يعرض لأصل هام في البلاغة العربية بتقسيمه الشعر: إلى خبر واستخبار وأمر ونهي.

وأما أثر الكتاب في الأدب والشعر فلا شك فيه لوضوحه، فهذا الحديث عن الشعر بهذا الأسلوب قد أفاد دراسات الأدب جميعًا. فوق ما في الكتاب من شواهد كثيرة من جيد الشعر العربي تبلغ نحو المائتين. فوق هذا العرض الجميل لفنون الشعر وألوانه العامة. وأما أثره في النقد الأدبي بمعناه العام، فالكتاب نراه يتحدث عن الجزالة في الشعر، وعن اتساق النظم، وعن أقسام أخرى للشعر، في أسلوب جيد.

---

[1] ٧٤ نقد النثر ط ١٩٣٧.

[2] ١٠٦ البديع.

وعرض هو إلى النقد أقرب منه إلى الشعر أو البلاغة: مما لا شك في قيمته في النقد. فوق قيمته في دراسات الشعر.

نقد النثر وقدامة

-١-

"نقد النثر" كتاب رائع في البيان وأساليبه وفنونه. من نثر وشعر وخطابة وجدل ومحادثة، وفي البلاغة وحقيقتها وأوصافها ومظاهر الجمال فيها. والكتاب ينطق عن ثقافة مؤلفه الواسعة، وإلمامه البعيد بالكثير من علوم الدين والعربية وعلوم الفلسفة والكلام. وقد تأثر مؤلفه فيه أكثر ما تأثر بكتاب الخطابة لأرسطو، وكتاب البيان للجاحظ، وهو أول مؤلف كامل في البيان يطلعنا على التطور التأليفي في هذا العلم، وقد تولت كلية الآداب نشره في عام ١٩٣٢، وكتب أستاذان من أساتذ مقدمتين له، وقد اعتمدا في نشره على صورة فوتوغرافية للنسخة الوحيد المخطوطة والمحفوظة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ٢٤٢. وقد ثارت ضجة كبيرة حول مؤلف هذا الكتاب، واختلف في ذلك العلماء اختلافًا كبيرًا، فالمرحوم الأستاذ الشنقيطي[١] والأستاذ العبادي[٢] يتابعان بعض المستشرقين في أن الكتاب لقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧هـ، ولكن بروكلمان ودر نبودرغ[٣] يريان أن الكتاب لتلميذ لقدامة ورد اسمه على الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب، وهو أبو عبد الله بن أيوب. ويتابعهما في ذلك هيوار .. أما الأستاذان لفي دلا فيدا وكرتشوفسكي فيريان أن ابن أيوب رجل أندلسي عاش بعد قدامة بعهد طويل، وإنه استمد نقد النثر من مؤلفات قدامة: ولكن بعض المستشرقين يقفون في بحثهم موقف الشك، ويتابعهم في ذلك الدكتور طه حسين.. وبين هذا الاختلاف الكثير، يجد الباحث مشقة عسيرة في الوصول إلى نتيجة حاسمة في ذلك المجال الغامض العسير، ولكن متابعة البحث والإفادة من البحوث التي كتبها الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة، والتي اتجه فيها إلى نفي نسبة الكتاب لقدامة، ودمغ ذلك بحجج قوية. كل ذلك يؤدي بنا إلى ثلاث نتائج أولاً: أن الكتاب ليس لقدامة، ولا يمكن أن يكون له. وأدلنا على ذلك:

---

(١) تقرير رقم ٣٤٣ مكتبات بدار الكتب المصرية.

(٢) ص ٤٣ مقدمة نقد النثر للأستاذ العبادي. الطبعة الثانية.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة قدامة.

أ - لم يذكر عن قدامة فيما وصل إلينا من كتبه أن له كتابا بهذا الاسم ولا فى ذلك الموضوع نفسه، وقد أرخ لقدامة علماء كثيرون كابن النديم - وهو أقربهم عهدا به وكالخطيب البغدادى وابن خلكان وسواهم، ولم يذكر أحد منهم أن له كتابا بهذا العنوان، مع أنهم ذكروا كتابه "نقد الشعر"، وعنوا به، وحفزوا بهذه العناية بعض العلماء لشرحه والتعليق عليه.

ب- ومن العسير أن يؤلف مؤلف كتابين فى موضوع واحد كالنقد، ثم لا يحيل القارئ فى أحد كتابيه على الآخر، مع أن مؤلف "نقد النثر" يحيل على كتبه الأخرى كثيرًا.

جـ- على أن شك العلماء والباحثين فى نسبة الكتاب لقدامة، وجزم بعضهم جزمًا يعتمد على الدليل بأن الكتاب ليس له، كل ذلك ينفى أن يكون الكتاب لقدامة.

د - وشخصية قدامة شخصية المستقل فى آرائه، المجدد فى بحوثه، كما نعرفه فى كتابه "نقد الشعر" الثابتة نسبته له، أما شخصية مؤلف نقد النثر كما تبدو من الكتاب فهى شخصية المحتذى لغيره، يظهر ذلك فى احتذائه للجاحظ وكتابه "البيان والتبيين" وأخذه الكثير عنه فى كل فصل وباب، كما يظهر ذلك فى احتجاجه بآراء أرسطو واقتباسه من كتاب "الخطابة".

هـ- والاتجاه السياسى والدينى لمؤلف نقد النثر هو الاتجاه الشيعى فهو يشيد بعلى وذريته كالحسن والحسين والباقر والصادق والرضا. وقدامة بعيد كل البعد عن ذلك الاتجاه ومظهر ذلك كتابته التأليفية فى "نقد الشعر"، على أن مكانته البارزة فى الدولة العباسية ومهامه الإدارية فى ديوانها كانت تحول بينه وبين الانضمام إلى أعداء الدولة من الشيعيين، وليس من المعقول أن يكون ذلك جديدًا على قدامة، قد اضطرته إليه الأحداث السياسية التى حدثت فى آخر حياته باستبداد بنى بويه بالخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ، فخلق قدامة وقصر المدة بين وفاته وقيام الدولة الجديدة مما كان يحول بينه وبين هذا الانقلاب .

و - وثقافة قدامة ثقافة عقلية صبغت بصبغة الأدب ؛ وهو فى نقد الشعر أعمق بحثًا أو أكثر فهما للشعر وعناصره، وهو فيما وضع من موازين للنقد متأثر باتجاهه العقلى الفلسفى، وكثيرًا ما يخطىء فى تطبيقه الموازين العقلية الجامدة على الشعر، كما يظهر ذلك فى كتاب "نقد الشعر". أما ثقافة مؤلف نقد النثر، فهى ثقافة أدبية علمية صبغت بصبغة الفلسفة، واتجاهه العقلى أكثر تأثرًا بثقافة المتكلمين منه

بثقافة الفلاسفة، وثقافته الدينية واسعة فهو مؤلف فى أكثر علومها، حتى لقد حاول الاستفادة من ورانها فى فهم البيان ودراسته، وهذه ناحية جديدة بعيدة عن قدامة كل البعد.

ز - ومنهج قدامة فى النقد - كما تراه فى "نقد الشعر" - منهج تفصيلي طريف، فقد عني فيه أولاً بإحصاء مظاهر الأداء البيانى التى تمس الفكرة وترضي العقل وتتجه إلى سلامة المعنى، مما تأثر به ابن سنان الخفاجي من بعده فى بحثه البياني فى البلاغة والمعاني. ولكن منهج مؤلف "نقد النثر" فى نقد البيان منهج إجمالي خصب، اتجه فيه صاحبه إلى بحث ألوان البيان وفنونه عامة، وإلى بحث البلاغة وعناصرها، وإلى تطبيق نظرية المطابقة لمقتضى الحال على الشاعر والناثر والخطيب، وهو فى هذا الاتجاه الإجمالى لا يجيد البحث التفصيلي فى مظاهر الجمال.

ح - وأسلوب قدامة أسلوب مرسل بعيد عن السجع والازدواج. أما أسلوب مؤلف "نقد النثر" فاسلوب أديب حريص على السجع، فإن لم يواته السجع واتاه الازدواج[1]. والتفاوت بين أسلوبين دليل قوى على أن الكتابين لشخصيتين محتلفتين، وشتان بين أسلوب رجلين: فيلسوف يتأدب، وأديب يتفلسف، والموازنة بين البحوث المشتركة فى الكتابين تؤدى إلى ما نذهب إليه - وإن قل ما بينهما من اشتراك -: فبين كل من الكتابين تباين كثير فى الموضوعات المشتركة : فى الاتجاه والروح وفى العرض والتحليل، فبحث كالتشبيه فى نقد الشعر مباين لنفس هذا البحث فى نقد النثر[2]، والاستعارة عند مؤلف نقد الشعر غيرها عند مؤلف نقد النثر[3]، وجمال الشعر عند قدامة غيره مؤلف نقد النثر، ومن العسير على الباحث أن يأخذ هذا الاتفاق فى الموضوعات على علاته كدليل على أن الكتابين لمؤلف واحد، فالدراسة المقارنة لهذه البحوث المشتركة، هى وحدها الحكم فى شخصية المؤلفين، ومصدر الكتابين.

ثانيــــــاً :

---

(1) راجع مثلا ص٥ نقد النثر.

(2) ٦٥ نقد الشعر، ٥٨ نقد النثر.

(3) ١٠٤ - ١٠٦ نقد الشعر، ٧٠ نقد الشعر.

أ - أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد الذى ورد اسمه فى الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب، والذى لم يهتد لشخصيته الكثير من الباحثين، والذى زعم بعض المستشرقين أنه مؤلف الكتاب، هو فقيه وقاض أندلسى عاش ما بين ٥٣٠ - ٦٠٨هـ[1]، فليس هو تلميذا لقدامة كما ذهب إليه بروكلمان وسواه.

ب- وليس ابن أيوب هذا هو مؤلف الكتاب كما ذهب إليه درنبورغ : وهيوار ولفى دلافيدا وكرتشو فسكى وسواهم. ودليلنا على ذلك:

١- ثقافة الكتاب وروحه واتجاهه وبحوثه والأعلام الواردة فيه تؤكد لنا تأكيدا جازما بأن الكتاب من إنتاج أول القرن الرابع على أقصى تقريب.

وقد ورد فيه أعلام كابن دريد وكتابه "الملاحن"[2]، وابن دريد علم لغوى عاش من ٢٢٣ - ٣٢١، وكابن التسترى[3] وهو قريب العهد من صنائع بنى الفرات[4]. وكان أديبًا يلتزم السجع ويستعمل الغريب ويتقعر فى منطقه[5]. وعاش فى أواخر القرن الثالث[6]، ولعله أبو سهل عبد الله التسترى المتوفى عام ٢٨٢هـ. وليس فى ذكر المؤلف لابن دريد ولا لابن التسترى ومشاهدته إياهما تناقض مع ما نقول.

٢- يأخذ ابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة وعبد القاهر الجرجانى فى كتابيه الأسرار والدلائل بعضا من الآراء المبسوطة فى الكتاب، فنهج عبد القاهر فى الدفاع عن الشعر[7] وفى تقسيم التشبيه[8] هو منهج مؤلف نقد النثر[9]. والرأى الذى ناقشه ابن سنان - من أن للإيجاز مواضع وللإطناب مواضع هو الرأى الذى بسطه مؤلف نقد النثر[10] .. ولا يعقل أن يأخذ هذان العالمان من ابن أيوب وهما فى القرن الخامس وهو فى السادس والسابع.

---

(1) تكملة الصلة لابن الآبار ج١ ص٢٩٧ - ٢٩٩.

(2) ٦٩ نقد النثر.

(3) ١٠٨ نقد النثر.

(4) ١٩٣ فهرست.

(5) ١٠٨ نقد النثر.

(6) هامش ١٠٨ نقد النثر.

(7) ص١٣ وما بعدها دلائل الإعجاز.

(8) ٧٠ وما بعدها أسرار البلاغة.

(9) ٥٨ و٧٧ و٧٩ - نقد النثر.

(10) ٩٧ نقد النثر.

٣- وليس لابن أيوب صلة بالكتاب سوى أن هذا الكتاب قد نسخ له في آخر القرن السادس الهجري وكتب الناسخ اسمه على النسخة التي كتبها، كما ترشدنا إلى ذلك العبارة في عنوان هذه النسخة الخطية التي حيرت في فهمها الباحثين؛ وهي كتاب "نقد النثر" مما عني به أبو الفرج "قدامة بن جعفر" الكاتب العراقي رضي الله عنه وأرضاه للفقيه المكرم أبي عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به، وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان.

ثـــالثـــــاً:

وإذا كان الكتاب ليس لقدامة، ولا لابن أيوب فلمن هو إذًا من العلماء؟ لقد واليت البحث في ذلك، وخلت أن الكتاب قد يكون لتلميذ لقدامة تأثر فيه بآراء أستاذه في النقد والبيان، فحمل بعد عصره على أن الكتاب لأستاذه، وسمي "نقد النثر"، وإن كان اسمه في الحقيقة "البيان"، ولكن البحوث التي قمت بها أثبتت خطأ هذا الظن، وقد يكون الكتاب لوالد قدامة: "جعفر بن قدامة بن زياد" المتوفى سنة ٣١٩هـ، وليس لابنه قدامة. وجعفر هذا هو أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم وافر الأدب حسن المعرفة، وله مصنفات في صنعة الكتابة وغيرها[١]، والأدلة التي تؤكد هذا الرأي هي:

١- ثقافة الكتاب العلمية لا تدل على أنه من معين ثقافة القرن الرابع الواسعة وإنما تدل على أنه قد ألف بعد عصر الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ وفي أواخر القرن الثالث الهجري، والأعلام الواردة في الكتاب والتي لا تتجاوز ذلك التاريخ أصدق شاهد على ما نقول، وتأليفه في معارضة كتاب البيان للجاحظ[٢] مما يزيد ذلك قوة.

٢- وكثير من مؤلفات جعفر قد نسب لابنه قدامة خطأ[٣]، كما أن بعض الباحثين قد شك في نسبة بعض كتب قدامة له، ورأى أنها لأبيه، كالمطرزي شارح المقامات المتوفى سنة ٦١٠هـ.

٣- وصنعة الكتابة التي قال الخطيب البغدادي إن لجعفر مؤلفات فيها ترادف كلمة نقد النثر وكلمة البيان، وهي اصطلاحات كانت تدل في ذلك العصر

---

(١) ج ٧ ص٢٠٥ تاريخ بغداد.

(٢) ص ١ نقد النثر.

(٣) ٤٠ نقد النثر - مقدمة العبادي.

على قواعد البيان التى يضعها العلماء للكتاب، يفصلون لهم فيها مشكلات البيان العربى وبلاغته، ويرسمون فيها المذاهب الأدبية التى يجب على الكتاب احتذاؤها، وذلك كله ما نراه مبسوطا فى "نقد النثر" مما يدل على أنه من مؤلفات جعفر فى صنعة الكتابة.

٤- وظاهرة التشيع التى نراها فى نقد النثر لا تنبع إلا من قلب رجل لم يخلص للدولة إخلاص قدامة، وعاش بعيدًا عن مناصبها كما عاش جعفر.

-٢-

فنحن لا نشك – ولا يستطيع باحث أن يشك – فى أن الكتاب ليس لابن أيوب، بعدما بسطناه من أدلة دامغة. أما نفى نسبة الكتاب لقدامة فهو ما أيدناه بالحجج الكثيرة القوية، رغم أن كثيرًا من الباحثين يرون غير ما رأيناه، وقد قرأت أخيرًا فى الجزء الثانى من الإمتاع والمؤانسة تأليف أبى حيان التوحيدى الذى ظهر من حين – نصًا جديدًا أراه حريًا بالفهم والبحث والتحقيق [1]: قال أبو حيان فى أثناء كلامه على بلاغة الشعر وبلاغة النثر – ما نصه : "وما رأيت أحدًا تناهى فى وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه. قال لنا على بن عيسى الوزير : عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة، وخبرته فوجدته قد بالغ وأحسن، وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة، بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، مما يدل على المختار المجتبى والمعيب المجتنب، ولقد شاكه فيه الخليل بن أحمد فى وضع العروض، ولكنى وجدته هجين اللفظ ركيك البلاغة فى وصف البلاغة، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه .. وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور ".. فأبو حيان على لسانه حينا، وعلى لسان ابن عيسى الوزير حينا آخر يقرر:

١- أن قدامة بذ سابقيه فى وصف النثر وفنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى فى المنزلة الثالثة من كتابه.

٢- أنه بتأليفه هذا الكتاب وابتكاره لبحوثه يضارع الخليل بن أحمد فى سمو مكانته وابتكاره لعلم العروض.

٣- أن كتابه هذا عرض على على بن عيسى الوزير سنة ٣٢٠هـ.

---

[1] ص١٤٥ و١٤٦ ج٢ الإمتاع والمؤانسة – طبع لجنة التأليف.

٤- أن أسلوب قدامة في كتابه هجين اللفظ ركيك البلاغة في وصف البلاغة، واعتذار الوزير عنه في ذلك رائع ممتع دال على مدى مكانة قدامة عند معاصريه من المفكرين، ولكن ما هو هذا الكتاب استحق هذا التقدير والإعجاب من رجلين يعدان من أعظم رجال الفكر الإسلامي في القرن الرابع الهجري : أهو نقد النثر أم سواه؟ أجزم جزمًا قاطعًا بأنه ليس هو "نقد النثر"، إنما هو كتاب آخر سأذكر اسمه بعد قليل:

١- ذلك أن كتاب نقد النثر - من ناحيته التأليفية - لم يرتب منازل، وليس فيه منزلة ثالثة في وصف فنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على الجيد أو الرديء من الكلام، كما يقول الوزير، إنما هو في البيان الذي يقسمه إلى بيان بالحال، وبيان بالاعتقاد وبيان بالكتابة وبيان باللسان. والبيان باللسان عنونه المؤلف بهذا العنوان : "البيان الرابع العبارة[1]"، وتكلم فيه على خصائص الأسلوب العربي التي تتفق العربية واللغات الأخرى فيها، وعلى الخصائص الأخرى التي تنفرد بها العربية، من: اشتقاق وتشبيه ولحن واستعارة ولغز ووحي ومبالغة وحذف وتقديم وتأخير واختراع، كما تكلم فيه على تأليف العبارة[2]"، بالتحدث عن أوصاف الشعر، وأوصاف النثر بسائر ألوانه: من خطابة وترسل ومجادلة وحديث .. أما ما ذكره الوزير فموضوع نجده مفصلا في "نقد الشعر"، وقد يكون في كتب أخرى لقدامة. فأما نقد النثر فليس له بذلك صلة، وليس فيه وصف لفنون البلاغة من طريق اللفظ أو المعنى كما يقول، وليس فيه تحليل لمذهب قدامة في النقد كما يرى.

٢- على أن التوحيدي يرى أن قدامة قد استبد بكتابه - الذي لم يسمه أبو حيان - بشرف، يسامي الشرف الذي ناله الخليل بابتكاره علم العروض، فهل يبوىء قدامة هذه المنزلة: "نقد النثر" إن كان هو الذي يريده أبو حيان أو الوزير؟ لا، فإن نقد النثر ليس من الابتكار الفكري في شيء، كما كان كتاب الخليل في العروض، وكما نرى قدامة في "نقد الشعر"، إنما هو

---

(١) ٤٣ نقد النثر .

(٢) ٨٤ المرجع السابق.

لون من الاحتذاء الفكرى لأرسطو والجاحظ، وتدوين لعناصر البيان الأولى التى أثيرت فى عصر قدامة وقبل عصره بقليل.

٣- على أن الأسلوب الذى ذمه الوزير هو الأسلوب المنطقى المأثور عن قدامة، الذى يرشدنا إليه كتابه نقد الشعر"، أما أسلوب نقد النثر فأسلوب بليغ ممتع فيه إشراق البيان. وعليه رونق البلاغة: فلو كان "نقد النثر" هو الذى عناه الوزير لما نقد أسلوبه هذا النقد اللاذع المرير .. وإذا فليس "نقد النثر" هو الكتاب الذى عناه أبو حيان والوزير .. ويحق لنا إذا أن نتطلع لمعرفته، حتى يبعد اللبس، وتستبين السبيل، ويخلص لنا الدليل.

رأيى أنه كتاب آخر - ولا شك - غير "نقد النثر" الذى لا يمت إلى قدامة بصلة وغير نقد الشعر، الثابت النسبة إليه والذى نقده الآمدى، وشرحه عبد اللطيف ابن يوسف .. وقدامة له - غير "نقد الشعر - كتاب فى صنعة الكتابة[1] ودلو غير "نقد النثر"، لأن هذا المرجع قد ذكر نقد النثر، وجعله مؤلفا آخر سواه[2]، وإن كان قد نسبه إلى قدامة، ويذكر صاحب كشف الظنون أن لقدامة كتابًا اسمه "سر البلاغة فى الكتابة"[3]، وكذلك يذكر اليزدادى فى كمال البلاغة أن لقدامة تأليفًا فى الكتابة (ص ١٦ كمال البلاغة) .. فليس من المستبعد إذا أن يكون التوحيدى وعلى بن عيسى الوزير قد قصدا كتابا من هذين الكتابين: صنعة الكتابة وسر البلاغة فى الكتابة، وقد يكون هذا الاسمان عنوانا لكتاب واحد لقدامة فى بلاغة الكتابة، وعلى كل حال فالذى نراه ونجزم به أن نقد النثر لا يمت إلى أحد هذين الكتابين بصلة، ولبس هو أيضًا من مؤلفات قدامة فى البيان، ومما يؤيد ذلك وصف اليزدادى لكتاب قدامة، وأنه "فصول مستخرجة من رسائل الكتاب إلخ" (١٦ و ١٩ كمال البلاغة)

ولكن ما مدى صحة نسبة الكتاب لجعفر والد قدامة ؟ من الواجب على أن أقرر أن هذه الفكرة لا تجد إلى الآن الدليل المادى الملموس الذى يؤيدها بقوة الحجة، إنما هى استنتاج رأيته، ووجدت من وثاقة أسبابه فى نظرى ما يكتفى لأن أومن به وأذهب إليه . ولم أجد - للأسف - شينا من مؤلفات جعفر - التى قال عنها

---

[1] راجع ٢٠٣ ج٢ كتاب الأدب العربى لجورجى زيدان.
[2] راجع ١٧٣ ج٢ نفس المرجع.
[3] راجع ٤٧٠ ج١ كشف الظنون.

الخطيب البغدادى : إن له مؤلفات فى صنعة الكتابة[1] - اتخذه موضوعًا لدراسة نقدية بينه وبين كتاب نقد النثر لمعرفة شخصية المؤلف، والاستدلال عليها بدلالة الأسلوب وثقافة التأليف، واتجاه المؤلف فيه. وقد يقال إن جعفر عاش نصرانيًا، فمن الغريب أن يتشيع - مع نصرانيته - لآل على، ومن الغريب أن يكون له مؤلفات مثل: الإيضاح أو التعبد أو الحجة، ولكن من الواجب أن نعرف أن كثيرًا من النصارى فى العراق وإيران، كانوا يتشيعون لأغراض شخصية أو سياسية، يريدونها ويعملون لها، على أن الروايات التاريخية الصحيحة لا تثبت لنا أن جعفرًا عاش على نصرانيته.

وبعد كتابة كل ما تقدم نشر الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر مقالة فى الرسالة عدد ٨ - ١١ - ١٩٤٨، ذكر فيها ما يلى:

١- كتاب البرهان فى وجوه البيان" لأبى الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، طبع جزء منه قدر ثلثه باسم "نقد النثر"، حرره وأخرجه الدكتور طه حسين، والأستاذ عبد الحميد العبادى، منسوبًا إلى أبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣٣٧هـ. وقد اعتمد مخرجا "نقد النثر" على مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ٢٤٣. وقد عثرنا على مخطوطة لهذا الكتاب بمكتبة تشستربيتى رقم ٧٦٧ تحت عنوان "كتاب البرهان فى وجوه البيان"، وعند المقابلة بينها وبين كتاب "نقد النثر" المطبوع وجدناهما يتفقان فى القدر المطبوع، وتزيد المخطوطة التى بأيدينا على المطبوعة بمقدار ثلثى الكتاب تقريبًا. ولم نشك فى أن هذا القدر الزائد إنما هو جزء أصلى من الكتاب قد سقط منه فى المخطوطة الأسكوريالية، ذلك أن المؤلف قد بنى كتابه على أربعة وجوه البيان : البيان بالاعتبار، البيان بالاعتقاد، البيان بالعبارة، البيان الرابع بالكتاب، وهو غير موجود فى النسخة المطبوعة، وقد علل محقق هذه النسخة المبتورة هذا النقص بادعائه أن المؤلف قد ضمن الباب الثالث (وهو العبارة) الكلام على الوجه الرابع وهو الكتاب. وفى النسخة المخطوطة التى بأيدينا، جاء فيها ذكر البيان الرابع وهو الكتاب، واستغرق من أصل الكتاب جزءًا كبيرًا، كما جاء فيها الكلام على باب المعمى وذكر العروض والقافية بتفصيل كامل. وكذلك جاء فيها ما بقى من وجوه الحديث وجهًا وجهًا، وكذلك مراتب

---

[1] ٢٠٥ ج٧ تاريخ بغداد، ٤١٢ ج٢ معجم الأدباء طبعة مرجليوث.

المستمعين له مرتبة مرتبة، فكانت مخطوطتنا بهذا التحقيق هى النسخة الكاملة للكتاب.

٢- وأهمية مخطوطتنا لا تنحصر فى أنها النص الكامل للكتاب كما كتبه مؤلفه، بل إن لها أهمية أخرى أكبر، وهى معرفة مؤلف هذا الكتاب على التحقيق. وهو أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، مما يبطل نسبة الكتاب إلى قدامة بن جعفر، كما أن مخطوطتنا تحمل الاسم الصحيح للكتاب، وهو "البرهان في وجوه البيان". ويؤيد ذلك أيضًا أدلة أخرى منها:

أولًا : نسب إلى قدامة كتاب فى الكتابة، وليس هو "البرهان" أو "نقد النثر" وإنما اسمه "كتاب الخراج وصناعة الكتابة"، وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلى بالآستانة، وقد استخرج دى غويه نبذا منها وطبعها تحت عنوان "كتاب الخراج"، وهذه النبذ هى الأبواب الثانى والثالث والرابع والخامس والحادى عشر من المنزلة الخامسة، والبابان السادس والسابع من المنزلة السادسة. وقد وصف ياقوت هذا الكتاب في ترجمة قدامة بقوله : "وله كتاب فى الخراج وصناعة الكتابة"، رتبة مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه، على تسع منازل، وكان ثمانية فأضاف إليه تاسعًا، ويقول المطرزى فى كتاب الإيضاح شرح مقامات الحريرى - مخطوطة المتحف البريطانى -: "وله تصانيف كثيرة منها كتاب "الألفاظ" وكتاب "نقد الشعر"، وهو حسن للغاية طالعته ونقلت منه أشياء، وقيل هو لوالده جعفر. ومنها كتاب صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوال منشودة، وهو كتاب يشتمل على سبع منازل، وكل منزلة منها تحتوى على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والبلغاء: وقال ابن الجوزى فى المنتظم فى حوادث سنة ٣٣٧ بمناسبة موت قدامة ما نصه . "وله كتاب حسن فى الخراج وصناعة الكتابة". وهذا الوصف لا يتفق مع تبويب كتاب "البرهان" أو "نقد النثر"، إذ أنه على أربعة أبواب تناولت كل ما قصد المؤلف كتابته عن الخراج وصناعة الكتابة، وفضلاً عن هذا فنحن إذا وزنا الجزء المطبوع من كتاب قدامة الخاص بالخراج ألفيناه مختلفًا عن القسم الخاص بالخراج فى كتابنا "البرهان". والنتيجة البديهية هى أن قدامة وأبا الحسين كتب كل منهما كتابا فى الموضوع، ولكن كلا منهما سلك مسلكه الخاص فى علاج الموضوع. وقد ألف قدامة كتابه قبل سنة ٣٢٠، أما أبو الحسين فألف كتابه بعد سنة ٣٣٥ حسب ما جاء من نصوص تاريخية فى ثنايا الكتاب.

ثانيًا : من الكتب المعروفة على وجه التحقيق لقدامة (نقد الشعر). وقد عالج فيه الشعر وفنونه بوجه خاص: وقد عالج صاحب "البرهان" فى كتابه الشعر أيضًا، فلو أنه كان لقدامة لما احتاج إلى معالجة هذه الموضوعات مرة أخرى بمثل هذا البيان الكافى، وفضلا عن ذلك فإن معالجة الشعر فى (البرهان) تختلف اختلافًا جوهريًا عنها فى كتاب (نقد الشعر) من الناحية الفنية والموضوعية.

ثالثًا : وصاحب كتاب (البرهان) يصر فى كل مناسبة على ذكر الرجال المشهورين من آل وهب، معظما لهم فخورا بهم، كأن يقول : "وقد كان شيخنا أبو على الحسن بن وهب رحمه الله .. وقال أبو أيوب رضى الله عنه. وكان أبو أيوب رحمه الله رجلا مشهورًا بالبلاغة .. ولو لم نتقدم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لكفى وأجزى .." وأبو أيوب هذا هو سليمان بن وهب عميد آل وهب وجد المؤلف.

رابعًا : وهناك أمر يجب التنويه به وهو أن البطليوسى فى كتابه (الاقتضاب شرح أدب الكتاب) قد كتب فصولا طويلة بنى عليها مقدمته فى شرح الكتاب (ص٦٦ - ٩٠)، وهذه الفصول تتفق فى لفظها مع بعض فصول كتاب البرهان، ولكن البطليوسى لم ينسبها إلى أبى الحسين ولا إلى قدامة، وإنما أشعر بنسبتها إلى على بن مقلة (م٣٣٢هـ)، ولا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب (البرهان) هو لابن مقلة لأنه ألف بعد سنة ٣٣٥ وبعد وفاة ابن مقلة بنحو ثمانى سنين، والقدر المتيقن أن البطليوسى لم يحتسب على أى حال قدامة بن جعفر مؤلفا للكتاب الذى نقل عنه على فرض أنه نقل فصوله من كتابنا هذا. ومن المحتمل أن يكون البرهان قد نسب مرة إلى على بن مقلة كما نسب إلى قدامة بن جعفر وجهل أمر صاحبه، ومن المحتمل أيضًا أن يكون البطليوسى ومؤلف كتابنا هذا كلاهما نقل نقولا من كتاب لابن مقلة فى هذا الموضوع، وهو أمر لم تساعدنا الظروف على تحقيقه؛ ومن غريب الأمر أن هذا الكتاب قد نسب إلى قدامة بن جعفر فى طرة المخطوطة الاسكوريالية، وكذلك فى طرة المخطوطة التى بأيدينا مع ورود اسم المؤلف فى أثناء الكتاب، وهو أمر غفل عنه الناسخ، وتفسير هذا التناقض يسير، فإن الوراقين كانوا يعرفون قيمة قدامة الأدبية ويعرفون شهرة كتابه فى الأدب، فلا يستبعد عليهم أن يضعوا اسمه على هذا الكتاب، لتسهيل بيعه وتداوله، وهذه طريقة معروفة عند النساخ والوراقين، لا تخفى على المحققين.

أبو بكر محمد بن دريد[1]

٢٢٣ - ٣٢١هـ

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد "بن عتاهية بن حنتم بن الحسن بن حمامى ابن جرو بن واسع بن وهب بن سلة بن حاضر بن حنتم بن ظالم بن فراهيد بن مالك ابن فهم بن غنيم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران" الأزدى العمانى.

إمام عصره فى اللغة والأدب والشعر الفائق، تقف عند كلامه الفحول، وتستعير آيات بلاغته الفصحاء، وتستمد من كلامه الخطباء، وترجع إلى حقائق علمه الأدباء، قال المسعودى: كان ابن دريد ببغداد ممن برع فى زماننا هذا فى الشعر وانتهى فى اللغة وقام مقام الخليل فيها، وأورد أشياء فى اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين، وكان يذهب بالشعر كل مذهب، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتى على أكثره. ولقد كان ابن دريد منذ شهرته صاحب منزلة كبيرة بين فحول العلم وقد ترجم له غير واحد، فأظهروا علو مقامه وطول باعه فى العلوم العربية، حتى فاق سائر أقرانه، إلا أنهم لم يعتنوا فيما رأيت بذكر أرومته ونبعته كما ينبغى.

كان أبو بكر بن دريد علما من أعلام اللغة والأدب والرواية والشعر. ومقصورته التى قالها فى مدح الشاه ابن ميكال تعد من غرر الشعر العربى وعيونه، وهو من الشخصيات التى تستحق الدراسة والتقدير فى الأدب العربى.

وقد اتفق جميع مؤرخى ابن دريد أن ولادته كانت فى مدينة البصرة سنة ٢٢٣ هجرية فى خلافة المعتصم بالله العباسى. ونقل الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد : "أخبرنى محمد بن على الأصبهانى قال : نبأنا الحسن بن عبد الله بن سعيد اللغوى قال : سمعت ابن دريد يقول : مولدى بالبصرة بسكة صالح سنة ٢٢٣، واسمه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدى.

يتفق مؤرخو ابن دريد على أنه نشأ فى البصرة وتأدب فيها، وتعلم اللغة وأشعار العرب وقرأ على علمائها، ثم صار بعد ذلك إلى عمان. ولكن ابن الأنبارى

---

[1] ٤٤٨ - ٤٥٣ ج٣ وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

والخطيب البغدادي يشذان عن هذا الإجماع، ويذكران إنه نشأ بعمان .. وبقى ابن دريد في البصرة يتأدب على كبار المشايخ فيها مثل الرياشي والسجستاني، فلما وقعت فتنة الزنج في البصرة سنة ٢٥٧هـ ودخلها على بن محمد صاحب الزنج واكتسحها وخربها خرج منها ابن دريد مع عمه الحسين بن دريد.

ويقول معظم المؤرخين لابن دريد أن انتقاله من البصرة في فتنة الزنج كان إلى عمان، وينفرد ابن خلكان بالقول بأنه انتقل إلى بغداد أولا مع عمه، ثم إلى عمان بعد ذلك.

بقى ابن دريد في عمان اثنى عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة فسكنها زمنا، ثم خرج منها فتنقل زمنا في جزائر البحر، ثم عاد إلى البصرة. وفي أثناء إقامته الثانية هذه بالبصرة تقلد عبد الله بن محمد بن ميكال ولاية الأهواز من قبل الخليفة المقتدر بالله. وكان ابنه أبو العباس إسماعيل صبيا، فاستدعى ابن دريد لتأديبه فأجابه وخرج إلى فارس يؤدب إسماعيل بن ميكال ويخدم أباه الشاه ابن ميكال. وهناك ألف لهم كتاب الجمهرة في سنة ٢٩٧، وقال في مدحهم مقصورته الفريدة، وبقى معهم حتى صرفوا عن ولاية فارس، فذهب إلى بغداد ودخلها في سنة ٣٠٨، وبقى فيها يدرس الأدب والشعر والرواية، ويحدث في ذلك أكبر علمائها، ويجلسون إليه إلى آخر عمره، حيث أصابه فالج وهو في حدود التسعين، وعاش مع الفالج عامين ثم استشفى منه بالترياق فشفي وصح وعاد إلى أفضل أحواله، ثم تناول - بعد عام - غذاءاً ضارًا فعاوده الداء. وبقي يتمرض حتى مات بعد عذاب ومرض طويل وكانت وفاته في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١هـ ببغداد، ودفن في مقبرة الخيرزان - وهي مقبرة أم الرشيد، ودفن فيها جمهور عظيم من علماء بغداد.

وياقوت في معجم الأدباء والسيوطي في بغية الوعاة يخالفان هؤلاء المؤرخين ويحددان زمن وفاته بيوم الأربعاء الثامن عشر من رمضان في نفس السنة، أما أبو الفداء فيذكر في تاريخه وفاة ابن دريد في حوادث سنة ٣٢١ وأنها كانت في شعبان من غير أن يحدد يومًا .

ويتفق هؤلاء المؤرخون على أنه دفن في مقبرة الخيرزان، أم الرشيد : ولكن ابن خلكان يقول إنه "دفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقي ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم". وينقل ياقوت ذلك منسوبا بصيغة

التضعيف إلى المرزباني، وينفرد الجلال السيوطي بالقول بأنه مات بعمان. قال : "ثم صار إلى عمان فأقام بها إلى أن مات".

والذى نرجحه أن وفاته كانت في الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١هـ. وأنه دفن في مقبرة الخيزران، لأن الخطيب البغدادى يروى قصة دفنه عمن شهد جنازة ابن دريد ومشى فيها إلى المقبرة. وهو ينص على أنه دفن في الخيزرانية، فكان ابن دريد مات عن ثمان وتسعين سنة، ولكن البستاني يقول في دائرة المعارف: "وقيل بل عاش ثلاثا وتسعين سنة لا غير".

هذه خلاصة لحياة ابن دريد وتقلبه في البلاد وقد نشأ ابن دريد كما مر في البصرة أول القرن الثالث. وتلقى العلم على كبار المشايخ فيها ، ثم انتقل إلى عمان فبقي يسمع اللغة من الإعراب اثنتى عشرة سنة ثم انتقل إلى جزائر البحر وفارس وبغداد، وهذا التنقل له ولا شك أثر في تكوين شخصيته، ونجد في أساتذة ابن دريد طائفة من أعظم الرجال في اللغة والأدب والرواية، فقد سمع وحدث عن أبى حاتم السجستاني، وأبى الفضل الرياشي وعبد الرحمن بن قريب - ابن أخى الأصمعي - وأبي عثمان الاشنانداني .. وقد ولد هو ونشأ في أسرة شريفة فيها رئاسة كما رأينا، وكان عمه الحسين بن دريد عالما جليلا وهو الذى تولى تربيته كما ذكر ابن دريد نفسه، وكذلك روت عن ابن دريد وسمعت عليه طائفة عظيمة جليلة، وكان ابن دريد قوى الحافظة جيدها، يقول ياقوت: قال الخطيب عمن رأى ابن دريد أنه قال: كان واسع الحفظ جدًا، ما رأيت أحفظ منه وما رأيته قط قرىء عليه ديوان شاعر إلا وهو يسابق إلى روايته لحفظه له"، ويقول أبو الطيب اللغوى عنه في كتابه "مراتب النحويين": وكان أحفظ الناس .. ويروى الخطيب البغدادى عن حدة حفظه في صباه هذه القصة العجيبة : "حدثني على بن الحسن بن يوسف الأزرق قال : حدثني جماعة أن ابن دريد قال : كان أبو عثمان الاشنانداني معلمي وكان عمي الحسين بن دريد يتولى تربيتي، فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان يأكل معه، فدخل يومًا عمي وأبو عثمان يرويني قصيدة الحرث بن حلزة التى أولها "آذنتنا ببينها أسماء"، فقال لي عمي : إذا حفظت هذه القصيدة وهبت لك كذا وكذا ثم دعا المعلم ليأكل معه فدخل إليه فأكلا وتحدثا بعد الأكل ساعة، فإلى أن رجع المعلم حفظت ديوان الحرث بن حلزة بأسره. فخرج المعلم فعرفته ذلك فاستعظمه وأخذ يعتبره على فوجدني قد حفظته، فدخل إلى عمي فأخبره، فأعطاني ما كان وعدني به". وهذه القصة بعينها يرويها ياقوت.

يقول الخطيب البغدادي : "حدثني على بن محمد بن نصر . قال سمعت أبا بكر الأبهري المالكي يقول : جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعي. فكان يقول في واحد : حدثنا الرياشي. وفي آخر : حدثنا ابن أخي الأصمعي؛ يقول كما يجيء في قلبه، وقال غيره: كان ابن دريد قد أملى الجمهرة في فارس ثم أملاها في البصرة وبغداد من حفظه" ياقوت - "وقال بعضهم: أملى ابن دريد الجمهرة من حفظه سنة ٢٩٧ فما استعان عليها بالنظر في شيء من الكتب إلا في الهمزة والألف"، "وذكر أبو على البيهقي في كتاب النتف والطرف أنه صنف كتاب الجمهرة للأمير أبي العباس أيام مقامه بفارس، فأملاه عليه إملاء. ثم قال : حدثني أبو العباس الميكالي قال : أملى على أبو بكر الدريدي كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظا في ٢٩٧ فما رأيته استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلا في باب الهمزة واللفيف - لعله الألف - فإنه طالع له بعض الكتب ثم قال : وكفاك بها فضيلة وعجيبة أن يتمكن الرجل من علمه كل التمكن ثم لا يسلم - مع ذلك - من الألسن" .. وقال ابن دريد الشعر في مبتدأ شبابه في حدود العشرين، يقول الخطيب البغدادي: أخبرنا أحمد بن على المحتسب، قال أنبأنا إسماعيل بن سعيد المعدل، قال أنشدنا أبو بكر بن دريد، وقال هذا أول شيء قلته من الشعر:

ثوب الشباب على اليوم بهجته فسوف تنزعه عني يد الكبر

وكان ابن دريد حجة في اللغة، بارعا في الشعر، وكانت له الصدارة في عصره. فاعترف له معاصروه بالتقديم، يقول المسعودي[1]: وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد"، ويقول ابن خلكان: "إمام في عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق"، ويقول الخطيب البغدادي: "وكان رأس هذا العلم والمقدم في حفظ اللغة والأنساب وأشعار العرب"، ويقول ياقوت: "كان رأس هذا العلم"، وقال أبو الطيب اللغوى عنه في كتاب مراتب النحويين: انتهت إليه لغة البصريين. وكان أوسع الناس علما وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد"، ويقول عنه ابن تغرى بردى : "طلب الأدب واللغة حتى صار رأسا فيهما وفي أشعار العرب"، ويقول ابن الأنباري: "وكان من أكابر علماء العربية مقدما في اللغة وأشعار العرب وأنسابهم". ووصف ابن دريد بالتقديم والأستاذية والرياسة مما أجمع عليه كل

---

[1] مروج الذهب ج٢ ص٥١٨.

مؤرخيه، حتى هو نفسه كان يعتز بعلمه وصدارته، ويرى أنه كان نسيج وحده، ووحيد دهره، وأنه وارث علم الأصمعي، "وقال أبو الحسن الدريدى[1]، حضرت وقد قرأ أبو على بن مقلة وأبو حفص كتاب المفضل ابن سلمة - الذى يرد فيه على الخليل بن أحمد - على أبى بكر بن دريد، فكان يقول : "صدق أبو طالب" في شيء إذا مر به، و"كذب أبو طالب" في شيء آخر؛ ثم رأيت هذا الكلام وقد جمعه أبو حفص في نحو مائة ورقة فابن دريد هنا ينصب نفسه في منصب الميزان والحكم بين العلماء، ولا يحجم حتى عن تخطيء الخليل .. وقال تلميذه أبو على القالي: قال لى مرة وقد سألته عن بيت الشعر: لئن طفئت شحمتا عيني، لم تجد من يشفيك من العلم؛ هكذا قال لى أبو حاتم. وكذلك قال لى الأصمعي وقد سألته.

وليس ابن دريد لغويا وراوية فقط، بل هو شاعر مكثر بارع مبتكر فى طريقته الشعرية. كان يقال عنه إنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء، وله شعر كثير منه الجزل ومنه الرقيق، يقول ابن خلكان عن شعره: وله نظم رائق جدًا؛ وكذلك يقول البغدادى في خزانة الأدب، ويقول عنه المسعودى في مروج الذهب : وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطورا يجزل وطورا يرق. وشعره أكثر من أن نحصيه، أو نأتى على أكثره، أو يأتى عليه كتابنا هذا، ولكن الدكتور زكي مبارك يقول: إنه كان شاعرًا مقلاً.

ونال ابن دريد فى حياته مكانة كبيرة عند معاصريه من العلماء والوزراء والملوك، وقد رأينا طرفا من ذلك، ويدل عليه ما قدمناه من أن الشاه ابن ميكال اختاره لتأديب ولده إسماعيل. وقد نال عندهما حظوة حتى قلداه ديوان فارس، فكانت الكتب لا تكتب إلا عن رأيه ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه .. وقد بلغ من تبريز ابن دريد في عصره وتقدمه، بل سطوته على جيله، أنه أخمل طائفة من العلماء المعاصرين له، قال ابن خالويه في شرح المقصورة كان ببغداد عباد بن عمر ابن الحليس الكرماني صاحب لغة، وكان يطعن على ابن دريد وينقض عليه الجمهرة؛ فجاء غلام لابن دريد فقال : "اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، قال أبو بكر ابن دريد أعزه الله تعالى : عننت الفرس إذا حبسه بعنانه، فإن حبسته بمقوده فليس بمعن، قال الكرماني الجاهل: أخطأ ابن دريد لأنه إن كان من عننت فيجب أن يكون معنونا. وإن كان من أعننت يجب أن يكون معنا، وأخطأ لكذا وكذا، فوقف شاعر على الحلقة فقال : اكتبوا :

أذللت كرمان وعرضتها   لجحفل مثل عديد الحصى

---

[1] كان وراق ابن دريد وإليه صارت كتبه بعد موته.

وابـــن دريـــد غـــرة فـــيهم — فـــي بحـــره مـــثلك كـــم غوصـــا
جـــثا عـــلى الركـــبة حـــتى إذا — أحـــس نـــزرا قعـــد القرفصـــا
والله إن عـــــاد إلى مثـــــلها — لأصـــــفعن هامـــــته بالعصـــــا

فلم يلتفت إليه الكرماني بعد ذلك، ولما دخل ابن دريد بغداد احتفى به أهلها، وأنزله الوزير على بن محمد في جواره وأفضل عليه، وعرف الخليفة المقتدر مكانه من العلم، فأجرى عليه في كل شهر خمسين دينارا لم تزل جارية عليه إلى أن مات، ويقول أبو الطيب اللغوى: تصدر ابن دريد في العلم ستين سنة، روى فيها عنه وتعلم طائفة عظيمة وجليلة من كبار العلماء، منهم أبو سعيد السيرافي وأبو بكر ابن شاذان وأبو عبد الله المرزباني وعمر بن محمد بن سيف وأبو الفرج صاحب الأغاني وأبو علي القالي .. ويكاد يكون كتاب "الأمالي" كله من أحاديث ابن دريد وروايته.

وقد ذكر أبو إسحاق الحصرى في زهر الآداب أن ابن دريد أغرب بأربعين حديثا استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره إلخ .. وهذه الأحاديث الأربعون غير معروفة، وقد التفت إليها الدكتور زكى مبارك، وذهب إلى أنها البذرة الأولى لفن المقامات، وأن ابن دريد سبق بها بديع الزمان، فهو يقلده فيها. فإن صح ما يراه الدكتور - وهو غير بعيد - فإن فضلا جديدا يضاف إلى ابن دريد، ويثبت له تبريز جديد في الأدب فوق ما قاله فيه من تفوق وتبريز، وكان ابن دريد بصرى المذهب في النحو، بل رأينا فيما سبق أن أبا الطيب اللغوى يقول عنه : وانتهت إليه لغة البصريين، وقد ولد هو في البصرة ونشأ بها وتعلم على مدرستها وسمع من كبار لغوييها كما تقدم. وبين مدرستي البصرة والكوفة معارك حامية في اللغة.

وكما نال ابن دريد الصدارة في حياته، كذلك بقي اسمه مذكورا، وذكره معروفا. ومنزلته فائقة في جميع العصور بعد ذلك، فمقصورته يعتني بها خلق كثير من المتقدمين والمتأخرين بالشرح، وبالكلام عن ألفاظها، ويعارضه بمثلها كثير من الشعراء. والمعرى يذكره في رسالة الغفران ويلقبه بشيخ الازد ويجعله نديما من ندامى الأدباء في الفردوس، وفي كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب إشارة في خبر. تدل على أنه كان معروفا ومذكورا بالصدارة في بلاد الأندلس للقرن الرابع والخامس، وقل أن نجد كتابا من الكتب المعتبرة في الأدب مما ألف في حياته أو بعد موته لم يرد فيه اسمه - بكثرة مفسرا أو راوية أو شاعرًا.

وألف ابن دريد طائفة كبيرة من الكتب يذكرها الجلال السيوطي ويذكر بعضها ابن تغرى بردى، وبعضها صاحب خزانة الأدب، وبعضها ياقوت،وهي :

الجمهرة في اللغة، ويقول عنه المسعودي وهو من الكتب المعتبرة في اللغة - الأمالي - اشتقاق أسماء القبائل - المجتبى - الملاحن - الوشاح - على حذو المحبر لابن حبيب - المقتبس - المقصور والممدود - الخيل الكبير - الخيل الصغير - غريب القرآن "لم يتم" - الأنواء - فعلت وأفعل - السلاح - المطر أدب الكاتب. على مثال كتاب ابن قتيبة، "ولم يجرده من المسودة فلم يخرج منه شيء" - زوار العرب - السرج واللجام - تقويم اللسان - المقصورة.

وكتاباه المجتبى والوشاح يقول عنهما ابن خلكان: إنهما "صغيران كثيرا الفائدة مفيدان"، ولم يبق معروفا لنا من كتب ابن دريد هذه إلا شيء يسير أشهره المقصورة وكتاب الملاحن وهما مطبوعان، وفي دار الكتب المصرية بعض كتب مخطوطة لابن دريد، وقد ذكر عبد القادر المغربي كتب الجمهرة والسرج والجام وكتاب الانواء والمجتبى، ثم قال: "وهذه الكتب عندي والحمد لله والمنة". وهذا يدل على أن هذه الكتب كانت معروفة متداولة وأنها بقيت موجودة إلى عصر عبد القادر البغدادي - ١٠٣٠هـ - ويذكر عبد القادر هذه الجملة عند ذكر بقية كتب ابن دريد.

ومع هذه المنزلة الكريمة التي نالها ابن دريد عند معاصريه وعند من خلفهم لم يكن بثقة عند طائفة من معاصريه لها خطرها في الحكم والتقدير، قال أبو منصور الأزهري في مقدمة كتاب التهذيب: "وممن ألف في زماننا الكتب فرمي بافتعال العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها، أبو بكر محمد ابن دريد صاحب كتاب الجمهرة وكتاب اشتقاق الأسماء والملاحن، وسألت عنه إبراهيم بن عرفة، فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته، وقد تصفحت أنا كتابه الذي أعاره اسم الجمهرة فلم أقف، على معرفة ثاقبة، ولا قريحة جيدة" ويقول ابن خلكان: "سئل عنه الدارقطني - سأله حمزة بن يوسف فقال : تكلموا فيه، وقيل كان يتسامح في الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له" ويقول المسعودي في مروج الذهب : "وأورد أشياء في كتب اللغة لم توجد في كتب المتقدمين"، وكما طعن فيه بالانتحال والوضع: كذلك رمي بالسرقة في شعره وفي تأليفه ، قال فيه شاعر معاصر له:

ابن دريد بقره	وفيه عي وشره
ويدعي من حمقه	وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين	إلا أنه قد غيره ..

وقائل هذه الأبيات الثلاثة هو أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المحدث النحوي المشهور بنفطويه، ولابن دريد عليهم جواب ظريف سنذكره، ويقول أبو الفرج أنشدني عمي رحمه الله أبياتًا لابن دريد يمدح بها رجلا من أهل البصرة:

يا من يقبل كف كل مخرق   هذا ابن يحيى ليس بالمخراق
قــبل أناملــه فلســن أنــاملا   لكـــــنهن مفـــــاتح الأرزاق

فقال : يا بني هذا سرقه هو وابن الرومي جميعًا من إبراهيم بن العباس يمدح الفضل ابن سهل:

لفضــــل بــــن ســــهل يــــد   تقاصـــــر عــــــنها الأمـــــل
فباطـــــــنها للــــــــندى ..   وظاهـــــــرها للقـــــــبل
وبســــــــطتها للغــــــــني ..   وســــــــطوتها للأجــــــــل

وسرقها ابن الرومي .. إلخ .

ويصف ابن دريد في مقصورته مسيره إلى فارس ويتشوق إلى البصرة، ويمدح الشاه ابن ميكال، وعدد أبياتها ٢٢٩ بيتا. وأجود شروحها شرح السبتي المعروف بابن هشام اللخمي المتوفى بعد سنة ٥٥٧هـ، وممن شرحها القزاز، وابن خالويه النحوي المتوفى عام ٣٧٠هـ، والسيرافي المتوفى عام ٣٦٨هـ، وابن الصائغ الدمشقي م٧٢٠هـ، والتبريزي م٥٠٢هـ، والصغاني م ٦٥٠ هـ، والسخاوي المتوفى بعد سنة ١٠٢٥هـ.

وفي كتاب الأنساب للعلامة الصحاري العتبي أن لابن دريد قصائد في وقعة الروضة[1] المشهورة بعمان في عهد الإمام راشد بن النضر والعلامة موسى بن موسى ابن علي مرجع هذا الإمام ورئيس الحل والعقد لديه - تبين تلك القصائد مقدار صلة ابن دريد بقومه والتعلق بأمورهم، مما يدلنا على أنه لم يكن بعيد النشأة عنهم؛ ولا مباين النزعة لهم، وما مبارحته لبلاد عمان إلا في سبيل العلم، حيث كان من صفات العلماء الفحول الخاصة الشغف ببث العلم والدخول في ميادينه، ولا سيما ما هم ممتازون به متفوقون على الأقران فيه.

وفي الأنساب قصيدتان من قصائد ابن دريد، وهما على جانب من التحريف عظيم، نقتطف من واحدة منهما بعض أبيات لبيان اتصاله بقومه وارتباطه بأرومته الأزدية العمانية .. مطلعها :

---

[1] الروضة موضع قرب بلد تنوف من جهة الغرب بين نزوى عاصمة الإمامة الجبل الأخضر بجبوحة عمان. وكانت الوقعة بين العتيك واليحمد وفراهيد وبني فم وبين غيرها من قبائل عمان.

نـــبه نابــــه وخطـــب جلـــيل	بـــل رزايـــا لهـــن عـــبء ثقـــيل
يــا بــنى مـــالك بـــن فهـــم قتـــيلا	لا يـــباريه فـــى الأنــــام قتـــيل
أى طــــرف سمــــا إلـــيكم بكـــيد	لم تـــردوه وهـــو عـــنكم كلـــيل
أقلــــيل عزيـــــزكم فــــتقولوا	إنـــنا فـــى الوغـــى نفـــير قلـــيل
أم ضـــعاف عـــن ثـــأركم فـــتلذوا	مشـــرب الـــذل والمضـــيف ذلـــيل
أم عبــــيد لراشــــد ولموســـــى	أى هـــذى الأضـــياف أنـــتم فقولـــوا[1]
لـــيس يســـعى لهـــا امـــرؤ وســـدته	معصـــميها الوهانـــــة العطــــبول
وفراهـــــيد الـــــذى عـــــلى الـــــرو	ضـــة مـــن خيـــلهم دمــــاء تســـيل
وحمــــاة الـــزمان مـــن آل دهـــ	ـــنان إذا يـــبرز الـــبرى والحجـــول
وبـــنو العـــم مـــن جديـــد خصوصـــا	وعمـــادى فـــى الشـــدة المـــأمول
وبـــنو ظــــالم يـــــدى ولســــانى	وحســــامى المهــــند المصـــــقول
يــا بــنى مـــالك بـــن فهـــم قتـــيلا	بدهـــــاريس غـــــرهن اللـــــيول
أى يـــوم لـــبأس موســـى بـــن موســـى	ذاك يــــوم لـــــو يعـــــلمون طويـــــل
يــــوم لا يــــنفع اتصــــال بقـــــربى	يـــــوم لا العـــــذر عـــــنده مقـــــبول
فــــلحا الله مـــــانع الـــــروع مــــنا	حيـــث يستصـــحب الضـــليل الضـــليل

ومكانته فى الشعر يومئذ لا تقل عن مكانته العلمية، فله المقصورة المشهورة التى مطلعها:

أمــا تــرى رأســى حـــاكى لونـــه	طـــرة صـــبح تحـــت أذيـــال الدجـــى

تبارى شرحها أكابر العلماء وسارت بها الركبان فى سائر النوادى العلمية.. قيل إنها احتوت على أكثر المقصور فى اللغة العربية. وكان مدح بها الشاه بن ميكائيل وولديه من أمراء فارس، وكان ذا منزلة لديهم حتى تقلد ديوان فارس، وكانت الكتب منه تصدر عن رأيه، ولا ينفد أمر إلا بعد توقيعه، ونال ثروة عظيمة من ابن ميكائيل، وانتقل إلى بغداد بعد عزلهما عن ولاية فارس وانتقالهما إلى خراسان، وكان انتقال ابن دريد إلى بغداد فى عهد المقتدر بالله، ونزل على على بن محمد الخوارى فأكرم جواره ورفع مكانه، وعرف خبره الإمام المقتدر ومكانته من العلم فأجرى عليه خمسين دينارا مرتبا شهريا، ولم تزل جارية عليه إلى أن مات. عرف بالسخاء والكرم حتى لا يمسك درهما مع كثرة استفادته .. ولابن دريد خاصة امتاز بها وهى قوة الحفظ حتى لم يدانه أحد فيها، وكان يقرأ عليه دواوين العرب فيسابق

---

[1] راشد هو الإمام راشد بن النضر، وموسى هو العلامة موسى بن موسى ابن على.

إلى إتمامها من حفظه، وكان واسع الرواية. قال بعض العلماء: ابن دريد أعلم الشعراء وأشهر العلماء .. وتآليفه كثيرة والمشهور منها بضعة عشر كتابًا سبق ذكرها وهي:

أدب الكاتب، والاشتقاق في تفسير الأعلام وأسماء القبائل، والأنواء، والجمهرة من الكتب المعتبرة في اللغة، والخيل الكبير، والخيل الصغير، وزوار العرب، والسرج واللجام، والسلاح، وغريب القرآن لم يكمله، وكتاب اللغات، والمجتنى في شرح أحاديث المصطفى، والمقتبس، والمقتنى، والملاحن، والوشاح صغير وهو مفيد جدا.

وقد أخذ عن أبي حاتم السجستاني، والرياشي، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخي الأصمعي، وأبي عثمان سعيد بن هارون الأشناندانى صاحب كتاب المعاني، وغيرهم .. وأخذ عنه كثير منهم أبو سعيد السيرافي، وأبو عبيد الله المرزباني، وأبو على القالى صاحب كتاب الأمالي، وروى أبو على أن ابن دريد أصيب بالفالج في آخر عمره فتداوى منه فشفاه الله ثم عاوده، ومع ذلك كان ثابت الذهن كامل العقل يرد فيما يسأل عنه ردًا صحيحًا، قال: وكنت أسأله شكوكى في اللغة وهو بهذه الحال، فيرد بأسرع من النفس بالصواب، قال : وآخر شيء سألته عنه جاوبني بأن قال لي : يا بني حال الجريض دون القريض، وكان هذا الكلام آخر ما سمعته منه، وكان كثيرا ما يتمثل بقوله:

فواحزني أن لا حياة لذيذة ... ولا عمل يرضى به الله صالح

ذكر العتبي عن العتكي أنه قال : دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعته يقول : ولدت ليلة الجمعة في أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين .. ومات يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثلاثمائة واحدى وعشرين – وهي السنة التي خلع فيها القاهر بالله أبو منصور محمد المعتضد، وبويع فيها الراضي بالله أبو العباس ابن المقتدر بالله – وكان موت ابن دريد وموت أبي هاشم عبد السلام بن أبي على الجبائي متكلم المعتزلة في يوم واحد. فقال الناس: اليوم مات علم اللغة وعلم الكلام. ويكون عمره سبعة وتسعين سنة. وقيل عاش ثمانيا وتسعين، وموته ببغداد ودفن بمقبرة العباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم أو بسواها .. ورثاه البرمكي ..

وقد جمع لابن دريد علامة اللغة الشيخ محمود الشنقيطي كثيرًا من مفردات المسائل اللغوية وطرائفها، وسماها : "أخبار ابن دريد" ، وهي موجودة في مكتبته

بالكتبخانة السلطانية. سئل الدارقطني عن ابن دريد أثقة هو أم لا؟ فقال : تكلموا فيه، وزعم بعض أنه كان يتسامح في الرواية يسند إلى كل واحد ما يخطر له، واتهموه باللهو والخمر، حتى رووا عنه في هذا أشياء ، الله أعلم بصحتها، ولم أر لمن ذكره من أصحابنا أنه نسب له شيئا من تلك التهم.

أبو القاسم الآمدى

المتوفى عام ٣٧١هـ

-١-

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى الأصل، البصرى المنشأ، ولد بالبصرة فلما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد واختلف إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم اللغة والنحو والأدب، ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتبا للقضاة من بنى عبد الواحد، ثم برز فى الأدب وطارت له شهرة واسعة فيه، وانتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار فى آخر عمره، وقد ألف كتبا كثيرة فى اللغة والنقد ذكرها ياقوت فى الترجمة التى عقدها له، وكان فوق ذلك شاعرا مجيدا رويت له مقطعات شعرية كثيرة، وتوفى أخيرًا بالبصرة سنة ٣٧١هـ (ص٧٥ - ٩٣ ج ٨ معجم الأدباء - بغية الوعاة).

ومن مؤلفات الآمدى : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء؛ وكتاب تفضيل امرىء القيس على الجاهليين، وكتاب معانى شعر البحترى، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام، وكتاب فرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعر. وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر، وكتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ. على أن أهم كتبه هو كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى، وهو موضوع دراستنا:

ظهر الآمدى فى القرن الرابع والدولة الإسلامية واسعة الرقعة، والثقافة العربية بعيدة المدى، قد هضمت شتى الثقافات وأحالتها غذاء عقليا سائغا، فدرس الآمدى وبحث وثقف عقله وهذب نفسه بهذه الثقافة العربية فى روحها، المتنوعة فى ألوانها .. والآمدى كما نراه فى موازنته ذو عقل بعيد وفكر ناضج وثقافة واسعة. وهو لا يسير وراء العلماء والأدباء، وإنما يجىء فى الطليعة مجددا لا مقلدا، ومتبوعا لا تابعا، سواء فى اللغة أم الأدب أم النقد.

وهو من الذين يؤثرون في الأدب الروح الشعرية المطبوعة التي تميل إلى إيثار اللفظ والأسلوب، فهو لا يرى الشعر إلا صحة تأليف وعذوبة لفظ وجمال نظم، وهو لا يرى هذا الرأي في الشعر وحده، بل يجعل البلاغة كذلك قاصرة على جمال اللفظ والأسلوب وحدهما وموافقتهما للنهج العربي في صحة التأليف وجودته، أما المعاني وسموها والحكمة الإنسانية وروعتها، والخيال وإغراقه، فذلك الترف الزائد عن الحاجة، والذي إن ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد في حسن صنعته وبهائها، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عما سواها[1].

وهو في هذا الاتجاه الأدبي تابع للجاحظ وأضرابه ممن يؤثرون الروح الشعرية المطبوعة على المعاني الشعرية المبتدعة؛ ويقولون "عليك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ"[2]، ولكنه يباين قدامة الذي ينادي بضرورة العناية بالمعنى كما نعنى باللفظ، ويجاهر بأن البلاغة في شيئين. معنى مبتدع، ونظم ساحر. وهو لذلك يجعل مادة الشعر المعاني (ص١٤ س١٦ نقد الشعر). أما الآمدي فقد جعل مادته هي الألفاظ (ص١٨٣ س٧ موازنة).

وقد كان هذا الاتجاه الأدبي الذي اتجهه الآمدي سببا فيما نراه في موازنته من مظاهر إيثار البحتري وتفضيله والإشادة بشعره مما سنقص عليك نبأه.

ونقد الآمدي لشعر الطائيين ليس نقدا للروح الشعرية بما فيها من جوانب شتى ومظاهر متنوعة وآراء ذهب إليها الشاعر، وشخصية فرضت نفسها على إنتاجه، وحياة تلون هذا الإنتاج بلونها، وعقلية نبع ذلك الشعر من ينابيعها، واتجاهات جديدة اتجه إليها فنه. ونغمات جديدة أضافها إلى التراث الشعري، وإنما هو نقد الفكرة الشعرية المجردة، ولأسلوبها الشعري الذي ظهرت فيه. إذا كانتا بعيدتين عن النهج العربي، فهو تحكيم للنهج العربي في أسلوب الشاعرين وألفاظهما ومعانيهما، فيرد منها ما يرده الطبع العربي، ويقبل ما يقبله، مع عناية باستقصاء سرقاتهما الشعرية الكثيرة. فهو نقد عقلي ولغوي أكثر منه نقدًا أدبيًا شعريًا. على أن الآمدي لا يكتفي في النقد بالناحية السلبية فقط، بل كثيرا ما يتجه اتجاها إيجابيا جميلا. فيأتي بالأبيات التي وقع فيها الخطأ – أيًا كان نوعه – مصححة أبدع تصحيح.

---

١٨٢ و١٨٣ موازنة.

١٧٦ ج١ بيان.

وتعطينا الصورة السابقة التى رسمناها للآمدى فكرة عن كتابه "الموازنة"، ولكن لا ضير علينا أن ننتقل من هذا الإجمال إلى البحث التفصيلى التحليلى للكتاب من جميع نواحيه.

ألفت الموازنة فى فترات متقطعة، يدلنا على ذلك عدم تساوق كل جزء من أجزائها فى التأليف مع الذى يليه، وأن روح الآمدى مختلفة فى ثناياه، فهو يذكر فى آخر كل فصل من كتابه أنه سيضيف إلى البحث ما سيعثر عليه من أخطاء أو سرقات، وسيلحقه بما كتب. وهو حين يقرر فى أول كتابه (ص٢٣ موازنة) أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه فى الموضوع والوزن والقافية وإعرابها، يعود فيجعل الموضوع فقط هو أساس الموازنة (ص١٨٤ موازنة). وهو يكرر كثيرًا من آرائه ونقده؛ فبيت ذى الرمة:

أنخت بها الوجناء لا من سآمة　　　لثنتين بين اثنين : جاء وذاهب

يشرحه فى ص١٦٣ و١٨٦ . وبيت البحترى :

يخفى الزجاجة لونها فكأنها　　　فى الكف قائمة بغير إناء

ينقده فى ص١٤ و١٦٤، وبيت أبى تمام: طلل الجميع لقد عفوت حميدا. ينقده فى ص٩٦ و١٩١، إلى غير ذلك من التكرار الكثير: فشخصية الآمدى العلمية لم تستطع جعل الموازنة وحدة تأليفية بارزة فى روحها التأليفية، ويصح لنا أن نقول: لقد جاء على ذلك أغلب التآليف العربية، فلا داعى للوم الآمدى وحده، والنسخة التى بين أيدينا والتى طبعت فى مصر ناقصة، فليس فيها من الموازنة بين الشاعرين إلا الموازنة فى معنى واحد من معانيهما، وهو بكاء الديار وما يتبعه، وليس فيها ذكر لما انفرد به كل من الشاعرين من المعانى، ولا ذكر لما وقع فى شعريهما من التشبيه والأمثال، مع أن الآمدى نفسه ذكر فى موازنته أنه سيلم بجميع ذلك (ص٢٣ موازنة) على أن عبد القاهر الجرجانى أورد فى أسرار بلاعه جملا من الموازنة لا نراها فى النسخة المطبوعة (ص٣٢٩ أسرار)، وعلى أن ياقوت ذكر أن الكتاب فى عشرة أجزاء، وليس الذى بين أيدينا يبلغ هذا المقدار (ص٨٧ ج٨ معجم الأدباء).

والموازنة مع ما أخذنا عليه من هنات ضئيلة فى التأليف من أجل الكتب التى ظهرت فى النقد والموازنة : ولقد وضع هذا الكتاب أساس نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهو بحق من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله: وهو أيضًا مصدر من

مصادر البيان العربى ومرجع من مراجعه، وقد اعتمد عليه علماء البيان كما سنفصل ذلك إن شاء الله. ونحن حين نقول إنه مرجع من مراجع علم البيان لا نقول إنه كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الأثير فى مثله السائر فأخطأ فى ذلك ثم بنى على هذا الخطأ نقده للموازنة بأن صاحبها أهمل كثيرًا من مباحث علم البيان لم يستوف بحثا أو لم يذكرها أصلاً (ص٢ مثل سائر)، فالموازنة إنما هو نقد أدبى، وموازنة بين شاعرين، وليس بحثا فى البيان العربى وبلاغته ..

والكتاب مقسم إلى خمسة أقسام، وكل قسم يسميه المؤلف جزءا :

١- فالجزء الأول (من ١ - ٦٠)، ويورد فيه الآمدى آراء النقاد فى شعر أبى تمام والبحترى، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو ذاك، ويطلق لهذا الفريق الحرية فى مجادلة ذلك الفريق، ثم يحصى فيه فى إفاضة سرقات أبى تمام الشعرية:

٢- والجزء الثانى من (٦٠ - ١١١)، وقد ذكر فيه أخطاء أبى تمام فى المعانى والألفاظ والأساليب :

٣- والجزء الثالث يذكر فيه قبيح استعاراته ومستهجن جناسه ومستكره طباقه، وما ورد فى شعره من سوء النظم وتعقيد التركيب ووحشى الألفاظ مما خلا من بهاء الرونق وعذوبة المسمع، ومما حمل التعسف على ديباجته، وظهرت فجاجة التصنع فى أعطافه، ويذكر ما وقع فيه من كثرة الزحافات التى ضيعت موسيقى أوزانه الشعرية، حتى قال فيه دعبل : إن كلامه بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون (ص١١١ - ١٣١).

٤- والجزء الرابع يحلل فيه بإيجاز عيوب شعر البحترى مكتفيًا من ذلك ببيان بعض سرقاته مع نفى الكثير منها عنه بدعوى أن الاحتذاء كان فى معان عامية لا خاصية حتى ينسب إليه السرقة فيها. ويذكر قليلا من أخطائه فى المعانى مزيفا بعضها، وبيتا واحدا مما تعسف فيه النظم وعقد فيه التركيب، قائلا إنه لا يعرف له سواه، وقليلا [illegible] من ردىء التجنيس أو من اضطراب الوزن واختلاله (ص١٣١ - ١٧٦):

٥- والجزء الخامس يوازن فيه بين الطائيين فى المعانى التى اتفق موضوعها فى شعرهما، ويبدأ تلك الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر، وأن لهذا الميدان أبطاله ممن عنوا بكثرة النظر فى الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له مع الطبع المطيع والملكات المواتية، وأنه يجب أن يكون إلى هؤلاء المرجع

فى نقد الشعر وصناعته وهو متأثر فى هذا الرأى بابن سلام الجمحى ومقتبس منه (راجع طبقات الشعراء لابن سلام ص٣ والعمدة ج١ ص٩٩، والموازنة ص١٧٨ س٥)، ثم يبين الآمدى اتجاهه الأدبى الذى تأثر به فى الموازنة وهو الاتجاه الذى جعله لا يرى بلاغة الشعر إلا فى نظمه وأسلوبه وصحة طبعه، ذاكرًا أن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ما ليس لسواه وإن كانوا لا ينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى وكثرة استنباطه لها وإغرابه فيها ولا مكانه البارز فى حومتها، ولكنهم يقولون إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع مما ذهب بماء شعره فصار غير متشابه الأطراف ولا متآلف الروح الشعرية، فهم يسلمون له – كما يسلم له أنصاره – ضالة الشعراء جميعًا من لطف المعانى وعمقها، وتنوعها، وبديع الوصف وجودة التشبيه والتمثيل، وسمو الحكمة وإغراق الخيال، وهى التى قدم بها امرؤ القيس فى الجاهلية : ألا ترى عمارة بن عقيل ينشد رائيته فى الواثق:

عـــرف الديـــار رســـومها قفـــر   لعبـــت بهـــا الأرواح والقطـــر

فلما أتمها قيل له : ما سمعنا أحسن من هذه الرائية، فقال : والله لقد عصفت رائية طائيكم بكل شعر فى لحنها، أفلا تسمعون:

الحـــق أبـــلج والسـيوف عـــوارى   فحـــذار مـــن أســـد العـــرين حـــذار

وأنشدها رجل فى المجلس فلما أتمها قال عمارة : "لله دره لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءًا له": ولكن خصوم أبى تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعرا ويقولون له: فلتكن إن شئت حكيمًا، ولندعك إن أردت فيلسوفًا، أما الشاعر فالبحترى : ويفيض الآمدى فى الإشادة بمذهب البحترى وأنه الشعر وأنه السحر وأنه روعة البلاغة وسحر البيان، ويقر أن ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظمًا وأسلوبًا، وأن أبرز عناصرهما النظم والأسلوب. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الموازنة بين الشاعرين فى بكاء الديار والوقوف عليها ووصف الدمن والأطلال وما إليها وما تبعثه من جوى فى صدور الواقفين بها والمسلمين عليها. وفى الحنين إلى الربوع والبكاء لفراقها، ويستمر فى هذه الموازنة مفضلاً هذا أو ذاك مكافئًا بينهما حسب جودة كل شاعر، ويشرح كل ذلك فى إفاضة بيان وقوة عارضة وحسن نقد وعدالة حكومة .. وإلى هنا ينتهى الكتاب . وهذا الجزء من ١٧٦ – ٢٠٨:

والآمدى فى معظم ما كتب كان ناقدا محيطًا بأسرار اللغة ودقائق البيان، فهو يقف فى نقده عند البيت فى دقة ملاحظة وسعة اطلاع، إذا وجد فيه خطأ فى لفظ أو فسادا فى تركيب أو إحالة فى معنى أو بعدا عن النهج المألوف، مما سنفصله بعد حين، وإن كان قد ذلل له هذه الأبحاث من سبقه من النقاد والعلماء.

رأى ياقوت فى الموازنة ونقده لها: يقول ياقوت فى معجم الأدباء ما نصه: كتاب الموازنة بين الطائيين فى عشرة أجزاء وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه فى مواضع منه ونسبه إلى الميل مع البحترى فيما أورده والتعصب على أبى تمام فيما ذكره، والناس بعد فيه على فريقين: فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحترى وغلبة حبهم لشعره، وطائفة أسرفت فى التقبيح لتعصبه وأنه جد واجتهد فى طمس محاسن أبى تمام وتزيين مرذول البحترى، ولعمرى إن الأمر كذلك وحسبك أنه بلغ فى كتابه إلى قول أبى تمام - أصم بك الناعى وإن كان أسمعًا - فشرع فى إقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين[1]، ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر فضائله لكان فى محاسن البحترى كفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام[2] ونحن نرى أن ياقوت مصيب فى ذلك إلى حد ما، وسنفصل ذلك فى كلامنا.

بعض مآخذنا على الموازنة:

١- انتصاره لعلماء الأدب، المتعصبين للقديم المنكرين فضل المحدثين، ودفاعه عنهم، كما فعل مع الأصمعى فيما روى عنه من أن إسحاق الموصلى أنشده:

هــل إلى نظــرة إلــيك ســبيل ... فــيروى الصــدا ويشــفى الغلــيل
إن مــا قــل مــنك يكــثر عــندى ... وكــثير ممــن تحــب القلــيل

فقال لمن تنشدنى، فقال لبعض الأعراب، فقال هذا والله هو الديباج الحسروانى، فقال إسحاق إنهما لليلتهما فقال الأصمعى لاجرم والله إن أثر الصفة والتكلف بين عليهما.

ودفاع الآمدى عنه دفاع ضعيف متكلف، وهل يسوغ لمنصف أن يقول إن ذلك غير منكر من الأصمعى وابن الأعرابى لأن "الذى يورده الأعرابى وهو محتذ على غير مثال أجلى فى النفوس وأشهى إلى الأسماع وأحق بالزيادة والاستجاده مما يورد سواه على الأمثلة، كما يحاول الآمدى أن يلقى ذلك فى روعنا، ولو أنه

---

(1) لا يوجد هذا بالنسخة المطبوعة.

(2) ٨٧ و٨٨ معجم ج٨.

اعتذر لهما ولأمثالهما بأنهم كانوا جلة الرواة وشيوخ اللغة والحفاظ على العربية وأنه لا يجدر بهم وهم في منزلتهم العلمية الكبيرة أن يزلوا عن شممهم وكبريائهم ويرووا شعر المحدثين الناشئين أو يسيروا بشعرهم في مناهج البحث العلمي، نعم لو قال الآمدي ذلك وذهب إليه لوجدنا له عذرًا مقبولاً معقولاً. ولقد عرض الصولي لهذه الخصومة في كتابه (١٧٥ و١٧٦ أخبار أبي تمام)، وقال ابن المعتز : إنها عيب قبيح ومن فعل ذلك فإنما غض من نفسه ثم جعل هذا ناشئًا عن جهل بنقد الشعر وتمييزه. ولكن صاحب الوساطة عرض لهذا التحامل الظاهر ورده إلى سببه الصحيح وهو تعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (٤٩ و٥٠ وساطة).

٢- : إيثاره للبحتري وجنوحه إلى تقديمه وانتصاره له ويتجلى ذلك في ثنايا كتابه في مظاهر شتى، فهو حينا يذهب إلى أن جيد البحتري أكثر من جيد أبي تمام، وكلما أمعنت النظر في ديوان البحتري تنبهت إلى كثير من جيده الذي غاب عنك قبل حسنه، بينما لا تظفر إذا أمعنت النظر في ديوان أبي تمام من جيد إلا بالقليل (٢٢ موازنة)، وهو حين ينقد البحتري يمسه برفق ويقف في كثير من الأحيان موقف المدافع دونه، أما إذا تعرض لأبي تمام قبض على أخطائه بيد لا تلين، يزيف كثيرًا من معانيه ويظهر مجافاتها للذوق العربي القديم، ويبهرج كثيرًا من أساليبه التي لا يسيغها النهج العربي القويم، ثم هو يظهر نصرته للذين رأوا البلاغة سحر نظم وجمال سبك ويرى بعد ذلك أن الشاعر البحتري، أما أبو تمام وأضرابه مثل المتنبي فهم حكماء، وهو يدفع كثيرًا من سرقات البحتري التي أخذها من أبي تمام، وينكر أن تكون سرقة بحجة أن معانيها عامية لا خاصية.

ونحن لا يمكننا – ولو سلمنا بأن هذه معان عامية – أن ننكر احتذاء البحتري الظاهر – في هذه المثل وسواها مما يكثر تعداده – لأبي تمام؛ ولا نستسيغ أن نقول إنه لم ينهل من المنهل الذي شرعه أبو تمام ولم يشرب من عبابه ولا أن نقول إنه لم يكن في ذلك عيالا على أبي تمام وتابعًا له، ثم ما للآمدي رضي الله عنه– لا يترك مؤاخذة أبي تمام على سرقاته في المعاني العامية - كما فعل مع البحتري - مع أن أبا تمام في كثير مما أخذ يستبد بشرف المعنى لجودة نظمه وحسن تأتيه وارتفاعه بالزيادة على ما أخذه والتأنق في صوغه .. أفليس قول أبي تمام:

أحلى الرجال من النساء مواقعًا .. من كان أشبههم بهن خدودًا - الذى زعم أنه مأخوذ من قول الأعشى: وأرى الغوانى لا يواصلن أمرًا: فقد الشباب وقد يصلن الأمردا.

أليس هذا اشتراكا فى معنى عام فلم يعده سرقة؟. وأليس قوله: "ما الحب إلا للحبيب الأول" الذى قال الآمدى إنه مأخوذ من قول كثير: "إذا وصلتنا خلة كى نزيلها .. أبينا وقلنا الحاجبية أول". أليس هذا معنى عاميا مشتركا وهذا يدفع أن يكون سرقة. وهكذا شأن كثير مما أخذه الآمدى على أبى تمام فيما يأخذه من المعانى؟

وكيف وقد جرى حكم نقاد الشعر وجهابذة المعانى على أن الشاعر إذا سرق معنى فأداه بأبلغ مما أداه به صاحبه انفرد به ولم يعد ذلك عليه عيبا، وكان صاحب هذه الزيادة بالتفضيل أحق وبالتزكية أولى (١٥١ وساطة). ولعمرى لقد كان دعبل يضع من شأن أبى تمام فقال مرة فى مجلس: إنه كان يتبع معانى فيأخذها فطلب منه رجل فى المجلس أن يذكر مثالاً لذلك: فقال دعبل لقد قلت : شفيقك فاشكر فى الحوائج إنه .. يصونك عن مكروهها وهو يخلق"، فأخذه أبو تمام وقال: وإذا امرؤ أسدى إليك صنيعة : من جاهه فكأنها من ماله". فقال الرجل أحسن والله، فقال دعبل كذبت قبحك الله، فقال الرجل: والله لئن كان أخذهذا المعنى وتبعته فما أحسنت وإن كان أخذه منك فلقد أجاده فصار به أولى منك؛ فغضب دعبل وقام.

٣- تحامل الآمدى فى كتابه على أبى تمام، وذلك ظاهر كما أسلفنا من روح الموازنة واتجاهها، وقد خضع الرجل فى ذلك لحكم ثقافته الأدبية القديمة العربية الخالصة .. على أن ذلك ليس تعصبا أعمى على أبى تمام كما يرى كثير من الناس. وكما ذهب إليه صاحب معجم الأدباء وسواه، إنما هو رأى رآه الآمدى، ومذهب ذهب إليه فأيده ودافع عنه للحق لا للعصبية، وكان عادلا فى مواضع كثيرة من حكومته .. منصفًا أكثر من كثير ممن سواه، مقرًا بفضل أبى تمام غير منكر له.

٤- يقبل الآمدى ما وضعه دعبل على أبى تمام، مع معرفته بحقيقة موقفه منه، ومع ظهور تحامله عليه، فهو مثلاً يتبع دعبلاً فى أن قصيدة أبى تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

مأخوذة من قول أبى سلمى المزنى فى رثاء ذفافة :

أبعد أبى العباس يستعتب الدهر	وما بعده للدهر عتبى ولا عذر
ألا أيها الناعى ذفافة ذا الندى	تعست وشلت من أناملك العشر
ولا مطرت أرضا سماء ولا جرت	نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بنى القعقاع يوم وفاته	نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة	وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله	وذخرًا لمن أمسى وليس له ذخر

إلى آخر هذه الأبيات، مع ظهور التفاوت فى خيال هذه الأبيات، والتباين بين معانيها القريبة والبعيدة، والحضرية والبدوية، مما ينبىء عن وضع واختلاق أو جمع وتلفيق. ونحن لن نذهب إلا أن دعبلاً قد اختلق هذه الرواية ليغض من شأن أبى تمام، ولكننا نرى ما رأى الحسن بن وهب من قبل من أن لأبى سلمى مرثية رائية من الطويل، ولكن دعبلا خلط أبياتها بأبيات من قصيدة الطائى لينفى عن الرجل أن يكون هو المستبد بهذا الإحسان، والظافر بشرف تلك الروعة، وفضيلة ذلك السحر الساحر والشعر الشاعر.

٥- يحكم الآمدى فى النقد عاطفته الدينية تارة وعقله تارة أخرى، تاركا ذوقه الأدبى يتأثر بهذه الحكومة الجائرة. وعقله يفسد على ذوقه حكمه. ويتجلى أثر عاطفته الدينية فى كتابه فى نقده بيت أبى تمام :

سأحمد نصرًا ما حييت وإننى	لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

حيث أخذ على البيت[1] أن الشاعر رفع فيه ممدوحه عن الحمد الذى ندب الله عباده إليه بأن يذكروه به وينسبوه إليه. كما يتجلى جور عقله على ذوقه فى نقده بيت أبى تمام :

من حرقة أطلقتها فرقة أسرت	قلبا، ومن عذل فى نحره غزل

فهو لا يستسيغ هذا البيت لا لظهور أثر كلفة الصنعة عليه وإضاعة البديع ماءه ورونقه، ولكن لأن الفرقة لا تأسر القلب إنما يأسره الشوق. وعقل الآمدى البعيد الأفق يجور فى حكومته على العاطفة الشعرية والمعنى الشعرى بهذا النقد العقلى البعيد. أفينكر الآمدى أن الفرقة تدع القلب الوفى فى حبه أشد لوعة وأكثر هلعا من الشوق والحبيب حاضر والخليل مقيم؟ وهل يجدر بذلك المعنى شىء سوى كلمة الأسر

---

(1) ٩١ موازنة.

وأن يقع القلب في إسار الفراق وفي لظى الحزن وسعير الذكرى ووثاق اليأس والرجاء؟ وكذلك ينقد الآمدى بيت أبي تمام:

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم تضق عن أهلها بلد

نقدا ضئيلاً، ومن ناحية غير أدبية بل عقلية محضة، يقول الآمدى ما خلاصته: "إن كل بلد يضيق بأهله وليس ضيقه من جهة ضيق الأرض، إنما ذلك على حسب ما أدى إليه الاجتهاد والاختيار ممن أسس كل بلدة ومصر كل مصر، وأيضًا فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه من الحيوان والنبات، ومقداره على ما يقول علماء الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع، والمسكون من جملة ذلك لعله لا يكون جزاء من ألف جزء من ذلك، فما معنى جعله ضيق البلدان الضيقة إنما هو من أجل ضيق الأرض؟!".

ولعمرى لقد أسرف الآمدى في إخراج البيت من دنيا الأدب، إلى عالم الجغرافيا والهندسة، وعذره في ذلك غير مقبول.

٦- ينقد الآمدى بيت أبي تمام :

إلى المفدى أبي يزيد الذى يضل غمر الملوك في ثمده

وهو من المنسرح، فيقول : إن أبا تمام أفسد البيت بكثرة الزحاف. والصواب أن الذى يؤخذ على البيت شيء آخر هو عدم طى عروض هذا البيت مع وجوب ذلك في المنسرح، لا كثرة الزحاف لعدم وجوده في البيت[1].

هذه هي بعض المآخذ التي نأخذها على الآمدى.

ولا شك في تأثر الآمدى بآراء النقاد قبله، فهو يعتمد على آرائهم ويستدل بحكومتهم في النقد، وهو يروى الكثير عنهم في كل صفحة من صفحات الكتاب وكل موضوع من موضوعاته؛ نقل عن الأصمعى وعن ابن الأعرابى وأستاذهما أبي عمرو بن العلاء، ونقل عن ابن سلام وابن قتيبة وسواهما من أئمة الأدب وعلماء اللغة، وهل هذه الانتقادات الكثيرة التي شحن بها الكتاب إلا صورة لآراء كثير من النقاد التي جمعها الآمدى في موازنته؟ فأصول كتب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث[2] ومؤلفيه، وقد صرح الآمدى بما يدل على ذلك في أكثر من موضع من كتابه: وفضل الآمدى إنما هو في تدوينها وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها،

---

[1] راجع ص١٣٠ موازنة.

[2] النقد الأدبى لطه إبراهيم.

وتدبيجها بكثير من آرائه هو، وتعليل ما لم يعلل، فقد هضمت عقلية الرجل كل ذلك فرتبته وأحسنت جمعه والاستدلال به، والزيادة عليه في التحليل والتعليل، ولذلك قيمة كبيرة، لاسيما أن كتب النقد في القرن الثالث قد فقد أكثرها.

ولا شك أيضًا في أن الآمدى فيما سار عليه من مناهج في النقد والموازنة قد تأثر باتجاهات النقاد قبله ومناهجهم فيما ينقدون، وهل كان نقد النقاد قبل الآمدى إلا تحكيما للنهج العربى في نثر الأديب ونظم الشاعر؟ وهل كان ابن العلاء وخلف وحماد والأصمعى وابن الأعرابى وسواهم من الأدباء والنقاد يميزون جيد الشعر من رديئه إلا بعرضه على ميزان الطبع العربى وتحكيم الأسلوب العربى فيما ينقدون؟ وكذلك فعل الآمدى، فقد رجع إلى اللغة العربية فجعلها كل شيء أو أهم شيء في النقد، فهو ينقد شعر أبى تمام وينقد البحترى بتحكيم النهج العربى في شعر الشاعرين، وتحكيم الذوق العربى في كلامهما، والأساليب العربية في أساليبهما الشعرية، فيرد ما ترده ويقبل ما تقبله، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب وتراكيب ونظم، وفيما يتكلمون به من أفكار ومعان، وخيالات، وفيما ينظمون فيه شعرهم من أوزان، ولهم نهج خاص في مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم، وفيما يتفننون فيه من مقابلة أو طباق أو جناس أو سجع إلى غير ذلك، وذلك النهج العربى الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به ويحتذى حذوه وينظم شعره على مثاله، ثم هو ميزان النقد وأساسه، والناقد يحكم ذلك النهج الخاص فيما ينقد من شعر، فيفطن لما فيه من جمال وما فيه من قبح، ثم هو يدرك ذلك بطبعه وذوقه، وقد لا يجد إلى تصوير ما في نفسه من شعور بالقبح أو المحال سبيلاً.

وكذلك رأى الآمدى النقد، وعلى هذا الضوء سار في نقد الطائيين؛ فقد عرض شعرهما هذا العرض، وفلاه هذه التفلية، وأخذ يظهر ما فيه من عيوب وأخطاء، ثم وازن بينهما فيما لهما من روائع وحسنات، حريصًا على وحدة الموضوع إذا تعسر عليه مع ذلك مراعاة وحدة الوزن والقافية وإعرابها.

وقد سار نقاد الشعر العربى بعد عهد الآمدى في النقد على هذه الطريقة وذلك المذهب، وصار ذلك الاتجاه خطه علميه مقررة، وأصبح هو النهج الفنى لنقاد العرب جميعًا؛ ومن الواضح أن هذا المنهج بعيد الصلة عن منهج قدامة بن جعفر سنة ٣٣٧م الذى فصله في كتابه "نقد الشعر"، والذى بناه على أساس عقلى بعيد مع عناية بجمع مظاهر الترف الأدبى في التعبير والبيان وجعلها مظهر البلاغة وسر سحر

الأداء: نعم لقد حكم قدامة قواعد العقل والمنطق فصدر عن حكمها في النقد، أما الآمدى فقد حكم الذوق الأدبي وحده والروح العربية والاتجاهات الخاصة بالعرب وبلغتهم العربية.

أما تأثر الآمدى بقدامة في بحوث البيان ونظرياته فقليل: لاختلاف ثقافة الرجلين واتجاههما، فالآمدى أديب لغوى وقدامة أديب متفلسف، والآمدى يقف من قدامة موقف الند للند، فهو مؤلف كتاب ينقد فيه قدامة ويبين غلطه في كتابه "نقد الشعر[1]"، وهو ينقد رأى قدامة في الطباق وحقيقته وتسميته نقدا لاذعا[2] تبعه فيه ابن الأثير[3]، والآمدى يذهب إلى أن البلاغة للفظ وقدامة يجعلها للفظ والمعنى معا، ويجعل الآمدى مادة الشعر هي الألفاظ ويجعلها قدامة هي المعنى[4]. ولكن الآمدى على كل حال أفاد من نقد الشعر لقدامة واقتبس منه :

فهو يجعل الشعر صناعة ككل الصناعات كما فعل قدامة ومن قبلهما ابن سلام[5].

ويعرف الآمدى الحوشى من الكلام بما عرفه به قدامة[6].

ورأى الآمدى في أن الاستعارة إنما تحسن بقربها من الحقيقة وتبعد ببعدها عنها هو رأى قدامة[7].

وكتاب الموازنة سجل حافل لشتى مناهج النقد ومذاهب النقاد في تحليل شاعرية أبى تمام والبحترى، وإن كان الآمدى ينتصر للبحترى في مواقف كثيرة.

والصلة بين الآمدى والقاضي أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة م٣٩٢ هـ لم يتكلم عنها باحث، وبمتابعة البحث وجدت بين الرجلين اتفاقا في كثير من الآراء في النقد والأدب والبيان، وكثيرا ما نرى أسلوبهما في شرح بعض الأبيات واحدا أو متقاربا، على أن اتجاه الرجلين في النقد واحد أيضًا، فاتجاه الجرجاني في نقد شعر المتنبي هو اتجاه الآمدى في نقد شعر الطائيين، فهو يحصى ما أخذ على

---

[1] ١٢٥ موازنة.
[2] موازنة ١٢٤.
[3] ٢٨٣ مثل سائر.
[4] ١٨٣ موازنة و١٤ نقد الشعر.
[5] ١٧٧ - ١٧٩ موازنة و ١٤ نقد الشعر.
[6] ١٣٥ موازنة و١٠٢ نقد الشعر.
[7] ١١٤ موازنة و١٠٤ - ١٠٦ نقد الشعر.

المتنبى من سرقات، وما أخذ عليه من أخطاء ترجع إلى التكلف والتعقيد، أو إلى الإفراط فى المبالغة، أو إلى بعد الاستعارة وعدم وضوحها، أو غموض المعنى والتعثر فى أدائه أو إلى اللحن فى الأداء والخطأ فى التركيب، وهذا هو الاتجاه الذى اتجهه الآمدى فى موازنته مع فوارق ضئيلة، وهو رجوع بالنقد إلى النهج العربى والذوق الأدبى دون ما عداهما، وكل ذلك يدلنا على وجود صلة أدبية بين الرجلين رغم تباين موطنيهما (البصرة وجرجان). ومن المرجح عندى أن صاحب الوساطة قد تأثر بالموازنة دون العكس، وأن الموازنة كانت خطوة أولى فى النقد الأدبى كعلم، ثم تلتها الوساطة كخطوة ثانية فى مضماره، يرشدنا إلى ذلك دراسة فن التأليف فى كلا الكتابين فالرقى التأليفى فى كتاب الوساطة المتجلى فى جمال عرضها وتهذيب تأليفها وحسن أسلوبها أكبر دليل على ما أذهب إليه، ويصعب علينا أن نفسر ما بين الرجلين من تقارب كثير بأنهما عاشا فى عصر واحد وتثقفا بثقافة عصرهما المتحدة، فإن اختلاف بيئة الرجلين وحياتهما مما لا يجعل لذلك التفسير قوته ولا وجاهته.

القاضى الجرجانى

المتوفى عام ٣٩٢ هـ

حياته وثقافته :

إذا كان للمتنبى ولأدبه عاصفة من الثورة السياسية فى بلاط ملوك الشرق الإسلامى على عهده، وكان له دويه فى حلقات العلم ونوادى الأدب فى شتى أرجاء العالم العربى حينذاك، فإن هناك شخصية جليلة لعبت دورًا خطيرًا فى تطور النقد الأدبى فى القرن الرابع. وفى إنصاف المتنبى من ثورة خصومه الناقدين والحاقدين، تلك هى شخصية القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبى وخصومه"، الذى يعد سجلا أدبيًا هامًا للنقد فى القرن الرابع ولا يزال كما كان عنصرًا من عناصر الثقافة الأدبية.

ولد الجرجانى فى أوائل القرن الرابع بجرجان، وهى موطن خالد من مواطن الثقافة الإسلامية فى بلاد فارس إذ ذاك، وسلك أبو الحسن السبيل التى كان يسلكها الطامحون من الشباب فى هذه البيئة العلمية الحافلة، فأخذ فى دراسة علوم الدين واللغة والأدب، وانتقل فى سبيل دراسته بين جرجان وبغداد والشام حتى

صار ناضج الثقافة والعقلية، ناضجا في روحه الأدبي نضجه في ثقافته الدينية. ووطدت الصلات الثقافية والأدبية صلات الصداقة بينه وبين الصاحب بن عباد، فاشتد اختصاصه به، وحل منه محلا بعيدا في رفعته كما يقول الثعالبي[1]، ومدح الجرجاني صديقه الصاحب بقصائد ساحرة، وقلده الصاحب قضاء جرجان، وبعد حين رفعه إلى منصب قاضي القضاة بالري عاصمة الملك الذي يسوسه ابن عباد، واستمر في القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب، إلى أن توفي سنة ٣٩٢.

وثقافة الجرجاني الدينية يدل عليها ثقة الصاحب به، وتوليته إياه مناصب دينية خطيرة، فوق مؤلفاته في الفقه التي ذكرها الشيرازي في طبقات الشافعية.

وثقافته الأدبية تتجلى في الآثار الباقية من شعره، التي حفظها الثعالبي في يتيمته، كما تتجلى في الوساطة بأجلى مظاهرها، وفي كتابته الجيدة فيها عن الشعر ومذاهبه.

وشعر الجرجاني صورة صادقة لشخصيته التي بالغ الرجل في الاعتزاز بها، وفي الاعتداد بكل فضائل الحياة الاجتماعية، والنفور من رذائلها. كره الملق والرياء والزلفى :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى	وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرما	على الغنى : نفسي الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه	مواقف خير من وقوفي بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم	بنفس فقير كل أخلاقه وفر

وكذلك كان صورة صادقة للمثل العليا التي لا يحرص عليها إلا القليلون، كما كان صورة لنبل عواطفه وجمال طبعه وسعة ثقافته في الأدب، وهو ينبع من نفس غذيت بنعيم الحضارة وعاشت في ألوان من المدنية؛ فتركت البداوة التقليدية في الشعر، وأنست إلى رقة الأسلوب الذي يفيض قوة وشعورا، ويسري فيه روح قوي وعاطفة شاعرة، ترسم كل ما يحيط بنفس الشاعر من مؤثرات وذكريات؛ وله ديوان، ذكره الشيرازي في طبقاته، وابن خلكان في وفياته، وضاع مع ما ضاع من تراثنا الأدبي القديم.

والجرجاني الذي يقول فيه الثعالبي : إنه "كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري"، قد ضاع نثره الأدبي، ولكن كتابه : "الوساطة" يرشدنا

---

[1] اليتيمة ٢٨٣ ج٣.

إلى خصائص فنه الأدبى: من دقة التعبير، وتمثيل الأسلوب لثقافته الأدبية التى ترتفع إلى ثقافة الخاصة من الأدباء فى عصره، كما يتجلى فيها الجنوح إلى إيثار الألفاظ والصيغ الرقيقة، والبعد عن ترف البيان المتكلف فى شتى صوره وألوانه البديعية، وعدم إيثاره من السجع إلا ما ساوق الطبع واستدعاه المعنى. ولذلك تردد أسلوبه بين السجع والازدواج، والإرسال، والتساوق بينه وبين طبعه وعقله الزاخر بشتى الفكر والآراء الدقيقة، وتركه أسلوب الرسائل الأدبية التى تنحو نحو الإطناب والتفصيل والمبالغة. ثم أسلوبه كذلك صورة لاستقلاله الفكرى وجنوحه إلى الحجاج.

شاهد الجرجانى آثار الخصومة الأدبية بين المتنبى وخصومة من النقاد. وسمع وقرأ الكثير مما دبجه يراع علماء الأدب فى نقده، كما سمع حجاج أنصار المتنبى وآراءهم فى شعره، ولما ظهرت رسالة الصاحب بن عباد قرأها الجرجانى، فرأى فيها جورا على الحق، وإسرافًا فى الخصومة. وشططا فى النقد، ففكر وقدر، ثم ألف بعد حين كتابه "الوساطة" ينصف فيه المتنبى من خصومه، ويعرض آراءهم نقد شعره ويحللها ثم يناقشها، ويعرض بجانب الصورة الباهتة التى رسمها هؤلاء لأبى الطيب صورة مشرقة فيها تقدير وإنصاف، وذلك مثل جديد فى سمو نزعات القاضى الخلقية واستقلاله فى الرأى، وعدم نزوعه إلى الإيمان التقليدى برأى سواه، ولو كان من أشد من يؤثرهم ويحفظ لهم أو فى الذكريات.

والوساطة من أصول كتب الأدب، وأسلوبها البيانى مثل يحتذى، وكان لظهورها دوى بعيد فى عالم الأدب والأدباء، وحسبنا رأى الثعالبى وابن خلكان[1] إشادة بها، ورجل الأدب المثقف فى العصر الحديث بحاجة ماسة إلى الوساطة ليعرف مناهج الكتابة، ووزن الأساليب. وقد عرضت الوساطة كثيرًا من المشكلات الأدبية عرضا ساحرا، أملاه الذوق والطبع والوجدان .. وللوساطة أثرها الكبير فى النقد، ويعدها الباحثون من القدامى والمعاصرين، من أروع مؤلفاته[2]، وصاحبها يفهم الشعر فهما جيدا يتجلى فى كتابته عنه وعن مذاهبه.

وترسم الوساطة المنهج الحق فى النقد، بعرض ما أحسن أو زل فيه الشاعر، ثم الموازنة والمفاضلة. مع الرجوع فى أحكام النقد الأدبى إلى الذوق المطبوع،

---

(1) ص د و هـ مقدمة الوساطة طبع صبيح .

(2) ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

الذى هذبته الفطرة الأدبية السليمة وثقفه المران والبحث[1]، وذلك ما سار عليه أئمة نقاد الأدب والبيان[2]، فما النقد عند ثقات النقاد إلا دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بما يشابهها أو يقابلها، ثم الحكم عليها ببيان درجتها وقيمتها، والنقد الأدبى عند المحدثين هو التقدير الصحيح لأى أثر أدبي وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه[3]، وذلك هو ما فهمه الجرجاني، وسار عليه في وساطته.

والجرجانى حين يجعل الذوق الأدبى هو الحكم فى مشكلات النقد والبيان يرجع إلى مذهب العرب فى بيانها، وما تسير عليه من مناهج فى الأداء والتعبير، ليقوم بذلك ذوق الناقد، ويوسع جوانب ثقافته في النقد، ويقول صاحب الوساطة : وإنما تفاضل العرب بين الشعراء فى الجودة والحسن، بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته .. فعناصر الشعر - التى يدور حولها النقد في نظره هى : المعنى وصحته، والغرض وإصابته، واللفظ واستقامته. والإنتاج وكثرته وجودته، وهذه العناصر هي التى يجب أن تجعل الحكم فى الحكم على الشعراء والجرجانى فيما عرضه إجمالاً من موازين النقد يتحدث بفطرته الأدبية الخالصة التى لم تستفد من البحوث القوية التى فصلها قدامة في "نقد الشعر". وأكثر تأثر القاضى على العموم إنما هو بعلماء اللغة والأدب من أولى الثقافات العربية المحضة كالآمدى وسواه.

أبو هلال العسكرى

عاش أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى فى القرن الرابع، وتوفى فى آخره، وامتاز بحبه الفضائل الخلقية، وإيثاره المثل العليا فى الحياة، فعاش مجاهدا يعمل بساعده ليتمكن من الحياة، مؤثرًا ذلك على زخرف الجاه والمنصب، متصلا برجال النهضة الفكرية والأدبية والسياسية فى عهده اتصال صداقة وأخوة، وكان ممن اتصل بهم الصاحب بن عباد الوزير المتوفى عام ٣٨٥هـ. وقد قنع أبو هلال بصداقته، ولم يتطلع إلى ما فى يده من مجد وجاه ومال، واتصال أبى هلال به جعله من مؤيدى مذهبه الفكرى والأدبي، وبتأثيره ساء رأى أبى هلال فى أبى

---

(1) ١٢ الوساطة .

(2) ٩٠ - ١٠٠ لدراسة بلاغة العرب .

(3) راجع أصول النقد الأدبى للشايب .

الطيب المتنبي الشاعر، وقد عرض بذمه في مواضع كثيرة من كتابه الصناعتين .. وأبو هلال في كتابه كثير الإشادة بالصاحب وأدبه من شعر ونثر، فكثيرًا ما يستشهد بأدبه كلما عن له موضع استشهاد، ويذكره حينا بالصاحب، وحينا بكافي الكفاة، وحينا بالأستاذ، وله قصائد كثيرة في مدحه[1]، وتراه يمدح البحتري باختيار القوافي المناسبة لموضوع القصيدة كما مدحه الصاحب من قبل[2].

وقد نشأ أبو هلال في عصر نضوج الثقافة الأدبية والفكرية في الشرق فاغترف من ينابيعها المتدفقة، وتتلمذ على كثير من رجال الفكر والأدب، وكان أظهر أساتذته خاله أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري المتوفى عام ٣٨٢هـ صاحب كتاب التصحيف والتحريف الذي ينقل عنه كثيرًا من شتى الروايات في الأدب والبيان .. وأدب أبو هلال أدب أوحت به إليه عقليته الناضجة التي وعت دقائق الحضارة في عهده، وجمعت شتى ألوان الثقافات المعروفة في عصره، وتأثرت بألوان كثيرة من المدينة والعمران والترف العقلي والمادي جميعًا .. فهو أدب عميق الفكرة، دقيق المعنى والخيال، ساحر في أسلوبه العذب الرقيق الساحر الموشى بألوان البيان وفنون الأداء، سواء في ذلك نثره وشعره، وكثيرا ما ينقل أبو هلال منه في كتابه، ونثره الأدبي تستطيع أن تعرف خصائصه من القطع التي ذكرها في كتابه[3] .. ونثره العلمي يدلك عليه أسلوبه في كتاب "الصناعتين"، وقد نجد فروقا بين النثرين: فالأول نثر فيه كثير من دقة الفكرة وجمال الأداء وسحر البيان وترف التعبير، والثاني يترك فيه صاحبه كثيرًا من التعبير العاطفي والخيالي ويلجأ إلى أسلوب يعبر عن الحقائق تعبيرًا يظهرها لك ممثلة واضحة .. وشعره يفيض بكثير من المعاني والأخيلة ، وفيه دقة وبعد، وله روعة وسحر، وينقل منه كثيرًا في كتابه أيضًا وعلى العموم فهو شعر شاعر ذي ثقافة عقلية كبيرة .. وثقافته ثقافة متكلم أجاد اللغة والأدب وكثيرًا من العلوم العقلية، أما أنه متكلم فيدلك عليه أنه كثيرًا ما ينقل في كتابه مثلا لبلاغة المتكلمين، ولا ينسى أن يذكر في أول كتابه أنه سلك به مذهب علماء الأدب لا المتكلمين. وأما إجادته للأدب واللغة والبيان فذلك ما ليس للشك فيه سبيل، وتجده ينقل في الصناعتين من جميع مصادر الأدب والنقد والبيان شارحًا وناقدًا ودارسًا، حتى كليلة ودمنة فقد نقل منه مثلا للتشبيه الجيد.[4] .. وأبو هلال

---

[1] تجد آثارا منها في ص٤٤٤ و٤٤٥ الصناعتين.

[2] ١٤٢ صناعتين، ١٠ رسالة الصاحب في الكشف عن مساوىء المتنبي.

[3] ٣٥٨ و٣٨٧ صناعتين.

[4] ٢٣١ - ٢٣٣.

متأثر بالجاحظ كثير الإفادة منه ومن كتابه "البيان والتبيين"، وكتابه يسير في السبيل الذي عبده الجاحظ[1]، كما تجد كثيرًا من آرائه في البلاغة والبيان مأخوذة منه، وله ميزة شرحها والتعليق عليها وقد ينقلها، وقد يستدل بها، فالأصول الأولى لعلم البيان الذي ذكرها أبو هلال وأضاف إليها ما جد بعد عهد الجاحظ من آراء في الأدب والنقد والبيان هي الأصول التي دونها الجاحظ من قبل، ويقول باحث محدث : "ليس أبو هلال إلا شارحًا للجاحظ في كتاب الصناعتين، جامعا للمتفرق منه، وقد تحدث عن كتاب البيان والتبيين بعد أن أورد طرفًا من تخليط بعض المتحدثين في البلاغة. فقال : ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل؛ ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب "البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمرى كثير الفوائد، جم المنافع؛ إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتثرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال. وهذا لون من ألوان التأثير الإيجابي للجاحظ[2].

وكتاب الصناعتين ألفه أبو هلال وانتهى من تأليفه عام ٣٩٤[3]، فإذا يكون من المحقق أن أبا هلال قد ألف كتابه بعد ظهور الوساطة بزمن يسمح له بالتأثر بها واتخاذها مصدرًا من مصادر كتابه، إن أراد، ولكن هل فعل ذلك أبو هلال. وهل اتخذ الوساطة من مراجع كتابه الحافل؟ الجواب لا، فقد كان بين الرجلين فوارق كثيرة:

أ - فاتجاههما العقلي والثقافي مختلف، فالجرجاني أديب يستمد أدبه من ثقافة عربية خالصة، وأبو هلال أديب يستمد أدبه من ثقافته العربية وثقافته العقلية التي يحذر فيها حذو قدامة وابن العميد والصاحب.

ب- ومشكلات المنافسة بين الرجلين كانت عاملا في عدم انتفاع أبي هلال بوساطة الجرجاني، بل كانت سببا في إظهار السخرية بها وبمؤلفها، وإن كان ذلك لم يخف على أحكام ذوقه الأدبي في تقدير ما يستحق التقدير من شعر القاضي،

---

[1] ٦ و٧ صناعتين.

[2] ١٧٣ البلاغة العربية في دور نشأتها - سيد نوفل - طبع النهضة ١٩٤٨م.

[3] الصناعتين ط صبيح ص٤٤٥.

كما نرى في ديوان المعاني[1]، حيث روى أبياتًا للجرجاني واستحسنها. ولكن تجد في الصناعتين[2] نصا غريبا يستوقف النظر :

قال أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع : "فهذه أنواع البديع التي ادعى من رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها، وأن القدماء لم يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين". فمن هو هذا الرجل الذي يعرض به أبو هلال؟ هو القاضي الجرجاني أبو الحسن صاحب الوساطة، وليس في ذلك ريب عندي:

أ - فالجرجاني هو الذي نوه في وساطته بالمحدثين، وهتف باسمهم وأشاد بمكانتهم، فذهب إلى أن وقوعهم في الخطأ لا يحط من منزلتهم، لأنه قد وقع فيه الجاهليون والإسلاميون، كما ذهب إلى أن يسيرهم أحق بالاستكثار، وصغيرهم أولى بالإكبار.

ب- والجرجاني هو الذي يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع التي ألم بها القدامى إلمامًا فتكلفوا الاحتذاء عليها (٢٧ الوساطة طبع صبيح)، وتكلم على شتى ألوان البديع وذكر أن المحدثين هم الذين مهدوا سبيلها؛ وغيروا اتجاهها الأدبي، كما ترى مثلا في كلامه على السرقة ودقة المحدثين في إخفاء الأخذ، وفي كلامه على الإفراط وأنه مذهب عام في المحدثين[3]، وفي الاستعارة وإبعاد مرماها على يد المحدثين[4]، إلى غير ذلك من ألوان الإشادة بالمحدثين في كتابه.

ج - وثقافة القاضي دينية، وأدبية مستمدة من الذوق والطبع أكثر من استمدادها من العقل أو النقل كما يقول أبو هلال.

على أن أبا هلال قد تحامل في كلمته على القاضي، فأسرف في رميه إياه بأنه لا رواية ولا دراية عنده، وفهم من إعجاب الجرجاني بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم، كما فهم من كلام الجرجاني عن أبواب البديع وفضل المحدثين في الفطنة إليها أنه يرى أن القدماء لم يعرفوها بأي شكل من أشكال المعرفة، مع أنه رأى أن القدماء عرفوا بعضها معرفة فن وأدب، وأن المحدثين قد عرفوها معرفة علم وفن ومذهب، ولهم الفضل في تطور صورها وألوانها، ودقة أخذها وروعة سحرها.

---

(1) ١٦٨ ج١.

(2) ٢٨٥.

(3) ٣١١ الوساطة.

(4) ص٣١٧ المرجع.

فأبو هلال كان يتتبع حياة القاضي وإنتاجه، وينظر إليه بعين المنافسة، وقرأ الوساطة، ولكنه لم يعول عليها، ولذلك لا تجد ظلا لتأثر أبي هلال بها في الصناعتين مع أنه تأثر بالجاحظ وبيانه، وقدامة وكتابه "نقد الشعر" وبالآمدي وموازنته، والبحوث المشتركة في الكتابين نرى في اتجاه الرجلين في بحثها بونا كبيرا، فميزان النقد عند الجرجاني[1] مباين له عند أبي هلال[2]، وآراء أبي هلال في الاستعارة والتشبيه ليس فيها أي أثر لوساطة القاضي، وكذلك بحوثه في السرقات الأدبية[3] ليس فيها أي أثر خاص لآراء الجرجاني، وخفاء السرقة عند الجرجاني بالنقل أو القلب أو تغيير النهج والترتيب، وهو عند العسكري يجعل النثر نظما والنظم نثرا وبتغيير الموضوع[4]. وإذا كان تعليق أبي هلال[5] على البيت:

كنتم كمن أدخل في جحر يدا فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

هو تعليق صاحب الوساطة[6] في نقده له، فليس ذلك مظهرا لتأثر، أو دليلا على احتذاء.

كتاب الصناعتين وأثره الأدبي:

وكتاب "الصناعتين" كتاب مفيد جدًا في الأدب والنقد والبيان: فأسلوبه أنيق جميل، وعرضه منظم، مما يدل على عقلية صاحبه الكبيرة. والثقافة التي يمثلها ثقافة عميقة، تدل على علم غزير وإحاطة واسعة.

وهو كتاب تطبيقي على قواعد البيان، ممتاز بكثرة شواهده ومثله كثرة فائقة، مع حرص على جودة الاختيار، وسلامة الطبع، مما يرشدنا إلى لون من ثقافة أبي هلال وعقليته، حتى لقد حار بعض الأدباء في تسمية الصناعتين كتاب أدب أو كتاب نقد أو كتاب بلاغة وبيان. والآراء التي جمعت فيه في النقد هي خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع، وتمتاز بأنها صادرة عن ذوق وطبع وشعور أدبي، وعن حكم العقل والفكر أيضًا. ولذلك كان الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس للأدب والنقد والبيان.

---

[1] ٢٧ الوساطة.

[2] ٥٤ صناعتين.

[3] صناعتين ١٨٩ – ٢٢٥.

[4] ١٩٢ صناعتين طبع صبيح.

[5] ١٩ صناعتين.

[6] ص١٠.

وإن كانت الصبغة الأولى للكتاب، والهدف الأول من تأليفه، أن يكون كتابا فى أصول قواعد البيان العربى. وقد نحا أبو هلال فيه نحوا جديدا فى التأليف فتكلم على البلاغة، وما يحتاج إليه الأديب والكاتب والشاعر، ورسم المذاهب الأدبية والمناهج البيانية التى تسمو بالأديب إلى ذروة البلاغة .. ونلاحظ أن علماء الأدب فى القرن الرابع امتازوا فى مطلع هذا القرن بالكتابة عن الأدب والنقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر، والصولى في كتاب أخبار أبى تمام، وأبو الفرج فى الأغانى، والقالى فى كتابه الأمالى، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان، كما فعل الآمدى فى الموازنة، والقاضى الجرجانى فى كتاب الوساطة، ثم أفادوا من دراسات النقد فى بحوث البيان، فظهر أول كتاب كامل فى موضوع البيان، ووافٍ بجميع بحوث البلاغة، مع الإيجاز وقرب الفكرة وقلة التحليل وهو "الصناعتين".

وخلاصة ما نقول أن كتاب الصناعتين صورة كاملة للبيان العربى حتى آخر القرن الرابع الهجرى، وأن هذه الصورة اشترك فى تلوينها علماء الأدب والنقد والبيان قبل أبى هلال وفى عصره من شتى الطبقات والثقافات والعناصر ..

وإن ما وصل إليه فن البيان حتى آخر القرن الرابع إنما هو بحوث موجزة تتصل بملكات البيان والأدب والنقد، ويكثر فيها الاستشهاد والتمثيل، ويعوزها السير فى البحث إلى خاتمة المطاف ونهاية الشوط، ففن البيان فى القرن الرابع كان يشمل ألوان البديع أيضًا، ومع ذلك فقد حاول أبو هلال أن يرسم منهجا جديدا فى نقد الشعر بعد المنهج الذى رسمه قدامة فى كتابه نقد الشعر، ولكنه لم يظفر بما ظفر به قدامة من نجاح كامل وتوفيق كبير، فى هذه الغاية العسيرة، بل لقد كان عالة على قدامة وكتابه وعلى كل حال فللعسكرى الفضل كل الفضل فى إفراد صناعة الكلام بالتأليف والبحث، مع العناية بالجمع والشرح والاستقصاء فى المثل والشواهد. ومع إجادة فى العرض، وتنسيق فى الدراسة، وحسن الإبانة عن غرضه ..

بديع الزمان الهمذانى

القرن الرابع الهجرى عصر الدول المستقلة فى العالم الإسلامى: من أمثال البويهيين، والسامانيين، والدولة الغزنوية، والزيارية، والصفارية. وقد عاش البديع فى ظلال أربعة ملوك من ملوك السامانيين وفى عهد جماعة من ملوك بنى بويه: عضد الدولة (٣٦٧ – ٣٧٢هـ)، وفخر الدولة، ومجد الدولة، وشمس الدولة، وكان لهم سلطان

على همذان والبلاد التى أقام بها البديع. وكانت هذه الدول تتنافس فى تشجيع العلم والأدب تنافسا كبيرا، ولمع فى هذا العصر اسم ابن العميد والصاحب ابن عباد والخوارزمى والميكالى والثعالبى والبيرونى والصابى والعتبى والقاضى الجرجانى وأبى هلال العسكرى وشمس المعالى قابوس وابن نباتة السعدى الخطيب والحسن بن على التنوخى .. كما لمع اسم المتنبى والمعرى وأبى فراس الحمدانى والرضى ومهيار والبستى والنامى والناشى والزاهى والسرى والببغا وسواهم.

ومدينة همذان يشرف عليها جبل أورند فى سهل خصب، وهى شديدة البرد، ظاهرة الخصب.

وكان البديع من أسرة ذات مكانة فى همذان، وقد ولد فى ١٣ من جمادى الثانية سنة ٣٥٨هـ، من أسرة عربية، وكثيرًا ما يقول البديع فى رسائله : "ومضر المحتد"، أو :"تغلبى النجار" .. وقد عاش أبواه إلى أن كبر وترك همذان، وكان له أخ أصغر منه هو أبو سعيد وكان أبو سعيد مفتى همذان، وكان له كذلك ابن صغير اسمه أبو طالب، وقد غاب البديع عن أبيه أحد عشر عامًا.

نشأ أحمد بن الحسين فى هذه البيئة، يدرس الدين واللغة وعلوم الأدب، حتى نبغ فيها.

وهاجر من همذان سنة ٣٨٠هـ إلى حضرة الصاحب، وكان زاره قبل ذلك وعرف به نفسه، قدم جرجان إذا وأقام بها مدة يتصل بالاسماعيلية ويعيش فى رعايتهم، ثم قصد نيسابور عام ٣٨٢هـ وفى الطريق خرج عليه الأعراب وسلبوه كل ما معه.

ورد نيسابور فكتب إلى أبى بكر الخوارزمى، وهو شيخ أدبائها وأحد أغنيائها: "أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ومن الارتياح للقائه، كما انتفض العصفور بلله القطر ومن الامتزاج بولائه، كما التقت الصهباء والبارد العذب ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب، فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان، بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان، وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جمال وجلدة حمال :

رث الشمائل منهج الأثواب ... بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو أيده الله ولي إنعامه، بإنقاذ غلامه. إلى مستقرى، لأفضى إليه بسرى، إن شاء الله تعالى". ويؤخذ من كلام البديع أنه ذهب إلى دار الخوارزمى فلم يحس لقاءه، أو لم ترض نفس الهمذانى بهذا اللقاء، فكتب إليه فرد الخوارزمى ردًا حسنًا.

وسعا سعاة السوء بين الرجلين، ثم جمع بينهما الشيخ أبو الطيب فلم يحمد ذلك الاجتماع. ثم كانت بينهما المناظرة الأولى فى دار السيد أبى على أحد الكبراء فى نيسابور، فتناظرا فى ارتجال الشعر مناظرة ظهر فيها غلب البديع وقد غضب من قطع الخوارزمى إنشاده عليه فصمت برهة .. يقول الهمذانى : "ثم عطفت عليه وقلت يا أبا بكر : إن الحاضرين قد عجبوا من حلمى أضعاف ما عجبوا من علمى، وتعجبوا من عقلى، أكثر مما تعجبوا من فضلى، وبقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عى، وإن تكلفى للسفه أشد استمرار من طبعك، وغربى فى السخف أمتن عودا من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونقترع من ظهر السفه مفترعك؛ فتكلم الآن. فقال لى أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته، فما الذى أفدت أنت بعقلك مع غزارته، فقلت : أما قولك دية أهل همذان فما أولانى أن لا أجيب عنه، لكن هذا الذى نتمدح به ونتبجح ونتشرف ونتصلف، من أنك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت، واجتديت فاقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم ياعافاك الله". ذهب البديع إلى بيت الخوارزمى واصطلحا. ثم شاع بين الناس أن البديع غلب، فكتب إليه الخوارزمى يتهمه بأنه أشاع هذا الكلام، ويقترح مناظرة أخرى، فكانت المناظرة الثانية فى بيت الشيخ أبى القاسم الوزير. وحضرها عظماء نيسابور، وكانت مباراة فى الارتجال والترسل والنحو واللغة، وقضى بالفلج للهمذانى، فلما خرج لقيه الناس بالتقبيل ولم يستطع الخوارزمى الخروج حتى جنه الليل.. وفى رسائل الهمذانى تفصيل المناظرة التى قضت له بالفلج. وينبغى ألا ينسى القارئ أن هذا أحد الخصمين، ولست أتهم الهمذانى بالكذب الصراح، ولكنى لا أبرئه من محاباة نفسه. ثم نتذكر أن الخصمين ليسوا سواء: أحدهما شيخ طائر الصيت يخشى أن يؤخذ عليه ما ينقص من قدره، والآخر شاب طامح إلى الصيت يريد أن يبنى مجده على هزيمة قرنه. وهو لا يخسر كثيرا إن غلب، وهذا مظنة أن يستعظم الحاضرين ظفر البديع ولو كان قليلا وهفوة الخوارزمة ولو كانت مما يغتفر أمثالها. ثم أظن أن بعض النيسابوريين كانوا يحسدون الخوارزمى، ويودون أن يذهب بمجده ذلك الضيف الشاب الجميل الطلعة، الخفيف الروح.

لم تكن المناظرة فى صميم الأدب من الشعر والترسل، بل كانت فى البديهة والارتجال والحفظ. قال الهمذانى وهو يتحدى خصمه: "ومثال ذلك أن

أقول لك أكتب كتابا يقرأ منه جوابه؟ أو أقول لك أكتب كتابًا على المعنى الذى أقترح لك، وأنظم شعرًا فى المعنى الذى أقترح، وأفرغ منهما فراغا واحدا هل كنت تمد له ساعدًا؟ وأقول لك اكتب كتابًا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل، حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره إلى أوله، وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما أو تجيل قدحا أو تصيب نجحا، أو قلت لك اكتب كتابا إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتابًا، فإن عكست سطوره مخالفة كان جوابا إلخ" .. وقد أجاب الخوارزمى على هذا كله بقوله : "هذه الأبواب شعبذة" وهى إن لم تكن شعبذة فهى ليست من الأدب، وإن دلت على توقد الذكاء وسرعة البديهة .. اغتبط بديع الزمان بنيسابور، ولقى من سراتها حفاوة وإكرامًا، يقول فى رسالة إلى أبيه عن صديق كان قد وعده اللحاق به: "وكان سألنى أن أرود له منزلا ماؤه روى، ومرعاه غذى، وأكاتبه لينهض إليه راحلته. فهاك نيسابور ضالته التى نشدتها، وقد وجدتها، وخراسان منيته التى طلبتها، وقد أصبتها: وهذه الدولة بغيته التى أردتها، فقد وردتها، فإن صدقنى رائدًا، فليأتنى قاصدًا .. وأما أنا وأخبارى بهذه الناحية فمتقلب فى ثوب العافية، موقر بهذه الحضرة، مرموق بعين القبول .. وقد كتب كثيرًا من رسائله إلى جماعة من رؤساء نيسابور وهى تدل على ما كان بينه وبينهم من مودة: وفى نيسابور لقى بنى ميكال ومدحهم، وفى رسائله واحدة إلى أبى جعفر الميكالى يشكو فيها تقصيره فى تعظيمه.. ونجد الهمذانى فى نيسابور يكتب إلى الشيخ العميد مستنجزا وعده فى توليته بعض الأعمال: "فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفا يحط عنه درن العار، وسمة التكسب والافتقار، ليخف على القلوب ظله، ويرتفع عن الأحرار كله، ولا يثقل على الأجفان شخصه، بإتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله، ليعلق بأذياله، وليستفيد من خلاله، فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله ، والأدب عن إذلاله، واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله ".. وفى نيسابور أملى المقامات سار التى ذكرها على وجه الزمان ثم فارق البديع نيسابور سنة ٣٨٣هـ إلى مرو ثم سرخس، ولم يسم الأمير الذى نزل بحضرته فى سرخس، والظاهر أنه أحد أمراء السامانية، وقد أكرم الأمير مثواه كما قال فى آخر الرسالة نفسها عن الخوارزمى: "وأما مسألة الأمير ألا يخرطنى فى سلكه ولا يمكننى من بساط ملكه، قد شملتنى على رغمه أطراف النعم، وبلتنى سحائب الهمم، وللراغم التراب، وللحاسد الحائط والباب ".. وفى سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين مات الخوارزمى! يقول الثعالبى : "وأجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى، وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة".

وأكثر البديع أسفاره بعد مفارقة نيسابور : يقول الثعالبي : "ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجنى ثمرتها، واستفاء خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم" .. ويقول الهمذاني في رسالته إلى القاسم الكرجي. "فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهرى البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصافحت يدى النفع والضر"، وفي رسالة أخرى : "وإني أيد الله القاضي، على قرب العهد بالمهن قطعت عرض الأرض وعاشرت أجناس الناس."[1] .. وليس يمكن بما عندنا من الرسائل غير المرتبة أن نتتبع أسفاره في خراسان وسجستان وغزنة وبوشنج، وهراة التي مات فيها.

لقي بديع الزمان عصا التسيار في هراة، واتخذها موطنا وأمضى بها بقية عمره .. يقول الثعالبي : "وما زال يرتاد للوصلة بيتا يجمع الأصل والفضل، والطهارة والستر القديم والحديث، حتى وفق التوفيق كله، وخار الله له في مصاهرة أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي، وهو الفاضل الكريم الأصيل، الذي لا يزاد اختبارا إلا زيد اختيارا. فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره، وتعرفت القرة في عينه".

ويقول الثعالبي : "حين بلغ أشده، وأربى على الأربعين سنة ناداه الله، فلباه وفارق دنياه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ." ويقول جامع الرسائل في عنوان رسالة له في تهنئة فتح الجابية بباب بلخ: وهذا آخر كتاب أنشأه. ومات يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة".

وهكذا مات البديع، بعد أن عاش أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني أربعين عاما، أمضى شطرها نائيا عن بلده وعشيرته في طلب المجد والغنى، فبلغ ما أراد. نبه ذكره واتصل بمعظم الأمراء والوزراء في الشرق: شمس المعالي قابوس بن وشمكير، وخلف بن أحمد، وبني فريغون، وبني ميكال، والسلطان محمود، والصاحب بن عباد، والفضل بن أحمد، وأبي نصر من وزراء الدولة الغزنوية.. وعرف كثيرا من رؤساء نيسابور، وطوس، وسرخس، ونسا، وبلخ، وهراة. وصار مطمح أصحاب الحاجات يتوسلون به إلى أولي السلطان والجاه، يتبين ذلك في كثير من رسائله.

وكان سني الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم[2] .. قال في الديوان متغزلاً:

---

[1] الرسائل ص٤٨، ١٦٣ .

[2] ص ١٦١ المرجع .

ذات جفـــــون ضـــــعفت كمذهـــــب المعـــــتزلة

ولـه قصيدة يـرد فيها علـى الخوارزمـى قولـه فـى الصحابة؛ ومن أجل ذلك اتهم في نيسابور بميله عن العلويين، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره فى رثاء الحسين، فهـو علـى حبه آل البيت لا يذهـب مذهب الشيعة فى الخلافة وما يتصل بها .. يقول في الديوان:

يقولـــون لى لا تحـــب الوصـــى فقلـــت الـــثرى بفـــم الكـــاذب
أحـــب النـــبى وأهـــل النـــبى واخـــتص آل أبـــى طالـــب
وأعطـــى الصـــحابة حـــق الـــولاء وأجـرى عـلـى السـنن الواجـب
فـــإن كـــان نصـــبا ولاء الجمـــيع فـــإنى كمـــا زعمـــوا ناصـــبى
وإن كـــان رفضـــا ولاء الوصـــى فـلا يـبرح الـرفض مـن جانـبى. إلخ

وفى رسائله واحدة كتبها إلى بعض الوزراء يشكو من ظهور التشيع فى هراة، ويحذر أن يصيبها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة.

وكـان أحمد بن الحسين الهمذانى أعجوبة فى ذكائه وحفظه، فتيسر له علم واسع باللغة والأدب. وهو يقول فى حديثه عما شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى: "فقلت يـا أبـا بكر : هـذه اللغة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها، وهـذه كتبها وتلك مؤلفاتها. فخـذ غريب المصنف إن شئت، وإصلاح المنطق إن أردت، وألفاظ ابن السكيت إن نشطت، ومجمـل اللغة إن اخترت، فهـو ألف ورقة، وأدب الكاتب إن أردت، وأقترح على أى باب شئت من هـذه الكتب حتى أجعله لك نقدًا، وأسرده عليك سردًا".. وقد أعجب النـاس بذكائه وبديهته، وتحدى هو الناس بهما، فجاء كثير من منشآته عفو البديهة، ولو روى فيه لجاء خيرا من ذلك. قال الثعالبى فى اليتيمة: "ولم يرو أن أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب، فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط، وهى أكثر من خمسين بيتًا، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها، لا يخرم حرفا ولا يخل معنى، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهد بها من ظهر قلبه هدًا، ويسردها سردًا. وهذه حاله فى الكتب الواردة عليه وغيرها. وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع، وباب غريب، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها. وكـان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة

الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم والنثر، ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافى الكثير فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس لا يقطعه؛ وكلامه كله عفو الساعة .. وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع .. إلى عجائب لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى". وبقى من آثار الهمذانى ديوانه ورسائله ومقاماته. فأما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة وألف بيت، منها ست وثلاثون قصيدة وقطعة فى المدح، مدح بها من الملوك والأمراء: شمس المعالى قابوس بن وشمكير، والسلطان محمود الغزنوى، وبنى فريغون، وخلف بن أحمد، وبنى ميكال، ومن الوزراء الصاحب بن عباد، وأبا نصر بن زيد .. ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا وهراة. وهو يجرى فى المدح على السنن المعروف، ولكنه لا يلتزم الغزل فى أول المدائح، ولا يطيل فى معظمها. ومن جيد شعره فى المدح القصيدة التى أولها:

علـى ألا أريـح العيس والقتبا — وألبس البيد والظلماء واليلبا

وقوله فى بنى فريغون :

ألم تـر أنـى فـى نهضتى — لقيت الغنى والمنى والأميرا
ولما التقينا شممت التراب — وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما — ن يعلو سجايا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون فى المكرمات — يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم — رأيت نعيما وملكا كبيرا

وأما الغزل فله غير ما فى قصائد المدح ست قطع تحوى واحدًا وعشرين بيتا، والبديع ليس غزلاً، ولكنه حاكى الشعراء فى ضرب ألفوه وافتنوا فيه وعدوه من فروض الشعر، وله قطع فى وصف: الأسد، والليل. وقطعته فى وصف الليل نموذج من شعره المرتجل. ارتجلها حين اقترح عليه الموضوع والقافية:

أنعت ليلا ذا سواد كالسبج[1] — مخدر الصبح خدارى الدعج
لو أدرج العالم فيه لا ندرج — أو نسج الحرمان منه لانتسج
ليلا حرون النجم قارى النهج — العمر فيه نقطة لو انفرج
والدهر من أجزائه ولا حرج — أيسر ما فيه الشهور والحجج - إلخ

---

[1] السبج : معدن أسود يتخذ منه مادة الكحل لعلاج العين.

ويجود شعر الهمذانى فى الرثاء والمواعظ. وفى ديوانه ست؟ ويقول فى قصيد يمدح فيها أبا جعفر الميكالى :

نســـتبيح الدهـــر ، والأيـــ ـــــام مـــنا تســـبيح
ضـــاع مـــا نحمـــيه مـــن أنـــ فســـنا ، وهـــو يبـــيح
نحـــن لاهـــون وآجـــال المـــنى لا تســـتريح
يـــا غـــلام الكـــاس فالـــيا س مـــن الـــناس مـــريح
أنـــا يـــا دهـــر بأبـــنا ئـــك شـــق وســـطيح

وللهمذانى قطع كثيرة فى الألغاز والمعميات، وكان الرجل نادرة فى الذكاء والبديهة، فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب، وفى الديوان منه اثنان وعشرون .. ويكثر فى شعره الترجمة عن الفارسية وفى الديوان ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن هذه اللغة، وكانت الترجمة بين العربية والفارسية سنة شائعة بين متأدبى المسلمين فى إيران وما يجاورها، إذ كان الشعر الفارسى قد بلغ أشده، وكانت العربية لا تزال لغة العلم والأدب .. وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين، ولقب لذلك بذى اللسانين، وفى يتيمة الثعالبى أمثلة من هذا، وهذه الترجمة تهم دارس الأدبين العربى والفارسى، ولكن يقلل خطرها أننا نجد الترجمة ولا نجد أصلها، ولا يعرف من الشعر الفارسى الذى ترجمه البديع إلا قطعة أثبتها محمد عوفى فى كتاب لباب الألباب فى ترجمة المسطقى الشاعر الفارسى، ويقول عوفى : إن الصاحب بن عباد أمر البديع بترجمتها، فقال على أية قافية؟ فقال الطاء، قال ومن أبى بحر؟ قال أسرع يا بديع، فى البحر السريع، فترجمها ارتجالاً:

ســـرقت مـــن طـــرته شـــعرة حـــين غـــدا يمشـــطها بالمشـــاط
ثـــم تدلحـــت بهـــا مـــثقلاً تـــدلح الـــنمل بحـــب الحـــناط
قـــال أبـــى مـــن ولـــدى مـــنكما كـــلا كمـــا يدخـــل ســـم الخـــياط

ويرى أنه تصرف فى ترجمة البيت الثالث. وأصله : ذهبت إلى الدار بالشعرة فقال أبى : منصور أى الاثنين؟. وفى الديوان بيتان قبل هذه الثلاثة. ومن الترجمة التى يتجلى فيها أسلوب الفارسية هذان البيتان:

فـــؤادك أيـــن ؟ ســـباه بمـــاذا بمقلـــته، مـــن؟ غـــزال ربيـــب
ســـلابا. نعـــم . أيـــن؟ وســـط الطـــريق مـــتى ؟ الـــيوم هـــذا ســـلاب غريـــب

وهى تذكر دارس الأدب الفارسى بمطلع قصيدة محتشم من شعراء الدولة الصفوية فى رثاء آل البيت.

وفى الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية، والشعر المنظوم بلغتين أو أكثر يسمى الملمع فى عرف أدباء الفرس أو الترك وهو كثير عندهم .. ويكثر فى شعره المجزوء، ولاسيما الهزج والكامل. وسنعود إلى هذا حين الكلام فى سجعه.

ويبدو أن بديع الزمان نظم معظم شعره فى أوائل حياته. ففى الديوان أبيات نظمها وهو فى الثانية عشرة، وهو يذكر سن العشرين فى بعض شعره:

إنــــى بعشـــرين تصـــاريف مـــا بعـــــد الــــثمانين تعرفـــــتها

ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن أحمد :

ألم يك فى خمس وعشرين حجة تسـنمتها هــاد لمثـلى الطــرائق

ثم هو يلعن النظم فى كلامه عن الخوارزمى فى بعض رسائله، وذلك دليل على أنه مال عن الشعر : "هو خوارزمى، ولست من خوارزم، وهو شاعر ولعن الله النظم"

ويلحق بالديوان شعره فى الرسائل والمقامات وذلك فى معظمه قطع قصيرة جيدة. وشعر البديع عامة سهل جيد المعاني منقح الألفاظ، يتجلى فيه تهذيب الكتاب، إذا استثنينا الشعر المرتجل وشعر الألغاز ونحوه مما لا يقام له فى الأدب وزن، ولكنه لا يبلغ الدرجة العليا إلا قليلاً، وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين: يقول فى المقامة الجاحظية : "إن الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف. وفى الآخر يقف. والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يذر كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعرًا رائعًا ..

كتابة الهمذانى :

فى القرن الرابع الهجرى بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها - تولاها كتاب قادرون صرفوها فى أغراض شتى واختاروا من الألفاظ والأساليب الجميل المحلى، دون إغراب ولا إخلال بالمعانى، وتناولت الكتابة كثيرًا من فنون الشعر كالمدح والهجاء والغزل والوصف : إلى ما كان لها قبلا من الموضوعات، فاتسع المجال لذوى الفكر الثاقب والقلب الشاعر، لم يقيدهم فى النثر ما قيد الشعراء من الأوزان والقوافي والاصطلاحات. وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع، ومنهم من يكتفى بالازدواج، وقليل منهم يرسل الكلام إرسالاً، وفى هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابى والمهلبى وقابوس، والخوارزمى، وبديع الزمان. ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزيرا أو ذا منصب،

فلم تستغرق كتابته أمور الدولة، وكثرت في رسائله الموضوعات الخاصة والعامة. واستبانت نواح من عصره في السياسة والأخلاق، والآداب وغيرها. والبديع يلتزم السجع إلا قليلا. وهو في الرسائل أسجع منه في المقامات، وجمله قصيرة وسجعه متقارب. وذلك أحسبه نتاج الطبع الذكي الحساس، الذي يود أن يسمع الأنغام متتابعة رنانة. وذلك ما جعله يؤثر في كثير من شعره الأوزان المجزوءة. وهو في الرسائل يترك السجع أحيانًا إلى المزاوجة أو الإرسال كقوله في رسالته إلى أبي الطيب عن الأمير خلف بن أحمد : "فلما أيفع وارتفع، طالبته الهمة العلياء يرفض الدنيا. حتى يؤدي فرض الله في الحج، فقام عن سرير الملك، إلى سبيل النسك، فحج البيت، ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه، ومباحه ومحظوره إلخ" وكذلك في المقامات يترك السجع أحيانًا ولاسيما في رواية عيسى بن هشام. وقد يأتي بثلاث سجعات متواليات أو أربع، بل يتابع في الرسائل عشر سجعات أحيانًا كقوله: "ونادمته والمنادمة رضاع ثان، وطاعمته والمواكلة نسب دان، سافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبان، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان، وأثنيت عليه. والثناء من الله تعالى بكل لسان، وأخلصت له والإخلاص محمود من كل إنسان". ثم أربع سجعات أخرى على هذا الروي[1]، وقد يجعل السجع مركبا على رويين في أربع فواصل أو ست كقوله في رسالة خلف بن أحمد: "وكأن هذا العالم قد أحسن عملاً فجعل هذا الملك ثوابه، وكأن هذا الملك قد أساء مثلا فجعل هذا العالم عقابه"، وقوله : فكان ما أضعناه، كأنا زرعناه، فأنبت سبع سنابل، وكان ما فقدناه، كأنا أقرضناه هذا الملك العادل .. وقد يسجع في أثناء الجملة قبل تمام المعنى كقوله: "حقا أقول إن التمرة، بالبصرة، أقل خطرا من البدرة، بهذه الحضرة، وأني أيد الله القاضي على قرب العهد، بالمهد، قطعت عرض الأرض، وعاشرت أجناس الناس"[2]، ومما يكثر في نثر البديع تحليته بالشعر، وقد قال الثعالبي في ذلك: "ويوشح القصيدة الفريدة من قوله، بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النثر والنظم، وهو لا يكتفي بتفصيل نثره بأبيات من الشعر، بل يصل النثر بالشعر حتى يتوقف معنى كل منهما على الثاني، كرسالته إلى الخوارزمي التي ذكرناها فيما تقدم. وكقوله في مدح أبي جعفر الميكالي:

ولـــو نظمـــت الـــثريا	والشـــعريين قريضـــا
وكـــامل الأرض ضـــربا	وشـــعب رضـــوى عروضـــا

---

[1] الرسائل ص١٣٠.

[2] الرسائل ص١٦٣ و١٦٤.

وصـــغت للـــدر ضـــدا	أو لـــــلهواء نقيضــــا
بـــل لـــو جلـــوت علـــيه	ســـود النوائـــب بيضـــا
أو ادعيـــــت الـــــثريا	لأخمصـــــيه حضيضـــــا
والـــــبحر عـــبد لهـــاه	عـــند العطـــاء مغيضـــا

لما كنت إلا فى ذمة القصور، وجانب التقصير[1]. ومن أحسن افتنانه فى ذلك المقامة الوعظية التى لاءم فيها بين المنثور والمنظوم أحسن ملاءمة، ويجد قارئ الرسائل والمقامات قطعا من إحداها فى الأخرى؛ فمقامة الوصية التى يوصى فيها تاجر ابنه معظمها فى إحدى رسائله[2]، وبعض المقامة النيسابورية ومعظم العلمية، فى رسالة إلى أبى القاسم الكرجي التى وصف فيها بعض القضاة. وبعض المقامة الملوكية التى مدح بها خلف بن أحمد فى رسالة يمدح فيها الملك نفسه، وكذلك نجد فى الديوان والرسائل والمقامات وصف وقائع واحدة، كلقاء الأسد فى الديوان والمقامة الأسدية، وقطع الأعراب طريقه فى هذه المقامة والرسائل. وذلك يثبت أن المقامات تمثل كثيرًا من حوادث زمانه.

نشأ البديع فى عصر بلغ فيه الأدب العربى أوجه، وازدهر فيه الأدب الفارسى، وقد عرفنا أنه ترجم كثيرًا من الأبيات الفارسية فى ديوانه. فهل ظهر أثر الفارسية فى معانيه وألفاظه؟ أثر قليل؛ فمن المعانى الشائعة فى الأدب الفارسى قوله: "أو لم يكفنا الجرح، حتى ذر عليه الملح، وقوله: "أنا العبد قرطك فى أذنه مطيعا، وطوقك فى عنقه"، فهى عبارة فارسية شاعت حتى كنى عن العبودية بالحلقة فى الأذن، وقوله : "هيفاء لا تسع العيون جمالاً"، فتسع هنا تشبه كنجد بالفارسية، ومن الألفاظ الفارسية أو العربية المستعملة على الأسلوب الفارسى قوله فى مدح السلطان محمود:

إذا مـــا ركـــب الفـــيل	لحـــرب أو لمـــيدان
رأت عيـــناك ســـلطانا	عـــلى كـــاهل شـــيطان

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات .. أما رسائله فهى ثلاث وثلاثون ومائتا رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة. والبديع مخترع هذه القصص الخيالية التى عرفت فى الأدب العربى باسم المقامات، وأما روايات اللغويين فقد رويت على أنها حقائق وأريد بها رواية اللغة قبل أى شيء آخر، وحديث الراوى فيها مرسل لا صناعة

---

[1] الرسائل ص٤٣.

[2] الرسائل ص١٧١.

فيه، ولا يقصد في الرواية، على حين يستوى فى المقامة أو يتقارب من حيث البلاغة والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام أبى الفتح الإسكندرى. وأما تسمية هذه القصص بالمقامات، فلأن أبا الفتح يقوم فيها واعظا أو مستجديًا أو محتالاً وهلم جرا، وفى القرآن "عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا". وفى شعر لبيد:

ومقـــام ضـــيق فرجـــته　　　بلســـان وبـــيان وجـــدل

وقد استعملت كلمة "مقامة" فى معنى مقام. وفى رسائل الخوارزمى "ولكل مقامة مقالة"[1]. وفى شرح الشريشى لمقامات الحريرى "والمقامات : المجالس واحدتها مقامة. والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا؛ لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى، قال الأعلم: المقامة لمجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير." والهمذانى نفسه يبين ذلك بقوله فى المقامة الوعظية "قال عيسى ابن هشام فقلت لبعض الحاضرين من هذا؟ قال شخص قد طرأ لا أعرفه. فاصبر عليه إلى آخر مقامته، لعله ينبىء عن علامته" يقول الثعالبى إن بديع الزمان أملى المقامات فى نيسابور، ويظهر أنه أملى معظمها هناك، وأنه أملى بعد مقامات أخرى كالمقامات الست التى مدح بها خلف بن أحمد أمير سجستان. والحصرى يدلنا على تاريخ المقامة الحمدانية، يقول : إن البديع أملاها فى شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة: وأظنه أملى معظم المقامات قبل هذا. ويروى الشريشى عن بعض أشياخه أن البديع ارتجل المقامات، وأنه كان يقول لأصحابه اقترحوا غرضا نبنى عليه مقامة فيقترحون ما شاءوا فيملى عليهم المقامة ارتجالا. ولا أحسب هذا حقًا، فبديع الزمان نفسه لم يدع هذا، وقد فخر بالمقامات على الخوارزمى وتحداه أن يأتى بمثلها، ولم يتحد بذكر الارتجال، بل قال أملاها والإملاء لا يقتضى ارتجالاً. وأراد البديع بمقاماته أن يدل على تمكنه فى اللغة ومكانته من البلاغة، وقدرته على تصريف القول فى فنون شتى هذا غرضه الأول، وقد سلك إلى هذا الغرض موضوعات كثيرة. وليست الكدية موضوع المقامات كلها، بل كثير منها لا كدية فيه، وفى كثير منها لا يقف أبو الفتح موقف المستجدى، وأما عيسى بن هشام وأبو الفتح الإسكندرى فيقول الحريرى فى مقدماته : "وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف.[2]" وكأنه يريد أن يقول إنهما

---

[1] ص٨٠ ط القاهرة.

[2] كشفت لأول مرة عن شخصية أبى الفتح الإسكندرى وأنه هو مسعر بن مهلهل الملقب بأبى دلف الخزرجى (راجع كتاب أبو دلف الخزرجي عبقرى من ينبع للمؤلف، وكتاب أبو الفتح الإسكندرى بطل مقامات بديع الزمان وشخصيته المجهولة للمؤلف أيضًا أو الخفاجى).

ليسا كأبى زيد السروجى، عيسى بن هشام لا ينتسب إلى بلد، وفى بعض المقامات كلام يمكن أن يؤخذ منه أنه ينتسب إلى الازد، وأبو الفتح انتسب فى المقامة العراقية إلى عيسى، وهو منسوب إلى الإسكندرية من الثغور الأموية وهى نسبة غريبة.ماذا يريد بالثغور الأموية؟. يرى شارحو المقامات أنها ثغور الأندلس، وكانت بها إذ ذاك دولة بنى أمية. وهذا غريب كذلك فما عرف فى كتب التاريخ أو تقويم البلدان اسم الثغور الأموية، ولا الظن بالبديع أنه ينسب صاحبه إلى الأندلس ويسميها الثغور الأموية، وهو رجل يكره الأمويين كما يؤخذ من شعره. نرى فى المسألة وجها آخر لا أجزم به؛ ولكنى أرجحه. ذلك أن تقرأ (الثغور الأموية). نسبه إلى مدينة آمو أو أموية وهى مدينة آمل الشط على نهر جيحون أو نسبة إلى جيحون وهو يسمى آموديا أى نهر آمو. ويقول ياقوت فى معجم البلدان. وهو يعدد المدن التى سميت الإسكندرية: "ومنها الإسكندرية التى على شاطئ النهر الأعظم." هذا إلا أن يكون البديع نسب صاحبه الذى لا يستقر فى مكان نسبة لا يعرفها أحد. وبعض المقامات لا يسمى فيها أبو الفتح، وإن عرف بصفاته كالأهوازية والبصرية، وبعضها يخلو من أبى الفتح اسما وفعلا كالمقامة البغدادية والنهدية. وأحيانًا يأتى أبو الفتح فى آخر المقامة بعد مضى معظم حوادثها كالمقامة الأسدية التى تصف لقاء عيسى بن هشام وأصحابه الأسد، ثم قاطع طريق ثم لقاء أبى الفتح بعد ورودهم حمص.

ويقول باحث معاصر[1] عن نشأة المقامات : ويظن أن (الحريرى) هو أول من تحدث عن المنشىء الأول للمقامة، فقد كتب فى مقدمة مقاماته : "وبعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان، رحمه الله؛ وعزا إلى أبى الفتح الإسكندرى نشأتها، وإلى عيسى بن هشام روايتها؛ وكلاهما مجهول لا يعرف، ونكرة لا يتعرف، إلى أن قال : هذا مع اعترافى بأن البديع سباق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتى بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته ولله در القائل.

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة	بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهاج لى البكاء	بكاها فقلت : الفضل للمتقدم "

[1] الأستاذ على العمارى (مجلة الأزهر ١٩٤٣)، وهو متأثر فى هذا الرأى بزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى (١: ٣٣٨- ٣٥١).

هذا ما قاله الحريرى، وجرى عليه كثير من المؤلفين، غير أن هذا الرأى لا يثبت للنظرة الأولى، فإن ابن فارس صاحب كتاب المجمل، وأستاذ البديع، كان قد وضع مقامات، ولا تزال منها المقامة الفقهية المتضمنة نحو المائة مسألة، وبدهى أن التلميذ يترسم خطا أستاذه وينسج على منواله. لكن الباحثين لم يقفوا عند هذا الحد. فذهبوا يفتشون فى بطون الكتب علهم يجدون من هو أسبق من البديع ومن أستاذه، وقد كان نص الحصرى فى زهر الآداب مصباحا اهتدى به بعض الباحثين، فأسند نشأة المقامة إلى أبى بكر بن دريد صاحب الجمهرة، وهذا هو النص "ولما رأى - يعنى البديع - أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد أغرب بأربعين حديثًا وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، فى معارض عجمية، وألفاظ حوشية، إلخ".

وقال الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا : "مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه" ورأى الدكتور طه حسين : أن مقامات ابن دريد قد تكون هى هذه الأحاديث الصغيرة المروية عنه فى كتاب الأمالى لأبى على القالى. ولا نقف طويلاً عند هذا الرأى أو ذاك، فقد كفانا الحصرى نفسه مؤونة هذه الوقفة حين قال: "ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى" وإذن فلم يبق إلا أن ابن دريد تخيل بعض الأحاديث على ألسنة الأعراب وهكذا فعل البديع، وما نظن أن هذا كاف فى سلب البديع فضل السبق فى هذا، على أنى أظن أن هذه المقالة وقعت للحصرى من بعض أعداء البديع الذين كانوا يكرهونه، ولا يقدرون على نقده ولا مجابهته، فدسوا هذه الكلمة ليغضوا من شأن مقاماته. وهذا جهد الحاسد العاجز. على أننا نرجع إلى عصر ابن دريد فنجد رجلا يشبه البديع والبديع يشبهه إلى حد بعيد؛ ذلك الرجل هو المطهر الأزدى[1] مؤلف (حكاية أبى القاسم البغدادى التميمى) التى يقول فيها[2]: ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة" وقد طبعها آدم ميترا الألمانى. نطالع هذه القصة ثم نطالع بعدها مقامات البديع وآثاره الأدبية فلا يخالجنا شك فى أن الثانى أخذ من الأول وحذا حذوه لعدة أسباب:

١- نظن أن الأزدى أول من أطلق كلمة مقامة على ما يحكى فى مجلس من المجالس، وقد وردت هذه الكلمة فى مقدمة رسالته قال "هذا الذى أحصله من

---

[1] هو محمد بن أحمد المطهر الأزدى وهو فى المائة الخامسة لا المائة الرابعة، وهذا ما ينفى كلام العمارى وكلام الدكتور زكى مبارك راجع ص١٤٨ : ٣ الأدب العربى لبروكلمان.

[2] ليس هو القائل إنما هذا رواية عن شخص آخر يتحدث عن نفسه.

أدب غيرى وأقتنيه، وأتحلى به وأدعيه وأرويه، من ملح ما تنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دونتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها، ثم إن هذه حكاية رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر، فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستقبحة، وعبارات عن أهل بلده مستفصحة ومستفضحة، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة، فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأنموذج المأخوذ من عاداتهم".

ومحمد بن أحمد المطهر الأزدى فى المائة الخامسة للهجرة قص حكاية أبى القاسم البغدادى التميمى مصورًا بذلك نموذجًا بغداديا أصيلاً من العادات والتقاليد، إذ يعرض حياة شيخ بغدادى طفيلى وقح، ولكنه فصيح ذرب اللسان، ويقص مغامراته وأحاديثه فى يوم كامل ببغداد، ونشر "حكاية أبى القاسم" آدم متر فى هايدلبرج سنة ١٩٠٢ عن نسخة فى المتحف البريطانى أول رقم ١١٢٧، وانظر كتاب النثر الفنى لزكى مبارك ١: ٣٣٨ - ٣٥١، ١٤٨/ ٣ بروكلمان.

٢- شخصية أبى القاسم البغدادى، وشخصية أبى الفتح الإسكندرى، وهما الراويتان فى القصتين متشابهتان حتى فى التسمية، وهما خرافيتان، وكل منهما جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق، فترى الواحد منهما يدارى أهل المجلس وينافقهم، فيلبس ثوب التقى والصلاح، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعبا متمردا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون[1].

٣- ولعلنا نضع يد القارئ على أقوى دليل حين ننقل له كلمة لكل من الرجلين بينهما مشابهة قوية نرى فيهما كيف يسرد كل منهما الشتائم المستغربة والمستملحة، وكيف يتفقان أحيانًا على المعنى الواحد، وقد وصفا ثقيلاً فقال البغدادى: "يا أول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب، يا طلعة الرقيب، يا يوم الأربعاء فى آخر صفر، يا لقاء الكابوس فى وقت السحر! إلى آخر ما قال على هذا النمط. ويقول البديع: يا أم حنين، يا غداة البين، يا رمد العين، يا فراق المجبين، يا ساعة الحين، يا ثقل الدين.

---

[1] يقول بروكلمان : إن المطهر الأزدى صور بذلك نموذجًا بغداديًا أصيلاً من العادات والتقاليد، إذ يعرض حكاية شيخ بغدادى طفيلى وقح ولكنه فصيح ذرب اللسان، ويقص مغامراته وأحاديثه فى يوم كامل ببغداد. وقد نشر آدم متز هذه الحكايات فى هايدلبرج سنة ١٩٠٢ عن نسخة فى المتحف البريطانى أول رقم ١١٢٧ ١٤٨ : ٣ بروكلمان .

٤- والناظر في أسلوب الرجلين يجد الطريقة واحدة؛ فكلاهما رقيق الأسلوب عذب العبارة. يكاد يلتزم السجع والازدواج، حتى عدد الفقرات يكاد يتساوى عندهما، كما أن سجع كل منهما قصير الفقرات.

٥- وصف كل منهما الحياة الاجتماعية في عصره؛ فحكاية أبي القاسم وصف لحياة بغداد وما فيها من خلاعة ولهو، وتدوين لكثير من عادات أهلها، وقد دون مظاهر الحضارة في عصره، وكذلك فعل البديع في مقاماته، وكما دونا كثيرا من العادات، دونا كثيرا من الألفاظ الجارية على الألسنة، ولهما صور فنية رائعة قصدا إليها رغبة في الدعابة.

٦- ينتقل المطهر من فن إلى فن في دعابة وظرف والحكاية كلها مجلس واحد، ولكنها فنون شتى، وكذلك نرى البديع ينتقل من حال إلى حال.

ويروى كتاب التراجم وعلماء الأدب الذين كتبوا عن بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ أن مقاماته تبلغ أربعمائة مقامة، ومن بين هؤلاء الثعالبي م٤٢٩[١]. وياقوت م٦٢٦[٢]، وابن خلكان م٦٨١[٣] .. ولكن الدكتور زكي مبارك يرجح أنها خمسون مقامة فقط، بدعوى أنه لم يحفظ له سواها، وأن الحريري حين عارض البديع لم ينشيء في معارضته غير خمسين مقامة، وأن البديع قد عارض ابن دريد بأحاديثه الأربعين، والمعارضة تتقارب[٤]. ولكن شكوك الدكتور لا تعتمد على دليل حسن مقبول ولا تنتهي إلى نتيجة حاسمة. وقد آن أن نصحح رأى علماء الأدب بأدلة دامغة تجعلنا نقبل روايتهم ويثق بها، وأهم هذه الأدلة أن هذا الإجماع الأدبي والتاريخي على أن مقامات البديع أربعمائة مقامة ينفي كل شبهة وظن؛ ثم إن البديع نفسه يروى لنا أن مقاماته أربعمائة مقامة، وإن شئت فراجع رسالة البديع إلى أبي المظفر يحذره من إسراف والده في التعصب عليه، واقرأ الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة :

"ومن أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا، ولا معنى، حقيق الإنهاج لكشف عيوبه[٥]". فستزداد بعد ذلك يقينا على يقين بأن المقامات أربعمائة لا خمسون.

---

[١] ج٤ ص١٦٧ يتيمة الدهر.
[٢] ج١ ص٩٤ معجم الأدباء.
[٣] ج١ ص٣٩ ابن خلكان.
[٤] ٢٠٦ ج١ النثر الفني.
[٥] ٢٢٧ رسائل البديع.

وهذه مقامة منها، هى المقامة القريضية للبديع:

حدثنا عيسى بن هشام، قال: "طرحتنى النوى مطارحها، حتى إذا وطئت جرجان الأقصى، فاستظهرت على الأيام بضياع، أجلت فيها يد العمارة، وأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة. وجعلت للدار حاشيتي النهار، وللحانوت ما بينهما، فجلسنا يوما نتذاكر القريض وأهله، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد، وكأنه لا يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم. حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدال فينا ذيله. قال : "قد أصبتم عذيقه. ووافيتم جذيله، ولو شئت للفظت وأفضت، ولو قلت لأصدرت وأوردت. ولجلوت الحق فى معرض بيان، يسمع الصم، وينزل العصم"، فقلت: "يا فاضل، أدن فقد منيت، وهات فقد أثنيت". فدنا، وقال : "سلونى أجبكم، واسمعوا أعجبكم" .. فقلنا : "ما تقول فى امرئ القيس؟" قال: "هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير فى وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، لم يقل الشعر كاسبًا، ولم يجد القول راغبًا – ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه" قلنا : "فما تقول فى النابغة؟" قال : ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، ولا يرمى إلا صائبًا" قلنا: "فما تقول فى زهير؟" قال : "يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعو القول والسحر يجيبه" قلنا: "فما تقول فى طرفة؟" قال : "هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافى ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه" قلنا: "فما تقول فى جرير والفرزدق؟ وأيهما أسبق؟" فقال : "جرير أرق شعرًا، وأغزر غزرًا، والفرزدق أمتن صخرًا، وأكثر فخرًا، وأشرف يومًا، والفرزدق أكثر رومًا، وأكرم قومًا، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إن افتخر أجزى، وإذا احتقر أزرى، وإذا وصف أوفى" قلنا : "فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟" قال : المتقدمون أشرف لفظًا، وأكثر من المعانى حظًا، والمتأخرون ألطف صنعًا، وأروق نسجًا" قلنا : "فلو أريت من أشعارك، ورويت لنا من أخبارك" قال : "خذهما فى معرض واحد" وقال :

"إمــا تــرونى أتغشــى طمــرا | ممتطــيًا فــى الضــر أمــرًا مــرا
مضــطبنًا عــلى اللــيالى غمــرًا | ملاقــيًا مــنها صــروفًا حمــرا
أقصــى أمــانى طلــوع الشــعرى | فقــد غنيــنا بالأمــانى دهــرا
وكــان هــذا الحــر أعــلى قــدرًا | ومــاء هــذا الوجــه أغــلى سـعرا
ضــربت للســرا قــبابًا خضــرا | فــى دار "دارا" وإوان "كســرى"
فانقلــب الدهــر لــبطن ظهــرًا | وعــاد عــرف العــيش عــندى نكـرا

لم يـبق مــن وفــرى إلا ذكــرا	ثــم إلى الــيوم هــلم جــرا
لــولا عجــوز لى بســر مــن را	وأفــرخ دون جــبال بصــرى
قــد جلــب الدهــر علــيهم ضــرا	قتلــت، يــا ســادة، نفســى صــبرا

قال عيسى بن هشام : "فأنلته ما تاح، وأعرض عنا فراح. فجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأنى أعرفه، ثم دلتنى عليه ثناياه، فقلت: الإسكندرى والله. فقد كان فارقنا خشفًا، ووافنا جلفًا. ونهضت على إثره، ثم قبضت على خصره، وقلت : ألست أبا الفتح؟ ألم نر بك فينا وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ "فأى عجوز لك بسر من را". فضحك إلى، وقال:

ويحــك هــذا الــزمان زور	فــلا يغــرنك الغــرور
لا تلــتزم حالــة ولكــن	در باللــيالى كمــا تــدور

ولقد كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ – ٣٩٨هـ، ٩٦٩ – ١٠٠٧م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثًا أدبيًا جديدًا فى الأدب العربى.

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها. ونزعة القصة فيها، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الإسكندرى وراويتها عيسى بن هشام، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل شخصية الساسانى أبى الفتح البطل.

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتانًا شديدًا.

وليس هناك إلا البديع نفسه، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى، وصاحب الفضل فى إنشائها، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦–٥١٦هـ) فى مقدمة مقاماته، فقد جعل ابتداع المقامات راجعًا إلى بديع الزمان، وعلامة همذان، وكذلك جعل الثعالبى فى "اليتيمة" البديع أبا عذرتها، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون منهم مارون عود مثلاً، إذ يقول[1] إن خطة المقامات من عمل البديع، فهو الذى ألبسها هذا الطراز، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام، وعبثًا يحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع.

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول[2]: فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى.

---

(1) ٢٤ "بديع الزمان" لمارون عبود.

(2) ص١٦ "مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته" - مازن مبارك.

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة. ولكن الحصرى صاحب كتاب "زهر الآداب" يذهب فى كتابه[1] إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ)، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك[2] أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة، وإن كان له فضل فى نشأتها، وينفى مؤلف كتاب "بديع الزمان رائد القصة القصيرة" وهو الدكتور مصطفى الشكعة[3] أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع.

ويجعل آخرون البديع محتذيًا حذو أستاذه ابن فارس (٣٩٥هـ) فى رسائله الحوارية.

ويذكر آخرون، ومن بينهم الدكتور شوقى ضيف[4] أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية، ومع جواز ذلك فى المضمون، فإن شكل المقامة الفنى يبقى جديدًا كل الجدة عند البديع : وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى.

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات، ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة، وهذا كله كلام يعوزه الدليل "ولا تنهض به الحجة"[5].

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل : فارسى، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل بديع الزمان، إذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان. فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨هـ/ ١١٦٤م) كما يقول براون، ويؤكد محمد تقى بهار[6] أن المقامة من اختراع البديع، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الادب الفارسى، وأن حميد الدين قلد

---

(1) ١: ٢٣٥ "زهر الآداب"

(2) "النثر الفنى" لزكى مبارك.

(3) ص٢٠٧ "بديع الزمان" للشكعة.

(4) ٢٠ "المقامة" للدكتور شوقى ضيف - طبع دار المعارف.

(5) راجع ١٤٦ "الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى" للمؤلف.

(6) "تاريخ تطور النثر الفارسى" - محمد تقى بهار.

البديع والحريرى فى مقاماته ويذكر الأنورى إعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين.

إن هذه القصة الحوارية القصيرة، ذات المنهج الفنى الملتزم، والصياغة الطريفة، والصنعة الجديدة، والفكرة الساسانية. التى دعيت مقامة، قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى، لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره.

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلاً ساسانيًا هو أبو الفتح الإسكندرى، وهو الذى مثل كل أدوارها، ونهض بجميع فصولها وقام بكل أحداثها.

وشخصية أبى الفتح - كما تبدو من خلال المقامات - شخصية رائعة حقًا، فهو بطل الموقف كله فى المقامة، وهو - كما يصوره الهمذانى - عالم وأديب وشاعر، وهو ناقد بليغ، ومغامر محتال ماهر، مشرد فى الآفاق، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام. وهو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها وعركها وعركته يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية، ويهز الناس بفصاحته وبلاغته.

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية.

أما وصف الإسكندرى الذى لازمه فقد يكون معززًا لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الإسكندر، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الإسكندر.

وقد يناقض ذلك أن أبا الفتح يكرر فى مقاماته قوله "إسكندرية دارى"[1] نسبة إلى الإسكندرية لا إلى الإسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م). ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين، فتكون نسبته إلى الإسكندرية مقصودًا بها إلى الرمز إلى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الإسكندر التى تنسب إلى مدينته.

ويقودنا ذلك إلى التساؤل: أية إسكندرية كان يعنى البديع، وكان ينتسب إليها أبو الفتح الساسانى؟

---

[1] راجع مثلا فى المقامة الأربعين - العلمية - قول البديع :

إسكندرية دارى ... لو قر فيها قرارى

في المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثًا عن نفسه: إني امرؤ من أهل الإسكندرية من الثغور الأموية. وفي المقامة التاسعة والعشرين الحمدانية يقول: من الثغور الأموية والبلاد الإسكندرية ويكرر أبو الفتح نسبته إلى الإسكندرية في مواضع كثيرة أخرى.

فإذا رجعنا إلى ياقوت[1] وجدناه يذكر أن الإسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه، ثم تغيرت أسماؤها بعده، فمنها : إسكندرية مصر، والإسكندرية التي صار اسمها سمرقند، والتي صارت مرو، والتي سمت بعد باسم بلخ، وإسكندرية الأندلس التي على النهر الأعظم – نهر إشبيلية وهي التي رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس في القرن الرابع الهجري عصر البديع إلا أني وجدت رحالة عربيًا في القرن الرابع – هو أبو دلف – يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند، ويقول عنها : إن الخليفة الأموي مقيم بها[2]، فهل كانت هذه المدينة قديمًا تسمى الإسكندرية أيضًا، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر، ويذكر باحث عراقي أن الإسكندرية بين بغداد والحلة[3]، ولكن ما صلتها إذن بالثغور الأموية؟.

ويذهب د. عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة "الآموية" نسبة إلى نهر آموى[4] – جيحون – وبذلك تكون الإسكندرية المقصودة هي مدينة الإسكندر على نهر آموى .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير في بيداء سحيقة.

فمن هو أبو الفتح الإسكندري إذا؟

١ – هناك رأي سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة، كشخصية راوي المقامات عيسى بن هشام، يقول الحريري في مقدمة مقاماته :

كلاهما مجهول لا يعرف "ونكرة لا تتعرف" وهذا ما رجحته منذ عشرين عامًا في كتابي "الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني"[5] ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسي إيوار، فيقول : وضع البديع شخصًا خياليًا ابتكره وسماه أبا الفتح،

---

[1] ١/ ٢٣٥ معجم البلدان.

[2] هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٥/ ٣٠٩ معجم البلدان.

[3] يعد رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري، وهو طارق العوسج، وهو مدرس بمكة المكرمة حاليًا.

[4] ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات د. عزام في كلية الآداب عام ١٩٤٤م.

[5] ص١٤٧ الكتاب المذكور طبع القاهرة ١٩٥٧.

وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات كان شيخًا للبديع، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩هـ) مؤلف تاريخ همذان، وينقل ذلك عنه ياقوت في معجم الأدباء ولعل ذلك وهم ناشيء من قول البديع في مطلع كل مقامة من مقاماته: حدثنا عيسى بن هشام، ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذًا للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث، وأكبر انطباقًا على الموضوع.

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب "بديع الزمان" الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخيًا فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه[١].

٢- وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين "إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية.

وأنا معهم في ذلك. ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبي الفتح بطل المقامات البديعية.

يذهب باحث عراقي[٢] سبق الإشارة إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه، ومن قبل قلت ذلك في كتابي "الحياة الأدبية في الأندلس والعصر العباسي الثاني"[٣] حيث ذكرت أنه قد يكون في حياة أبي الفتح شيء من صفات البديع نفسه، وشيء من أخلاقه. ولكني أخالف ذلك اليوم، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل.

ويذهب باحث آخر[٤] إلى أن الكدية أو الساسانية التي كانت صناعة أبي الفتح "نجد من أعلامها في عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة: كابن الحجاج (تـ ٣٩١هـ)، وابن سكرة (تـ ٣٨٥) وأبي الورد، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبي حيان التوحيدي، بل البديع نفسه، ومن يشبهه كل الشبه كأبي دلف والأحنف العكبري" .. ومجمل هذا الرأي أن أشباه أبي الفتح الإسكندري كثيرون في عصر البديع، وأن أقربهم شبهًا به هو أبو دلف والأحنف. وهذا الرأي لا يأتي لنا بجديد ولا بأمر مؤكد في البحث على أية حال، فلم يجزم هذا الباحث برأي معين له.

---

(١) بديع الزمان ص٣٣٢.

(٢) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريري.

(٣) ١٥٧ و١٥٨ الكتاب المذكور.

(٤) ص٢٣٤ "الأدب في ظل بني بويه" للزهيري – طبع مصر ١٩٤٩.

٣- ورأيى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع، وهو أبو دلف الخزرجى وحده.

وهذا الرأى لا يسبقنى فيه باحث، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع .. ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى "يتيمة الدهر"[١] قال:

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف، ونسبه فى بعض المقامات إلى أبى الفتح الإسكندرى.

ويحـــك هـــذا الـــزمان زور	فـــلا يغـــرنك الغـــرور[٢]
لا تلـــتزم حالـــة ولكـــن	در باللـــيالى كمـــا تـــدور

ومع هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

١- أنشد البديع الثعالبى شعرًا لأبى دلف.
٢- وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته إلى أبى الفتح، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع.
٣- كان البديع راوية لشعر أبى دلف، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم.

وإذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات، وكنى عنه بأبى الفتح، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى شخص أبى الفتح الإسكندرى، ولأن شهرة وتجارب أبى دلف كانت تصلح معينًا يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان.

بل إنى أضيف إلى أن ذلك أن البديع الهمذانى حين سمع قصص أبى دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه فى البلاد واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره فى مجالس الملوك والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساسًا لفن جديد ابتكره وسماه "المقامة"، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب

---

(١) ٣: ٢٥٤ اليتمة .

(٢) هذا الشعر فى المقامة القريضية إحدى مقامات البديع.

الذكى بابتكار فن المقاومة فى الأدب العربى، فى القرن الرابع، وفى عصر أبى دلف.

-٤-

وقد أطلعت بعد نشر هذا الرأى والانتهاء منه بزمن على دليل آخر يؤيدنى فى هذه القضية، ففى كتاب "النماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة يقول مؤلفه د. محمد غنيمى هلال ما نصه:

على أن ثمة شخصية تاريخية واقعية استملى منها الهمذانى نموذجه الأدبى وهو الشاعر أبو دلف، وكان معاصرًا لبديع الزمان، وكان بديع الزمان يعجب به ويستدعيه إلى مجلسه، ويحسن إليه ويحفظ من شعره، والجانب الواقعى من أبى دلف قد أمد - دون ريب - بديع الزمان بالمادة الغفل لمقاماته ماثلة فى شخصية الشاعر المذكور وأدبه، وقد ترك هذا الجانب الواقعى كذلك أثرًا فى تصوير باطن نفسى لنموذج أبى الفتح.

ومع ما فى هذه الجملة القصيرة من ذهاب إلى ما قلناه، من أن شخصية أبى دلف هى شخصية أبى الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع، فإن فيها على قصرها أخطاء كثيرة هى:

أولاً : قوله : وكان - أى أبو دلف - معاصرًا لبديع الزمان.

فإن الأولى أن يقال : وكان البديع معاصرًا لأبى دلف لأن أبا دلف كان قد بلغ الستين على حين كان البديع ابن عامين، وكان أبو دلف نديم الملوك ومسامرهم ومحدثهم، والذى تفتح له أبوابهم دون حجاب.

ثانيًا : قوله : وكان - أى بديع الزمان يستدعيه - أى أبا دلف - إلى مجلسه أليس الأولى العكس، أيستقيم أن يذهب شيخ عظيم كبير السن إلى شاب صغير.

ثالثًا : قوله : وكان أى البديع - يحسن إليه، أى إلى أبى دلف. أبو دلف العظيم محدث الملوك وطرفة الدنيا، أكان فى حاجة إلى إحسان شاب صغير فقير.. كلا فقد كان أبو دلف فى ثراء مما ناله من عطاء الملوك ورفدهم عندما كان البديع لا يزال شابًا مجدًا طالبًا للشهرة وللمال معًا.

ألوان من شعر البديع الهمذاني:

قال يمدح أحد أمراء :

طــــربًا لقـــد رق الظـــلا	م ورق أنفـــاس الصـــباح
وســرى إلى القلــب العلــيل	علـــيل أنفـــاس الـــرياح
وملـــيحة تـــرنو بـــنر	جســة وتبســم عـــن أقـــاح
قامـــت وقـــد بـــرد الحـــلى	تمــيس فــى ثــنى الوشـــاح
تشـــدو وكـــل غـــنائها	بـــرد عـــلى كــبد الوشـــاح
ياليـل هــل لــك مــن صبا	ح أم لـــنجمك مـــن بـــراح
ســـأريق مـــاء شـــبيبتى	مـــا بـــين ريحـــان وراح
فـــيم العـــتاب ولا لهـــم	غـــيرى ولا لهـــم صـــلاحى
ولعـــاذلاتى فـــى الملـــيـ	ـحة عـــاذلاتك فـــى الســماح
وهـــواى للبـــيض الصـــبا	ح هـــواك للبـــيض الصـــفاح
وولـــوع كفـــى بـــالقدا	ح ولـــوع كفـــك بالـــرماح
وعلـــيك إدمـــان الـــندى	وعـــلى إدمـــان امـــتداحى
فلـــيعل رأيـــك إنـــه	يلـــوى يـــد القـــدر المـــتاح
وأفخـــر فـــإنك فـــى الملـــو	ك لـــك المعـــلى فـــى القـــداح

وقال يمدح السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى صاحب السندو خراسان، المتوفى سنة ٤٢١. وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته، ويتعرف حركاته وسكناته، ويهنئه بفتوحاته .. ومما قال فى مدحه قصيدة شهيرة هى :

تعـــالى الله مـــا شـــاء	وزاد الله إيمـــــانى
أأفـــريدون فـــى الـــتاج	أم الإســـكندر الـــثانى
أم الرحـــبة قـــد عـــادت	إليـــنا بســـليمان
أظلـــت شمـــس محمـــود	عـــلى أنجـــم ســـامان
وأمســـى أهـــل بهـــرام	عبـــيدًا لابـــن خاقـــان
إذا مـــا ركـــب الفـــيل	لحـــرب أو لمـــيدان
رأت عيـــناك ســـلطانًا	عـــلى منكـــب شـــيطان
فمـــن واســـطة الهـــند	إلى ســـاحة جـــرجان
ومـــن قاصـــية الســـند	إلى أقصـــى خراســـان
عـــلى مقتـــبل العمـــر	وفـــى مفتـــتح الشـــان

فيوما رسل الشاه ... ويوما رسل الخان
فما يغرب بالمغرب ... عن طاعتك اثنان
لك السرج إذا شنت ... على كاهل كيوان
أيا والي بغداد ... ويا صاحب غمدان
تأمل مائتى فيل ... على سبعة[1] أركان
يقلبن أساطين ... ويلعبن بثعبان[2]

وقال يمدح ابن فريغون من الأمراء :

ألم تر أنى فى نهضتى ... لقيت المنى والغنى والأميرا
ولما التقينا شممت الترا ... ب وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما ... ن يعلو سحابًا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون فى المكرما ... ت يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم ... رأيت نعيما وملكا كبيرا

ومما قاله فى مدح بنى ميكال الفضلاء :

يا غلام الكأس فاليأ ... س من الناس مريح
يا بنى ميكال والجو ... لعلاتى مريح
شرفا إن مجال الفضل ... فيكم لفسيح
وعلى قدر سنا الممدوح ... ح يأتيك المديح
فهناك الشرف الأر ... فع والطرف الطموح

ومن جيد مدحه قوله :

وكان يحكيك صوب الغيث منسكبًا ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت ... والليث لو لم يصدو البحر لو عذبا

---

(1) أراد بالسبعة أركان الجيش وهي القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة.
(2) الغرض من الثعبان هو خرطوم الفيلة لأنه يشبه الثعبان فى طوله وتلويه.

أبو القاسم الحريرى البصرى

٤٤٦ – ٥١٦هـ

كان أديبا فاضلاً نحويا منشئًا، ومن مصنفاته درة الغواص فى أوهام الخواص، وملحة الإعراب وشرحها والمقامات المشهورة، وجاء بها إلى بغداد وادعاها فلم يصدقه أدباؤها. وهذه المصنفات مطبوعة ومشهورة، وكان يقول نقلاً عن شيخه: إذا قلت ماأسود زيدا وما اسمر عمرا وما اصفر هذا الطائر وما ابيض هذه الحمامة وما احمر هذه الفرس فسدت كل مسألة منها من وجه وصحت من وجه، فيفسد جميعها إذا أردت التعجب من الألوان، وتصح جميعها إذا أردت التعجب من سودد زيد وسمر عمرو وهو الحديث بالليل خاصة، ومن صفير الطائر وكثرة بيض الحمامة ومن حمر الفرس وهو أن ينتن فوها .. ومن شعره:

ولما تعامى الدهر وهو أبو الورى عن الرشد فى أنحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل إنى أخو العمى ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

وتوفى سنة ٥١٦ ببنى حرام من البصرة، وقد شرح الشريشى المتوفى عام ٦٥٢هـ مقامات الحريرى شرحا واسعًا وترجم ابن خلكان للحريرى، فقال : هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصر الحرامى، كان أحد أئمة عصره، ورزق الحظوة التامة فى عمله المقامات، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب فى لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته .. وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله قال : كان أبى جالسا فى مسجد بنى حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر رث الحال فسيح الكلام حسن العبارة، فسألته الجماعة من أين الشيخ؟ فقال : من سروج، فاستخبروه عن كنيته، فقال : أبو زيد، فعمل أبى المقامة الثامنة والأربعين المعروفة بالحرامية، وعزاها إلى أبى زيد المذكور، واشتهرت، فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أبو شروان بن خالد بن محمد الفاشانى وزير الإمام المسترشد بالله، فلما وقف عليها أعجبته، فأشار على والدى أن يضم إليها غيرها فأتمها خمسين مقامة، وإلى الوزير المذكور أشار الحريرى فى خطبة المقامات بقوله: "فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم، إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع. وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع". هكذا وجدته فى عدة تواريخ، ثم رأيت فى بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات،

وجميعها بخط مصنفها الحريرى، وقد كتب أيضًا بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبى الحسن على بن أبى العز على بن صدقة وزير المسترشد أيضًا، ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف، والله أعلم، وتوفى الوزير المذكور فى رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فهذا كان مستنده فى نسبته إلى أبى زيد السروجي. وذكر القاضى الأكرم كمال الدين أبو الحسن على بن يوسف الشيبانى القفطى وزير حلب فى كتابه الذى سماه "إنباه الرواة على أنباء النحاة" أن أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سلار، وكان بصريا نحويا لغويا، وصحب الحريرى واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به. وروى عنه القاضى أبو الفتح محمد بن أحمد بن المندارى "ملحة الأعراب" للحريرى وذكر أنه سمعها منه عن الحريرى، وقال قدم علينا واسط فى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة،فسمعتها منه وتوجه منها مصعدا إلى بغداد فوصلها، وأقام بها مدة يسيرة وتوفى بها رحمه الله تعالى، كذا ذكره السمعانى فى الذيل، والعماد فى الخريدة وقال : لقبه فخر الدين وتولى صدرية المشان، ومات بها بعد عام أربعين وخمسمائة، وأما تسمية الراوى لها بالحرث بن همام، فإنما عنى به نفسه، هكذا وقفت عليه فى بعض شروح المقامات، وهو مأخوذ من قول النبىﷺ : "كلكم حارث وكلكم همام"، فالحارث الكاسب، والهمام الكثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره.

وقد اعتنى بشرحها خلق كثير، فمنهم من طول ومنهم من اختصر، ورأيت فى بعض المجاميع أن الحريرى لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة، حملها من البصرة إلى بغداد، وأبداها، فلم يصدقه فى ذلك جماعة من أدباء بغداد وقالوا: إنها ليست من تصانيفه، بل هى لرجل مغربى من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته، فقال أنا رجل منشىء، فاقترح عليه إنشاء رسالة فى واقعة عينها، فأخذ الدواة والورقة وانفرد فى ناحية من الديوان ومكث زمانا كثيرا فلم يفتح الله عليه بشىء من ذلك فقام وهو خجلان، وكان فى جملة من أنكر دعواه فى عملها أبو القاسم على بن أفلح الشاعر، فلما لم يعمل الحريرى الرسالة التى اقترحها عليه الوزير أنشد هذين البيتين، وقيل إنهما لأبى محمد بن أحمد المعروف بابن جكينا الحريمى البغدادى الشاعر وهما :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما ... رماه وسط الديوان بالخرس

وللحريرى تآليف حسان، منها درة الغواص فى أوهام الخواص، ومنها ملحة الإعراب المنظومة فى النحو، وله أيضًا شرحها، وله ديوان رسائل، وشعر كثير غير شعره الذى فى المقامات، فمن ذلك قوله وهو معنى حسن:

قال العواذل ما هذا الغرام به ... أما ترى الشعر فى خديه قد نبتا
فقلت والله لو أن المفند لى ... تأمل الرشد فى عينيه ما ثبتا
ومن أقام بأرض وهى مجدبة ... فكيف يرحل عنها والربيع أتى

ومنه ما ذكره عماد الدين الأصبهانى فى كتاب الخريدة:

كم ظباء بحاجر ... فتنت بالمحاجر
ونفوس نفائس ... حدرت بالمحادر
وتثنى الخاطر ... هاج وجد الخاطر
وعذار لأجله ... عاذلى عاد عاذرى
وشجون تضافرت ... عند كشف الضفائر

وله قصائد استعمل فيها التجنيس كثيرا، ويحكى أنه كان دميما قبيح المنظر، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئا؛ فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريرى ذلك؛ فلما التمس منه أن يملى عليه قال له اكتب :

ما أنت أول سار غره قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيرى إننى رجل ... مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

فخجل الرجل وانصرف. وكانت ولادة الحريرى فى سنة ست وأربعين وأربعمائة؛ وتوفى سنة عشر وقيل خمس أو ست عشرة وخمسمائة بالبصرة.

ألوان جديدة من الأدب
فى العصر العباسى

ظهر فى العصر العباسى الكبير كثير من الألوان والفنون الأدبية الجديدة: وفى مقدمتها :

١- أدب المقامة.
٢- الأدب الصوفى.

٣- أدب الزهد.
٤- أدب السخرية كما نراه في :"رسالة التربيع والتدوير" للجاحظ ؛ وفي قصائد ابن الرومي وغيره من الشعراء.
٥- أدب القصة الخيالية : كما في رسالة الغفران وغيرها.
٦- أدب الحكمة المزدوجة بألوان عميقة من الفلسفة والتفكير العقلي.
٧- أدب النقد والموازنة الأدبية.
٨- النقد الاجتماعي.
٩- أدب الطبيعة.
١٠- أدب السمر والقصة.
١١- أدب الخطابة الدينية.
١٢- أدب الغلمان بما يشتمل عليه من غزل بالمذكر وسواه.

وهذه الألوان العديدة، قد عرضنا لها في ثنايا فصول هذا الكتاب، والذي لم نتعرض له منها فلأنه موضوع بحوث مستقلة، ستنشر في كتب أخرى غير هذا الكتاب.

وإني في غنى عن أن أقول : إن العصر العباسي قد أحدث آثارا عميقة في الأدب، ووجهه توجيهًا جديدًا، ودراسة ذلك كله هي التي حفزتني إلى إخراج هذا الكتاب، وسيحفزني لإخراج كتب أخرى مكملة لبحوثه، ومتممة لدراساته، إذا وفق الله، وسدد الخطى، وأرشدنا إلى سواء السبيل.

القسم السابع

صور من الأدب العباسي

صور من الأدب العباسى

-١-

دخل رجل[١] بدوى عليه شعث السفر، على داود[٢] المهلبى - وكان إذا حضر الطعام يتقدم بصرف البوابين، ولا يمنع من الوصول إلى طعامه - فلما فرغ من الطعام وثب قائمًا وأومى إليه، وقال : من أنت يا فتى ؟ قال : شاعر، قصدتك بأبيات من الشعر. قال داود: مهلا قليلا، ثم دعا بقوس فأوترها[٣]، وأومى إليه وقال له: قل، فإن أنت أحسنت خلعت وأجزلت، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع فى أى موضع يقع فيه، فتبسم البدوى، وقال :

أمنت بداود وجود يمينه	من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداود نبوة	ولا حدثانا إن شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف	وملك سليمان وصدق أبى ذر
فتى تهرب الأموال من جود كفه	كما يهرب الشيطان من ليلة القدر
فقوسك قوس الجود والوتر الندى	وسهمك فيه الموت فاقتل به فقرى

فضحك داود ورمى بسهمه مع القوس من يده، وقال : يا فتى العرب، بالله هل كان ذكر القوس فى الأبيات ؟ فقال : لا والله ! ففرح بذلك، وقال . يا فتى العرب بالله أيهما أحب إليك : أعطيك على قدرك أم على قدرى؟ قال : بل على قدرى قال : كم على قدرك؟ قال : مائة ألف درهم، فأمر له بها، ثم قال : ما منعك أن تقول على قدرى؟ فقال : أيها الأمير، أردت أن أقول ذلك. فإذا الأرض لم تساو قدر الأمير، فطلبت على قدرى! فقال : لله درك! والله إن نثرك لأحسن من نظمك! وأمر له بمائة ألف ثانية، وأمره ألا ينقطع عنه.

---

[١] المختار من نوادر الأخبار - مخطوط.

[٢] هو داود بن زيد بن حاتم المهلبى . كان واليا على إفريقية. ثم ولاه الرشيد السند. فاتسقت له أمورها. واستمر بها إلى أن توفى سنة ٢٠٥هـ.

[٣] أوتر قوسه : جعل لها وترا.

وقال العتابي: كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكي أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر، وفينا فتى[1] يحدثنا ونجتمع إليه؛ فبينما هو ذات يوم قاعد إذ أقبل إليه غلام له! فقال له: يا مولاى؛ أخرجتنى من بين أبوى، وزعمت أن لك صلة بالملوك، فقد صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال. فإن رأيت أن تأذن لى فانصرف إلى أبوى فعلت! فاغرورقت عينا الفتى، ثم قال : ائتنى بدواة وقرطاس، فأتاه بهما فقعد؛ فكتب رقعة، ثم قام إلى مجلسه، ثم قال للغلام: انصرف إلى وقت رجوعى إليك. فبينما نحن كذلك إذ جاء رجل يستأذن على الفضل، فقام إليه الفتى، فقال : توصل رقعتى هذه إلى الأمير؟ قال : وما فى رقعتك؟ قال : أمدح نفسي، وأحث الأمير على قبولي، قال: هذه حاجة لك دون الأمير، فإن رأيت أن تعفينى فعلت! قال: قد فعلت. فعاد إلى مجلسه، فخرج الحاجب فقام إليه، فقال له مثل مقالته الأولى. فاستظرفه الحاجب، وقال : إن رجلا يمدح نفسه ولا يمدح الفضل عجيب! فأخذ منه الرقعة فلوحبا للفضل، فقرأ منها سطرين، وهو مستلق على فراشه، ثم استوى قاعدًا، وتناول الرقعة، فقرأها، فلما فرغ قال للحاجب: أين صاحب الرقعة؟ قال: أعز الله الأمير: والله لا أعرفه لكثرة من بالباب؛ فقال الفضل أنا أنبذد لك الساعة: يا غلام! اصعد القصر: فناد أين مادح نفسه؟ فقام الغلام فصاح؛ فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء! فلما مثل بين يدى الفضل، قال له: أنت القائل ما فيها؟ قال: نعم قال : أنشدنى، فأنشأ الفتى يقول:

أنا من بغية[3] الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريـ ... ـشة مما يكون تحت الجناح[2]
لى فى النحو فطنة واتقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلم ... بقول منور الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعر ... وقول النسيب والأمداح
وظريف الحديث فى كل فن ... وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا ... هو عند الملوك كالتفاح

---

[1] الأوراق للصولى ص٤.

[2] الشاعر المفلق : المبدع، وأخف الريش وأدقه ما يكون تحت الجناح، وأراد بالخفة خفة الروح.

[3] من بغيته مطالبه، يريد أن الأمير لو اصطنعه واصطفاه لرأى فيه خيرا كثيرا. وقد عدد مزايا نفسه فى البيتين بعده.

فبمثــلى تخلــو الملــوك وتــلهو وتــناجي فــى المشــكل الفــداح
أيمــن الــناس طائــرا يــوم صــيد لغـــدو دعيـــت أو لـــرواح
أبصــر الــناس بالجواهــر والخــيل وبالخـــرد الحســـان الصـــباح
كــل ذا قــد جمعــت والحمــد لله عــلى أنــنى ظــريف المــزاح
لســت بالناســك المشــمر ثوبــيه ولا المـــاجن الخلـــيع الوقـــاح
إن رمــى بــى الأمــير أصــلحه الله رماحـــا ثلمـــت حـــد الـــرماح
مـــا أنـــا واهـــن ولا مســـتكين لســوى أمــر ســيدى ذى الســماح

حتى أتى على آخرها. فقال له الفضل :

كاتــب، حاســب، خطيــب، أديــب، ناصـــح زائـــد عـــلى النصـــاح؟!

قال : نعم! أصلح الله الأمير، فقال الفضل: يا غلام، الكتب التى وردت من فارس! فأتى بها، فقال للفتى : خذها فاقرأها وأجب عنها، فجلس بين يدى الفضل يكتب، فقال لـه الحاجب: اعتزل يكن خيرا لك! فقال : ههنا الرأى أجمع بحيث الرغبة والرهبة. فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل، فكأنما شق عن قلبه، فقال الفضل: يا غلام، بدرة، بدرة، فقال الفتى للغلام: أعز الله الأمير، دنانير أو دراهم، قال: دراهم! قال : دنانير يا غلام! فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل: احملها بارك الله لك فيها. قال الفتى : والله - أيها الأمير - ما أنا بحمال وما للحمل خلقت! فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه يحملها على أن الغلام لى! فأشار الفضل إلى بعض الغلمان، فأشار الفتى إليه: مكانك! ثم قال: إن رأى الأمير - أيده الله أن يجعل الخيار إلى فى الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل. فقال: اختر! فاختار من أحسنهم غلاما؛ فقال : احمل، فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى، فاستفظع الفضل ذلك، وقال : ويلك! استقلالاً؟ قال : لا - والله - أيدك الله ولقد أكثرت، ولكن أسفًا أن الأرض توارى مثلك! قال الفضل : هذا أجود من الأول، يا غلام، زده كسوة!

-٣-

كان داود بن يزيد[1] بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسًا واحدًا، فيقصدونه لذلك اليوم وينشدونه، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته التى أولها:

---

(1) أمير من الشجعان العقلاء ولاه الرشيد السند وتوفى فيها سنة ٢٠٥هـ.

لا تدع بي الشوق إني غير معمود — نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد[1]

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقهم عقب خروجهم عنه، فتقدم إلى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه، ثم قال: استأذن لي على الأمير؛ قال : ومن أنت؟ قال شاعر، قال : قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام، فقال له : ويحك! إني قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع، فقال : هات حتى أسمع، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه؛ فأنشده بعض القصيدة، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف، فدخل على داود فقال له: قدم على الأمير شاعر بشعر ما قالت العرب مثله، فقال : أدخل قائله! فلما مثل بين يديه سلم، وقال: قدمت على الأمير – أعزه الله – بمدح يسمعه، فيعلم تقدمي على غيري ممن امتدحه؛ فقال : هات! فلما افتتح القصيدة وقال : "لا تدع بي الشوق" استوى جالسا، وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر، ثم رفع رأسه إليه، فقال : أهذا شعرك؟ قال: نعم أيها الأمير! قال : في كم قلته يا فتى؟ قال: في أربعة أشهر أبقاك الله، قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسنا، وقد اتهمتك لجودة شعرك وخمول ذكرك، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر في مثله، وأمرت بالإجراء عليك فإن جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك، فقال: أو الإقالة – أعز الله الأمير – قال: قد أقلتك؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره، فقال : أنا ابن حاتم! إنك لما افتتحت شعره فقلت : لا تدع بي الشوق إني غير معمود[2] سمعت كلام مسلم يناديني، فأجبت نداءه واستويت جالسًا؛ ثم قال: يا غلام: أعطه عشرة آلاف درهم، واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم!

-٤-

خرج مسلم[3] بن الوليد ذات يوم، فلقي زيد بن منصور الحميري بباب الرشيد. فسلم؛ فرد عليه السلام، ورحب به، وسأله عن شأنه فخبره، وسأله أن يقربه من الخليفة. وأن يحتال حتى يعد في ممازحيه، ومن يجري عليه أرزاقه! فقال له الحميري. سأتأتى لوصولك إلى أمير المؤمنين!

---

[1] أي لا تدعني مشتاقا، وسأله دعبل عن معنى ذلك، فقال لا تدعني صريع الغواني. فلست كذلك، وكان لهذا اللقب كارهًا، والمعمود: المشغوف عشقا. والهيف الضامرات الخصور، وامرأة رعديدة: يترجرج لحمها من نعمتها وكذلك الرخصة الناعمة.

[2] انظر القصيدة في عصر المأمون ص٢٨٢ ج٢.

[3] المحاسن والمساوئ ص٢٥٣ طبع ليزج.

فدخل الحميرى فأصاب أمير المؤمنين لقس[1] النفس. قد اشتمل عليه الفكر فى سرعة تقضى أمور الدنيا، وأنه لا يتشبث منها بشىء إلا كان كالظل الزائل، والسراب الخادع! فقال له جعفر بن يحيى : يا أمير المؤمنين أفتظن أن هذا الفكر يحبس عليك الأيام، ويمنعك مما لا تستمتع به، إنما هذا الذى أنت فيه عارض عرض لك، وقد كان ملك من الملوك حكيمًا، يقول: الهم مفسدة للنفس، ومضلة للفهم، ومدهشة للقلب؛ ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه!

وقال له سليمان بن أبى جعفر : يا أمير المؤمنين، قد قال لقمان الحكيم : من يملك يستأثر، ومن لا يستشر يندم، والهم نصف الهرم؛ والفقر الموت الأكبر. فكأن الرشيد نشط، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم إليه الحميرى، وقال: يا أمير المؤمنين، خلفت بالباب آنفا رجلا من أخوالك الأنصار متقدما فى شعره وأدبه وظرفه، أنشدنى قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ولعبه ومحادثته إخوانه، ويذكر مجالس اتصلت له، بأبلغ قول وأحسن وصف وأقرب رصف، يبعث والله على الصبابة والفرح، ويباعد عن الهم والترح، وكأنه قد وفق - بيمن أمير المؤمنين، وسعادة جده - لأن يكون مبرئا من هذه الشكوى، زائدا فى سرور أمير المؤمنين، مستدعيا له صلة رحمه، والتشرف بخدمته.

فاستفزه السرور والقلق إلى دخوله، واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم فى إثر بعض، حتى دخل، وكان حلو الشمائل، فوصل إليه فى وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرته، ولم يكن فى عداد من قد اضطرب سنا، وكان - ناهيك من رجل - معه فهم وتجربة وتمييز ومعرفة، فأمهل حتى سكن، ثم أذن له فى الجلوس، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التى يقول فيها:

أديرا على الكأس لا تشربا قبلى ... ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى[2]
فما جزعى أنى أموت صبابة ... ولكن على من لا يحل لها قتلى
أحب التى صدت وقالت لتربها: ... دعيه، الثريا منه أقرب من وصلى!
بلى ربما وكلت عينى بنظرة ... إليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلى ... فلم يدر ما بى، واسترحت من العذل

---

[1] لقس النفس : لقست نفسه من الشئ : غثت وخبثت.
[2] الذحل : الثأر.

إلى أن قال :

إذا مـا علـت مـنا ذؤابـة واحـد ... تمشت بـه مشى المقيد فـى الوحـل
فـلا نحـن متـنا موتـة الدهـر بغـتة ... ولا هـى عـادت بعـد عـل[1] ولا نهـل
سـأنقاد للـذات متـبع الهـوى ... لأمضـى همـا أو أصيب فـتى مثـلى
هـل العـيش إلا أن تـروح مـع الصـبا ... وتغدو صريح الكأس والأعين النجل؟

فجعل الرشيد يتطاول لها، ويستحسن ما حكاه من وصف شراب ولهو وغزل وسهولة ألفاظ، فأمر له بمال، وأمر أن يتخذ لـه مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسماه يومئذ - بآخر بيت من شعره - صريع الغوانى!

-٥-

كان هارون الرشيد[2] يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم، وكان مسلم بن الوليد - صريع الغواني - قد رمى عنده بالتشيع، فأمر بطلبه، فهرب منه، ثم أمر بطلب أنس بن أبى شيخ كاتب البرامكة، فهرب منه، ثم وجد هو ومسلم بن الوليد عند قينة ببغداد. فلما أتى بهما، قيل له: يا أمير المؤمنين؛ قد أتى بالرجلين! قال : أى الرجلين؟ قيل أنس بن أبى شيخ، ومسلم بن الوليد. فقال الحمد لله الذى أظفرنى بهما، يا غلام أحضرهما، فلما دخلا عليه نظر إلى مسلم، وقد تغير لونه، فرق له، وقال : إيه يا مسلم، أنت القائل :

أنس الهوى ببنى على فى الحشا ... وأراه يطمح عن بنى العباس

قال : بل أنا الذى أقول - يا أمير المؤمنين:

أنس الهوى ببنى العمومة فى الحشا ... مستوحشا من سائر الأناس[3]
وإذا تكاملت الفضائل كنتم ... أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب هارون الرشيد من سرعة بديهته، وقال له بعض جلسائه : استبقه يا أمير المؤمنين، فإنه من أشعر الناس، وامتحنه فسترى منه عجبًا! فقال له : قل شيئا فى أنس فقال: يا أمير المؤمنين؛ أفرخ[4] روعى أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك، فإنى لم أدخل على خليفة قط، ثم أنشأ يقول:

---

(1) العل : الشرب بعد الشرب تباعا، أو الشربة الثانية، والنهل محركة أول الشرب.
(2) العقد الفريد ص٤٢٩ ج١.
(3) الأناس : الناس.
(4) أذهب روعى وفزعى.

تلمظ[1] السيف من شوق إلى أنس — فالموت يلحظ والأقدار تنتظر
فليس يبلغ منه ما يؤمله — حتى يؤامر فيه رأيك القدر
أمضى من الموت، يعفو عند قدرته — وليس للموت عفو حين يقتدر

فأجلسه هارون وراء ظهره، لئلا يرى ما هم به، حتى إذا فرغ من قتل أنس قال له: أنشدني أشعر شعر لك، فكلما فرغ من قصيدة قال : التي تقول فيها "الوحل" فإني رويتها وأنا صغير، فأنشده شعره الذي أوله:

أديرا على الراح لا تشربا قبلي — ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي[2]

حتى انتهى إلى قوله:

إذا ما علت منا ذؤابة شارب — تمشت بنا مشي المقيد في الوحل

فضحك هارون، وقال : عليك! أما رضيت أن قيدته حتى يمشي في الوحل: ثم أمر له بجائزة وخلى سبيله.

-٦-

قال على بن جبلة في القاسم بن عيسى

المنايا في مقانبه[3] — والعطايا في ذرا حجره
ملك تندى أنامله — كانبلاج النوء عن مطره
مستهل عن مواهبه — كابتسام الروض عن زهره
جبل عزت مناكبه — أمنت عدنان في نفره
إنما الدنيا أبو دلف — بين مبداه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف — ولت الدنيا على أثره
كل من في الأرض من عرب — بين باديه إلى حضره
مستعير منه مكرمة — يكتسيها يوم مفتخره

فغضب المأمون واغتاظ، وقال : لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه، ثم قال: اطلبوه حيث كان، فطلب فلم يقدر عليه، ولما اتصل به الخبر هرب إلى

---

[1] أصل التلمظ تحريك اللسان في الفم كأنه يتتبع بقية الطعام بين أسنانه، ويقال تلمظت الحية: إذا أخرجت لسانها لتلمظ الأكل.

[2] الذحل : الثأر.

[3] المقانب ، جمع مقنب وهو جماعة الخيل تغير .

الجزيرة، فكتب إلى الآفاق في طلبه، فهرب من الجزيرة إلى الشام، وظفروا به هناك، وأخذوا وحمل إلى المأمون، ولما وصل إليه سبه وقال له: أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كل من في الأرض من عرب	بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة	يكتسيها يوم مفتخره

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أمير المؤمنين، أنتم أهل بيت لا يقاس بكم أحد، لأن الله جل وعز فضلكم على خلقه، واختاركم لنفسه، وإنما عنيت بقولي في القاسم أشكال القاسم وأقرانه، فقال: والله ما استثنيت أحدًا، ولست استحل دمك لذاك، ولكني أستحله بقولك وكفرك في شعرك، حيث تقول القول الذي أشركت فيه:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها	وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد	إلا قضيت بأرزاق وآجال

كذبت، وما يقدر على ذلك أحد إلا الله عز وجل، الملك الواحد القهار، ثم أمر بعقابه!

-٧-

وقال الكسائي[1] دخلت على الرشيد، فلما قضيت حق التسليم والدعاء، وثبت للقيام، فقال : اقعد، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لي: يا علي، ألا تحب أن ترى محمدًا وعبد الله[2]؟ قلت: ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين! فأمر بإحضارهما فلم ألبث أن أقبلا ككوكبي أفق، يزينهما هدوء ووقار، وقد غضا أبصارهما، وقاربا خطوهما، حتى وقفا على باب المجلس، فسلما على أبيهما بالخلافة، ثم قالا تمم الله على أمير المؤمنين نعمه، وشفعها بشكره، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة، ولا كدر عليه منه ما صفا، فقد صرت للمسلمين ثقة، إليك يفزعون في أمورهم، ويقصدون في حوائجهم، فأمرهما بالدنو منه، فصير محمدًا عن

---

(1) المسعودي ص٢٧١ ج٢، معجم الأدباء ص١٧٣ ج١٣، المحاسن والمساوئ ص٤٤٠، والكسائي اسمه علي بن حمزة وأصله من فارس، أشهر نحاة الكوفة وأحد القراء السبعة. استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم. وألف كثيرا من الكتب في النحو والقراءات والأدب والنوادر. وتوفي سنة ١٨٩هـ.

(2) محمد الأمين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد.

يمينه وعبد الله عن يساره، ثم التفت إلى فقال : يا علي، مازلت ساهرا مفكرًا في معاني أبيات قد خفيت علي .. قلت : إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها فأنشدني:

قد قلت قولا للغراب إذ حجل   عليك بالقود المسانيف الأول

تغد ما شئت على غير عجل

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلت من خيبر، وعليها التمر، يقع الغراب على آخر العير، فيطردها السواق، يقول هذا: تقدم إلى أوائل العير، فكل على غير عجل، والقود، الطوال الأعناق والمسانيف، المقدمة .. ثم أنشدني:

لعمري لئن عشرت من خشية الردى   نهاق الحمار إنني لجهول

قلت : نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر أكب على أربع وعشر تعشير الحمار، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمى خيبر .. ثم أنشدني قول الآخر:

أجاعل أنت بيقورا[1] مضرمة   ذريعة لك بين الله والمطر

قلت : نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدت العشر[2] والسلع، وهما ضربان من النبت، في أذناب البقر وألهبوا فيه النار، وشردوا البقر تفاؤلا بالبرق والمطر ثم أنشدني لرجل آخر:

وسرب ملاح قد رأيت وجوههم   إناث أدانيه، ذكور أواخره

قلت : إنه يعن الأضراس .. ثم أنشدني لآخر:

فإني إذن كالثور يضرب جنبه   إذا لم يعف شربا وعافت صواحبه

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أوردت البقر الماء، فشربت الثيران وأبت البقر ضربت الثيران حتى تشرب البقر، وهو كما قال : كالثور يضرب لما عافت البقر ثم أنشدني :

ومنحدر من رأس برقاء حطه   مخافة بين أو حبيب مزايل

قلت : نعم ، يعني الدموع، والبرقاء: العين، لأن فيها سوادا وبياضا، وحطه : أساله، وحبيب : محبوب، ومزايل: مفارق، فوثب الرشيد فجذبني إلى صدره، وقال : لله در أهل الأدب! ثم دعا بجارية، فقال لها : احملي إلى منزل الكسائي خمس بدر

---

(1) اسم جمع لبقرة.

(2) شجر لم يقتدح الناس في أجود منه.

على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته، ثم قال لى : استنشدهما - يعنى ابنيه - فأنشدنى محمد الأمين:

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى ... وتارك شكل لا يوافقه شكلى
وشكلى شكل لا يقوم بمثله ... من الناس إلا كل ذى نيقة[1] مثلى
ولى نيقة فى المجد والبذل لم يكن ... تأنقها فيما مضى أحد قبلى
وأجعل مالى دون عرضى جنة ... لنفسى واستغنى بما كان من فضلى

وأنشدنى عبد الله المأمون :

بكرت تلومك مطلع الفجر ... ولقد تلوم بغير ما تدرى
ما إن ملكت مصيبة نزلت ... إذ لا يحكم[2] طائعا أمرى
ملك الملوك على مقتدر ... يعطى إذا ما شاء من يسر
فلرب مغتبط بمرزئة ... ومفجع بنوائب الدهر
ومكاشح لى قد مددت له ... نحرًا بلا ضرع[3] ولا غمر
حتى يقول لنفسه لهفًا : ... فى أى مذهب غاية أجرى
وترى قناتى حين يغمزها ... غمز الثقاف بطيئة الكسر

ثم أمرنى أن أسألهما، ففعلت، فما سألتهما عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه، فسر بذلك الرشيد، حتى تبينته فيه، ثم قال : يا على، كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت، يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر :

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة ... يزينهما عرق كريم ومحتد
يسدان آفاق السماء بشيمة ... يؤيدها حزم وعضب مهند
سليلى أمير المؤمنين وحائزى ... مواريث ما أبقى النبى محمد

يا أمير المؤمنين، هما فرع زكا أصله، وطاب مغرسه، وتمكنت فى الثرى عروقه، وعذبت مشاربه، أبوهما ملك أغر نافذ الأمر، واسع العلم، عظيم الحلم، فهما يستضيئان بنوره، وينطقان بلسانه، ويتقلبان فى سعادته، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما، فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء، وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب[4] منهما لسانا، ولا أعذب كلاما، ولا أحسن ألفاظا، ولا أشد

---

(1) النيقة : اسم من تنوق فى الأمر : تجود وتأنق فيه.
(2) حكم الأمر : أحكمه.
(3) الضرع : من ضرع . إذا ذل وخضع، والغمر، من لم يجرب الأمور وبالتحريك الحقد.
(4) الذرب : الحديد اللسان.

اقتدارا على تأدية ما حفظا ورويا، ودعوت لهما دعاء كثيرا. وأمن الرشيد على دعائي.. ثم ضمهما إليه، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره، رقة عليهما وإشفاقا، ثم أمرهما بالخروج. فلما خرجا أقبل علي، فقال: كأنك بهما – وقد حم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وبلغ الكتاب أجله وانتهى الأمر إلى وقته المحدود، وحينه المسطور الذى لا يدفعه دافع، ولا يمنع منه مانع – قد تشتت أمرهما، وافترقت كلمتهما، وظهر تعاديهما، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء، وتكثر القتلى، وتهتك ستور النساء.

– ٨ –

حكى أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايني الفقيه الشافعي[1]، قال : كنت يوما عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضي أبو الحسن[2]، فأعظمه وأجله، ورفع من منزلته، وخلى ما كان بيده من القصص والرقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف. ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم، فلم يعظمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يوقع بها، فجلس قليلا، وسأله أمرًا فقضاه، ثم انصرف. قال أبو حامد: فتقدمت إليه، وقلت له: أصلح الله الوزير! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون، وهو الأمثل[3] الأفضل منهما، وإنما أبو الحسن شاعر، فقال لي: إذا انصرف الناس، وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة، قال : وكنت مجمعا على الانصراف، فجاءني أمر لم يكن في الحسبان فدعت الضرورة لملازمة المجلس إلى أن تقوض الناس واحدا فواحدا، فلما لم يبق إلا غلمانه وحجابه دعا بالطعام، فلما أكلنا وغسل يده وانصرف عنه أكثر غلمانه، ولم يبق عنده غيري، قال لخادم له:

هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام، وأمرتك أن تجعلهما في السفط[4] الفلاني، فأحضرهما فقال : هذا كتاب الرضي، اتصل بي أنه قد ولد له ولد فأنفذت إليه ألف دينار، وقلت : هذه للقابلة – فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلانهم، وذوي مودتهم مثل هذا في هذه الحال، فردها، وكتب إلى هذا

---

[1] ابن أبي الحديد ص١٣ ج١.

[2] هو أبو الحسن محمد بن الطاهر، كان أبوه نقيب الطالبين، وصارت إليه النقابة وأبوه حي، أجمع النقاد على أنه أشعر قريش، وكان عالما بعلوم القرآن واللغة والنحو، وله فيها المؤلفات النافعة – ٣٥٩ - ٤٠٦هـ.

[3] فلان أمثل بني فلان : أي أدناهم للخير.

[4] السفط : الجوالق، أو كالقفة.

الكتاب، فاقرأه. قال : فقرأته، وهو اعتذار عن الرد، وفي جملته : إننا - أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا، ولسن ممن يأخذن أجرة. ولا يقبلن صلة. قال : فهذا ، هذا ، وأما المرتضى فإننا كنا قد وزعنا وقسطنا[1] على الأملاك تقسيطًا نصرفه فى حفر فوهة النهر المعروفة بنهر عيسى، فأصاب ملكا للشريف المرتضى عشرون درهما، وقد كتب إلى منذ أيام فى هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه، فقرأته، وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والطلب والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم على أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه. قال فخر الملك: فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل : هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحد، ونفسه هذه النفس، أم ذلك الذى لم يشتهر إلا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس؟ فقلت : وفق الله الوزير، فمازال موفقًا وما وضع الأمر إلا فى موضعه، ولا أحله إلا فى محله.

-٩-

للطغرائى فى وصف غدير :

عجنا إلى الجزع الذى مد فى ... أرجائه الغيم بساط الزهر
حول غدير ماؤه المنتمى ... إلى نبات المزن يشكو الخصر
لو لاذت الريح سموما به ... لانلقبت وهى نسيم السحر
حصباؤه در، ورضراضه ... سحالة العسجد حول الدرر
وقد كسته الريح من نسجها ... درعا بها يلقى نبال المطر
وألبسته الشمس من صبغها ... نورا به يخطف نور البصر
كأنه المرآة مجلوة ... على بساط أخضر قد نشر

-١٠-

ولابن النبيه المصرى :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ... ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه ... حلوا فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصبـ ... ـر الجميل فقد عفا وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم ... ضمت جوانحه فؤادا موجعا؟
هل من سبيل أن أبث صبابتى ... أو أشتكى بلواى أو أتوجعا؟
إنى لأستحيى كما عودتنى ... لسوى رضاك إليك أن أتشفعا

---

[1] قسط الشيء : فرقه.

خاتمة الكتاب

هذه الدراسات المستفيضية للأدب العباسي، وأصوله، وألوانه، ومذاهبه، وأعلامه، التى يتضمنها هذا الكتاب، أجد نفسي في غنى عن أن أبين للقارئ الواعى المثقف جدتها وأهميتها معا، فإن فى إدراك القارئ الفطن ويقظته ما يغنينى عن ذلك كله.

ولم تقتصر هذه الدراسة على عرض الأدب العباسي وفق المنهج التاريخى في دراسة الأدب، بل إن المنهج النقدى أظهر على الكتاب: بما يشتمل عليه من نقد وموازنة، وتحليل، وشرح وتوجيه، وبيان لخصائص أدب المحدثين وميزاته ومذاهبه.

والأعلام العديدة التى ترجمنا لها فى هذا الكتاب، لم نقتصر فى دراستها على عرض جوانب من حياتها، بل درسناها كقطعة حية من صميم الأدب العباسى المزدهر الحى، المشرق بالأصالة والابتداع.

وكذلك أصول الثقافات التى كونت الأدب العباسي، والعناصر المختلفة التى لونت هذا الأدب، تجد لها إيضاحًا وافيًا فى هذه الدراسات الواسعة .. مع توخي الدقة، والإشارة إلى جميع المصادر، وإلى أصول هذا البحث العديدة.

ولا أجد ما أقوله للقارئ إلا أن هذا الكتاب هو النواة، التى ستنبع منها بحوث جديدة أخرى حول الأدب العباسي، أرجو أن تظهر فى دراسات منوعة فى القريب، بين أيدى القراء، بعون الله.

ولا أملك شيئًا من الأمر إلا أن أكرر ما قلته من أنى لا أعتمد على شيء، إلا على ذوق القارئ المثقف الواعي، ويقظته وعطفه. وبالله التوفيق، ومنه السداد، وهو عوني، نعم المولى، ونعم النصير ..

المؤلف

الفهرس